

العصر المماليكي

في مصر والشام

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح غايشور

أستاذ تاريخ العمود الوسطى المساعد
كلية الآداب — جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧٦

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الحافظ ثروت — القاهرة



العصر المماليكي

في مصر والشام

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عايش

أستاذ تاريخ المصرون الوسطى المساعد
كلية الآداب — جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧٦

الناشر

دار النهضة العربية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

٣٢ شارع عبد الحاق روت — القاهرة

وزارة الدفاع والرياسة
لصاحب: محمد عبدالرازق
كنيسة الأرمين في الجديش
شماره ٩٨٠٩٣٤

عصر النهضة العربية

مقدمة

التاريخ دول ؛ وتاريخ مصر العريق حافل بالعديد الدول التي تعاقبت في حكمها . وبين هذه الدول العديدة التي زخر بها التاريخ المصري في العصور القديمة والوسطى والحديثة ، تحتل دولة المماليك مكانة خاصة بارزة تجعل من عصر سلاطين المماليك عصراً جديراً بمزيد من الدراسة والبحث والتحصيل . هذا بالإضافة إلى أن الأحداث الخارجية والداخلية التي ارتبطت بذلك العصر لا تعكس أهميتها على تاريخ مصر والشام فحسب ، بل على تاريخ الشرق الأدنى عامة في العصور الوسطى ؛ فضلاً عن التيارات العالمية الكبرى - اقتصادية وغير اقتصادية - التي ارتبطت ارتباطاً مباشراً بتاريخ المماليك في مصر والشام .

وإذا نحن ذكرنا تاريخ المماليك ، فإننا يجب أن نذكر تلك الأعداء من الجنسيات الأوروبية والآسيوية المتباينة الذين أتوا فرادى أو جماعات صغيرة ، بعضهم من الترك والجركس والتتار والصينيين ، والبعض الآخر من الصقالبة واليونانيين والأسبان والألمان ... حملهم تهمج الرقيق صفاراً إلى بلاد غير بلادهم ليشتبوا في أرض جديدة وعلى ديانة جديدة ويصبحوا نواة الحكم وأداة الحكم وقوة المستقبل التي قدر لها أن تسيطر على مصائر البلاد والعباد أكثر من قرنين ونصف من الزمان .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك في تاريخ الشرق الأدنى ، فإننا يجب أن نذكر آيات البطولة التي أبدتها تلك الدماء الجديدة في الدفاع عن الوطن العربي ضد الأخطار الكبرى التي هددته من جانب التتار حينئذٍ ومن جانب

الصليبيين والغرب الأوربي أحياناً . وما زالت أسماء مواقع عين جالوت
ومرج الصفر من ناحية ، والمنصورة وفارسكور وأنطاكية وطارابلس وعكا
وخير وكيتا من ناحية أخرى ؛ ما زالت هذه الأسماء حية في التاريخ تنطق
بالبطولة والشجاعة والفداء .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك ، فإننا يجب ألا ننسى ذلك النشاط الديني
والعلمي الخصب الذي صاحب انتقال الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة ،
والذي ظهر أثره وتردد صده في مصر والشام جميعاً ؛ فنحرص على المبالغة
في إحياء شعائر الدين والاهتمام بإقامة المنشآت الدينية وإقبال منقطع النظير
على حياة الزهد والتصوف ... إلى رغبة جامعة في التعليم والتعلم ونشاط ليس
له مثيل في ميدان الكتابة والتأليف ، حتى أننا مازلنا عاجزين حتى الآن
عن نشر مئات الموسوعات والمخطوطات التي ألقت في عصر المماليك في مختلف
ألوان المعرفة والتي تكتظ بها دور الكتب في العالم أجمع ، مشرقة ومفربة .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك ، فإننا يجب أن نذكر أنه العصر الذي
خذت فيه مصر والشام قصبة التجارة العالمية ، والمعبر الرئيسي لتجارة الشرق
في طريقها إلى الغرب ، الأمر الذي يجعلنا نفكر في ضوئه تلك الثروة الواسعة
التي تمتع بها المماليك ، وذلك الأثر الضخم وما ارتبط به من مظاهر السعة
والأبهة الذي انصنف به عصرهم . وما زالت مخلفات وآثار المماليك من جوامع
شامخة ، وقصور فخمة ، ومصنوعات فنية دقيقة ؛ فضلاً عما حفلت به مراجع
العصر المماليكي من وصف لحياة المماليك ، وما فاض به مجتمعهم من ألوان
البذخ والغنى العريض ... ما زال ذلك شاهداً على أن ثمة موارد مالية
إضافية ضخمة تمتع بها الحكام في ذلك العصر وأصاب المحكومون
بعضاً من فتاتها .

وهكذا يبدو أن عصر المماليك ليس عصراً عادياً من العصور الهادئة أو الحامدة في التاريخ ، وإنما هو عصر حركة دائمة ونشاط دائم : في الخارج حروب وتوسع وانتصارات ترتب عليها تأمين الوطن العربي في الشرق الأدنى . . . وفي الداخل حياة صاخبة حافلة بالتيارات الاقتصادية والدينية والعلمية والاجتماعية . فلا عجب إذا احتلت دولة المماليك مكانة هامة بارزة في التاريخ ، لا تاريخ مصر والشام والشرق الأدنى فحسب ، بل تاريخ العالم أجمع أو آخر العصور الوسطى . وخير شاهد على ذلك ، تلك السفارات العديدة التي قصدت بلاط سلاطين المماليك في القاهرة من قبل ملوك الشرق والغرب جميعاً ، وذلك العدد الضخم من المراسلات والمكاتبات التي كان يتلقاها ديوان الإنشاء بالقاهرة في ذلك العصر من مختلف الحكام ، والتي كان يقوم بالرد عليها وفقاً لتقاليد وقواعد دقيقة معروفة .

والعجيب أنه مع ما لعصر المماليك من أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ مصر والشام من ناحية ، وتاريخ الشرق الأدنى عامة من ناحية ثانية ، وتاريخ العالم في أواخر العصور الوسطى من ناحية ثالثة ، مع ذلك كله فإن المكتبة العربية ما زالت حتى اليوم خلوا من كتاب واحد يعالج تاريخ ذلك العصر في صورة وحدة مترابطة تبدو في إطارها العام ميزات ذلك العصر وخصائصه ومظاهره .

وقد حاولت في هذا الكتاب الجديد أن أسد تلك الثغرة الهامة التي تشكو منها المكتبة العربية ، فحرصت فيه على إعطاء القارئ العربي صورة متكاملة للعصر المملوكي بين سنتي ١٢٥٠ ، ١٥١٧ للميلاد ، وحاولت بقدر الإمكان أن يكون علاجي لتاريخ ذلك العصر إلهاماً علاجياً موضوعياً شاملاً بعيداً عن التفصيلات الثانوية الصغيرة التي لا تخدم التاريخ بقدر ما تفسد عرضه .

ولما كانت المراجع الأولى الأساسية لعصر المماليك مليئة بالمصطلحات الغربية غير المألوفة ، التي لا نجد لكثير منها تفسيراً في القواميس العربية لأنها

(و)

دخلت مع التيارات العديدة غير العربية التي تعرضت لها منطقة الشرق الأدنى في
في العصور الوسطى ؛ فإنني رأيت إنمافاً للفائدة أن أورد في نهاية الكتاب
كشافاً بأهم تلك المصطلحات مع شرحها شرحاً علمياً ، مستعيناً في ذلك
بجهود الأساتذة المتخصصين الذين سبق أن أسهموا في خدمة تاريخ الماليك .

والله أسأل أن يوفقنا فيما ذهبنا إليه من رغبة صادقة في استكمال نواحي
النقص في مكتبتنا العربية .

سعيد عبدالفتاح هاشور

ضاحية المعادي في ٣٠ شعبان ١٣٨٤ هـ
٣ يناير ١٩٦٥ م

عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) محفورة على قطعة من الرخام بالخط النسخ المائلي



الفصل الأول

قيام دولة المماليك في مصر

نشأة نظام المماليك في الدولة العباسية :

المملوك وجمعه ممالك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي « ملك » ، ويقال عبد ملكه بفتح اللام وضمها إذا سبي ومملك دون أبويه . ويدو أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم ، حيث وردت عبارات « ملككت أيمانكم » و « ملكت أيمانهم » و « ملكت يمينك » أكثر من مرة (١) .

ولم يلبث اللفظ أن اتخذ معنى اصطلاحى خاص فى التاريخ الإسلامى ، فأصبح يقصد بالممالك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر فى الحرب أو للشراء من التجار الذين يهلبونهم إلى البلاد الإسلامية حيث يطلبون أثماناً مرتفعة لبضاعتهم .

وكان الخلفاء العباسيون هم أول من استخدم المماليك — أو الرقيق الأبيض — واعتمدوا عليهم فى توطيد نفوذهم . والمعروف أن الدولة العباسية قامت على اكتاف الفرس ، ولكن الخلفاء العباسيين — وبخاصة منذ أيام الخليفة المأمون — أخذوا يخشون ازدياد نفوذ الفرس ويتشككون فىهم ، فلجأوا إلى الإكثار من شراء ممالك من الترك ليعتمدوا عليهم فى دعم نفوذهم وسلطانهم .

(١) انظر مثلاً سورة النساء آيات ٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٩ . وسورة النحل آية ٧١ .
وسورة النور آيات ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨ . وسورة الروم آية ٢٨ . وسورة الأحزاب آية ٥٠ .
(١ — العصر المماليكى)

ولم يلبث أن شاع استخدام المماليك في كثير من أرجاء الدولة الإسلامية، فأدى ضعف الدولة العباسية من جهة ورغبة حكام الولايات في الاستقلال من جهة أخرى إلى اعتمادهم على ما يشترطونه من ممالك في تأليف جيوش يحققون بها مطامعهم . وفي جميع الحالات كان التطور يسير في نفس الطريق تقريباً ؛ فالمماليك الذين يجلبون صفاراً يحفظون بعطف ساداتهم وأسانذتهم فيتمحرون ويزداد نفوذهم حتى يسيطرون على مقاليد الأمور في البلاد التي استوطنوها .

وكانت مصر مثلاً بارزاً لولايات الدولة العباسية التي شهدت هذا التطور نحو ازدياد نفوذ المماليك حتى تملكوا البلاد . فطولون — الذي أسس ابنه أحمد الدولة الطولونية في مصر — كان مملوكاً تركياً آل إلى الخليفة المأمون العباسي . وعندما طمع أحمد بن طولون في الاستقلال بمصر، رأى أن يدعم استقلاله بقوة ضاربة من المماليك الديلمية والأتراك ؛ حتى ذكر ابن أبياس أن ممالك أحمد بن طولون بلغوا أربعة وعشرين ألفاً^(١) . فلما دالت الدولة الطولونية وأسس محمد بن طنجج الأحمدي دولته في مصر سنة ٩٣٥ ، اعتمد هو الآخر على المماليك من الأتراك والديلم حتى بلغت عدة ممالكه ثمانية آلاف مملوك ، على قول أبي المحاسن^(٢) . وإذا كان الخلفاء الفاطميون الأوائل قد اعتمدوا على المغاربة والسودان في تأليف جيوشهم ؛ فإن الخلفاء الأواخر في الدولة الفاطمية — منذ عهد الخليفة المستنصر فصاعداً — أكثروا من الاعتماد على المماليك — الأتراك وغير الترك — وبذلك حافظوا على سياسة الطولونيين والأحمديين في الاعتماد على المماليك . وهكذا حتى قامت الدولة الأيوبية لتفتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق الأدنى والمماليك جميعاً .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٩ ص ٣٧ ،

المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٩٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٦ ، ٥٩ .

ازدياد نفوذ المماليك في عصر الأيوبيين :

والواقع إن العصر الذي أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٩٣ شهد ازدياد أعداد المماليك في مصر والشام ازدياداً كبيراً يستدعي الالتباه . ذلك أن ورثة صلاح الدين - من أبنائه وأخوته وأبناء أخوته - اقتسموا فيما بينهم تلك الدولة الواسعة ، فصارت دمشق ومصر وحلب والكرك وبصرى وبلبك وحمص وحماء ... وغيرها مراكز لإمارات مهمة يحكمها بعض أبناء البيت الأيوبي (١) . ولم يلبث أن دب الخلاف والشقاق بين ورثة صلاح الدين فقامت الحروب فيما بينهم وبين بعض ، كقامت المنازعات فيما بينهم من ناحية وأبناء البيوت القديمة الأخرى التي ظلت تحكم أجزاء من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ، مثل أبناء البيت الزنكي في الموصل وسنجار ، وكيفا وآمد وخر تبرت فضلا عن بني مكان في خلاط ... من ناحية أخرى .

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمّت العلاقات بين حكام مصر والشام عقب وفاة صلاح الدين ، كان لابد لكل أمير من الأمراء أن يكون لنفسه هصبية يعتمد عليها في الاحتفاظ بإمارته أو في تحقيق مطامعه على حساب أمير آخر قريب أو بعيد (٢) . ولم يجد أمراء المسلمين - من أيوبيين وغير أيوبيين - وسيلة يتقوون بها في أوجه خصومهم سوى المماليك - أو الرقيق الأبيض - ، فأكثروا من شرائهم وعنوا بتدريبتهم وتلشأتهم ليسكنوا دونه وسنداً لهم . وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر والنصف الأول من

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح الذي ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ،

ابن واصل : دفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ ،

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) سعيد طاهر : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٢ وما بعدها .

القرن الثالث عشر ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الإمارات والدول الإسلامية في الشرق الأدنى ، ومنها مصر ، وسرعان ما غدا أولئك المماليك كلمة مسموعة في الأحداث والخلافات التي تعرضت لها المنطقة . من ذلك ما تزويه المراجع من أنه عندما توفي الملك العزيز عثمان سلطان مصر في نوفمبر سنة ١١٩٨ ، وتطلع العادل أخو صلاح الدين للاستيلاء على مصر ، خشي المماليك الأسدية والصالحية في مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فوراً واستعدوا الملك الأفضل من حوران وسلموه مقاليد الأمور في مصر في يناير سنة ١١٩٩ (١) .

وخلاصة القول أن سلاطين الأيوبيين وملوكهم دأبوا على شراء مماليك صغار من الرقيق الأبيض وبخاصة من بلاد القفجاق وما وراء النهر . واتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف في وجه خصومهم . وقد ظل أولئك المماليك الأتراك أداة سهلة لينية في أيدي سادتهم الأيوبيين . طالما احتفظ أولئك السادة بقوتهم وهيبتهم . وإلى جموع المماليك بالذات يرجع الفضل في احتفاظ خلفاء صلاح الدين — وبخاصة العادل والكامل — بتفوقهم الحربي في وجه خصومهم من الصليبيين ومنافسيهم من أسراء المسلمين . ولم يلبث أن أصبح المماليك الأداة التي لا غنى عنها للملوك الأيوبيين للاحتفاظ بسلطانهم ، مما أدى إلى تضخم نفوذهم السياسي نتيجة لشعورهم بأهميتهم .

المماليك البحرية :

وقد بلغ من ازدياد نفوذ المماليك السياسي في الدولة الأيوبية في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أنهم دبروا مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثاني

(١) الميرزى : السلوك ، ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ ،

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٥ .

وإحلال الصالح أيوب محله في السلطنة (١) وهكذا أحس السلطان الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩) بفضل المماليك عليه ، وأهميتهم له في توطيد سلطانه والاحتفاظ بملكه ؛ فأكثر من شراء المماليك وعفى بهم غداية فائقة جعلت نفوذهم يتضخم في صورة ملووسة على أيامه . ويرى المؤرخ العيني أن الصالح نجم الدين أيوب جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء المسكر مماليكه ، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دعليوه وسماههم البحرية (٢) .

وقد تعددت التفسيرات لاسم البحرية الذي أطلق على ممالك الصالح أيوب فالرأى القديم الشائع - وهو الأرجح في نظرنا - يقول إن هذه الطائفة سميت بالبحرية نسبة إلى بحر النيل ، حيث أن السلطان الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون مستقراً ومقاماً . وهناك رأى آخر رأى فيه البعض نوعاً من التجديد والرغبة في الخروج على المألوف ، ويقول إن تلك التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يحملون عن طريق البحر صلبة تيجار الرقيق ، ومن ثم سموها بالبحرية .

ومهما يكن من أمر ، فقد ازداد نفوذ المماليك البحرية في عهد الصالح أيوب ازدياداً خطيراً ، بعد أن انفض عن الصالح أعوانه من الأكراد وغيرهم . ولم يلبث أن استغل المماليك البحرية سطوتهم في العبث بمصالح البلاد والعباد ، فأكثروا من الاعتداء على أموال الناس وأرزاقهم ، الأمر الذي دفع بعض الشعراء إلى التنديد بهم وإلى إلقاء تبعه أعمالهم على السلطان الصالح أيوب نفسه ، ومن ذلك قول الشاعر :

(١) الميرزى : السلوك ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوب بفعلته فالناس قد أصبحوا في ضرر أيوب (١)

على أن أولئك الممالك البحرية الذين أسرفوا في العبث بمصالح الناس
واستثاروا غضب الآلهى بعدوانهم وشرهم ، سرعان ما أثبتوا كفايتهم في
التغلب على أكبر خطر ينحدر من خارجيين واجها مصر — بل الوطن الإسلامى في
الشرق الأدنى — حوالى منتصف القرن الثالث عشر ، وهما خطر الصليبيين
وخطر التتار . ذلك أن استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سنة ١٢٤٤
استثار الغرب الأوروبى من جديد ، فخرج لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٤٨
على رأس حملة صليبية كبرى قاصداً مصر . ولم تكن هذه أول حملة صليبية تخرج
من غرب أوروبا بنية الاستيلاء على مصر بالذات ، فقد سبق لمصر قبل ذلك
بثلاثين سنة أن تعرضت لهجوم من جانب الحملة الصليبية الخامسة بزعماء
حفاة برين ولكن حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٩ كانت أعظم خطراً ،
لكونها أكثر عدداً وعدة وأوفر تنظيمًا ، فضلاً عن أنه كان على رأسها ملك
من أعظم ملوك الغرب الأوروبى وأشدهم تديناً وتحمساً للفكرة الصليبية .

ثم إن الظروف التى ظهرت فيها حملة لويس التاسع في الشرق ساعدت على
إكساب تلك الحملة قسطاً من الشهرة بالنسبة لأوضاع مصر الداخلية . ذلك
أن لويس التاسع ورجاله وصلوا إلى شواطئ مصر في الوقت الذى كان السلطان
الصالح نجم الدين أيوب يعاني مرضاً خطيراً ، ولم تكد الأخبار تصل مسامعه عن
قرب تعرض مصر لخطر صليبي حتى حملوه في محفة إلى مصر حيث نزل في

(١) ابن دباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٨٣ .

جمال الدين سرور : الظاهر بعبس ص ٣٨ . ويلاحظ أن الشاعر يشير إلى الآية
الكريمة « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » .

أشهرهم طناح ليرقب الموقف^(١) . وهكذا أتى الصليبيون مصر في وقت كان سلطانها مريضاً لا يقوى على الحركة فغارتهم ، فاستولى لويس التاسع على دمياط في يولييه سنة ١٢٤٩ ، وملكها الفرنج بغير قتال ، . ويقال إن السلطان الصالح أيوب حزن حزناً شديداً لسقوط دمياط في قبضة الصليبيين ووبخ المماليك الأتراك وقائدهم فخر الدين لإهمالهم في الدفاع عنها وقال لهم دما قدرتم تقضون سبابة بين يدي الفرنج ؟ ، وقد تخوف المماليك عندئذ من نوايا الصالح أيوب ، وأرادوا قتله ، ولكن الأمير فخر الدين أفهمهم أن السلطان مريض وأشار عليهم بالتريث فقال لهم : اصبروا عليه فهو على شفا... فإن مات فقد استرحتم منه وإلا فهو بين أيديكم ،^(٢) .

ولم يلبث أن اشتد المرض على الصالح أيوب ، لحمل إلى قلعة المنصورة حيث ظل ينظم شؤون الدفاع وهو على فراش الموت . وفي الوقت الذي شرع الصليبيون في الزحف من دمياط تجاه الجنوب ، توفي الصالح أيوب في المنصورة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩^(٣) .

المماليك البحرية وإزال الهرزيم بالفرنسيين :

جاءت وفاة الصالح أيوب في تلك الظروف الحرجة خسارة جسيمة ، لعدم وجود من يهمل عمله بسرعة في حكم البلاد وفي مواجهة الخطر الناجم عن الغزو الصليبي . وكان للصالح أيوب ابن واحد اسمه تورانشاه ، وهو شاب عديم الخبرة عينه أبوه نائباً عنه في حصن كيفا^(٤) . ولكن شامت الظروف أن تظهر في

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢١٩ (بولان) .

(٢) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٤٦ .

(٤) أبو الحسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٦٤ .

حريم الصالح أيوب امرأة قوية هي أرملة شجر الدر ، التي قدرت خطورة المواقف فأخفت خبر موت زوجها ، وأرسلت تستدعي نور انشاء على عجل من حصن كيفا ، واستمرت المناشير تخرج كل يوم عليها علامة السلطان ، والأدوية والطعام تدخل غرفته كما لو كان حياً (١) .

وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي اتخذتها شجر الدر ، فإن خبر وفاة الصالح أيوب تسرب إلى لويس التاسع الذي رأى أن يسرع بتوجيه ضربته قبل أن يستكمل المسلمون استعداداتهم ويفيقوا من أثر الصدمة التي حلت بهم نتيجة لوفاة الصالح أيوب . وعندما وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع بصر أشموم من فرع دمياط ، وهي النقطة المواجهة للمنصورة ، صار على الصليبيين أن يهبطوا بصر أشموم للوصول إلى المنصورة ومهاجمتها . ولم يعجز لويس عن عبور بصر أشموم ، وعندما اندفعت القوات الصليبية في اتجاه المنصورة وانتهزتها مقدمة الجيش الصليبي فعلا بقيادة روبرت دي أرتوا أخى لويس التاسع (٢) .

وفي تلك المرحلة ظهرت الممالك البحرية على المسرح لينفذوا الموقف . ذلك أن الممالك تركوا الصليبيين يدخلون المنصورة ليقبضوا في أراقتهم ، وعندما انقضت الطائفة التركية من الجهادية والبحرية الصالحية وحملوا على الفرنجة حملة زحف عن وهدمت بليانهم وأفادوا عليهم حرباً عنيفة وقتلوا وإهلاكا ، فكانت عدة القتلى منهم ألفاً وخمسة مائة وثمانون (٣) . وبذلك استطاع الممالك أن يحولوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة وأن يبددوا مخاوف المسلمين ويحيوا فيهم روح الأمل والمقاومة . ثم إن الممالك لم يتركوا الصليبيين يعودون إلى دمياط سالمين ، وإنما طاردوهم حتى أنزلوا بهم هزيمة كبرى عند فارسكور ووقع الجيش الصليبي

(١) ابن واصل : مفرج السكروب ج ٢ ورقة ٣٦٢ - ٣٦٣ (مخطوط) .

(٢) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣) البقي : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

بأكله تقريباً بين أسرى وقتلى . وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه
الذى سبق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن في دار فخر الدين إبراهيم
ابن لقمان (١) .

نهاية الدولة الأيوبية في مصر :

وفي تلك الأثناء وصل المعظم تورانشاه ابن الصالح أيوب إلى مصر في
نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ . أي بعد موقعة المنصورة مباشرة . وقد أعلن تورانشاه
سلطاناً في دمشق ، وهو في طريقه إلى مصر ، دفتيمن الناس بطاعته وترقبوا
خيراً على يديه . ولكن المراجع أجمع على أن السلطان الجديد لم يكن
رجل الساعة ، وعلى أنه جمع بين سوء الحظ والجهل بشؤون الحكم والسياسة ؛
حتى لقد وصفه سبط بن الجوزي بأنه : كان سيئ التدبير والسلوك ذا هوج
وخفة (٢) .

وكان مفروضاً أن يقدر السلطان المعظم تورانشاه الموقف الجديد الذي نهم
عن انتصار المماليك على الصليبيين ، مما جعل المماليك يبدون في صورة أصحاب
الفضل في تخليص البلاد من ذلك الخطر الداهم . ولكن بدلاً من أن يصانع
تورانشاه المماليك ، حسدهم على ما حققوه لأنفسهم من مكانة وكرامة ، وسيطر
عليه شعور بأن المماليك يزاحمون الحكم ويقاسمون سلطانه . ولم يلبث أن أضمر
تورانشاه للمماليك البحرية أمراً . من ذلك ما ترويه المراجع من أنه كان يهرب
الخز ويضرب الشموع المصفوفة أمامه واحدة بعد أخرى حتى تنقطع وهو يردد

(١) الماريزي : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ .

أبو الحسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٩٧ .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ؛ حوادث سنة ٥٦٤٨ .

« هكذا أفعل بالبحرية » ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه (١) .
وليت تورانشاه حفظ الجبل لزوج أبيه شجر الدر ، بل فسى أنها حرس له
ملك أبيه وأنها أرسلت إليه تسديده على عمل من حصن كيفا بعد وفاة الصالح
أيوب ، فاتمها بأنها أخفت ثروة أبيه وأرسل إليها يتهدها ويطلبها بما تحت
يدها من الجواهر ، فدأخلها منه خوف كثير ، وكانت الممالك البحرية .
وهكذا استنار تورانشاه بسياسة الحمقاء الممالك البحرية ، أصحاب القوة الفعلية
في البلاد وتمتد ؛ واكتفى بهجموعة من الندماء كان قد أحضرهم معه من حصن
كيفا ، فوزع عليهم الإقطاعات والوظائف التي حرم منها الممالك .

وكان أن استقر رأى الممالك على التخلص من تورانشاه بالقتل ، واستمعتهم
على ذلك زوجة أبيه شجر الدر التي باتت تفضى على نفسها من غدر تورانشاه
فأرسلت إلى البحرية تقول : « اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم » ، وقد ترعهم
المقاربة بمجموعة من أسراء الممالك على رأسهم بيبرس البندقدارى وفلاون الصالحى
وأقطاى الجمار وأبيك التركمانى . ولم يكذ تورانشاه ينزل بفارسكور فى ٢ مايو
سنة ١٢٥٠ حتى بادره أولئك الأمراء بالسيوف ، ففر تورانشاه ليحتمى بكشك
خفى كان قد أعد لإقامته فى فارسكور . ولما أغلق تورانشاه أبواب الكشك
عليه ، أشعل الممالك النار فيه ، وعندئذ ألقى تورانشاه بنفسه فى النيل وقد
اشتعلت النار فى ثيابه ، وأخذ يسبح طالباً النجاة ، ولكن الممالك لاحقوه
بالنشاب من كل ناحية وهو يصيح : « ما أريد ملكاً ادعوني أرجع إلى الحصن
(كيفا) ، يا مسلمين ! ما فيكم من يهطعننى ويجهزنى ! » (٢) ، ولكن أحداً

(١) المقبرى : السلوك ج ١ ص ٣٥٩ ،

أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٣٧١ .

لم يتم تقديم لجندة تورانشاه ، ذات جريماً غريبةاً محترقاً - على قول المقرئ -
وتركت جثته ملقاة في العراء على شاطئ النيل ثلاثة أيام لا يجرؤ أحد على
دفنه ، حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسي وهند بن ووري في التراب (١) .

وبمقتل تورانشاه انتهى حكم الأيوبيين في مصر .

السلطنة شجر الدر :

غدا المماليك بعد مقتل تورانشاه أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في
شئون البلاد . وقد اختار المماليك شجر الدر - أرملة أستاذ الصالح
أيوب - لتكون سلطنة على البلاد . وكانت شجر الدر جارية تركية الجنس
- وقيل بل أرمينية - اشتراها الملك الصالح أيوب وحظيت عنده ، حتى اعتقها
وتزوجها ولذلك فهي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك ، حتى
اعتبرها المقرئ أولى سلاطين المماليك في مصر ، وأول من ملك مصر من
ملوك الترك المماليك (٢) .

وكانت أولى المشاكل التي واجهت شجر الدر في سلطنتها هي مشكلة
الصليبيين الذين مازالوا يحتلون دمياط . لذلك أخذت شجر الدر تسعى لحل هذه
المشكلة ، فأرسلت الأمير حسام الدين محمد لمفاوضة الملك لويس التاسع - أسير
المنصورة - وتحت تأثير التهديد تم الاتفاق بين المماليك والفرنسيين ، فوافق
الطرف الأول على إطلاق سراح لويس التاسع وجميع أسرى الصليبيين منذ
عهد العادل الأيوبي وذلك مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع الصليبيون نصفها

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٨٩ ،

المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٦٠ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

عاجلاً ، والنصف الآخر بعد ذلك (١) أما الطرف الثاني وهم الفرنسيون فقد وافقوا على إخلاء دمياط والجللاء عن البلاد ؛ كما تمهد لويس بعدم العودة إلى سواحل الإسلام مرة أخرى . وقد تمهد أجل الصالح بعشر سنوات . ولم يلبث أن تسلم المماليك دمياط في ٦ مايو سنة ١٢٥٠ ، وأطلقوا سراح الملك لويس التاسع بعد دفع مقدم الفدية المتفق عليها ، وبذلك كانت مدة استيلاء الصليبيين في تلك المرة على دمياط أحد عشر شهراً وتسعة أيام (٢) .

وعكذا نجحت السلطنة شجر الدر في تخليص البلاد من آثار الخطر الذي تعرضت له في أواخر أيام زوجها الصالح نجم الدين أيوب . على أن ذلك كله لم يكف لتدهيم مركز شجر الدر في أعين المعاصرين ، إذ لا يخفى علينا أن السلطنة الجديدة كانت قبل كل شيء امرأة ، والمسلمون لم يعتادوا في تاريخهم الطويل أن يسلبوا زمام حكمهم لامرأة . ويبدو أن شجر الدر نفسها أحسفت بوضعها الغريب ، الأمر الذي جعلها تسرف في التقرب إلى أهل الدولة ومنعهم الرتب والإقطاعات فضلاً عن أنها خفضت الضرائب عن الرعية لتستميل قلوبهم ؛ وبالجمله فقد ساست الرعية أحسن سياسة (٣) .

ولا أدل على شعور المعاصرين بالحرج من قيام امرأة في حكمهم ، من أن السلطنة شجر الدر حرصت على ألا تبرز اسمها مكشوفاً ، فكانت المراسيم والمناشدات تصدر من القلعة وعليها علامتها « أم خليل » ؛ ونقش اسمها على السكة والنقود في صيغة « المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والددة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين » أما الخطباء فكانوا يقولون في دعاء يوم الجمعة بالمساجد اللهم وأدم سلطان السمر الرفيع والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والددة الملك خليل ، وبعض

(١) Jouiville, p. 194 &

أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٦٣ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٩ .

الخطباء كان يقول - بعد الدعاء للخليفة العباسي - « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح » . وفي جميع هذه الألقاب لا نلمس اسم شجر الدر الأمر الذي يعبر عن شعور الاستحياء وحرص المرأة على عدم كشف اسمها مكنتية بأن تنسب إلى ولدها أو زوجها أو مولاها .

وكانت شجر الدر قد أنجبت من الصالح أيوب ولداً اسمه خليل توفي في صغره ولكنها تمسكت في سلطنتها بلقب « أم خليل » لتتجنب ذكر اسمها في عصر اعتبر اسم المرأة عورة من عوراتها . وربما أحست شجر الدر بأصلها غير الحر ، وبأنها لا تنحدر من شجرة البيت الأيوبي ، وبالتالي فإنها دخيلة على الحكم وليس لها حق شرعي فيه . لذلك حرصت السلطنة شجر الدر على التمسك بلقب « أم خليل الصالحة » لتظهر صلتها بالقوية بالبيت الأيوبي عن طريق ولدها خليل من ناحية وزوجها الصالح أيوب من ناحية أخرى ، وبذلك تضي على سلطتها هائلة من الشرعية تجعل المعاصرين يهرفون النظر عن الحقيقة الكبرى وهي أن مقاليد حكمهم غدت فعلاً في يدى امرأة .

ومع ذلك ، فإن جمع تلك الخيل لم تفلح في دعم موقف السلطنة الجديدة ؛ فرفض الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة والأمراء القيميرية في دمشق أن يخلفوا يمين الولاء والطاعة للسلطنة أم خليل ، وثاروا ثورة الأمراء والملوك الأيوبيين في بلاد الشام عندما سمعوا بمقتل نورانشاه وقيام شجر الدر في الحكم لأنهم وجدوا في ذلك خروجاً للسلطنة من بينهم . ولم يلبث أن انقلب الموقف في بلاد الشام وأصبح من الواضح أن ملوك الأيوبيين سيستخذون موقفاً حازماً هجوماً ضد مصر ، بعد أن استولى الملك السعيد حسن الأيوبي على غزة وقلعة الصبيبة ،

ونار الطوائف بدر الدين لؤلؤ الصالحى نائب الكرك والشوبك ، وملك الملك
المفتى عمر الأيوبي على هذين الحصنين . فى الوقت الذى سلم الأمراء القيسرية
مدينة دمشق إلى صاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز الأيوبي (١) . وبذلك
خرجت بلاد الشام بأكملها من قبضة شجر الدر ، وانقسمت الجبهة الإسلامية
فى الشرق الأدنى مرة أخرى فخذت مصر فى قبضة المماليك وبلاد الشام فى
قبضة الأيوبيين .

ولم يشفع لشجر الدر أنها حاولت عندئذ أن تتمسح فى الخلافة العباسية ،
فتمسكت بقلب المستعصمية ، نصبة إلى الخليفة المستعصم العباسى ؛ بل على
العكس وجد الخليفة العباسى فى بغداد نفسه لا يمكن أن يقر مبدأ قيام امرأة فى
حكم المسلمين ، فبعث من بغداد كتاباً إلى مصر عاب فيه على الأمراء موقفهم ،
وقال لهم عبارته المشهورة : إن كانت الرجال قد عدت عندكم قاهلونا حتى
نسير إليكم رجلاً (٢) .

وهكذا وجدت شجر الدر نفسها فى موقف لا تحسد عليه بعد أن أحاطت
بها مظاهر الكره فى الداخل والخارج ، وجاء قيامها فى الحكم مصحوباً بتمزيق
الوحدة بين مصر والشام ، وهى الوحدة التى ظلت قائمة فى صورة أو أخرى منذ
أيام نور الدين محمود بعد منتصف القرن الثانى عشر . هذا إلى أن المعارضين
لشجر الدر انهمروا بالتفريط مع الصليبيين وأنها المستولة عن إطلاق سراح
لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الذى خرج من مصر ليواصل نشاطه الصليبي
فى بلاد الشام . وللاخروج من ذلك المأزق دخلت شجر الدر نفسها من مملكة
مصر ، فوافقت على الزواج من الأمير عز الدين أيبك - أتابك العسكر -
على أن تترك له وظيفة السلطنة . وكان أن تمت هذه الخطوة فى يوليو سنة ١٢٥٠

(١) القرىزى : السلوك ، ج ١ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) القرىزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٨ .

وبذلك انتهى ههد شجر الدر بعد أن ظلت في الحكم ثمانين يوماً أثبتت فيها
مهارة فائدة وكفاية ممتازة (١) .

السلطانة المصراييك : (١٢٥٠ - ١٢٥٧)

كان عز الدين أيك أحد المماليك الصالحية ، ولسكنه لم يكن من طائفة
المماليك البحريةية ؛ ترقى في خدمة السلطان الطالح أيوب حتى أصبح من الأمراء
وتولى وظيفة الجاشنكير في بلاط السلطان .

وعندما تولت شجر الدر السلطنة صار أيك أتابك العسكر أى قائد
الجيش ، حتى تخرج موقف شجر الدر في الداخل والخارج كما ذكرنا ، وعندئذ
وافق الأمراء على زواج أيك من شجر الدر على أن تصير له السلطنة . وكان
أيك معروفاً بين المماليك بدين وكرم وجودة رأى ، ؛ ولسكن يبدو أن هذا
لم يكن السبب الرئيسى الذى جعل المماليك - ومنهم طائفة البحريةية - يجمعون
على اختياره للسلطنة ، إذ الواقع أنه وجد عندئذ مجموعة من الأمراء الأقوياء
وهؤلاء كانوا يخشون بعضهم بعضاً ، ويخشاهم الناس جميعاً ، قال الناس إلى
أيك : لأنه من أوسط الأمراء ولم يكن من أعيانهم ؛ فى حين أبدى عماء
البحرية - مثل إقطاعى ويبرس وقلاون - اختياره للسلطنة لاعتقادهم
أنه سهل ومضى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكتته ، (٢) ١

على أن الصعاب لم تلبث أن أحاطت بالسلطان الجديد في الداخل والخارج .
وكان أول خطرين تعرض لهما ما خطر الأيوبيين في الشام وخطر البحريةية في مصر .
أما ملوك الأيوبيين في بلاد الشام فقد ظلوا في حالة نقمة وثورة ، وأخذوا

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٩٠ ، المريزى : السلوك ص ٣٦٧ -

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤ .

يجمعون قواهم لغزو مصر والقضاء على دولة المماليك الناشئة. وأما المماليك البحرية، فقد عز عليهم أن يتولى أيك السلطنة وهو ليس بحراً، فثاروا بعد خمسة أيام من إعلان أيك سلطاناً وقالوا: « لا بد لنا من سلطان يكون من بني أيوب يجمع الكل على طاعته » (١). ومن الواضح أن الهدف الحقيقي للبحرية كان استئثارهم لأنفسهم بالحكم، ولم تكن الدعوة لبني أيوب إلا ستاراً يخفون وراءه أطماعهم الحقيقية.

وكان أن وقع الاختيار على صبي صغير من بني أيوب - هو الملك الأشرف موسى - لجمعوا له شريكاً للسلطان الممزن أيك في السلطنة « ليجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أمته ». وهكذا بدت ظاهرة غريبة هي اشتراك سلطانين - الممزن أيك التركاني والأشرف موسى الأيوبي - في حكم مصر فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن المملكتين الأشرف والممزن، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير وجميع الأمور بيد الممزن أيك (٢). وكان الأشرف موسى في السادسة من عمره، الأمر الذي جعل زعماء البحرية - مثل أقباي الجندار وبيبرس البندقداري وبلبان الرشيدى وسنقر الرومى - يرحبون بذلك الطفل، حتى يدبرونه كيفما شاءوا وبأكلون الدنيا به (٣)، على قول أبي المحاسن (٤). أما الممزن أيك فقد رأى في إشراك ذلك الصبي معه وسيلة طيبة لتخدير بني أيوب وتسكين ثورتهم.

ولكن ملوك الأيوبيين بالشام لم تنطل الحيلة عليهم، فقرر الماصريوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق الزحف على الديار المصرية للقضاء على ثورة المماليك (سبتمبر ١٢٥٠) وفي تلك الأثناء أثبت السلطان الممزن أيك أنه أقوى

(١) أبو المحاسن: النجوم ج ٧ ص ٥٠.

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٣٦٩.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٠.

بما ظنه عليه البعض ، فقبض على بعض أمراء المماليك المعروفين بميلهم
للأيوبيين ، وأعلن في القاهرة أن البلاد للخليفة المستعصم باقه العباسي وأن
الملك المعز نائبه فيها (١) . هذا إلى أن أيك خشي حدوث تفاهم بين
الأيوبيين في الشام ولويس التاسع زعيم الصليبيين الذي كان عندئذ قابلاً في
عكا يرقب الموقف ، ولذلك حاول أيك أن يتقرب من الملك الفرنسي بأن
أطلق سراح بعض أسرى الصليبيين الفرنسيين من السجون المصرية . وفي
الوقت نفسه أراد أيك أن يأمن شر هجوم غادر يقوم به لويس التاسع على
مصر لينتار بما حل به من هزيمة في المنصورة ، فأمر أيك بهدم تحصينات
مدينة دمياط و حتى خربت كلها و بحيث آثارها ، وبذلك لا يتمكن الصليبيون
من اتخاذها مرة أخرى قاعدة لهم يهددون منها داخلية البلاد .

أما زعماء البحرية فقد نسوا في تلك الأزمنة مصيبتهم الصغيرة الضيقة ،
وتذكروا العصية المماليكية الكبيرة التي تحمل منهم ومن أيك وبقية المماليك
كتلة واحدة أمام الخطر الأيوبي الذي هدد مستقبل المماليك جميعاً . وهكذا
خرج المعز أيك ومعه المماليك البحرية لدفع الغزاة ، فحلت الهزيمة برجال
المعز أيك ولسكنهم هادوا وانتصروا على الأيوبيين عند العباسية في فبراير
سنة ١٢٥١ ففر الناصر يوسف الأيوبي إلى الشام وعاد المماليك ظافرين
ومعهم الأسرى إلى القاهرة (٢) .

ولم تلبث الخلافة العباسية أن أخذت تمس بخاطر التتار الذين اقتربوا
بزمامة هولاكو من العراق ، وقد رأى الخليفة المستعصم العباسي أن يعمل
بسرعة لتوحيد صفوف المسلمين في الشرق الأدنى ليقفوا صفاً واحداً أمام
خطر المغول الوثنيين ، ولذلك أرسل رسولاً إلى الملك الناصر (يوسف)
صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك المعز (أيك) وأن يتفقا على حرب

(١) الماريزي : السلوك ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أبو القدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) - مصر المماليكية

التتار^(١) . وبفضل هذه الوساطة أمكن الوصول إلى اتفاق بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ، فعمدت اتفاقية بين الطرفين في إبريل سنة ١٢٥٣ وبمقتضاها صار للمماليك مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس والساحل ، على أن تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين^(٢) . ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لها أهميتها في التاريخ لأنها بمثابة الوثيقة التي اعترف فيها بنو أيوب بشرعية سلطنة المماليك في مصر . وكان ذلك في الوقت الذي استغل أيوب فرصة انتصاره على الناصر يوسف الأيوبي عند العباسة من جهة ، وفرصة المخاوف التي عمت نتيجة لخطر التتار من جهة أخرى ، وتخلص من شريكه الصغير الملك الأشرف موسى الأيوبي ؛ لحذف اسمه من الخطبة وقبض عليه وسجنه^(٣) .

على أن الأمور لم تهدأ لأيوب في الداخل بسبب ثورة الأعراب الذين احتقروا المماليك لأصلهم غير الحر ، وأنفوا أن يخضعوا لحكمهم ونادوا بأنهم « أحق بالملك من المماليك وقد كفى أننا خدمنا بني أيوب ؛ وهم خوارج خرجوا على البلاد ، وقد اتخذ تمرد الأعراب شكل ثورة جماعة ، فاختاروا شخصاً زعموا أنه من ذرية علي بن أبي طالب اسمه حصن الدين بن ثعلب ليكون زعيماً لحركتهم . ولكن السلطان المعز أيوب استعان بالبحرية وزعيمهم أقطاي في القضاء على ثورة الأعراب في الشرقية والغربية والمنوفية وغيرها من الجهات ، وقبض على حصن الدين بن ثعلب وقتل كثيراً من أتباعه^(٤) .

ولكن إذا كان أيوب قد نجح في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ . ص ١١٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو الحسن : التجوم ج ٧ ص ١٢ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٨٦ - ٣٨٨ .

التي واجهته بمساعدة المماليك البحريةية ، فإن النتيجة الحتمية لذلك الوضع هي ازدياد نفوذ البحرية وزعيمهم أقطاي حتى أصبح لا مفر من وقوع صدام بينهم وبين أيك . وقد سبق أن أشرنا إلى أن البحرية لم يمانعوا في تولية أيك السلطنة لا اعتقادهم في ضعفه وأنه من الممكن إزالته من طريقهم في سهولة . ولكن الأيام أثبتت خلاف ذلك ، وأظهرت أيك في صورة السلطان القوي الذي نهج في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية التي واجهته خطراً بعد آخر . وأخيراً أفاق أيك ليجد أن جميع الانتصارات التي كسبها مطلوب منه ومن شعب مصر أن يدفع ثمناً غالياً لها ، هو تحمل بطش المماليك البحرية الذين اعتدوا بأنفسهم وبقوتهم ، وساروا إلى القاهرة ومصر أنجس سمرة من العسف بالناس والجور . أما أقطاي زعيم البحرية فقد بلغ درجة من السطوة والنفوذ فاقت سطوة السلطان أيك ونفوذه ، فطنى وتجهز وبغى وتمكبر ... وأمره مطاع في الحقةرة والكبيرة لا يرد له مرسوم ، والملك المعز (أيك) معه باسم الملك لا غير ، (١) وقد بالغ أقطاي في احتقار السلطان أيك فصار لا يسميه إلا أييكا . كما أخذ أقطاي ينتحل لنفسه في مواكبه ومجالسه بعض الشعائر التي كانت من اختصاص السلطان وحده بل إن أصحابه أسموه بالملك الجواد (٢) .

وأخيراً خطب أقطاي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماء ، ثم طلب من المعز أيك أن يسكنها قلعة الجبل ، ليكونها من بنات الملوك ولا يلبق سكنها بالبلد ، وعندئذ أدرك أيك ما يؤول بنفس أقطاي ، لأن قلعة الجبل في ذلك العصر كانت المقر الرسمي للحكم ، فكان معنى طلب أقطاي أن نفسه ، حدثته بالملك . هذا إلى أن زواج أقطاي من أميرة من أميرات البيت الأيوبي كان كفيلاً بأن يجعل له سنداً شرعياً في الحكم ، وهو أمر

(١) ابن أيك : كنز الدرر ج ٨ ق ١ ص ٢٢ (مخطوط) .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١١ .

لما يتوفر لأبيك . لذلك قرر أليك التخلص من أقطاي بالقتل ، فاستدعاه إلى القلعة بحجة استشارته في بعض أموره ، وهناك هاجمه بعض أتباع أليك وهبروه بالسيوف حتى مات ، (١) .

وسرعان ما انتشر خبر مقتل أقطاي في القاهرة ، فاجتمع ببيرس البندقداري وقبلاون الألفي وسنقر الأشقر ويسرى ... وغيرهم من أمراء البحرية تحت أسوار القلعة ومعهم أتباعهم في محاولة يائسة لإنقاذ أقطاي ، ظناً منهم أنه لم يقتل . ولكن أليك ألقى إليهم رأس زعيمهم أقطاي من القلعة وعندئذ أدرك أمراء البحرية أن دورهم آت عن قريب فقرروا الفرار إلى الشام . وعندما علم أليك بنيتهم أغلق أبواب القاهرة في وجوههم ، ولكنهم أحرقوا باب القراطين — الذي عرف بعد ذلك باسم الباب المحروق — وبذلك استطاعوا الفرار إلى الشام (٢) .

وقد بدت تلك الحركة التي اتخذها أليك ضد البحرية وقد خلاصته من خطر جسم ، إذ استطاع أليك أن يقبض على من تبقى من البحرية في القاهرة فقتل بعضهم وحبس البعض الآخر ، وصادر أموالهم ونساءهم وأتباعهم ، ونودي في القاهرة بتهديد كل من أخفى أحداً من البحرية (٣) . على أن الأمر كان في حقيقته أعمق بكثير من ذلك الانتصار الظاهري ، لأن زعماء البحرية الذين فروا إلى الشام لم ينسوا نارهم وظلوا يسبون المتعصبين لأبيك ومن خلفه من السلاطين في مصر ، حتى انتهى الأمر باستئثارهم بالحكم . وكان أن انفصل أمراء البحرية الذين فروا إلى الشام بالناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٩٠ . ويذكر المقرئى أن قطز . الذى ولى السلطنة فيما بعد كان من شاركوا في قتل أقطاي .

(٢) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٩٢ .

وأغروه بفتح مصر ، وفعلاء المواقف بين الناصر يوسف والمعز أيك سنة ١٢٥٦ ، ولكن الأمر انتهى بالصلح بين الطرفين بفضل وساطة الخليفة العباسي (١).

والغريب أن أيك الذي ثبت ذلك الثبات في وجه خصومه في الداخل والخارج ، واستطاع أن يتغلب على جميع ما واجهه من مشا كل متعددة ، جاءت نهايته أخيراً على يد زوجته شجر الدر التي ذاق طعم السلطان وتولت السلطنة فعلاً ثمانين يوماً ، عن عليها بعدها أن تتخلى عن نفوذها وأن يخرج الأمر والنهي من يديها . وقد وصف المؤرخ ابن إياس شجر الدر بأنها د صعبة الخلق قوية البأس ، كما وصفها المؤرخ نفسه بأنها كانت د سكرانة من خمر العجب والتهيه (٢) . وهذا النوع من النساء إذا ذاق طعم السلطان مرة من الصعب أن يتخلى عنه بعد ذلك . ومن الواضح أن شجر الدر عندما قررت الزواج من عز الدين أيك إنما أرادت أن تتظاهر بالتخلي عن السلطنة لترضى شعور المسلمين ولكنها صممت منذ اللحظة الأولى على أن تحتفظ بسلطانها وتتحكم في أيك وشئون الدولة جميعاً . وفعلأ أحكمت شجر الدر سيطرتها على زوجها الجديد السلطان المعز أيك ، فأرغمته على هجر زوجته الأولى أم ولده على ، وحرمت عليه زيارتها هي وابنها ، وبالجملة فقد كانت شجر الدر د مستولية على أيك في جميع أحواله ليس له معها كلام (٣) .

ولم يلبث أن ستم المعز أيك الحياة مع شجر الدر ، وخاف على نفسه من غائلها لاسيما بعد أن أخبره أحد المنجمين أن نهايته ستكون على يد امرأة . وكان

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٢ ،

المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩١ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤ .

أن خطب المعز أيبك ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتزوجها ، ففضيت
شجر الدر لذلك ، وكانت شديدة الغيرة ، وقد أسرعت شجر الدر في تدبير
مؤامرتها ، فأرسلت إلى أيبك - الذي كان قد غادر القلعة في مناظر اللوق -
تسترضيه وتطلب عفوّه ، تخدع أيبك واستجاب لدعوتها وعاد إلى القلعة حيث
احتفت به حفافة بالغة . ولم يكذب أيبك يدخل الحمام في الليل ، حتى انقض
عليه خمسة رجال أهداء أهدتهم شجر الدر ، فقتلوه سنة ١٢٥٧ (١) .

وقد أشاعت شجر الدر أن المعز أيبك مات فجأة أثناء الليل ، ولكن
ماليك أيبك لم يصدقوها وهبوا للنار لاستأذهم فقبضوا على شجر وبعض
أهوانها . ويقال إنه بلغ من صلابة شجر الدر أنها عندما وجدت نفسها أوشكت على
الوقوع في أيدي أعدائها جمعت معظم مالهيا من جواهر ولائها وأتلفتها بأن
كسرتها في الهاون ، حتى لا تتمتع بها ضررتها أم علي بن أيبك من بعدها (٢) .
ولكن ذلك كله لم ينجها من سوء المصير ، فقتلها ماليك أيبك وألقوا بجثتها
من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقمص ، إلى أن دحمت
في قفّة ، ودفنت بعد عدة أيام . وعلى ذلك الوجه انتهت حياة أيبك وشجر الدر
جميعاً (٣) .

السلطان المنصور علي بن أيبك : (١٢٥٧ - ١٢٥٩)

لم يؤمن المماليك بنظام وراثته العرش . ولم يتبعوا هذا النظام عن قصد
كقاعدة ثابتة طوال تاريخهم ، الأمر الذي جعل منصب السلطنة دائماً موضعاً

(١) المبريزي : السلوك ج ١ ص ٤٠٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

(٣) المبريزي : السلوك ج ١ ص ٤٠٤ .

للتنافس والمنازعات بين كبار امراء المماليك عقب وفاة كل سلطان. وكان الذى يحدث عادة عند وفاة سلطان من سلاطين المماليك هو أن يجتمع كبار الامراء ويعينوا ابن السلطان المتوفى فى منصب السلطنة بدلا من أبيه ، لا إيماناً منهم بمبدأ الوراثة ، ولكن كحل مؤقت إلى أن يتجلى الموقف بين الامراء ويظهر الأمير القوى الذى يستطيع أن يثبت تفوقه على بقية الامراء ، وعندئذ يأخذ منصب السلطنة لنفسه بعد عزل من عساه يكون موجوداً من سلالة السلطان الراحل .

وكان هذا هو الموقف فى مصر بعد مقتل السلطان أيبك ، إذ اجتمع كبار الامراء واختاروا ابنه نور الدين على - الذى تلقب بالمنصور - سلطاناً ، وكان فى الخامسة عشرة من عمره . ولم يكن منتظراً من هذا الصبي أن يصمد فى وجه كبار الامراء أو أن يتمكن من مواجهة الاخطار الخارجية التى هددت الوطن العربى فى الشرق الأدنى عندئذ ، وحسب المنصور على بن أيبك أنه كان يقضى وقته فى التهامى بركوب الخيل والطواف بها داخل أسوار القلعة .

وسر هان مظهر التنافس بين كبار الامراء فى الدولة ، فقبض الأمير قطار - الذى كان نائب السلطة وأقوى الامراء نفوذاً فى شئون الدولة - على الأمير علم الدين سنجر الحلبي أنابك العسكر ، وعين بدله فى ذلك المنصب الأمير فارس الدين أقطاي . ثم انتشرت الشائعات بعد ذلك بأن السلطان المنصور على قد تغير على نائبه الأمير قطار وأنه ينوى عزله مع بقية المماليك المعزية ، ولكن بعض الامراء توسطوا بين الطرفين حتى صلح الأمر بين السلطان المنصور على من ناحية والأمير سيف الدين قطار المعزى من ناحية أخرى (١) وهكذا عاشت القاهرة فى تلك الفترة عيشة قلق وعدم استقرار ، وهى المظاهر التى نشأت عن قيام صبي قاصر فى السلطنة

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٢ - ٤٣ .

ومجموعة من الأمراء الأقوياء المتربصين لبعضهم البعض حول كرسی السلطنة .

وفي ذلك الوقت كان المماليك البحريةية الذين فروا إلى الشام في عهد المعز أيبك بعد مقتل كبيرهم أقطاي ، ما زالوا يتحينون الفرص للنار لأنفسهم . ولم ينس زعماء البحريةية بالشام أن السلطان المنصور على إنما هو ابن المعز أيبك الذي أنشأ في تشريدهم ومقتل زعيمهم ، كذلك لم ينسوا أن الأمير قطز نائب السلطنة في مصر إنما كان أحد الأمراء الذين هربوا بسيوفهم على رقبة أقطاي تنفيذاً لأوامر المعز أيبك ، وكانت العلاقة قد ساءت بين الفاضل يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق من ناحية وأمراء البحريةية بالشام من ناحية أخرى ، فاتجه البحريةية إلى الكرك حيث أطمعوا المغيث عمر الأيوبي في ملك مصر (١) . وفعلا استجاب المغيث عمر لدعوة البحريةية فأمدهم بالمال والسلاح وخرج البحريةية متجهين صوب مصر لغزوها . وقد أسرع قطز على رأس الجيش المصري لصد خطر البحريةية ، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة عند الصالحية ، حيث أسر منهم بعض الأمراء مثل قلاون الألفي وبلبان الرشيدى ، وإن كان قد أطلق سراح معظم الأسرى بعد ذلك فعاد قلاون إلى الكرك ليلاحق بأصحابه (٢) .

على أن البحريةية لم يكفوا عن محاولة أخذ مصر بعد ذلك ، فاتهمزوا فرصة الفوضى التي حمت بلاد الشام نتيجة للأخبار المتواترة عن اقتراب خطر المغول ، وزينوا المغيث عمر مرة أخرى الخروج معهم لأخذ مصر . وفي تلك المرة - سنة ١٢٥٨ - خرج المغيث عمر بنفسه صهبة البحريةية ، ولكن الأمير قطز تصدى لغزاة من جديد وأنزل بهم هزيمة أخرى عند الصالحية ، ففر المغيث عمر

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٦ .

إلى السكرك في حين اتجه البحرية إلى الطور حيث اتصلوا بالأكراد الفارين من وجه التتار^(١). ويبدو أن حركات البحرية في ذلك الدور أخافت الناصر يوسف الأيوبي فتهدى لهم وأخذ يطاردهم، وهدد المغيث عمر بتسليم من لديه منهم، وكان ذلك في الوقت الذي اشتد خطر التتار ليهدد الأيوبيين والمماليك جميعاً في الشام ومصر.

ذلك أن الأخبار أخذت تترى - سنة ١٢٥٩ - بوصول التتار بزعامة هولاكو إلى الشام بعد أن أسقطوا الخلافة العباسية في بغداد، ومن ثم عم القلق أهل مصر بعد أن أحسوا باقتراب الخطر منهم. وفي ذلك الموقف الحرج وجد قطز فرصته سانحة لعزل الصبي المنصور على بن أيك والجلوس محله على كرسي السلطنة، فجمع الأعيان والأمراء بالديار المصرية، وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم بطيعة كل أحد، وينتصب للجهاد في التتار. فأجابه الجميع: ليس لها غيرك^(٢)،

وهكذا تم الأمر لقطز، فقبض على المنصور على بن أيك وأخيه قاتان ابن أيك وأمهما، واعتقلهم جميعاً في برج بالقلعة، وتولى هو السلطنة بلقب المظفر في أبريل سنة ١٢٥٩.

(١) أبو الفدا: المختصر ج ٣ ص ١٩٥.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ٥٥.

الفصل الثاني

الممالك والتتار

سقوط القوقاز العباسية في بغداد :

عرفت قارة آسيا في التاريخ بأنها المخزن البشري الضخم الذي خرجت منه غزوات كثيرة في العصور الوسطى لتؤثر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً في أوضاع بلدان الشرق الأدنى حينما ، وبلدان شرق أوروبا ووسطها أحياناً .
ويفسر الباحثون تلك الغزوات التي تدفقت من جوف القارة الآسيوية في العصور الوسطى في ضوء العامل الاقتصادي ، وما يرتبط بهذا العامل من ازدياد السكان وزيادة ضخمة وتناقص الأمطار في بعض الأوقات ، مما يدفع الشعوب الرحوية الآسيوية إلى الهجرة في صورة غزوات هدامة ضخمة ، فتدمر الزرع والضرع وتحرق في طريقها المدن والقرى ، ولا يعنينا في كل ذلك سوى أن تنجو من ألم الجموع وخطر الموت .

ومن تلك الغزوات التي تركت أثراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى بوجه خاص غزوات التتار ، الذين نهج زعيمهم جنكيز خان في توحيد قبائلهم ثم في الاستيلاء على الصين في أوائل القرن الثالث عشر ، ومن ثم غداً التتار قوة رهيبة لم تقنع بالاقليم الوسطى من القارة الآسيوية ، وإنما انطلقت غرباً نحو شرق أوروبا من جهة وغرب آسيا والشرق الأدنى من جهة أخرى ، لتنفس عن طاقتها المكبوتة تعبيراً حربياً عنيفاً واسع النطاق .

وبهمنا من أمر تلك الغزوات المغولية التي شهدتها النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أن منكوك خان - خاقان التتار الأعظم - أوفد أخاه هولاكو

لفتح إيران والشام ومصر وبلاد الروم (السلاجقة) والأرمن . وفعلوا لم يكذب
ينتصف القرن الثالث عشر إلا كان التتار قد قضوا على الدولة الخوارزمية
وسيطروا على إيران ، كما استولوا بعد قليل على قلاع الباطنية في فارس ؛ وبذلك
جاء دور الخلافة العباسية في بغداد (١) . وكانت الخلافة العباسية عندها تنتصف
القرن الثالث عشر - في عهد الخليفة المستعصم بالله - تعاني آلام الموت ؛ بعد
أن عا تراها الضعف الشديد بسبب الانقسامات المذهبية والفتن الداخلية وسيطرة
الأمراء على الخلافة وشؤونها ؛ ولذلك لم تستطع الخلافة العباسية الصمود في وجه
الغزو المغولي للعراق سنة ١٢٥٧ . في الوقت الذي فعلت جهود الخليفة المستعصم
العباسي في توحيد جهود الأيوبيين والمماليك في الشام ومصر لصد ذلك
الخطر (٢) .

وهكذا اقتحم التتار بغداد في فبراير سنة ١٢٥٨ ليقتلوا ثمانمائة ألف من أهلها
في مذبحه رهية استمرت أربعين يوما ، ثم أشعلوا النار في المدينة بعد ذلك
فأنت على كثير من تراث العباسيين - بل تراث الحضارة الإسلامية - في
الآداب والعلوم والفنون . أما الخليفة المستعصم بالله العباسي فقد قتلته التتار في ٣٠
فبراير بعد أن حصلوا منه على كل دما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال
خمسة قرون ، (٣) . ولم يكف التتار بقتل الخليفة العباسي نفسه بل أرادوا
أن يحدوا مذبحه لاستئصال جذور البيت العباسي كله وقضوا على كل شخص
وجده حيا من العباسيين ، (٤)

(١) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ج ٢ ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ .

(٤) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ص ٢٩٤ .

التتار في الشام :

ولا شك في أن وصول التتار إلى العراق واستيلائهم عليه ، وإسقاطهم الخلافة العباسية في بغداد... كل ذلك أحدث هزة عنيفة في العالم الإسلامي بوجه عام والوطن العربي بوجه خاص . وقد أخذ حكام المسلمين وأمرؤهم في البلاد المجاورة يعملون حساباً لليوم المرتقب ، لأنه لم يكن منتظراً أن يقنع المغول بالاستيلاء على العراق وأن تقف غزواتهم وقفة تلقائية عند ذلك الحد ، وهم الذين خرجوا من جوف القارة الآسيوية واستمروا - كلما استولوا على بلد - يتطلعون إلى ما بعده من بلاد .

ويبدو أن أخبار قسوة التتار ووحشيتهم وعنفهم كانت تسبقهم دائماً إلى البلاد التي لم يصلوا إليها بعد ، فيسرع الأمراء والحكام إلى استرضائهم والاستسلام لهم طلباً للسلامة وتجنباً لسوء العواقب . وهكذا أسرع أهالي الحلة والكوفة وواسط في العراق إلى استقبال جندهم ولا كورسله دواقاموا الأفراح ابتهاجاً بقدمهم^(١) وفعل مثل ذلك حاكم الموصل وسليمان سلاجقة الروم ، وغيرهما من حكام البلدان الإسلامية المجاورة .

أما ملوك الأيوبيين وأمرؤهم بالشام فلم يكونوا أحسن حالا ، إذا سارع الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق إلى إعلان خضوعه للتتار فأرسل ابنه العزيز سنة ١٢٥٨ د بتحف وتقادم إلى هولاكو ملك التتر وصانعه له لعله بعجزه عن ملتقى التتر ،^(٢)

على أن تلك المظاهرات من جانب ملوك الأيوبيين جاءت بعد فوات الأوان

(١) رشيد الدين الحمذاني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) أبو القدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٠٧ هـ .

إذ لم يكن إعلان ولاتهم بعد سقوط بغداد ليصرف نظر هولاء عن الشام.
وقد بدأ التتار هجماتهم ضد بني أيوب بالاستيلاء على ميفارقين في ديار بكر ،
وكان يحكمها أحد أمراء الأيوبيين واسمه الكامل محمد ، وعندما استولى التتار
على تلك المدينة ذهبوا من فيها من المسلمين ، في حين قطعوا جسد الكامل
محمد الأيوبي إرباً وحلوا رأسه على حربة ليضاف بها في جميع أنحاء الشام من
حلب إلى دمشق (١) .

أما الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق فلم يشفع له أنه أرسل
ابنه العزيز إلى هولاء ، لأن الأخير تخرج بأن هدم حضور الناصر يوسف
بنفسه إليه واكتفائه بإرسال ابنه يعتبر إهانة شخصية بالنسبة له . ويروى
المقرئ أن العزيز هاد إلى أبيه ومعه رسالة من هولاء كوهصف له فيها ما حل
ببغداد على أيدي التتار ويذره بسوء العاقبة إن لم يستسلم للتتار فوراً دون قيد
أو شرط (٢) . وفي تلك الأزمة لم يجد الناصر يوسف الأيوبي أمامه سوى
المماليك في مصر ، فأرسل إليهم صاحب كمال الدين بن العديم ليطلب معونتهم
لمواجهة خطر التتار ، فوعده المماليك بالمساعدة (٣) .

وهنا يصح أن نشير إلى أن غزو التتار لبلاد المسلمين في الشام اتخذ طابعاً
صليبياً . ذلك أن زوجة هولاء وأمهم كانتا مسيحيتين على المذهب النسطوري ،
الامر الذي جعل هولاء كوهطف على المسيحيين بقدر ما قسا على المسلمين في
الشرق الأدنى . وفي الوقت نفسه وجدت بعض القوى الصليبية في الشرق
الأدنى وفي الغرب الأوربي فرصة طيبة في إمكان تحويل التتار إلى المسيحية
فانصلوا بهم واستأروهم ضد المسلمين . وهناك في المراجع الصليبية المعاصرة

D^r Ohsson : Hist. des Mongols, IU, P. 307 .

(١)

(٢) المقرئ : السلوك من ٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ من ٧٢ - ٧٣ .

ما ثبت أن ملك أرمينية الصغرى المسيحى اتصل بهولا كورسم معه خطة غزو بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليتسلمها المسيحيون (١).

ومهما يكن من أمر ، فإن غزو التتار لبلاد الشام بدأ فعلا سنة ١٢٥٩ ، فتدفقت قواتهم من أذربيجان وكردستان على الجزيرة ، واستولى هولاكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرة ، ومن هناك اتجهت صوب حلب . وقدر فض نائب حلب الاستسلام للتتار ، فاقهحمو المدينة فى يناير سنة ١٢٦٠ واستولوا عليها عنوة ليعملوا فى أهلها قتلا وأسرا (٢) . وسرعان ما انتشرت أخبار ما فعله التتار بحلب فى بقية أنحاء الشام ، فأسرع ملوك الأيوبيين إلى الدخول فى طاعة هولاكو ، فى حين فر الناصر يوسف من دمشق إلى غزة وترك دمشق تلقى مصيرها على أيدي التتار . ولا شك فى أن تخاذل ملوك الأيوبيين أمام التتار واستسلامهم لهم ، وفرارهم أمام ذلك الخطر ، جاء بمثابة تنازل منهم عن ملكهم بعد أن عجزوا عن الدفاع عن ذلك الملك (٣) .

ولم يصعب على هولاكو بعد ذلك الاستيلاء على دمشق فى مارس سنة ١٢٦٠ ، ثم استولى التتار على بقية بلاد الشام فى الأسابيع التالية ، بحيث وصلوا إلى غزة ، وبذلك جاء دور مصر .

الملك المنصور المنصور قطز : (١٢٥٩ - ١٢٦٠)

وفى تلك الأوقات التى شهدت سقوط بلاد الشام فى أيدي التتار ، استغل الأمير قطز خطورة الموقف لمزل على بن أيبك وإعلان نفسه سلطانا ، كاسبق أن أوضحنا وقد وصف المؤرخون للسلطان المنصور قطز بأنه دكان بطلا شجاعا

(١) سعيد هاشور : الحركة الصليبية ج ٢ من ١١٢٣ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٣) Greasset : Hist. des Croisades, Tome III, p587.

مقدماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في
جهاد التتار. (١)

والواقع أن قطز تولى منصب السلطنة في ظروف لا يحسد عليها حاكم، إذ
كان مطالباً بأنه أن يصد الخطر الذي لم تستطع قوة في الشرق الأدنى الصمود في
وجهه. ولم يكد قطز يمتلئ عرش السلطنة حتى حضر إليه رسل هولاء
يطلبون منه الاستسلام وينذكرونه بما فعله المغول وينذكرونه سوء العاقبة إذا
حدثته نفسه بالمقاومة؛ ... فلنكم بجميع البلاد معتبر وعن مننا من دبحر،
فانهطوا بغيركم واسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود
عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم أننا قد
فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب
وعلينا بالطلب. (٢)

ولم يكن قطز لم يهتز لحرب الأعصاب التي دأب التتار على شنها والإفادة
منها. وكان أن جمع السلطان قطز الأمراء واستشارهم في الأمر فقرروا المقاومة
وعدم الاستسلام، وعقدوا أمر قطز بتوسيط رسل التتار - وكانوا أربعة -
فوسط أحدهم بسوق الخيل، والثاني عند باب زويلة، والثالث عند باب النصر
والرابع بالريدانية، ثم علق رؤوسهم جميعاً على باب زويلة (٣).

وفي تلك الأزمة أظهر المماليك البحرية - الذين كانوا أفاضلها -
وجوههم بالشام - روحاً وطنية وحماة نادرة مما كان له أثر كبير في التغلب على
التتار. وذلك أنه منذ أن دخل التتار بلاد الشام، وأمراء البحرية يصرون على
مقاومتهم وعدم الاستسلام لهم. ويقال إن أحد أمراء دمشق - وهو زين الدين

(١) أبو الحسن : النجم الزاهرة ج ٧ ص ٨٤ .

(٢) القرطبي : السلوك ج ١ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

(٣) القرطبي : السلوك ج ١ ص ٤٢٩ .

الحافظي — أظهر تخوفه عندما سمع بزحف التتار على حلب ، وأشار بالاستسلام
لهولاكو والدخول في طاعته ، ولكن الأمير بيبرس البندقداري — وهو أحد
زعماء البحرية — لم يعجبه ذلك القول ، فقام وصفح الأمير الحافظي على وجهه
قائلًا : « أنتم سبب هلاك المسلمين »^(١) وبمثل هذه الروح سار الأمير بيبرس
البندقداري ومعه جملة من أمراء البحرية إلى غزة ، ومن هناك أرسل بيبرس
إلى السلطان المظفر قطز يطلب منه الأمان وتوحيد الكلمة لمواجهة خطر التتار
وقدر حب قطز بتلك الدعوة وطلب من بيبرس الحضور إليه ، وأحسن استقباله
وأقطعهم قليوب وأعمالها^(٢) . وبذلك تماسك المماليك جميعا بحرية وغير بحرية -
وأظهروا روحا طيبة لمواجهة ألدح خطر هدد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى
في القرن الثالث عشر .

موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ :

وفي الوقت الذي أظهر المماليك جميعاً تماسكا عظيما في صد خطر التتار ،
إذا بالظروف نفسها تصاعدهم في التغلب على ذلك الخطر ، ذلك أن منكوخان
حاقان المغول العظيم توفي في أغسطس سنة ١٢٥٩ ، مما أثار نزاعاً بين أخوته
حول اقتسام امبراطورية المغول الواسعة . وعندما سمع هولاكو بوفاة أخيه ،
رأى أن يسرع إلى قراقورم حاضرة التتار في جوف آسيا ، فعاد إليها تاركا قيادة
جيوشه بالشام لقائده كتبغا . ولا شك في أن عودة هولاكو إلى قراقورم ومعه
جزء كبير من جيشه كان لها أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام في الوقت الذي
أخذ السلطان قطز يعددته لمواجهة خطرهم^(٣) .

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤١٩ — ٤٢٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٣) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣٠٨ .

وعندما اكتملت استعدادات السلطان المظفر قطز خرج على رأس جيوشه قاصداً الشام لملاقاة التتار. وقرب الصالحية تردد بعض الأمراء في السير بعد أن تذكروا ما أحاط تحركات التتار من قصص مخيف جعل مقاومتهم ضرباً من العبث في نظر كثير من المعاصرين. ولكن السلطان المظفر قطز هب في أمرائه صائحاً: يا أمراء المسلمين! لكم زمان نأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون. أنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين (١)...

وبمثل هذه الروح واصل الجيش المماليكي زحفه في اتجاه الشام في بداية سنة ١٢٦٠. وكانت مقدمة جيش المماليك بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى الذى أجهه إلى غزة، في الوقت الذى كان كتبغا قد أقام قوة من التتار عند غزة تحت قيادة بيدرا. وقد أرسل بيدرا إلى كتبغا — الذى كان عندئذ فى بعلبك — يعلمه بوصول مقدمة الجيش المماليكى ويطلب منه النجدة، ولكن كتبغا رد عليه قائلا: قف مكانك وانتظر، وأمره بالاحتفاظ بغزة وعدم التخلي عنها لحين وصول الإمدادات إليه. على أن المماليك فوتوا على التتار هزئهم، فبادروهم بالهجوم وهزموا بيدرا واحتلوا غزة وطاردوا المهول حتى نهر العاصى (٢).

وكان لو وصول المماليك إلى فلسطين واحتلالهم غزة رد فعل قوى عند المسلمين فى كافة مدن الشام، إذ أروا فى ذلك النصر بادرة أمل، وتشجعوا على مقاومة التتار (٣). وفى الوقت نفسه أظهر المماليك كياسة وبعد نظراً فلم يحاولوا استنارة الصليبيين وحرصوا على مصالمتهم حتى لا يحاربوا خصمين فى وقت واحد وكان أن أرسل المماليك إلى حكومة عكا الهيكلية يستأذنونها فى السماح لجيوشهم

(١) المقرئى: السلوك ج ٤٢٠.

(٢) رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، ج ١ ص ٣١٣.

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨ هـ.

بعبور الأراضى الصليبية لمحاربة التتار ؛ فوافق الصليبيون على ذلك الطالب (١).

وهكذا سار قطز على رأس الجيش المماليكى بحذاء الساحل ، ومن الممالك بسلام فى أراضى الصليبيين بحذاء عكا ؛ بل إن الصليبيين فى عكا خرجوا إلى السلطان قطز ومعهم التقادم والهدايا دوارادوا أن يسيروا معه نجدة ، فمكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لاله ولا عليه ، (٢) . وبعد أن حصل المماليك فى الأراضى الصليبية على ما لهم من ميرة وموئن ، اتجهوا شرقاً عبر الجليل إلى الأردن عن طريق الناصرة . لاسترداد دمشق من التتار وقد لجأ قطز إلى خدعة حربية ناجحة ، فأخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت - بين يسان ونا بلس - وترك مقدمة الجيش بقيادة يبرس تتابع سيرها وحدها تجاه التتار . وفى تلك الأثناء كان كتيبغا قد وصل د وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب ، فالتقى بالمماليك عند قرية عين جالوت فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ (٣) . وقد أظهر المماليك شجاعة كبيرة فى عين جالوت ؛ حتى يقال إنه حدث عندما اضطربت صفوفهم أن ألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته دوالسلاماء ، وحمل بنفسه على العدو حتى تم القضاء على التتار قضاء تاماً د وولوا الأدبار لابلون على شيء . أما كتيبغا فقد ظل يقاتل فى شجاعة وعناد حتى سقط قتيلاً (٤) .

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ ، نظراً لما ترتب عليها من نتائج خطيرة . فلوانتهصر التتار فى تلك الموقعة لفعلوا

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٥ - ١١٣٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٠ .

(٣) رشيد الدين الممذاني : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٣١ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٩ .

بمصر وأهلها مثلاً فعلوا بالعراق وأهله ، أو على الأقل أقاموا واستقروا بالشام مثلاً أقاموا واستقروا بالعراق ؛ ولمرت بقية البلدان العربية بالشرق الأدنى في دور مظلم حالك طويل تحت حكم التتار مما يترك أثراً بعيداً في تاريخها . ولكن انتصار المماليك في عين جالوت لم ينقذ مصر لحسب من هجمة التتار ، بل أنقذ الشام أيضاً ، لأنهم غدوا ولا مقام لهم بالشام بعد تلك الضربة القاصمة التي نزلت بهم في عين جالوت^(١).

ولكن مع اعترافنا بحسن بلاء المماليك وشجاعتهم في موقعة عين جالوت ، إلا أنه ينبغي ألا نسقط من حسابنا العوامل المساعدة على تحقيق ذلك النصر ، وهي العوامل التي تستر عادة في التاريخ وتحتاج إلى نوع من التقصي لكشف الستار عنها ، ومن هذه العوامل موقف جمهرة الصليبيين بالشام من التتار موقفاً سلبياً ، وعدم محاولتهم استغلال تلك القوة الجديدة لإنزال ضربة قاصمة بالعدو المشترك مثلاً في المسلمين . كذلك كانت عودة هولاكو ومعه معظم جيشه إلى قراقورم ذات أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام ، ولا يخفى علينا أن وجود هولاكو نفسه في المعركة ضد المماليك كان من الممكن أن يؤثر تأثيراً معنوياً خطيراً في نفوس رجاله من التتار وأعدائه من المماليك جميعاً . وأخيراً فإن ثمة حقيقة كثيراً ما يغفلها المشتغلون بالتاريخ . هي أن لكل غزوة أو هجرة - مهما يبلغ عنفها وقوتها - نهاية حتمية ؛ وأن حركات الفزوكالكرة التي تنطلق في أول أمرها في سرعة وقوة ولكن لا تلبث أن تفترق قوة اندفاعها تدريجياً حتى تتوقف تلقائياً ، ولا توجد غزوة في التاريخ استمرت في حالة انطلاق دائم ، وإنما هناك نقطة معينة يجب أن تتوقف عندها نتيجة لظروف عديدة طبيعية وبشرية تفرض عليها ذلك التوقف .

(١) صعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٧

ولا شك أنه بوصول التتار إلى بلاد الشام كانت حركتهم الضخمة قد بلغت نهايتها في ذلك الاتجاه الجنوبي الغربي ، بعد أن طالت خطوط مواصلاتهم وبعثوا كثيراً عن مركزهم الأصلي في جوف القارة الآسيوية ، فضلاً عما استنفدوه من جهد و طاقة نتيجة لاجتياحهم تلك البلدان الفسيحة والمساحات الواسعة حتى وصلوا إلى الشرق الأدنى . وجميع هذه الاعتبارات يجب أن نضعها أمام أعيننا - إلى جانب شجاعة المماليك وحسن بلائهم - عندما نفخر بانتصار عين جالوت .

توحيد مصر والشام :

وثمة أهمية خطيرة لانتصار المماليك على التتار في عين جالوت هي إعادة الوحدة بين مصر والشام ، بعد أن أدى قيام دولة المماليك في مصر وغضب الأيوبيين بالشام ، إلى تمزيق رباط الوحدة التي أجهد كل من نور الدين محمود وصلاح الدين نفسه في بنائها في القرن الثاني عشر ، والتي كان لابد منها لمواجهة الأخطار التي واجهت المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى . وليكن تقاعس ملوك البيت الأيوبي عن صد التتار ونفورهم من الجهاد ، بل واطلاق بعض أبناء البيت الأيوبي مع التتار واشتراكهم معهم في عين جالوت ضد إخوانهم المسلمين ؛ أفقد بنى أيوب أي حق شرعي في الملك وجعلهم يبدون في نظر المعاصرين في صورة القوة المتداعية غير الجديرة بحكم المسلمين .

وفي الوقت نفسه كانت دولة المماليك الناشئة في حاجة إلى دعامات تعتمد عليها في البقاء في الحكم . ولا يخفى علينا أن المماليك الذين استأثروا بحكم مصر في منتصف القرن الثالث عشر كانوا قبل كل شيء مقتصبين للعرش من أصحابه الشرعيين ، فضلاً عن كونهم مجرحين بسبب أصلهم غير الحر . وكان المماليك عند قيام دولتهم في حاجة ماسة إلى القيام بعمل كبير يرضي عليهم نوعاً من

التشريف ويكسب حكمهم قسطاً من الأهمية والشرعية ويجعل حكمهم مستقلاً لدى جماهير المسلمين . وهنا تبدو أهمية انتصار المماليك في عين جالوت ، لأن هذا الانتصار أظهرهم ، في صورة الدرع الواقي للوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ، والقوة الوحيدة التي استطاعت الصمود في وجه خطر التتار ، بل كسر شوكتهم وإنقاذ الشام ومصر من براثنهم .

وهكذا يمكننا القول أنه بانتصار المماليك في عين جالوت حصلوا على ما كان ينقصهم من مجد لا بد منه لتثبيت أركان دولتهم ؛ فليس الناس أصلهم غير الحر ، وتنامسوا أنهم في حقيقة أمرهم مفتقدو العرش من ساداتهم الأيوبيين . ولم يعد الناس يذكرون إلا شيئاً واحداً ، هو أن المماليك أقدموا من التتار ؛ وأن بقاء المماليك في الحكم إنما هو ضرورة لا بد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى ، وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نقرر إن موقعة عين جالوت كانت بمثابة الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك ، فجاءت هذه الموقعة لإدانة بغروب شمس دولة بني أيوب وارتفاع نجم دولة المماليك .

والواقع أن السلطان المظفر قطز صار غداة موقعة عين جالوت سيد الموقف في د بلاد الشام كلها من الفرات إلى حدود مصر ، فلم يبق أمامه من بقايا البيت الأيوبي سوى بعض الشخصيات العجاف التي كانت لا تستطيع الصمود في وجه قاهر التتار . وكان أن عفا قطز عن الأشراف موسى الأيوبي صاحب حمص وأمنه ، وكذلك فعل مع الملك المنصور الثاني صاحب حماة وأقره على حماة وبعين ، كما أعطاه المعرة وكانت بيد الحلبيين^(١) . أما الملك السعيد حسن أمير بانياس والصبية — وهو الذي تواطأ مع التتار وانضم

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٣

لإيهم يوم عين جالوت في محاربة المسلمين — فلم يقبل قطز عذره وأمر بهضرب عنقه فضربت في الحال (١).

ولم يكند يتم انتصار المسلمين على التتار في عين جالوت حتى انتشر الخبر في سرعة مذهلة ، فحملت رأس كتبغا إلى مصر حيث أقيمت الاحتفالات بالنصر في حين فر د نواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم (٢) ثم دخل قطز دمشق دخول الفاتح المظفر ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد يئست من النصر على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا لإقليم إلا فتحوه ولا عسكرياً إلا هزموه (٣).

السلطان الظاهر بيبرس : (١٢٦٠ — ١٢٧٧)

وفي الوقت الذي استعدت القاهرة لاستقبال بطل عين جالوت وأقيمت الزينات في الطرقات والأسواق والحوانيت تحية له وتكريماً لبطولته إذا بالأمور تتطور بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز وقيام بيبرس في السلطنة .

ذلك أن الأمير بيبرس كان يأمل أن يجد من قطز حظاً من التقدير بعدما أبداه من شجاعة في محاربة التتار ، فطلب من قطز أن يولييه نيابة حلب التي كان السلطان قد وعد فعلاً بمنحها إياه (٤) . ولكن قطز امتنع وتمكر للجميل ، وبذلك أظهر قصر نظر واضح لأن المكانة التي أحرزها بيبرس في ذلك الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها لإنسان د ولو كان قطز حكيماً لآلى بيبرس

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٢

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠١

يقينا به حلب ، وبذلك يأمن منافسته له في مصر^(١) . ولا يخفى علينا أن البحرية -
ورمهم بيبرس - لم ينسوا قطز أنه شارك في قتل كبيرهم أقطاي زمن أيك ،
وبمعنى آخر فإن البحرية أحسوا دائما أن لهم ثأرا في عنق قطز ، ولذا
لم يكونوا في حاجة إلى مزيد من التعريض والاستثارة ضد قطز .

وكان أن صمم بيبرس على الانتقام من قطز ، فدبر مؤامرة مع زملائه
من زعماء البحرية لقتل قطز في أول فرصة مناسبة . وسرعان ما حانت الفرصة
عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية في طريقه إلى القاهرة . ذلك أن
قطز أظهر رغبته في الصيد ، فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير بيبرس
وطلب امرأة من سبي التتار ، فأجابه السلطان إلى طلبه وأنعم عليه بما أراد .
وقد تظاهر بيبرس برغبته في تقبيل يد السلطان ، وكانت إشارة بينه وبين
شركائه المتآمرين ، فقبض بيبرس على يد قطز لينمعه من الحركة في حين انهال
عليه بقية أمراء البحرية بسيوفهم ورمحهم وأقوه عن فرسه حتى أجهزوا
عليه . وبمقتل قطز على ذلك الوجه في أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، خلا
الجزء للبحرية وزعيمهم بيبرس^(٢) .

وكان طبيعياً أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز إلى قائله الأمير ركن
الدين بيبرس ، بوصفه أقوى الأمراء البحرية من ناحية وصاحب الفكرة
في قتل قطز من ناحية ثانية ، فضلا عن مواقفه المشرفة في محاربة المغول
من جهة ثالثة . وتروى المراجع أن الأمراء البحرية الذين قتلوا قطز ساروا
بعد تنفيذ مؤامرتهم إلى الدهليز السلطاني بالصالحية ، وقد أجمعوا أمرهم على
سلطنة بيبرس . وعندما قابلهم الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك عند
باب الدهليز ، أخبروه بما فعلوا من قتل السلطان قطز ، وعندئذ سألهم

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٣ - ٣٤

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

الأنابك « من قتله منكم ؟ » فقال بيبرس « أنا » فنظر إليه الأنابك وقال « ياخوند ، اجلس في مرتبة السلطنة ! »^(١) ويمثل هذه السهولة والبساطة حل القتلى محل القتيل ، فاستدعى العسكر في الحال ليحلفوا السلطان الجديد قبل أن نجف دماء ضحيته ، وكان القاضي برهان الدين قد وصل من القاهرة ليستقبل قطاز وبمنشئه بانتصاره في عين جالوت ، فاستدعى القاضي نفسه ليقوم بتحليف العسكر للملك بيبرس الذي تلقب بالملك القاهر .

وبعد أن تمت تلك الإجراءات المبدئية في الصالحية . قال الأمير أقطاي لبيبرس « لاتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل » لذلك أسرع بيبرس ومعه صحبه من الأمراء إلى القاهرة التي كانت قد زينت لاستقبال المظفر قطاز بطل عين جالوت ، فإذا بالمنادى ينادى في طرقات القاهرة « ترحوا على الملك المظفر وادعوا اسلاطناكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ! » وهكذا شق بيبرس طريقه إلى قلعة الجبل ، فلقية الأمير عز الدين أيمن نائب السلطنة وكان قد خرج للقاء قطاز ، فأخبره بيبرس بما حدث ، وعندئذ حلف نائب السلطنة للسلطان الجديد ونقدمه إلى القلعة حيث أعلن الأمراء ولائهم لبيبرس ، واستقر السلطان الجديد في قلعة الجبل قاعدة الحكم في البلاد^(٢).

ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن الوزير زين الدين يعقوب - وكان فاضلا في الأدب وعلم التاريخ - دخل على السلطان بيبرس بالقلعة فأشار عليه بتغيير لقبه « القاهر » وقال له « ما لقب به أحد فأفصح ، لقب به القاهر ابن المعتضد فلم تطل مدته وخلع من الخلافة وسحل ، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم ، لذلك تشامم بيبرس من لقب القاهر وأبطله واتخذ لقباً جديداً هو « الملك الظاهر »^(٣).

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٦

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وبدخول بيمرس قلعة الجبل يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٢٦٠ بدأت صفحة جديدة في تاريخ دولة المماليك . ذلك أن السلطان الظاهر بيمرس أثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام . ومن يتأمل دولة المماليك في الدور الأول من نشأتها يجد أنه تعاقب على عرشها في السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة سلاطين ، مما يدل على حالة القلق وعدم الاستقرار التي تعرضت لها دولة المماليك في ذلك الدور . أما بيمرس فيكفيه أنه شغل كرسي السلطنة سبعة عشر عاماً ، وهي مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وإذا كان السلطان الظاهر بيمرس قد بقي مدة طويلة في الحكم ، فإن ذلك جاء دليلاً على قوته ونجاح سياسته في الحكم من ناحية ، فضلاً عن استقرار الأمور له من ناحية أخرى (١) .

ولم يلبث السلطان الظاهر بيمرس أن وضع لنفسه سياسة واسعة الأفق استهدفت في الخارج صد أخطار التتار والصليبيين من بلاد الشام ونشر نفوذه على شبه الجزيرة العربية والنوبة ؛ وفي الداخل توطيد الأمن والقضاء على الثوار والمناوئين وتخفيف الأعباء الملقاة على كواهل الأهالي ثم وضع قواعد النظام الإداري في مصر والشام في العصر المماليكي ، فضلاً عن القيام بقدر ضخم من الإصلاحات المتنوعة . وهكذا قضى السلطان بيمرس حكمه في حركة دائبة بين مصر والشام يصلح ويجهاد ويثبت أركان دولته ، حتى قال فيه أحد المعاصرين :

يوماً بمصر ويوماً بالهجاز وبالشام يوماً ويوماً في قرى حلب
وفي سبيل تنفيذ سياسته الواسعة النطاق البعيدة الأهداف ؛ لما بيمرس إلى

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيمرس ص ٣٧ .

عدة إجراءات سياسية تدل على ذكائه وفطنته ؛ فهو يحالف مغول القفجاق ليتخذ منهم ستاراً ضد مغول فارس ؛ ويحالف الدولة البيزنطية أو امبراطورية الروم ليجعل منها عضداً له في سياسته ضد الصليبيين بالشام ؛ ويحيي الخلافة العباسية في مصر لتكون دعامة له ولحكم المماليك في مصر والشام ، وسنتكلم عن مختلف أعمال الظاهر بيبرس الداخلية والخارجية حسب ترتيبها الموضوعي في فصول هذا الكتاب ؛ ونكتفي في هذا الموضع بالكلام عن موقف بيبرس من تتار فارس بالذات .

والواقع أنه إذا كان التتار قد انسحبوا من الشام عقب هين جالوت ، فإنهم لم ينسوا أبداً تلك الهزيمة الفاضحة التي حلت بهم ، فظلوا يداومون الإغارة على بلاد الشام بين حين وآخر كلما سفلحت لهم فرصة لذلك . ومن الواضح أن الصراع بين المماليك والتتار كان أمراً طبيعياً بين جارين آمن كل منهما بفكرة الحرب ومبدأ الغزو ، واتخذ هذه الفكرة وذلك المبدأ محوراً لنشاطه وبجالاته لحياته (١) . وإذا كان هناك عامل ديني واضح جعل المسلمين يكرهون تتار فارس بوصفهم وثنيين أولاً ومسؤولين عن إسقاط الخلافة العباسية في بغداد ثانياً ، فإننا يجب أن نذكر بالإضافة إلى هذا العامل الديني أثر صغار أسراء المسلمين الذين استولى التتار على مدنهم وبلادهم في العراق والشام ، والذين احتموا بسلاطين المماليك في مصر وظلوا يحرضونهم ضد المغول ؛ هسى أن يكون في ذلك التحريض تنقيساً عما تمكنه صدورهم من حقد على المغول ، وسلوى لما لحقهم من خسارة على أيديهم . وإذا كان المماليك قد اتخذوا لأنفسهم لقب سلاطين الإسلام ، وبذلك اكتسبوا صفة حماة العالم الإسلامي المدافعين عنه وعن أهله ؛ فلا أقل من أن يسهروا على دفع الأخطار التي هددت العالم الإسلامي من جانب الصليبيين والتتار جميعاً (٢) .

(1) Wiet : ' Egypte Arabe, p. 431.

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٩ .

ومهما يكن من أمر، فإن تتار فارس كانوا هم البادئون بالعدوان فأغاروا سنة ١٢٦٥ على البيرة — وهي قلعة هامة على نهر الفرات — وحاصروها بغية الاستيلاء عليها. وكان أن أظهر بيبرس همة كبيرة لصد ذلك الخطر فأرسل الجيوش إلى الشام على دفعات، ثم سافر بنفسه على رأس الفوج الأخير في نهاية يناير سنة ١٢٦٥، فوصل غزة في ٩ فبراير. ولما شكوا بعضهم إلى السلطان قلعة الدواب قال: «ما أنا في قيد الجمال، أنا في قيد نصر الإسلام»^(١). على أن بيبرس لم يصل إلى البيرة؛ إذ وافته الأخبار وهو في دمشق بأن التتار ولوا مدبرين أمام الإمدادات التي أرسلها بيبرس إلى البيرة صحة الملك المنصور صاحب حماة^(٢). ولما أدرك بيبرس أن التتار في فارس يتخفون البيرة مركزاً للعبور إلى بلاد الشام؛ أمر بتحصينها وتزويدها بالأسلح والمؤن التي تمكنها من تحمل حصار طويل. هذا إلى أن الظاهر بيبرس استخدم شيوخ العرب في العراق ليسكنوا هيوناً له على التتار فيخبرونه بتحركاتهم وأحوالهم^(٣).

ولم تؤد وفاة هولاكو خان التتار في فارس سنة ١٢٦٥ إلى تهدئة الموقف بين التتار وسلطنة المماليك، لأن أبغا بن هولاكو كان مسيحياً نسطورياً، فتزوج من ابنة الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس، وحرص على أن يدعم هلاقاته بالقوى المسيحية في الشرق والغرب للانتقام من المسلمين في بلاد الشام ومصر. على أنه يبدو أن أحوال دولة مغول فارس الداخلية والخارجية عند قيام أبغا في الحكم كانت لا تساعد على الاستمرار في معاداة المسلمين في مصر والشام، بدليل أنه سارع بإرسال الرسل سنة ١٢٦٥ إلى السلطان بيبرس تحمل الهدايا وتطلب الصلح. ولكن بيبرس لم يرتض لنفسه أن يصلح التتار، وهم الذين

(١) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٥٢٤.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠.

(٣) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٤٧٦.

مزقوا العالم الإسلامي وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا أعداء الإسلام (١). ولما أهمل بيبرس تلك الدعوة إلى الصلح ، عاد أبغا بعد عدة سنوات وأرسل سنة ١٢٦٨ رسولا إلى بيبرس يكرر الطلب إلى الصلح . وفي تلك المرة وسط أبغا ملك أرمينية الصفري في طلب الصلح ، كما لجأ إلى مزيج من التهديد والترغيب ، جاء في كتابه إلى بيبرس : إن الملك أبغا لما خرج إلى الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ومن خالفه هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما خلصت منا ؛ فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا . ثم إن أبغا لم يكتف بذلك التهديد الصريح ؛ بل عمد على لسان رسوله - إلى تهريج بيبرس بأصله المماليكي غير الحر ، والخط من قدره وقيمته بين الملوك ؛ فقال الرسول للسلطان أنباء الحديث : أنت ملوك وأبعت في سيواس ، فكيف لشاقي الملوك ، ملوك الأرض ؟ (٢) .

ولكن بيبرس لم يضعف أمام حرب الأهصاب التي حاول أبغا أن يهبطها عليه ، فرفض مبدأ الصلح ، ورد على رسول التتار قائلا : « لا أعلم أنى وراءه بالمطالبة ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي استعوز عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض » (٣) . وهكذا يثس أبغا من مصالحة بيبرس ، فلم يبق أمامه إلا مواصلة العدوان على بلاد الشام بمحاولة الصليبيين . وكان الظاهر بيبرس بالإسكندرية سنة ١٢٦٩ عندما بلغه أن التتار أغاروا على الساحل - قرب حلب - « وأنهم واعدوا فرنج الساحل ، أي اتفقوا مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على المسلمين في بلاد الشام . وفي الحال أرسل السلطان بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على رأس قوة من الجنود ، وأمره أن يقيم في أطراف بلاد الشام على أهبة

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٩٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٧٤ .

(٣) المعنى : عند الجناز ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٤٩ (مخطوط) .

أصد التتار . ولم يكتف بيبرس بذلك وإنما خرج بنفسه إلى الشام ، ولكنه لم يكده يصل إلى دمشق حتى سمع بانهمزام التتار وارتدادهم عن بلاد الشام .

ولم ينقح أبغا بذلك القفصل الذي منى به في هجماته على بلاد المسلمين بالشام فعاود الهجوم سنة ١٢٧١ على عين تاب وعمق الحارم . ولكن بيبرس خرج على رأس جيشه إلى حلب ، وأرسل فرقاً من جنده إلى أطراف الشام والعراق ، فحلت الهزيمة بالتتار عند حران ، وعندئذ تدخل الصليبيون للتخفيف عن حلفائهم فأغاروا على قاقون ولكن المسلمين هزمهم هم الآخرون^(١) .

ومرة أخرى ينس أبغا من محاربة المماليك ، وبخاصة بعد أن تم عقد الصلح بين بيبرس والصليبيين بما حرم التتار من حليف يعتمدون عليه في مناوأة المسلمين ببلاد الشام ، فأرسل أبغا بعض الرسل إلى بيبرس لتحسين العلاقات بين الطرفين والتمهيد لعقد الصلح بين التتار والمماليك . وفي تلك المرة أكرم بيبرس رسل التتار وأرسل بدوره اثنين من كبار أمرائه إلى أبغا ومعهما الهدايا والخلع^(٢) . ويبدو أن أبغا أراد أن يستعجل الصلح ، فقام ببعض حركات عسكرية على حدود الشام سنة ١٢٧٢ في الوقت الذي أرسل رسله لطلب الصلح . ولكن بيبرس أهمل رسل التتار ولم يحتفل بهم ، وبخاصة عندما طلب أولئك الرسل أن يسير السلطان بيبرس بنفسه إلى بلاط أبغا لعقد الصلح ، وعندئذ رد بيبرس على رسل التتار قائلاً : بل أبغا إذا قصد الصلح يمشى هو فيه أو أحد من إخوته .

وكان أن عادت جيوش أبغا إلى الإغارة من جديد على البصرة فنصبوا المحانيق لمهاجمتها ، واتخذوا كافة الاحتياطات لمنع المسلمين من الوصول إليها عبر

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٨٤ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٠٤ - ١٠٥ .
مفضل ابن أبي الفضائل : المنهج السديد ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٠٢ .

الفرات وقد أسرع بيبرس إلى تعبئة قوائمه لإفقاذ البيرة ، وعبر بيبرس ورجاله
الفرات عوماً ، وعندئذ فر التتار تاركين خلفهم جميع ما أعدوه من عدد
وأسلحة (١) .

على أن سياسة الظاهر بيبرس لإزاء تثار فارس لم تقتصر على الدفاع ، وإنما
تمدت ذلك إلى الهجوم أحياناً للانتقام من التتار من ناحية وإشعارهم بقوة
سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أن بيبرس قام بحملة سنة ١٢٧٧
على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بحماية التتار في فارس ، واستطاع
بيبرس أن يمزق الجيش التتارى فى الأفاضول عندما أبستين فى ١٨ أبريل سنة ١٢٧٧ ،
دون أن يستطيع كينسرو الثالث - الذى كان مسافراً - أو وزيره مهين
الدين سليمان البرواناه وقف ذلك الخطر (٢) . وبعد عودة بيبرس إلى الشام
أسرع أبغا إلى أبستين حيث « شاهد عسكره صرعى ولم يشاهد أحداً من عسكر
الروم مقتولا ، فاستشاط غضباً وأمر بنهب الروم وقتل من مربة من المسلمين » (٣)
ويروى رشيد الدين الهمذانى أن أبغا بكى عندما شاهد قتل التتار مكديسين
وحزن على رجاله حزناً شديداً (٤) .

عهد بيبرس بفتح فارس :

وهكذا استمر العداء بين التتار فى فارس والعراق من ناحية والمماليك فى
مصر والشام من ناحية أخرى قائماً طوأل عهد بيبرس ، ولا تنكأ الحرب بين
الطرفين تهاداً حيناً إلا ليمور أحياناً . وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد توفى

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ٣٣٤ .

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب المنهج السديد ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٤) رشيد الدين الهمذانى : جوامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ .

١٢٧٧ ، فليس معنى ذلك أن العداء توقف بين المماليك والتتار ، لأن ذلك العداء حقيقة أمره لم يكن أمراً شخصياً ، وإنما رجعت أصوله وأسبابه إلى عدوان على المسلمين وبلادهم واحتلالهم العراق وفارس وغيرها من أرض الإسلام وقتلهم الخليفة العباسي وأهل بيته ، وتدميرهم بغداد وغيرها من المدن وحرمان المسلمين ... هذه الأعمال وغيرها أثارت لعنة المسلمين جميعاً على رافق فارس والعراق وجعلت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يرون بمرارة قاسية كلما تذكروا ما حل بالإسلام والمسلمين على أيدي تلك المشركين .

وهكذا لم يكن منتظراً أن يتوقف العداء بين المماليك وتتار فارس بمجرد إقامة حكم وقيام آخر بدله . وربما أراد التتار أن يستغلوا فترة القلق وعدم استقرار التي تعرضت لها دولة المماليك بين وفاة الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٧ أيام السلطان المنصور قلاوون في الحكم سنة ١٢٧٩ ، فأغاروا على بلاد الشام ، جدد بنفوس الوحدانية والهمجية التي عرفوا بها من قبل ولكن السلطان منصور قلاوون أظهر أنه لا يقل ثباتاً في وجه التتار عن سلفيه بيبرس وقطز ، يكاد يعلم أنهم اقتربوا من حلب واستولوا على بعض أعمالها ، حتى أرسل ضدهم حملة سنة ١٢٨٠ ، وعندئذ ولي التتار الأدبار^(١) وعندما حاول أبغا الهجوم على الشام سنة ١٢٨١ ، ووصلت جيوشه حماة ، تصدت لهم جيوش السلطان منصور قلاوون التي استطاعت إنزال الهزيمة بالتتار قرب حمص ، فقتل كثير منهم ، وأسرع أبغا بالعودة إلى بغداد ومعه قلول جيشه ، ولم يلبث أبغا أن وفي بعد ذلك بقليل سنة ١٢٨٢^(٢) .

وبوفاة أبغا تبدلت العلاقات فجأة بين سلطنة المماليك وتتار فارس . ذلك

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٨٠ .

(٢) بيبرس الدواقد : زبدة الفسكه ج ٩ ورقة ١١٣ ،

التويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٨ - ٩ .

أن تكردار الذي خلف أخاه أبنا في الحكم كان قد اعتنق الإسلام قبل اعتقاله
عرش تمار فارس ، فأرسل إلى السلطان المنصور قلاون يظهر رغبته في أن
يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ، ويعبر عن حرصه على حماية
الإسلام والدفاع عن أراضيه . ولم يخف أحمد تكردار في رسالته إلى المنصور
قلاون رغبته في توحيد كلمة المسلمين وإنهاء حالة الحرب والقتال القائمة بين
التتار والمماليك . فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين ، وإن كانت
لما سبق من الأسباب فمن يتحوى الآن طريق الصواب فإن له عندنا لولفي
وحسن مآب . وقد رفعنا الحجاب وأتينا بفصل الخطاب وعرفناهم طريقتنا
وما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئنافها وحرمانا على جميع العساكر
العمل بخلافها ، انرضى الله والرسول ويوح على صفحتها آثار الإقبال
والقبول ، وتسريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة وتنجلي بنور الاتفاق
ظلمة الاختلاف والغمة^(١) . وكان من الطيبي أن يرحب السلطان قلاون
بدخول المماليك في القتال في الإسلام ، وبإحلال السلام محل الحروب والعدوان
بين التتار والمماليك^(٢) .

ولكن شامت الظروف ألا يستمر أحمد تكردار في حكم تمار فارس ،
لذا فقم عليه قومه لإسلامه وقتلوه ليحل محله ابن أخيه أرغون سنة ١٢٨٤ . وقد
اتبع أرغون سياسة عنيفة مع المسلمين في بلاده ، الأمر الذي أساء إلى العلاقة بين
تتار فارس وسلطنة المماليك مرة أخرى مما أدى إلى اشتداد الشعور في دولة المماليك
بضرورة إجلاد التتار عن العراق^(٣) . على أن سلاطين المماليك كانوا لا يستطيعون
القيام بذلك بشروع الضخم في الوقت الذي استنفدت الحروب ضد الصليبيين كثيرأ

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ - ٦٨ .

(٢) مهدي الدين بن عبد الظاهر : تزييف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور
ص ١٠ - ١٧ .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٧٧٤ .

من جهودهم ؛ فاكتمى السلطان الأشرف خليل بن قلاون بالاستيلاء على قلعة الروم سنة ١٢٩٢ ، وهي قلعة غربي الفرات كان التتار يتخذونها قاعدة لثروب منها على بلاد الشام ^(١) .

ويبدو أن دولة تتار فارس تطرق إليها الضعف بعد عهد أرغون بسبب الخلافات الداخلية . وقد آل حكم تلك الدولة سنة ١٢٩٥ إلى غازان بن أرغون الذي أشهر إسلامه وأظهر حماسة كبيرة في نصرة المسلمين ببلاده واضطهاد العناصر المسيحية والبوذية ^(٢) على أن حماسة غازان للإسلام لم تقربه من سلطنة المماليك ، لأنه أنى إلا أن يتمسك بسياسة أسلافه التوسعية على حساب جيرانه المسلمين . من ذلك أن غازان أعد حملة كبرى سنة ١٢٩٩ لغزو بلاد الشام فحاول الناصر محمد بن قلاون — سلطان المماليك عندئذ — أن يتصدى له . غير أن الناصر محمد لم يستطع أن يصمد في وجه التتار الذين أنزلوا الهزيمة بجيوش المماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماه ^(٣) . وقد فر السلطان الناصر محمد عقب تلك الهزيمة إلى دمشق حيث عم الأهالي الذعر والقلق . ولم يلبث أن أرسل غازان أمانا لأهل دمشق ، قرأه أحد رجال التتار على الناس في المسجد الأموي ^(٤) ؛ فدفع فيه غازان بالمماليك وحكمهم ، ووعد أهالي دمشق بأنه لن يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية ، وأن يكفوا إظهار التعدي عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم .

ولكن غازان لم يحفظ وعده ، إذ لم يكف رجاله يصلون إلى دمشق حتى عاثوا فساداً في المدينة وأهلها ، ثم اقتدر التتار بعد ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ج ٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٢) Howorth : Hist of Mongols, vol. 3, p. 396

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٨٧ — ٨٨٨ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣٢٥ «مخطوط» .

(٤) — العصر المماليكى

والكرك في جنوب فلسطين ، في الوقت الذي عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر . على أن سلطنة المماليك كانت لا يمكن أن ترضى بذلك الوضع وتترك التتار يعيشون فساداً في أرجاء الشام ، ولذلك عاد الناصر محمد إلى مصر ليعد جيشاً كبيراً خرج به إلى الشام حيث دارت بينه وبين التتار عدة مناوشات ومراسلات (١) وفي موقعة مرج الصفر قرب دمشق دارت الدوائر على التتار سنة ١٣٠٢ ، فولوا الأدبار عبر الفرات وبذلك طادت بلاد الشام إلى أحضان دولة المماليك . ويبدو أن النصر الذي أحوزته السلطان الناصر محمد في موقعة مرج الصفر جعله يعتد بنفسه ، فأرسل إلى غازان يحقر آيائه ، طالباً منه الجلاء عن العراق فوراً لإعادتها إلى الخلافة العباسية . وإن سولت لك نفسك خلاف ذلك فأنت لا محالة هالك ، وعن قريب يخلو منك العراق واليهجم وتبدل وجودك بالعدم .. فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً ، (٢) . ويقال إن غازان لم يستعمل مرارة الهزيمة فوات من الفيظ في ١٧ مايو سنة ١٣٠٥ وخلفه أوجتايو بن أرغون .

وعلى الرغم من أن أوجتايو حاول في بداية عهده مصالحة المماليك حتى أنه أرسل إلى القاهرة يطلب الصلح ويقول : عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم منه الله ، (٣) ، إلا أن اعتناق أوجتايو المذهب الشيعي جعله ينفّر من المماليك السنيين ، فعاد إلى التفتك في مهاجمة بلاد الشام . وربما شجع أوجتايو على اتباع هذه السياسة الجديدة فرار اثنين من كبار أمراء المماليك هما قرا سنقر والافرم - إليه حيث زبنا له الهجوم على الشام . وقد شرع التتار فعلاً في مهاجمة بلاد الشام سنة ١٣١٢ ، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا أدراجهم بعد أن صمموا باقتراب الناصر محمد

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٨٩ - ١٩٧ هـ

(٢) زهيرتين : تاريخ سلاطين المماليك ص ١١٨ - ١٢١ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦ .

على رأس جيوشه الجرارة^(١) وإذا كان الصدام بين التتار والمماليك قد تكرر سنة ١٣١٥ حول ماردين ، فإن الهزيمة حلت عندئذ بالتتار ، وسبق أسراهم إلى حلب^(٢) .

وأخيراً استقرت العلاقات الطيبة بين المماليك وتتار فارس بعد موت أولجانيو وولاية ابنه بوسعيد سنة ١٣١٦ ، مما أدى إلى عقد صلح بين الطرفين سنة ١٣٢٠ ويعتبر هذا الصلح نقطة تحول في العلاقات بين دولتي المماليك وتتار فارس ، إذ هدأت الأمور بين الدولتين بعد ذلك ولم نعد نسمع عن حروب طاحنة بين المماليك والتتار من نوع الحروب التي شهدتها القرن الثالث عشر . وربما ساعد على ذلك الوضع الجديد أن دولة تتار فارس تعرضت لكثير من عوامل الضعف والانحلال منذ عهد بوسعيد في القرن الرابع عشر ؛ في الوقت الذي أخذت دولة المماليك البحرية تعاني كثيراً من مظاهر التفكك في عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده .

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني فلاون في مصر ص ٢٠٥ .

(٢) المقرئى السلوك ج ٢ ص ١٤٧ .

الفصل الثالث

المماليك والصليبيون

الشرق الأدنى بين خطريه :

إذا كان المماليك قد واجهوا في فجر دولتهم التي أقاموها عند منتصف القرن الثالث عشر خطر التتار ونجحوا في مواجهة هذا الخطر والتغلب عليه وحماية مصر والشام من شره ؛ فإن ثمة خطراً آخراً كان على المماليك مواجهته بنفس روح الشجاعة وقوة التصميم التي واجهوا بها الخطر الأول ، وأعنى بهذا الخطر الثاني خطر الصليبيين . ومع أن التشابه بين الخطرين التتري والصليبي يبدو واضحاً في بعض النواحي ، إلا أن أوجه الاختلاف لا تقل وضوحاً ، في نواح أخرى . فنحن نرى أن الخطرين التتري والصليبي متفقان في أن لهما عدو مشترك واحد كبير هو الإسلام والمسلمين في الشرق الأدنى . ومهما يقال من أن التتر في دولة فارس والعراق كانوا في الدور الأول من تاريخهم وثلثين بوفيين ؛ إلا أن الميول المسيحية النسطورية لا يمكن إخفاؤها في سياسة تلك الدولة منذ ذلك الدوابالذات . وحسبنا أن دوقوز خاتون زوجة هولاكو والمرأة ذات الكلمة المسموعة في بلاطه كانت مسيحية ، نسطورية ^(١) ، فضلاً عن أن بعض القوى الصليبية في الشرق الأدنى — وبخاصة إملاكة أرمينية الصغرى — حرصت على استغلال قوة التتار في القضاء على الكيان الإسلامي ، ولذلك تحالف الأرمين مع التتار واشترك الطرفان في وضع خطة غزو هولاكو لبلاد الشام . فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان هناك من إتصالات بين تتار فارس من ناحية والقوى المسيحية في غرب أوروبا

(١) رشيد الدين الهذلي : جامع التواريخ ص ٢٢٠ (٢٢٠ ج ١) .

وعلى رأسها البابوية من ناحية أخرى ، أدركنا مدى ذلك التقارب بين التتار
والمسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالذات . لذلك لا عجب إذا همل
المسيحيون الشرقيون — في الجزيرة والشام وأطراف آسيا الصغرى — لحركة
التوسع التتري ، ولا عجب إذا سمعنا في المراجع أن رجال هولوكو كانوا كلما
استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية — مثل حلب أو دمشق —
أسرفوا في اضطهاد أهلها المسلمين وامتهان مساجدهم ، بقدر ما أسرفوا في
تأمين العناصر المسيحية واحترام كنائسها ودورها (١) .

وثمة وجه آخر من أوجه التشابه بين الخطرين الصليبي والتتري هو أن
كلاهما كان خطرا خارجيا لم ينبع من منطقة الشرق الأدنى وإنما أتى على شكل
غزوات خطيرة ليدهم المسلمين والوطن الإسلامي في تلك المنطقة . فالتتار وفدوا
من أقصى الشرق والصليبيون وفدوا من أقصى الغرب ، والجميع أرادوا أن يتخذوا
من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى مستقرا ومقاما ، مما جعل المسلمين في القرن
الثالث عشر يحسون بمرارة قاسية عندما رأوا أنفسهم بين شق رحى ضخمة
تريد أن تسحقهم وتفضي على كياناتهم . وقد عبر المؤرخ ابن الأثير تعبيراً صادقا
عن ذلك الشعور في رفرة عميقة أرسلها قلبه إذ يقول : لم ينل المسلمون أذى
وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل ما دفعوه إليه الآن .
هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربروها . والعدو
الآخر الفرنج قد ظهر في بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشرق ووصلوا
إلى مصر ، فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ... فإننا لله وإننا إليه راجعون !
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (٢) .

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٠ — ١١٣١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٦١٧ هـ .

هذا عن أوجه التشابه بين الخطرين التتري والصليبي، أما عن أوجه الخلاف فيلاحظ أن الخطر الصليبي أعرق جذورا وأقدم عمرا من الخطر التتري. فبينما كان خطر التتار من النوع الدائم المفاجيء الذي لا يرتبط إلا بالرغبة في التوسع والنهب والسلب، ولا يتصف إلا بسفك الدماء والتدمير الحضارى الشامل، إذ الخطر الصليبي على الشرق الأدنى يرتبط بأصول قديمة ترجع إلى أيام حركة التوسع الإسلامى فى القرن السابع الميلادى، ويتخذ مسحة دينية — ولو ظاهرية — يطفى وراءها أغراضا أخرى اقتصادية وسياسية وغيرها. وليس معنى هذا أن الصليبيين كانوا أقل خطرا على المسلمين فى الشرق الأدنى من التتار. حقيقة إن غزوات التتار كانت أشد عنفا وبدت أكثر قسوة ووحشية، ولكن ينبغى أن نذكر أن الخطر الصليبي كان أقرب إلى قلب العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى من الخطر المغولى. فالمركز الرئيسى الذى خرجت منه الحملات الصليبية كان غرب أوروبا، وشتان بين المسافة بين غرب أوروبا والشام، والمسافة بين قراقورم — قاعدة التتار فى جوف آسيا — وبلاد الشام. ولعل قرب مركز الحركة الصليبية من بلاد المسلمين فى الشرق الأدنى هو الذى جعل الخطر الصليبي يتخذ شكل حملات مستقلة تخرج بين حين وآخر من الغرب قاصدة بلاد المسلمين، فتسكون هذه الحملات أشبه بالدماء الجديدة التى تخرج من القلب لتغذى الأطراف وتبعث فيها الحياة. وطالما استمر مجيء الحجاج والصليبيين من غرب أوروبا إلى بلاد الشام، ضمنت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام قوة تغذيها بين حين وآخر وتحقق لها البقاء. أما التتار فى فارس والعراق فهما يقال عن قوتهم، فإنهم باستقرارهم فى تلك البلدان البعيدة فى الشرق الأدنى ضعفت الصلات بينهم وبين مراكزهم الأولى، ولم يجدوا هذا بشريا مستمرا يصح فيهم أصولهم الأولى، فتعرضوا تدريجيا للذبول والانحلال والدوبان البطىء.

وعلى هذا الأساس لا ينبغي أن نقفل من خطر الصليبيين بالقياس إلى الخطر التتري، فقد ولدت دولة المماليك والصليبيون يحتلون جزءاً من أراضي مصر فضلاً عن إمارات وممتلكات قوية أسسوها في الشام، ودول مسيحية مستقلة تجاوبت معهم في أرمينية وقبرص. وكانت الإمارات الصليبية في بلاد الشام صورة دائمة تعبر عن الخطر الأوربي الغربي، وتعتمد في تهديدها الدائم لبلاد المسلمين في الشرق الأدنى على قواعد قريبة ثابتة.

وهنا أظهر المماليك ثباتاً كبيراً في مواجهة الخطر الصليبي لا يقل عن ثباتهم في مواجهة الخطر التتري، ونجحوا في التغلب على الخطر الصليبي نجاحاً لا يقل عن نجاحهم في التغلب على الخطر التتري بل ربما فاقه، لأن المماليك هم أصحاب الفضل في اقتلاع جذور الخطر الصليبي من بلاد الشام وطرده الصليبيين نهائياً من تلك البلاد. وربما اضطر المماليك إلى مقاتلة الصليبيين في نفس الوقت الذي قاتلوا فيه التتار، ولكن كان يحدث غالباً أن يحرص المماليك على عدم محاربة الخصمين في وقت واحد إلا إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك.

لويس التاسع في مصر الشام :

وكان أول نجاح أحرزه المماليك على الصليبيين هو إنقاذ المنصورة ثم إزال العنبرية القاصمة بالجيش الصليبي قرب فارسكور سنة ١٢٥٠ كما سبق أن رأينا. وأعقب ذلك مباشرة قيام دولة المماليك في حكم مصر، فكان على الدولة الجديدة أن تقوم بمجهود سريع لتصفية آثار الحملة الصليبية السابعة على مصر. حقيقة إن لويس التاسع زعيم تلك الحملة كان أسيراً في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولكن الصليبيين كانوا ما زالوا يحتلون دمياط الأمر الذي شكل خطراً جسيماً على مصر وودلة المماليك الناشئة. ومن يدري، فإنه طالما ظلت دمياط في أيدي الصليبيين، فإن ذلك كان كغيبلا بأن يجهل منها قاعدة للصليبيين في الأراضي المصرية يمكن أن

تأقن إلهما الوفود الصليبية من الغرب الأوربي للقيام بمحاولة أخرى لغزو مصر
وفك أسر لويس التاسع . لذلك حرصت شجرة الدر - أولى سلاطين المماليك
في مصر - على إبرام الصلح مع الصليبيين وفك أسر لويس التاسع ، كما سبق
أن أوضحنا .

وقد تعهد لويس التاسع في تلك الاتفاقية بالابقاء لشواطئ الإسلام مرة
أخرى ، إلا أنه شق عليه عقب إطلاق سراحه في مايو سنة ١٢٥٠ أن يعود إلى
بلادهم مباشرة وقد اطنخت سمعته فضيحة الهزيمة وهار الأسر ، واختار أن يقصد
بلاد الشام أولاً عسى أن يتمكن من القيام ببعض الأعمال الصليبية التي تعيد إليه
مآه وجهه . وكان الصليبيون في بلاد الشام وقتئذ أسوأ حالاً مما كانوا في مصر
ينظم صفوفهم ويحل مشاكلهم ويثبت فيهم روح الأمل والثبات ، ولذلك فرحوا
بمقدم لويس التاسع اليهم ورحبوا به ترحيباً كبيراً (١) . وقد قضى لويس التاسع
بالشام أربع سنوات (مايو ١٢٥٠ - أبريل ١٢٦٤) عمل فيها جهاداً لتصفية
الخلافت بين أمراء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية ، والاحتفاظ بكيان
الصليبيين وسط الخلافت التي تآججت بين بني أيوب في الشام والمماليك في
مصر من ناحية ثانية ، ثم القيام بمباحثات هامة مع التتار من ناحية ثالثة .

وكان أن أغاد لويس التاسع في الشام من النزاع بين الأيوبيين والمماليك ،
لأن كل فريق أخذ يخطب وده ويحاول مخالفته ضد الطرف الآخر . ومن ذلك
أن المعز أيك سلطان المماليك في مصر حرص على استرضاء لويس التاسع فأفرج
عن دفعات من أسرى الصليبيين بلغت نحو أربعين ألف أسير ، كما أرسل
هدية إلى لويس التاسع (٢) . أما الناصر يوسف - كبير الأيوبيين بالشام -

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٤ - ١٠٨٥ .

(٢) Joinville, p 254-256.

فقد بادر هو الآخر بإرسال سفارة إلى الملك لويس التاسع في هكا يعرض عليه محالفته ويعده بإعطائه بيت المقدس^(١) وقد أدرك لويس التاسع أنه لا يمكنه أن يقبل العرض الأيوبي ويضحي بأرواح أكثر من عشرة آلاف صليبي مازالوا أسرى في مصر. كذلك فضل لويس التاسع أن يعقد اتفاقية مع المماليك في مايو سنة ١٢٥٢ ، وافق المماليك فيها على إطلاق سراح جميع أسرى الصليبيين وإفشاء لويس التاسع من مؤخر القدية المستحق عليه ، فضلاً عن إعطاء بيت المقدس للصليبيين ، إن نصرهم على الشاميين ،^(٢) . وفي مقابل ذلك كله وافق لويس التاسع على مساعدة المماليك في القيام بحملة ضد الناصر يوسف الأيوبي ، على أن تلتقي جيوش الحلفاء عند ياقا في مايو سنة ١٢٥٢ . على أنه حدث في تلك المرحلة أن توسط الخليفة العباسي في الصلح بين الأيوبيين والمماليك — كما سبق أن ذكرنا — وبذلك ضاعت على لويس التاسع والصليبيين فرصة الحصول على بيت المقدس عن طريق استغلال حالة النزاع بين الأيوبيين والمماليك^(٣) . ولم يحجج لويس التاسع بعد ذلك وسيلة لتدعيم مركز الصليبيين بالشام سوى الاتصال بالقتار لمحالفتهم ضد المسلمين جميعاً من أيوبيين ومماليك. ولكن يبدو أن هذه الاتصالات لم تؤد إلى نتيجة ناجحة ، مما جعل لويس التاسع يغادر بلاد الشام عائداً إلى فرنسا في إبريل سنة ١٢٥٤ .

وعلى الرغم من حدوث صدام بين المماليك والصليبيين سنة ١٢٥٦ ، إلا أن هذا الصدام لم يستمر طويلاً ولم يلبث أن انتهى بالصلح السريع بين الطرفين^(٤) ولعل السبب في ذلك هو أن كلا من الطرفين لم يكن مستعداً للدخول في حرب

(١) Runciman: A Hist. of the Crusades, III p. 275.

(٢) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٥١ هـ (ج ١٨ قسم ٢ ورقة ٣٤٤) .

(٣) سميده ماشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩٧ .

(٤) Setton : A Hist. of the Crusades, II, p. 568.

طويلة مع الطرف الآخر، فالصليبيون كانوا منقسمين على أنفسهم في خلافات داخلية خطيرة. والمماليك كانوا يقيمون دولة في دور التأسيس ولم يستطع أن تقف على قدميها بعد أمام الأخطار الداخلية والخارجية التي واجهتها.

وبانتصار المماليك على التتار في عين جالوت، أمكن للمماليك أن يتغلبوا على أكبر خطر من واجهادولتهم الناشئة، وهما خطر التتار وخطر الأيوبيين. وبذلك أصبح المماليك سادة مصر والشام، وحققوا لأنفسهم من المجد ما أضفى عليهم قسطا من الأهمية ونوعا من الشرعية. وما دام المماليك قد ورنوا الأيوبيين في ملكهم في مصر والشام، فإنه كان من الطبيعي أن يرنوا عن الأيوبيين سياستهم الخاصة بجهاد الصليبيين وتقويض دعائم ملكهم بالشام. وإذا كان القدر لم يمهل قطر بطل عين جالوت لوضع قواعد هذه السياسة، فإن خليفته السلطان الظاهر بيبرس، استطاع أن يصمم بهمهم وافر في جهاد الصليبيين والتمهيد لطردهم كلية من بلاد الشام.

الظاهر بيبرس والادستيفور على أنطاكية:

وقد رأينا كيف أن السلطان الظاهر بيبرس الذي تولى سلطنة المماليك في أواخر سنة ١٢٦٠، استطاع أن يثبت أنه من أقدر الحكام وأقواهم وأبدم نظرا. فأخذ يتغلب على المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته واحدة بعد أخرى ليتفرغ بعد ذلك للحرب الصليبيين (١). والواقع أن الحقيقة الكبرى التي تواجهنا في نشاط بيبرس الحربى ضد أعداء الوطن الإسلامى في تلك الحقبة هي أنه يصعب وضع خط فاصل بين حروبه ضد التتار وحروبه ضد الصليبيين فكثيرا ما كان بيبرس يخرج على رأس جيوشه من مصر لمحاربة أحد الخصمين، فيحارب

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٨ وما بعدها.

الأخر، أو يحارب الاثنين معاً. وإذا كننا لاحظنا أن حروب بيبرس ضد التتار امتازت بالقوة والشجاعة والمثابرة، فإننا يجب أن نذكر في نفس الوقت أن حروبه ضد الصليبيين كانت أكثر استمراراً وأوسع نطاقاً وأشد عنفاً من حروبه ضد التتار. ذلك أنه يلاحظ دائماً على حروب سلاطين المماليك ضد التتار أن تلك الحروب كانت مؤقتة منقطعة تأتي في أوقات متباعدة نسبياً، أي عندما يجرؤ التتار على مهاجمة بلاد الشام. وطالما ظل التتار قابعين في العراق وفارس لا يبدؤون بالهجوم على أطراف دولة المماليك في الشام، لم يحاول سلاطين المماليك غالباً أن يهاجموهم. أما الخطر الصليبي فكان من نوع آخر، لأن الصليبيين كانوا عند قيام دولة المماليك منتشرين في بلاد الشام شمالها وجنوبها - عن طريق عديد حصونهم ومعقلهم التي أسسوها داخل البلاد وقرب الساحل، أو عن طريق المدن الشامية التي ظلوا يسيطرون عليها ويتحكمون فيها. وهكذا صار الاحتكاك بين المسلمين والصليبيين بالشام يمكن أن يكون مباشراً ومتصل الحلقات كما كان سلاطين المماليك أكثر إحساساً بالخطر الصليبي منهم بالخطر التتري الذي لم يحسوا به إلا وقت خروج التتار من العراق لمهاجمة أطراف الشام.

وإذا كان الظاهر بيبرس هو الشخصية الكبرى في صدر دولة المماليك البحرية، والرجل الذي أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثاني، فإن ذلك دفعه إلى أن يضع لنفسه برنامجاً خارجياً ضخماً كان أبرز أركانه حماية بلاد الشام من خطر التتار والقضاء على الصليبيين وطردهم من الشام^(١). وقد بدأت هجمات بيبرس على الصليبيين في وقت مبكر، أي في نوفمبر سنة ١٢٦١ عندما هاجم بيبرس إمارة أنطاكية لعقاب أميرها بوهيموند السادس على مخالفته التتار، ثم كرر الهجوم عليها في صيف سنة ١٢٦٢، وفي تلك المرة حاصر الجيش المماليكي

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٢٢.

مدينة أنطاكية ذاتها وأوشك على الاستيلاء عليها لولا تدخل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى الذى استنجد بالمفول ، مما أدى إلى جلاء المماليك عن أنطاكية فعادوا ومعههم أكثر من ثلاثمائة أسير (١) .

على أن بيبرس رأى قبل أن يتوجه بكتيته إلى الفرنج ، — على قول المقرئى — (٢) أن يدعم مركزه باتخاذ خطوتين على جانب كبير من الأهمية ، الأولى هى إحياء الخلافة العباسية فى مصر سنة ١٢٦٢ ليطهر سلطنة المماليك فى صورة القوة الحامية للخلافة المنتهكة ببيعها مما يدعم دولته الناشئة ويكسبها أهمية فى نظر المسلمين كافة . والثانية هى معالجة تثار القفجاق — فى القوقاز وجنوب روسيا — وهم الذين اهتمقوا الإسلام فأراد بيبرس أن يتخذ منهم حونا على هولاكو وتثار وفارس .

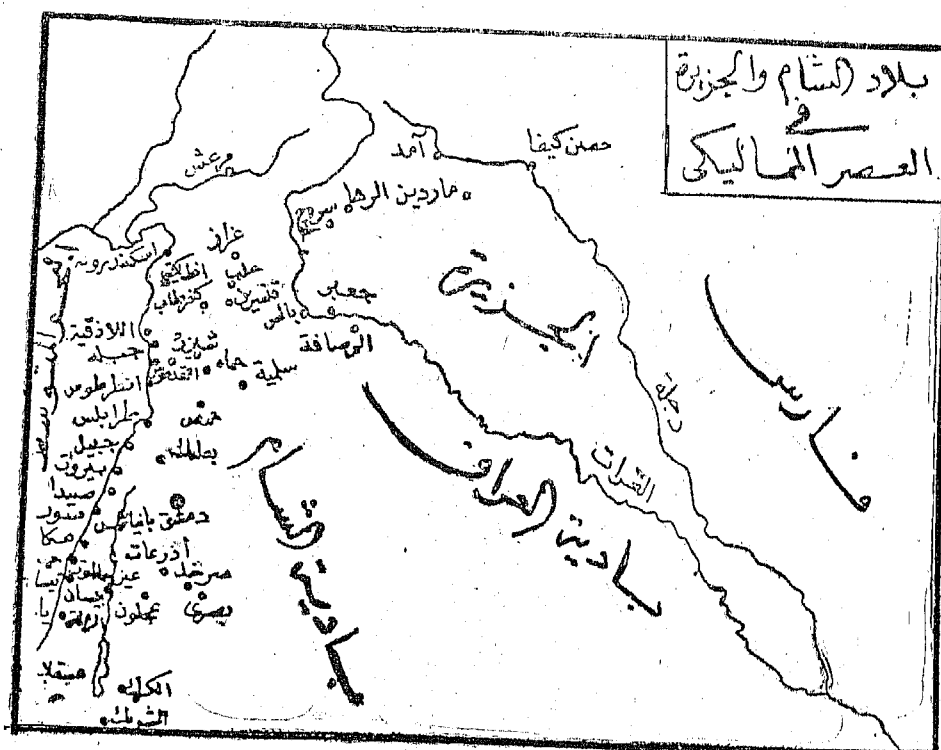
وقد بدأت الحرب الشاملة التى شنها بيبرس على الصليبيين بعدة محاولات من جاءهم لطلب الصلح ، وبعض مفاوضات من جانب بيبرس لسبر فورهم حتى إذا ما كانت سنة ١٢٦٥ بدأ بيبرس حرب الشاملة مندم . ففى أوائل فبراير من تلك السنة خرج السلطان بيبرس على رأس جيش ضخم إلى غزة فاستولى على قيسارية ويافا وعسليت وأرسوف التى استسلمت بعد مقاومة شديدة أبدتها حاميتها من الاسبتارية (٣) . وبعد استيلاء بيبرس على أرسوف جاء دور هكا ، ولكن هيو الثالث الوصى على عرش قبرس قام عندئذ بالحماية على هكا أيضا ، لخطر على رأس جيش قوى من جزيرة قبرس فى أبريل سنة ١٢٦٥ للدفاع عن هكا ، مما جعل بيبرس ينصرف إلى مصر (٤) .

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٠ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٨٣ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٣ هـ .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤١ .





ثم عاد يبيرس في العام التالي — مايو سنة ١٢٦٦ — لاستئناف الحرب ضد الصليبيين ، فبدأ بمهاجمة عكا ، ولما وجدها قوية التحصين انصرف إلى قلعة القرين فوجدوها هي الأخرى صعبة المنال ، فقصده صفد واستولى عليها في صيف سنة ١٢٦٦ ، وبعدها استسلمت هونين وتبنين ومدينة الرملة^(١) . وبعد ذلك استولى يبيرس على بعض المراكز القريبة من طرابلس مثل القليعات وحلباء وعريقة .

ولم يفس السلطان يبيرس لأرمينية الصغرى موقفها وموقف ملكها هيثوم الأول في موازنة التتار وحثهم على غزو الشام سنة ١٢٥٩ — ١٢٦٠ . لذلك أرسل يبيرس جيشاً كبيراً في صيف سنة ١٢٦٦ تحت قيادة الأمير قلاون والملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماه لمهاجمة أرمينية الصغرى واستطاع المماليك أن ينزلوا من حصنة كبرى بالأرمن وحلفائهم قرب دربساك في ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ . وقد قتل في الموقعة أحد أبناء الملك هيثوم وأسر ابنه الثاني ، في حين كان هيثوم نفسه متغيباً عن بلاده في تبريز يستجدي مساعدة التتار^(٢) . وبعد أن أغار المماليك على مدن أرمينية الرئيسية — وهي أذنه والمصيصة وطرسوس — وأشعلوا النار في عاصمتها سيس ، عادوا معهم قدر كبير من الغنائم وعدد ضخم من الأسرى^(٣) . والواقع إن ملكة أرمينية الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الكارثة وصار دورها سلبياً بعد ذلك في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى ، أما الملك هيثوم فإن الصدمة جعلته يتنازل عن العرش سنة ١٢٦٩ لابنه ليؤ الثالث^(٤) .

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٠ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٠ .

أبو الفدا : المختصر حوادث ٦٦٤ هـ .

(٣) مقفل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٩٥٢ .

(٤) Runciman : op. cit; III p. 323.

ويبدو أن السلطان الظاهر بيبرس استغل فرصة الخلافات الداخلية بين الصليبيين بعضهم وبعض وأغار على منطقة طبرية وعكا سنة ١٢٦٧ كما استولى على يافا والشقيف أرنون في العام التالي (١). أخيراً توج بيبرس أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية ، فوصل إليها قرب منتصف مايو سنة ١٢٦٨ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق داحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر ، والثانية سدت الممرات بين قيليقية والشام لمنع وصول أية مساعدة إلى أنطاكية من أرمينية الصغرى ، في حين أخذت القوة الرئيسية تحت قيادة بيبرس نفسه تهاجم المدينة . ولم تلبث أن سقطت أنطاكية فدخلها المماليك وغنموا منها غنائم طائلة ، بلغ من كثرتها أن قسمت النقود بالاطاسات . كذلك بلغ من كثرة الأسرى أنه لم يبق غلام إلا وله غلام ، وأبيع الصغير باثني عشر درهما والجارية بثمانية دراهم (٢) وقدرت بعض المراجع الصليبية عدد أسرى أنطاكية بمائة ألف أسير .

ولا تخفى علينا أهمية سقوط أنطاكية بالذات في قبضة المسلمين سنة ١٢٦٨ . إذ كانت ثاني إمارة - بعد الرها - أسسها الصليبيون في الشرق سنة ١٠٩٧ ، فجاء استيلاء المسلمين عليها دليلاً جديداً على انهيار ذلك البناء الضخم الذي أقامه الصليبيون في الشام في أواخر القرن الحادي عشر .

وفي سنة ١٢٦٩ توج هيو الثالث ملك قبرس ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ، فأخذ يعمل على تقوية جبهة الصليبيين بالشام . ولكن بيبرس لم يحترم الهدنة التي كان يعقدها مع الصليبيين بين حين وآخر ، وإنما هاجم إمارة طرابلس سنة ١٢٧١ واستولى على صافيتا من الداوية ، وعلى حصن الأكراد وحصن

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٢ .

العيني : عمدة الجمان سنة ٦٦٦ هـ .

(٢) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٥٦٨ .

عكار من الاستتارية^(١). وفي طريق عودة بيبس من طرابلس استولى على حصن القرين — إلى الشمال الشرقي من عكا — في يونية سنة ١٢٧١، وكان من الحصون المنيعة التي احتفظ بها الفرسان التيوتون حتى ذلك الوقت^(٢).

وفي تلك الأثناء كان السلطان بيبس ناقماً على قبرس لجهود ملكها هيو الثالث في توحيد قوى الصليبيين بالشام من ناحية ولاعتداء القبارصة على السفن الإسلامية في شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى. لذلك أرسل بيبس أسطولاً سنة ١٢٧٠ لغزو جزيرة قبرس، ولكن ريحاً عاصفة هبت على سفن ذلك الأسطول وحطمت عدداً كبيراً منها قرب شاطئ الجزيرة، مما جعل حملة بيبس تنتهي بالفشل^(٣).

ويلاحظ أن جهود بيبس في ذلك الدور لم تقتصر على محاربة الصليبيين، وإنما امتدت إلى تقليص أظافر الباطنية، وهي الطائفة الهدامة التي قامت بدور خطير في تاريخ الشام على عصر الحروب الصليبية. ولم ينع الظاهر بيبس بأن يجعل الباطنية يدفعون الأموال له منذ سنة ١٢٦٧ بدلا من دفعها للصليبيين، وإنما أخذ يستولى على معاقلم بالشام، وأقطعهم بدلا منها أراضي في مصر^(٤).

وفي سنة ١٢٧١ وصلت إلى عكا حملة صليبية صغيرة بقيادة الأمير إدوارد الإنجليزي، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً مذكوراً لمساعدة الصليبيين بالشام مما أدى إلى عقد هدنة لمدة عشر سنوات بين الصليبيين من ناحية والسلطان

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ١٩٨ — ١٩٩ هـ .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ — ٤٨ هـ .

(٤) الماريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٧ هـ .

سعيد عاشور : الظاهر بيبس ص ٨٢ — ٨٣ هـ .

(٥ هـ - العصر المالكي)

بيبرس من ناحية أخرى . ولم يستطع بيبرس أن يظل ساكناً طوال مدة تلك الهدنة ، وإنما قام سنة ١٢٧٥ بغزو مملكة أرمينية الصغرى ، فأغار على المصبصة وسيس وأذنة وطر سوس وإياس . هذا إلى أنه أغار على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بحماية التتار ، واستطاع أن يمزق الجيش التتري عند أبلستين في أبريل سنة ١٢٧٧ ، كما سبق أن ذكرنا^(١) . وهكذا قضى السلطان الظاهر بيبرس حكمه الطويل في جهاد الصليبيين من ناحية والتتار من ناحية أخرى ، حتى كانت وفاته سنة ١٢٧٧ .

أبناء الظاهر بيبرس : (١٢٧٧ - ١٢٧٩)

على الرغم من أن الظاهر بيبرس كان أحد المماليك الذين لم يؤمنوا بنظام وراثته الملك ، وعلى الرغم من أنه عاصر الأحداث التي أدت إلى عزل علي ابن أيك وقيام قطز في السلطنة^(٢) ، إلى أن غريزة الأبوة غلبت على بيبرس فأراد أن يورث سلطنة المماليك لابنه السعيد . وربما اغتر بيبرس بما حققه من أعمال ، وبما وصل إليه من نفوذ واسع لم يدركه أحد قبله من سلاطين المماليك ، فظن أنه حقق لنفسه وليته من المجد ما يكفل لابنه الملك السعيد القيام في الحكم من بعده دون اعتراض من كبار الأمراء .

وكان أن استغل بيبرس فرصة حركة التتار على شمال الشام سنة ١٢٦٨ لتنفيذ غرضه . ويروى المقرئ أن الأمراء أشاروا على بيبرس عندئذ بسلطنة ولده ليقيم بديار مصر أثناء غيبة أييه في حرب التتار بالشام . هذا وإن كانت نية بيبرس في تمليك ابنه من بعده قد ظهرت قبل ذلك بعامين

(1) D'O Hsson : op. cit; III, pp. 481-488.

عند ما عرض بيبرس عساكر مصر وحلفهم لولي عهده الملك السعيد ناصر الدين
خاقان بركة خان^(١).

ولم يلبث السلطان بيبرس أن احتفل سنة ١٢٦٤ بسلطنة ابنه الملك السعيد
احتفالاً كبيراً فأركبه بشمار السلطنة وخرج السلطان بنفسه في ركابه ماشياً على
قدميه وقد زينت له القاهرة أحسن زينة . وبعد ثلاثة أيام جمع بيبرس الأمراء
والقضاة والفقهاء وقرىء تفويض عهد السلطنة للملك السعيد وجاء فيه « كانت
شجرة المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو وتوسعنا منه حسن
الجنات المرجو ... فليقلد الولد ما قلدها من أمور العباد ، وليشر كنفاً غنياً بشاره
من صالح الثغور والقلاع والبلاد »^(٢).

ثم كان أن توفي السلطان الظاهر بيبرس في دمشق سنة ١٢٧٧ ؛ فكتب
الأمير بدر الدين بيلبك الخازن دار إلى الملك السعيد في القاهرة يخبره بوفاته
أبيه ، وعندئذ جدد الأمراء البيعة للملك السعيد ، كما بايعه سائر المعسكر
والقضاة والأعيان ودعا له الخطباء في الجوامع^(٣).

على أن الملك السعيد اتبع سياسة في الحكم أغضبت الأمراء ، ففقد إليه
جماعة من المماليك الأحداث الذين ازداد نفوذهم في شئون الدولة ، الأمر الذي
أغضب كبار الأمراء وعلى رأسهم نائب السلطنة الأمير سيف الدين كوندك
الساقى . وهذا ما ازداد العداء بين السلطان السعيد وكبار الأمراء حول على
التخلص منهم ، فسمعن بعضهم ، الأمر الذي أثار الخواطر ضده ، وتزعج حركة
المقاومة مجموعة من كبار الأمراء البحرية مثل الأمير سيف الدين قلاوون والأمير
شمس الدين سنقر الأشقر . وأخيراً اجتمع هؤلاء الأمراء وأرسلوا إنذاراً إلى

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٦٨ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة المسكرة ج ١ ورقة ٨١ - ٨٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٤٢ .

السلطان السعيد بركة بن بيبرس جاء فيه : إنك قد أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فإما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن^(١).

وهكذا ظلت العلاقة بين الملك السعيد وكبار الأمراء تبدأ حيناً وتسمو أحياناً ، حتى انتهى الأمر بأن حاصر الأمراء القلعة سنة ١٢٧٩ وقطعوا عنه الماء وأصروا على أن يطلع نفسه من السلطنة^(٢). وعندما لمس السلطان السعيد خطورة موقفه طلب من الأمراء أن يعطوه السكر ، فأجابوه إلى ذلك .

وقد عرض كبار الأمراء السلطنة بعد ذلك على الأمير سيف الدين قلاون ، فتظاهر بالزهد وقنع قائلاً : أنا لم أخلع السعيد فمرها إلى السلطنة وحرصاً على المملكة ، ولكن حفظاً للنظام وأتفة للجيش الاسلام أن يتقدم عليها الأصاغر ، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر^(٣) ، ومن الواضح أن ادعاء الأمير قلاون الرغبة في الاحتفاظ بالسلطنة لذرية السلطان للظاهر إنما كان ادعاء باطلاً لعدم إيمان المماليك بمبدأ توريث الملك ؛ وكل ما هنالك هو أن قلاون أدرك أن الأمور لم تنضج بعد فاختر أن يترك لاسيما وأن غالبية الجيش كانت من المماليك الظاهرية — أتباع الظاهر — نفثى أن يشوروا ضده .

وهكذا استقر رأى الأمراء على تعيين بدر الدين سلاش بن بيبرس سلطاناً ، وكان عمره سبع سنوات . فتلقب بالملك العادل واختير الأمير قلاون أنابكاً له . وكانت هذه هي فرصة الأمير قلاون ، فاستغل ضعف من السلطان الجديد وأخذ يمكن نفسه من وراء ستار ، فقبض على زمام الأمور وتخلص من بعض الأمراء الظاهرية بالسجن ؛ بل لقد جعل نفسه شريكاً للسلطان العادل

(١) المرجع السابق ص ٦٤٥ .

(٢) أبو الحسن : الهجوم ج ٧ ص ٢٦٦ — ٢٦٩ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٥٧ .

بدر الدين سلامش فأجبر الأمراء على أن يقسموا له يمين الطاعة وضربت
السكة باسميهما ، كما خطب لهما على المنابر (١).

ولما أدرك الأمير قلاون أن الكثرة قد انضجت ، جمع الأمراء ، وتحدث
معهم في مصر من السلطان العادل وقال لهم : قد علمتم أن المملكة لا تقوم
إلا برجل كامل ، فاتفقوا على خلعه ونفيه إلى السرك وتولية قلاون سلطنة
مصر (٢).

السلطان المنصور قلاوون والصليبيون (١٢٧٩ - ١٢٩٠)

تولى السلطان المنصور قلاوون عرش سلطنة المماليك سنة ١٢٧٩ ، ولكنه
لم يلبث أن تعرض في أوائل حكمه لنفس النوع من العقبات التي تعرض لها
غيره من سلاطين المماليك. ونقص هذه العقبات خروج بعض كبار الأمراء على
السلطان الجديد لأنهم يأفوا الخنوع لواحد منهم أو لاعتقادهم أنهم أجدر منه
بالسلطنة. من ذلك أن الأمير شمس الدين سنقر نائب الشام رفض الاعتراف
بالمنصور قلاوون سلطاناً سنة ١٢٨٠ ، وأعلن نفسه حاكماً على الشام وتلقب
بالمالك الكامل ودعى له في المسجد الأموي (٣). على أن السلطان المنصور
قلاوون استطاع أن يقضى على الفتنة فأرسل أكثر من حملة ضد سنقر الأشقر
الذي اتصل بالتتار وأغرام على غزو الشام. وأخيراً خضع سنقر الأشقر
وطلب الأمان سنة ١٢٨٧ وبذلك دانت بلاد الشام للسلطان قلاوون.

وقد اتبع السلطان المنصور قلاوون سياسة سلفه بيبرس من حيث الوقوف

(١) أبو الهيثم : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٢) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٥ - ٦٥٨ .

أبو المعاسن النجوم ج ٧ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٢ - ٦٧٤ .

بالمرصاد للتتار ومحاولاتهم للتسرب إلى بلاد الشام ، وفي الوقت نفسه العمل على تقويض بناء الصليبيين بالشام . ويبدو أن السلطان قلاوون كان في الدور الأول من حكمه - أي حتى سنة ١٢٨٥ - أكثر انشغالا بثورة سنقر الأشقر في الشام ، فضلا عن هجمات التتار الذين أغاروا على بلاد الشام سنة ١٢٨٠ ثم سنة ١٢٨١ ، الأمر الذي جعل قلاوون يحرص في ذلك الدور على مسالمة الصليبيين فعقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات تبدأ بسنة ١٢٨١^(١) . على أن الأمور لم تكن تهدأ للسلطان المنصور قلاوون حتى لجأ إلى خرق ذلك الصلح الذي سمي إليه بنفسه مع الصليبيين ، فشرع في مهاجمة الإسكندرية واستولى منهم على حصن المرقب سنة ١٢٨٥^(٢) .

والواقع إن جميع الشواهد دلت عندئذ على أن الصليبيين بالشام كانوا يعمرون بدور الاحتضار ، بعد أن فترت معونة الغرب الأوربي من جهة وازدادت الخلافات الداخلية بين القوى الصليبية في بلاد الشام من جهة أخرى^(٣) . وقد استغل المماليك تلك الأوضاع للإجهاز على البقايا الصليبية بالشام لإجهازا تاما ، فأرسل السلطان المنصور قلاوون حملة بقيادة الأمير حسام الدين طرناي استولت على اللاذقية في أبريل سنة ١٢٨٧ ، وكانت آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية^(٤) .

وشاءت الظروف أن يفتد الخلف عندئذ داخل إمارة طرابلس الصليبية بعد وفاة أميرها بوهيموند السابع . ويقال إن بعض الأحزاب داخل طرابلس استنجدت بالسلطان قلاوون طالبة تأييده فوجد قلاوون في ذلك فرصة سانحة

(١) King : The Knights Hospitallers. 282.

(٢) محيي الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والمصور ص ٧٧ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٧ - ١١٧٠ .

(٤) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٨٦ هـ .

محيي الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والمصور ص ١٥١ .

وتحجج بأن أهل طرابلس من الصليبيين نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين . وهكذا أهد قلاون عدته ، وتجهز لأخذ طرابلس ،^(١) وخرج فعلا من مصر إلى الشام في فبراير سنة ١٢٨٩ . وكان جيش قلاون مؤلف من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المقاتلة ، وهذه القوة الضاربة شرع قلاون يحاصر طرابلس في ٢٤ فبراير سنة ١٢٨٩ ، ومضايقتها مضايقة شديدة ، بعد أن نصب حولها آلات الحصار وأخذ النقبابون ينقبون أسوارها حتى سقطت المدينة في يد قلاون في أواخر إبريل سنة ١٢٨٩^(٢) . ويروى أبو الفدا أن بعض أهالي طرابلس من الصليبيين حاولوا النجاة عن طريق البحر ، فنجح أقلام في المراكب وقتل غالب رجالها وسبيت طراريمهم وغنم منها المسلمون غنيمة عظيمة ، . وكان أمام طرابلس وعلى مقربة منها في البحر جزيرة القديس نيقولا ، ففر إليها كثير من الصليبيين ، ولكن المماليك لحقوا بهم فقتلوا وسبوا وأسروا منهم أعدادا كبيرة . وقد زار المؤرخ أبو الفدا تلك الجزيرة بعد المذبحة السابقة ، لكنه لم يستطع البقاء فيها ، من تنن القتل ،^(٣) . وبعد أن تم تدمير مدينة طرابلس القديمة ، بنى السلطان قلاون طرابلس الجديدة في الداخل بعيدا عن شاطئ البحر ، وذلك خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية^(٤) .

ولم يلبث الصليبيون أن أخذوا ما لهم من مراكز ومدن في إمارة طرابلس - مثل بيروت وجبل - فاحتلها المماليك في سهولة . وإذا كانت جبل قد ظلت في أيدي الصليبيين بضعة سنوات آخر ، فإن ذلك جاء مشروطا بإعلان تبعيتها وخضوعها التام لسلطنة المماليك ، كما تعهد صاحبها الصليبي بدفع أموالها

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٤٦ .

(٢) أبو المعامير : الهجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٤٨ .

للسلطان (١) وبذلك لم يبق للصليبيين من مملكتهم المريضة ببلاد الشام سوى عاصمتهم عكا ، فضلا عن صيدا وصور وغلايط .

ويبدو أنه لم يكن في نية السلطان قلاون أن يقوم بهجوم على عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة ، بدليل أنه اتجه إلى دمشق حيث استجاب لرغبة الصليبيين في عقد الصلح وتجديد الهدنة القديمة لمدة عشر سنوات (٢) . ولكن لم تكد المياه تعود إلى مجاريها بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام بعد إبرام الصلح المشار إليه ، حتى وصلت عكا في صيف سنة ١٢٩٠ حملة صليبية إيطالية الطابع . وقد أراد هؤلاء الصليبيون الجدد أن يعبروا عن حماسهم الدينية فور وصولهم إلى الشام ، فاعتدوا على المسلمين في إقليم عكا وقتلوا عددا من تجار المسلمين داخل عكا ذاتها ، الأمر الذي قطع حبل السلام بين دولة المماليك والصليبيين (٣) .

ذلك أن أخبار العدوان الصليبي لم تكد تصل إلى مسامع السلطان قلاون حتى استشاط غضبا ، ورفض الأعذار الواهية التي تجميع بها الصليبيون القدامى من أهل عكا . وفي الوقت الذي أخذ السلطان قلاون يعد جيوشه بالقاهرة للانتقام من الصليبيين ، أمر الأمير شمس الدين سنقر الأهرس بالاستعداد للحرب في الشام (٤) . على أنه لم يكد السلطان قلاون يفرغ من كافة استعداداته الحربية ويقادر القاهرة فعلا للحرب الصليبيين بالشام ، حتى دهمه الموت في ١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠ (٥) .

(١) أبو المحاسن : التجوّم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .

(٢) Stevenson : The Crusaders in the East p. 351 .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٨٦ .

(٤) الماريزي : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .

(٥) محمى الدين بن عبد الظاهر : تفريف الأيام ص ١٧٨ .

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون : (١٢٩٠ - ١٢٩٣)

لم يكتف السلطان المنصور قلاوون بحمل ولاية العهد لابنه علاء الدين ، بل أراد أن يجعل ابنه سلطانا في حياته ، فعرض فكرته على كبار الأمراء الذين أقروه على رأيه . وكان أن قرىء تقليد علاء الدين بالقلعة سنة ١٢٨٠ و تلقب بالملك الصالح ، وركب علاء الدين بشعار السلطنة في حياة أبيه (١) .

على أن الملك الصالح علاء الدين لم يلبث أن توفي في حياة أبيه المنصور قلاوون سنة ١٢٨٨ . ويقال إن قلاوون حزن حزنا شديدا لوفاته ، لأنه كان يضع كل ثقته في ذلك الابن بالذات . وكان المنطق يحتم أن يعهد قلاوون بولاية العهد لابنه الثاني خليل ، وفعلا كتب القاضي يحيى الدين بن عبد الظاهر تقليدا بولاية العهد لخليل الذي لقب بالأشرف (٢) .

ومن الثابت أن المنصور قلاوون كان لا يثق في ابنه خليل ولا يميل إليه ولا يرضى عن تصرفاته وسلوكه الشخصي ، فاعتقد أنه غير كفؤ للسلطنة ، وقال - عندما عرض عليه القاضي ابن عبد الظاهر تقليد ولاية العهد لخليل - « أنا ما أولى خليلًا على المسلمين » (٣) . ويقال إن المنصور قلاوون كان يعلم أن ابنه خليل مكروه من الأمراء لاستهانتهم بهم ، فضلا عن انتمسائه بدس السم لأخيه الملك الصالح علاء الدين (٤) . ولهذا الأسباب توفي السلطان المنصور قلاوون دون أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه خليل .

(١) بيريوس الدوادار : زبدة المسكرة ، ج ٩ ص ١٠٥ - ١٠٨

القلعشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٣ - ١٧٧ .

(٢) القلعشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٦ - ١٧٣ .

(٣) المقرئى : السالك ج ١ ص ٧٤٥ - ٧٥٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٩٢ - ٧٩٣ .

ولما سمع الأشرف خليل بوفاة والده السلطان المنصور قلاوون ، استدعى القاضي ابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء وسأله : أين التقليد ؟ فأحضر القاضي التقليد إليه وهو خلو من توقيع والده ، وعندئذ قال الملك الأشرف : إن السلطان امتنع أن يعطيني فأعطاني الله ، (١) ولم يلبث أن أقسم الأمراء الأيمان للسلطان الجديد الأشرف خليل بن قلاوون .

وقد تعرض السلطان خليل في أول كلمة للمؤامرات التقليدية التي تعرض لها بقية سلاطين المماليك ، فحاول الأمير حسام الدين طرطاي نائب السلطنة إقضاء خليل عن العرش ولكن السلطان الجديد نجح في القضاء على المؤامرة وقتل الأمير طرطاي وبذلك هدأت الأمور ولم يبق أمامه سوى أن ينفذ مشروع أبيه الخاص بالاستيلاء على عكا من الصليبيين (٢) .

طرد البقايا الصليبية من الشام :

وكان الصليبيون قد هلكوا لوفاة المنصور قلاوون ، وظنوا أن تلك الوفاة جاءت بإرادة الله لإيقاد عكا من مصيرها المحتوم . ولكن سرعان ما خاب ظنهم عندما سمعوا أن السلطان خليل قد سار فعلا على رأس الجيوش التي أعدها أبوه إلى الشام ، في الوقت الذي أرسل إلى كافة القوات الإسلامية في مختلف المدن الشامية بمقابلاته أمام عكا (٣) . وقد قدر عدد الجيوش الإسلامية التي اشتركت في حصار عكا بستين ألفا من الفرسان ومائة وستين ألفا من المشاة مجزين بقدر كبير من الأسلحة وعدد ضخم من آلات الحصار (٤) .

ولم يكف السلطان الأشرف خليل يحصل إلى عكا ويفرض حصاره عليها

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٩٣ .

(٢) بيارس الدواهار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ١٦٧ .

المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٧٥٧ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ .

(٤) Setton : op. cit. II, p. 595.

في خامس إبريل سنة ١٢٩١ ، حتى أخذت قواته في مهاجمة أسوار المدينة وضربها بالمجانيق الكبار التي كان منها ما يرمى بقنطار دمشق وأكبر ، وبذلك أمكن إحداث عدة ثغوب في سور المدينة (١) . وكان على الصليبيين عندئذ أن يبذلوا محاولة أخيرة للدفاع عن عكا وإنقاذها من السقوط ، فجمعوا كل قواتهم في الشام وعكا ، فضلا عن البحارة الإيطاليين والصليبيين الجدد الوافدين ، حتى اجتمع في عكا عدد يتراوح بين ثلاثين ألفاً وأربعين ألفاً ، منهم ثمانمائة فارس وأربعة عشر ألف من المشاة ، والبقية من عامة الحجاج . وأخيراً أدرك الصليبيون بالشام خطورة الموقف ، فحاولت الهيئات والجاليات الصليبية أن تتناسى ما بينهما من حزازات قديمة ، وتقاسموا جميعاً الدفاع عن أسوار عكا وقلاعها (٢) .

وفي ٤ مايو وصل هنري الثاني ملك قبرس إلى عكا على رأس مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاة وقدر كبير من المؤن والإمدادات ، ففرح الصليبيون في عكا بقدومه فرحاً كبيراً وتجمعوا على الثبات والمقاومة (٣) . ولكن هنري الثاني لم يلبث أن فشل في التفاهم مع المسلمين من ناحية ، كما قنط من جمع كلمة الصليبيين وإزالة ما بينهم وبين بعض من خلافت من ناحية ثانية . ولذلك عاد هنري الثاني إلى قبرس ومعه جميع قواته وفرسانه ، فكان لذلك أسوأ الأمر في نفوس المدافعين (٤) .

وكان أن اشتدت هجمات المسلمين على عكا يوم ١٨ مايو حتى نجحوا فعلاً في اقتحام المدينة ، رغم المقاومة العنيدة التي أبدتها مقدم الداوية وقائد الاسبتارية ، حتى خسر كلاهما قتيلاً في المعركة (٥) . ولم يلبث أن وجد الصليبيون

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٥ - ٨ .

(٢) King : op. cit., pp. 291-292

(٣) Schlumberger : Prise de Saint-Jean d'Acre, pp. 23-36.

(٤) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٨ ص ٦ .

Crousset : Hist. des. Croisades, III, pp. 755-758.

(٥) Setton : op. cit., II, p. 595

أنفسهم لأعاصم لهم . فالمسلمون أمامهم والبحر خلفهم ؛ فهرعوا إلى السفن
فأرين بأرواحهم ولكن السفن الباقية في ميناء عكا لم تسكن كافية ، فغرق بعضها
في البحر بسبب ثقل حوائطها وكثرة من اكتظ فيها من طلاب النجاة وكانت
النتيجة أن نمية من الصليبيين في عكا وقموا بين قتلى وغرقى وأمرى .

ولم يكن منتظرا من بقية المعادل الصليبية الباقية بالشام أن تظل قائمة ،
فاحتل المماليك مدينة صور دون مقاومة في ١٩ مايو ، واستولى المماليك على
صيدا ودمروا قلعتها في ١٤ يوليو سنة ١٢٩١ ، كما احتلوا حيفا وهدموها .
وبذلك لم يبق للصليبيين في الشام سوى موضعين هما انطرطوس وعكا ،
فاستسلمت الأولى في ٣ أغسطس والثانية في ١٤ أغسطس سنة ١٢٩١ ، وبذلك
تكملت هذه الفتوح جميع البلاد الساحلية للإسلام (١) .

وهكذا دالت دولة الصليبيين بالشام ، وانتهى أمر تلك الجحوش من الغزاة
الغربيين إلى حيث لا رجعة ، ووطدت بلاد الشام من قيليقية شمالا حتى غزة
والحدود المصرية جنوبا لا يقطنها إلا أبناءها الحقيقيون من العرب . واستكن
طارد آخر البقايا الصليبية من الشام في أواخر القرن الثالث عشر لا يعني
نهاية قصة الحروب الصليبية ، إذ استمرت بقية فصول تلك القصة في القرنين
الثالث عشر والرابع عشر ، وظلت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في
ذلك الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية ، كما سيلي فيما بعد .

(١) أبو الفداء : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ
المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٦٥ - ٧٦٦ .

الفصل الرابع

الممالك والنوبة

مصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك :

تربط النوبة بمصر روابط قوية متينة منذ أقدم عصور التاريخ، وكان من الطبيعي أن تتأثر النوبة — بحكم هذه الروابط — بما تعرض له مصر من تيارات متنوعة . وإذا كانت مصر قد تعرضت في النصف الأول من القرن السابع للميلاد لحركة الفتح العربي ، فإنه كان من المتعذر أن تظل النوبة بعيدا عن ذلك التيار الجديد .

والمعروف في التاريخ أنه لم يكذب يتم فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، حتى أرسل عمرو أخاه لأمه — وهو عقبة بن نافع الفهري — على رأس جيش لفتح النوبة سنة ٦٤٢ . وكانت النوبة عندئذ مركزا للمملكة المسيحية هي ملكة دنقلة التي امتدت من أسوان حتى كورتى ، فأظهر النوبيون مقاومة شديدة للمسلمين ، واضطر الجيش الإسلامي إلى التراجع بعد أن تحمل خسائر كثيرة (١)

ولم يقنع العرب بتلك النتيجة ، فقام عبد الله بن سعد بن أبي سرح أثناء ولايته على مصر بغزو بلاد النوبة سنة ٦٥١ . وفي تلك المرة أفاد عبد الله بن سعد من التجربة المبررة التي مرت بها حملة عمرو بن العاص ، فعفى بإعداد حملته إعدادا محكما ، وبذلك تمكنت جيوشه من التوغل داخل ملكة النوبة جنوبا حتى وصلت عاصمتها دنقلة وحاصرتها (٢) . على أنه بوصول الجيش العربي

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩ .

الإسلامى إلى ذلك الحد ، كان قد استنفد قواه وعجز عن القيام بأى جهد جديد ، الأمر الذى أدى إلى عقد اتفاقية البقظ الشهيرة بين عبدالله بن سعد ابن أبى مرثد من ناحية وملك النوبة المسيحية من ناحية أخرى (١) . وبمقتضى هذه الاتفاقية كان على صاحب النوبة أن يقدم إلى بيت المال فى مصر خمسة وستين وثلاثمائة رأيا من الرقيق كل عام ، مقابل ألف أردب من الغلال وقدر آخر من البقول والأقمشة تقدمها مصر للنوبة . ومن هذا يبدو أن اتفاقية البقظ كانت أقرب إلى معاهدة تبادل اقتصادى بين مصر والنوبة ، منها إلى جزية يدفعها النوبيون رمزا للخضوع ، الأمر الذى جعل ابن خردادبه يقول عن البقظ إنه ليس « بجزية ولا خراج » (٢) ، كما قال البلاذرى « ليس بيننا وبين الأسود عهد ولا ميثاق ، إنما هى هدنة بيننا » (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن اتفاقية البقظ لم تحقق لمصر الإسلامية أية سيطرة سياسية على بلاد النوبة المسيحية وهى فى الوقت نفسه لم تضع حدا للعلاقات المضطربة بين مملكة النوبة المسيحية ومصر العربية الإسلامية فى العصور الوسطى . وقد حدث أكثر من مرة أن حاولت مملكة النوبة التحلل من شروط اتفاقية البقظ ، كما لجأ النوبيون فى سنوات الشدة إلى الإغارة على حدود مصر الجنوبية بغية السلب والنهب ومن الواضح أن تلك الإغارات النوبية على مصر كانت تشتد فى أوقات عدم الاستقرار فى مصر ، مما كان يشجع النوبيين على الإغارة والعدوان ، كما حدث ذلك فى أواخر الدولة الإخشيدية وفى أواخر الدولة

(١) اختلف الباحثون فى تفسير أصل لفظ « البقظ » فالبعض قال إنه تعريب من قبظ غير أن رأى الأرجح أن هذا اللفظ مشتق من كلمة bal وهو كلمة مصرية قديمة بمعنى الضريبة التى كانت تسمى عادة من بلاد النوبة والسودان . وربما كان لفظ بقط مشتق أيضاً من اللفظ اليونانى Pactum ومعناه عهد أو ميثاق ،

(٢) ابن خردادبه : المسالك والممالك ص ٩٢ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

الفاطمية . وربما أحس النوبيون بأن اتفاقية البقط فيها غرم فادح لهم أو فيها مهانة ومساس بكرامتهم ، بدليل أنهم أرسلوا مبعوثا - هو ابن ملك النوبة - إلى الخليفة المعتصم العباسي يشكون لدية فداحة البقط ويطلبون إلغاؤه ، فنظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقط . . . ، وعندئذ وافق المعتصم على ألا يكون البقط سنويا وإنما يدفع كل ثلاث سنوات (١) .

على أن حكام مصر الإسلامية أظهروا من جانبهم تمسكا كبيرا بالبقط ، فبدأوا على مهاجمة النوبة كلما تأخر ملوكها عن دفع البقط المفروض عليهم ومن تلك الحملات التي شنّها حكام مصر على النوبة الحملة التي أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه توران شاه سنة ١١٧٢ ، والتي أوغلت في تلك البلاد حتى أبريم (٢) على أنه يبدو في تفسير حملة صلاح الدين على النوبة أنه من الصعب إرجاع سبب تلك الحملة إلى رغبة صلاح الدين في إجبار النوبيين على دفع البقط وربما كان أقرب إلى الصواب أن صلاح الدين استهدف من وراء حملته على النوبة مطاردة بقايا أنصار الفاطميين ، أو إيهام سيده نور الدين محمود بأنه يسعى لمد نفوذه جنوبا على حساب قوة مسيحية مجاورة . - هذا وإن كان هناك رأى يقول بأن صلاح الدين أراد بتلك الحملة أن يخفف من صلاحية النوبة لتتكون مأوى لا بناء البيت الأبيض في حالة تفاقم الموقف بينه وبين نور الدين وبأن تقرير توران شاه عن أحوال النوبة جعل صلاح الدين يلبذ تلك الفكرة ويوجه أنظاره إلى اليمن (٣) .

(١) المقرئى : المواظ ، ج ١ ص ٣٠١
Mac Michael : Hist of the Arabs in the Sudan vol. p. 158.

(٢) القلائدى : صبح الأمل ج ٥ ص ٢٧٦ ج ٦ ص ٥٠٦ - ٥١٦ .
(٣) Lane-Poole : A Hist of Egypt, p. 197.

السلطان الظاهر بيبرس والنوبة :

ثم كان أن قامت دولة المماليك في مصر ، وأخذ سلاطين المماليك - بعد أن استقرت لهم الأمور في الداخل - يهضمون القوى غير الإسلامية المحيطة بهم - من تتار وصليبيين - لحماية الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى من ناحية والتسكين لأنفسهم من طريق الظهور في صورة حماة المسلمين من الأخطار التي تهددهم من ناحية أخرى . وإذا كان المماليك قد وجهوا جزءا كبيرا من طاقتهم لمحاربة الصليبيين ، فإنه كان من الصعب أن تمر موجة الحماسة الدينية التي عمت عصر الحروب الصليبية دون أن يلحق مملكة النوبة بعضا من رذاذها وإذا كان الصليبيون في بلاد الشام مسيحيين مخلصين يهددون الكيان الإسلامي فإن النوبيين كانوا عندئذ أيضاً مسيحيين لا يقلون إخلاصاً لعقيدتهم وتهديداً للمسلمين في جنوب مصر عن الصليبيين في الشام .

ثم إن ملوك النوبة من جانبهم لم يراخوا حرمان الجزيرة ، واستمروا حين وآخر يستفزون بحكام مصر بإغاراتهم العدوانية . من ذلك ما نسمعه من أن داود ملك النوبة انتزح فرصة انشغال السلطان الظاهر بيبرس بمحروبته في الشمال ضد التتار والصليبيين والأرمن ، وقام بحملة كبيرة على جنوب مصر سنة ١٢٧٢ ، فنهب أسوان وأسر منها جمعا كبيرا من المسلمين ، كما اعتدى على ميناء عيذاب ، وهو من موانئ مصر الكبرى على شاطئ البحر الأحمر في ذلك العصر (١) .

ويبدو أن مشاغل بيبرس في ذلك الوقت حالت بينه وبين إرسال حملة كبرى لتأديب ملك النوبة ، فاكتمل إرسال تهريده العسكرية سنة ١٢٧٢

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٠٩ .
ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٤٥ - ٤٦ .

مهمتها دفاعية أكثر منها هجومية وقد نجحت هذه الحملة الصغيرة في حماية حدود مصر الجنوبية من عدوان ملك النوبة ، وقبض المماليك على صاحب الجبل وغيره من النوبيين فأحضروهم أسرى إلى القاهرة .

ولم تلبث أن أتاحت فرصة طيبة لبيرس الانتقام من داود ملك النوبة عندما حضر إلى مصر شكندة ملك النوبة الأسبق الذي عزل ابن أخيه داود وحل محله في الحكم ، فجاهد شكندة يطلب مساعدة السلطان بيرس في استرداد هرشه (١) . وكان أن أعد الظاهر بيرس حملة كبرى بقيادة الأميرين شمس الدين أقسنقر الفارقاني وهر الدين الأفرم ، وصحبتهما شكندة الذي أمر بيرس بتسليمه ما يتم فتحه من بلاد النوبة . وتوضح لنا تفاصيل أخبار تلك الحملة من مكاتبات الأمير شمس الدين أقسنقر للسلطان بيرس ، خلاصة المكاتبات عن أخبار تلك الحملة ، أن المماليك أغاروا على قلعة الدرحيت قتلوا وسبوا كثير من الأعداء ، ثم تقدموا بعد ذلك إلى جز أرميكائيل عند شلال وادى حلفاء ، حتى اضطرب الملك داود إلى الفرار بنفسه بعد أن وقع معظم رجاله قتلى وأسرى ، ومن جملة الأسرى كان أخوه شنكو وأمه وأخته . وقد حاول صاحب الجبل قهر الدولة الحرب ولكن قبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد أن تعهد بالدخول في طاعة الملك شكندة وكان أن أظهر قهر الدولة هذا مهمة كبيرة بعد ذلك في معاونة الحملة المماليكية وإمدادها برجال كلها احتاج الأمر إلى ذلك . وبعد أن أقام المماليك شكندة في الملك بدلا من داود والبسوه التاج ، نظم القائدان أسس العلاقة الجديدة بين دولة المماليك ومملكة النوبة على الوجه الآتي : —

١ — تعهد شكندة بإرسال البقطة السنوية المعتاد إلى سلطان المماليك في مصر

(١) اللقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٦

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٢٦ .

مضافا إليه بعض الهدايا من القهود والقبيلة والزراف: على أن يقوم سلطان الممالك بإرسال الغلال إلى مملكة النوبة .

٢ - يستولى شكندره على أموال الملك السابق داود ويرسلها إلى مصر .

٣ - تفرض دولة الممالك سيادتها على الجزء الشمالي من بلاد النوبة ، أي بلاد العلى وبلاد الجبل ، ومعنى ذلك أن سيادة مصر امتدت لأول مرة بصورة فعلية على جزء كبير من بلاد النوبة يبلغ ربعها . أما ما بقي من مملكة النوبة فيصبح مناصفة بين سلطان الممالك وملك النوبة ، فتذهب نصف خيرات الإقليم إلى السلطان بيبرس والنصف الآخر يبقى للملك النوبة لهامارة البلاد (١) .

٤ - خير ملك النوبة بين اختيار واحد من الأساليب الثلاثة التي هامل بها المسلمون المغلوب - وعلى الإسلام أو الجزية أو القتل - فاختار الجزية ، وتعهد بدفع دينار سنوياً عن كل فرد عاقل بالغ في مملكته ولذلك أنعم السلطان بيبرس ديواناً للنوبة يشرف عليه الصاحب بهاء الدين بن حنا الوزير ، الإشراف على جزية النوبة وخراجها .

٥ - أخذ عشرون أميراً من أسراء النوبة ليكونوا رهاق تحت يد السلطان بيبرس ، وكذلك أطلق سراح جميع أسرى المسلمين الذين أسره داود في إمارته السابقة على أسوان وعيذاب .

وبعد كتابة جميع الشروط السابقة ، أقسم شكندره على احترامها . وذكر في قسمه ما نصه : ... أنى أخلاصت نيتي وطوبى من وفق هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه ، وأنى أبدل جهدى وطاقتى في تحصيل مرضاته ، وأنى ما دمت نائبه لا أنقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى ... (٢)

(١) المقرئى : الصلوك ، ج ١ ص ٦٢٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .

وعلى هذا الوجه استطاع بيبرس أن يسيطرته على ملكة النوبة المسيحية في المصور الوسطى . ولا أدل على حرص بيبرس على ضمان إشرافه على النوبة من أنه في تنظيمه للهريد أنشأ طريقاً هاماً يبدأ من قوص ثم يتشعب شطبتين إحداهما إلى أسوان والنوبة والثانية إلى عيذاب (١) .

وأخيراً حادثة حملة بيبرس من بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ حيث احتفل السلطان بيبرس بتقدمها في القاهرة احتفالا كبيراً ؛ فخلع على الأميرين القائدين ؛ واستعرض الأسرى والغنائم الذهبية والفضية التي استولى عليها الغزاة ؛ هذا فضلاً عن الرقيق الذين بلغ من كثرتهم أن بيع الواحد منهم بثلاثة دراهم . وقد اشترط السلطان في بيع الأسرى ألا يفرق بين المرأة وغلالمها ولا يباع منهم شيء لغير المسلمين (٢) .

وقد اعترف جبهة المؤرخين بأن حملة بيبرس على النوبة حققت ما لم تحققه أية حملة أخرى على تلك البلاد منذ أيام الفتح العربي لمصر . من ذلك ما يقوله مفضل بن أبي الفضائل من أن ما قام به بيبرس من فتوحات في بلاد النوبة يعتبر دماً يفوق به على كل ملك تقدمه (٣) . أما ابن الفرات فيقارن بين الغزوات التي قام بها حكام مصر في بلاد النوبة منذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر بيبرس فيقول : كل هذه غزوات وإنما الفتح الذي وقع في زمن الملك الظاهر (٤) .

على أن قصة النوبة في عهد بيبرس لم تقف عند ذلك الحد ، إذ لم يلبث أن وقع داود — ملك النوبة السابق الذي أغار على أسوان وعيذاب — أسيراً في قبضة بعض خصومه ، فأرسلوه إلى السلطان بيبرس الذي أمر بحبسهم مع أمه

(١) الألفندي : صبح الاعمى ج ١ ص ٣٧٤ .

(٢) ابن شاذي السكتي : عيون التواريخ ج ٢١ ق ١ ورقة ٥٢ (مخطوط) .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٤٥ .

وأخيه حتى مات في سجنه^(١).

والواقع إن بيرس لم يستطع أن يفسى ماحل ببلاده على أيدي النوبيين ، فظل يراقب أحوال النوبة عن كثب . ويبدو أنه لم يطمئن إلى شككده ، فعمد إلى أحد الباطنية القدائية — واسمه إسماعيل — بالتردد على النوبة سرّاً ومراقبة شككده وأحواله ، خوفاً من أن ينفذ بالعمد ويفعل بأسوان وعيذاب مثلما فعل داود . وكان لإسماعيل هذا زميل رافقه في بعض سفر ياته إلى النوبة ، فافحص ذلك الزميل على شككده وفتك به بغاء ذلك ختاماً لصفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين مصر والنوبة — على عهد الظاهر بيرس^(٢).

السلطان المنصور قلاوون والنوبة :

ولم تقف علاقة سلاطين المماليك بالنوبة عند حدود جهود بيرس ، وإنما استمر تدخل المماليك في شئون تلك البلاد لرغبة سلاطين مصر في تأمين أطراف دولتهم الجنوبية ، بعد أن قاست الكثير من إغارات النوبيين واعتداءهم على الأهالي الأمنين . هذا فضلاً عن أن اهتمام المماليك بأمر النوبة كان جزءاً من سياستهم التجارية في البحر الأحمر . وساعد على ازدياد تدخل المماليك في شئون مملكة النوبة — تدهور أحوال تلك المملكة المسيحية تدهوراً سريعاً بسبب ظهور بعض الدول الإسلامية في غرب السودان مثل الكانم والبرنو ، وهي الدول التي بدأت تربطها بدولة المماليك في مصر علاقات طيبة ، مما جعل النوبة المسيحية تصبح شبه محصورة وسط نطاق من الدول الإسلامية المتفاهمة^(٣).

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٢٣٦ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيرس ص ١٢٤ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٨٢ — ٨٣ .

وكان السلطان المنصور قلاون الذى اعتلى عرش سلطنة المماليك سنة ١٣٧٩
حريصاً على اقتفاء أثر سياسة بيبرس الخارجية ، سواء فى دفع خطر التتار
أو قطع دابر الصليبيين أو تثبيت سيادة السلطنة المماليكية على النوبة (١) .
ولا يخفى علينا أن شككده عقد الاتفاقية السابقة مع المماليك كارهاً تحت
ضغط المماليك العسكري من ناحية واشعوره بأنه يدين فى استرداد عرشه
للسلطان الظاهر بيبرس من ناحية أخرى . ولذلك ظل خلفاء شككده من
ملوك النوبة ينتهزون الفرص لنقض شروط تلك الاتفاقية والخروج عن طاعة
سلطنة المماليك فى مصر . ولكن خلفاء بيبرس من ناحية أخرى ظلوا
بالمصر صاد لكل محاولة قام بها النوبيون للتخلص من سيطرة المماليك . من ذلك
أن الملك برك - خليفة شككده - قام بمحاولة من هذا النوع ولكن
الأمير علم الدين سنجر المسروى والى القاهرة أحبط تلك المحاولة ، وانتهى
الامر بقتل برك (٢) .

وقد خلف برك فى حكم النوبة الملك سمامون الذى وصفته المراجع بأنه
كان ذا دهاء ومكر وبأس ، فسعى للتخلص من قيود الاتفاقية التى عقدها
شككده مع سلطنة المماليك ، وأتم هذه الشروط مداومة لإرسال البقط إلى مصر .
وصادف فى ذلك الوقت أن دب النزاع بين سمامون ملك دنقلة والنوبة ،
وآدور ملك ملكة الأبواب المجاورة ، فأرسل آدور سفراءه إلى السلطان المنصور
قلاون سنة ١٢٨٧ حاملين إليه هدايا من جملتها ذرافة وفيل . وقد أكد
آدور فى رسالته ولامه وخضوعه التام للسلطان ، وشكا إليه سوء المعاملة التى
يلقاها من سمامون ملك دنقلة والنوبة (٣) . ولما علم سمامون أن ملك الأبواب أرسل

Wiet : L'Egypte Arabe. p. 435

(١)

(٢) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور

ص ١٥٤ .

(٣) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ١٥٣ .

سفارة إلى مصر، بادر هو الآخر بإرسال سفارة من قبله لتشرح وجهة نظره للسلطان المنصور قلاوون وتوضح له ظروف النزاع بينه وبين ملك الأبواب، ووصلت سفارته بعد وصول سفارة آدور بقليل. ويقال إن سفارة سيامون حملت معها إلى السلطان قلاوون هدية ضخمة مقدارها مائة وتسعون رأساً من الرقيق ومائتا بقرة^(١).

وقد رأى السلطان بعد أن استمع إلى جميع كل من الطرفين المتنازعين أن يرسل مبعوثاً إلى كل من الدولتين ليدرُس أسباب النزاع على الطبيعة، واختار الأمير علم الدين سنجر المعظمي مبعوثاً إلى ملك الأبواب والأمير علم الدين الحصني رسولاً إلى ملك دنقلة بالنوبة. وكان أن سلك الرسول الأول طريق قوص وعيناب والبحر الأحمر، مخافة أن يقع في قبضة سيامون فيعذبه. وفعلاً استطاع الأمير سنجر المعظمي أن يتم مهمته بنجاح، ولكنه في طريق عودته إلى مصر ألقى سيامون القبض عليه وفكر في قتله لولا أن حذره بعض رجاله فأقبة ذلك، وقالوا له: تريد أن تخرب ديارنا وأعمارنا؛ وعندئذ أطلق سراحه^(٢). أما الأمير علم الدين الحصني الذي قصد ملك دنقلة فلا توجد في المراجع إشارة من عودته؛ وإن كان يبدو أنه هادئاً سالماً وأنه أقنع السلطان الظاهر بأن سيامون هو المعتدي.

ومهما يكن من أمر، فقد قرر السلطان قلاوون غزو النوبة وأعد لذلك حملة سنة ١٢٨٧ ويضمهم من أخبار تلك الحملة في المراجع أن السلطان قلاوون أهتم بإعدادها اهتماماً كبيراً وحشد لها قوة ضخمة على رأسها الأمير سنجر السروري المعروف بالحياط متولى القاهرة، والأمير عز الدين الكوراني كذلك كتب السلطان

(١) Quatrewere. Memoire sur l'Egypte, Tome 2, pp 109-112

(٢) محيى الدين عبد الظاهر: تشرىف الأيام والمنصور من ١٤٤٠.

قلاون إلى الأمير عز الدين أيدير السيفي متولى قوص بأن يشارك في تلك الحملة بكل ما يستطيع من ماليك وأجناد وعربان (١).

وعندما وصلت الحملة المماليكية إلى أطراف النوبة الشمالية انقسمت إلى قسمين ، قسم بقيادة الأمير سنجر الخياط وحف على امتداد الشاطئ الغربي لنهر النيل ، والقسم الثاني بقيادة الأمير عز الدين أيدير سار بجنداء الشاطئ الشرقي للنيل . وكان معظم القتال من نصيب أيدير ، حيث أن المدن الهامة في مملكة النوبة — ومنها العاصمة دنقلة ذاتها — تقع على الضفة الشرقية للنيل . على أن سمامون — وهو الرجل الذي اتصف بالدهاء وسعة الخيلة كما سبق أن ذكرنا — وضع خطة مكيدة استهدفت استدراج المماليك إلى داخلية البلاد ، وعدم الاشتباك معهم في معركة فاصلة إلا عند العاصمة دنقلة حيث يكون المماليك قد أدركهم السكل والتعب من طول الطريق ومشقته . لذلك كتب سمامون إلى جريس صاحب الجبل يأمره بعدم الاشتباك مع الجيوش الغازية وإخلاء البلاد في وجهها ، دفكوا يرحلون والعسكر (المماليك) وراهم منزلة بمنزلة (٢).

وعند دنقلة دارت الواقعة بين المماليك وسمامون ، وكانت معركة عنيفة ذهب ضحيتها عدد كبير من النوبيين والمصاميين سواء (٣). أما سمامون فقد فر جنوباً ، وعندئذ تبعه الأمير أيدير حتى ابتعد عن دنقلة مسار خمسة عشر يوماً ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بملك النوبة ، وإن كان قد ظفر بابن خالة سمامون وجريس صاحب الجبل (٤) . ولما فشل أيدير في القبض على سمامون عاد إلى دنقلة ، حيث تم تعيين ابن أخت سمامون ملاسكا على مملكة النوبة ، كما أفرج عن جريس

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٦ — ٧٣٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

(٣) Quatremere : Mémoires. p. 113.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

وأعيد إلى منصبه بولاية الجبل ، وأقيمت إلى جانبها حامية عسكرية^(١). كذلك تعهد ملك النوبة الجديد بدفع البقعة القديم وكافة الالتزامات الأخرى التي تعهد بها شكنده . وكان اليمين الذي أقسمه ملك النوبة الجديد — والذي أورده القلقشندي — مطابقاً إلى حد كبير لليمين الذي سبق أن أقسمه شكنده من قبل^(٢) .

وفي سنة ١٢٨٨ وردت إلى السلطان المنصور قلاوون كتب الأمير علم الدين سنجر الخياط ، تبشره بما قام به من فتح البلاد ، وما انعقد له من نصر ؛ فخلع السلطان على الرسول وأعاده إلى النوبة بكتاب إلى الأمير سنجر الخياط يطلب منه العودة إلى مصر على أن يترك الأمير أي دمر بد نقلة مع حامية ليكون أميراً مقيماً من قبل السلطان إلى جانب ملك النوبة الجديد . ثم جهز السلطان مع البريدية سعد الدين سعد — ابن أخت الملك داود الذي أسر أيام بيبرس والذي يبدو من اسمه الجديد أنه اعتنق الإسلام — ليعاون أي دمر في حكم النوبة بحكم خبرته بأحوال البلاد . على أنه لم يقدر سعد الدين أن يصل إلى النوبة عندئذ بسبب تطور الأمور تطوراً سريعاً — كما سيلي فيما بعد — الأمر الذي جعل سعد الدين يستقر في قوص^(٣) .

ولم يلبث أن وصل الأمير علم الدين سنجر للمسروري إلى القاهرة ، ومعه د ملوك النوبة ونساؤهم وبناتهم وعدة أسرى كثيرة ؛ ففريق السلطان الأسرى ونهادهم الناس د وبيعوا بالثلث اليسير لسكرتهم^(٤) .

غير أن قلاوون يكدهمناً بذلك النصر حتى جاءت الأخبار بأن سمامون

(١) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشریف الايام والمصور ص ١٥٤ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

ظهر مرة أخرى ساعياً لاسترداد مملكته ، وأنه نجح في إنزال الهزيمة بالحامية الماليلية وسيطر على دنقلة ، في حين فر ملك النوبة الجديد - بدمه - وجريس صاحب الجبل إلى القاهرة . وقد غضب السلطان المنصور قلاوون لهذه الأخبار وأمر فوراً بإعداد حملة كبيرة لتأديب سهامون (١) .

وفي تلك المرة أراد قلاوون أن تكون سيطرته على النوبة نهائية فعنى بإعداد الحملة إعداداً فائقاً ، فامتازت عن سابقتها بوفرة عدد السفن - من حرايق وغيرها - ، كما امتازت بوفرة عدد الأمراء المشتركين فيها ، فإلى جانب الأمير عز الدين أيمن الأفرم الذي عقدت له القيادة العليا ، ذهب مع الجيش الأمير قبجاق المنصوري والأمير بكتمر الجوكندار والأمير أيمن والى قوص ، فضلاً عن ملك النوبة الطريد وجريس صاحب الجبل (٢) .

وفي سنة ١٢٨٩ غادرت تلك الحملة - التي زاد عدد أفرادها عن أربعين ألفاً - القاهرة . فانضم إليها بالوجه القبلي كثير من أجناد الأمراء فضلاً عن العربان . ولكن لم تسلك الحملة تصل إلى نهر أسوان حتى توفي ملك النوبة فدفن هناك ، وأرسل الأمير الأفرم إلى السلطان يعلمه بذلك ويستشير فيما يفعله ، فأرسل السلطان إليه ابن أخت آخر للملك داود - كان معتقلاً بقلعة الجبل - لتعيينه ملسكا في دنقلة (٣) .

ويروى المقرئ أن تلك الحملة الجديدة التي أرسلها السلطان قلاوون إلى النوبة اتبعت نفس الخطة التي اتبعتها الحملة السابقة ، فانقسمت إلى نصفين : نصف سار على البر الغربي للنيل وعلى رأسه الأمير عز الدين الأفرم والأمير قبجاق ، والنصف الآخر سار بحذاء البر الشرقي تحت قيادة أيمن والى قوص

(١) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٨٢ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٧٤٩ .

وبسكتهم . أما جريس الذى لقبه المقر يري بلقب « نائب ملك النوبة » فقد تقدم الجند معه أولا كنز د ليؤمن أهل البلاد ويجهز الإقامات » (١) . ويبدو أن حملة الممالك لم تصادف مقاومة في ذلك الجزء الشمالى من بلاد النوبة — أى من بلاد الدالى — جزائريكا نيل — لأن هذا الجزء كان ولاية جريس « فسكر العسكر إذا قدم إلى بلد خرج إليه المشايخ والأعيان وقبلوا الأرض وأخذوا الأمان وطادوا » . ومن جهة أخرى فإن الممالك احترموا أرواح الأهالى وعتلكتهم في تلك الجهات ، رعاية لجريس .

على أن سياسة الممالك لم تلبث أن تبدلت عندما دخلوا نطاق نفوذ ملك النوبة ، إذ وجدوا الأهالى قد جلوا عن البلاد « طاعة لملك النوبة » ، فأخذ الممالك ينهبون ويقتلون من يصادفونه من الناس « فرعوا الزروع وخرّبوا السواقي » (٢) . وبفهم من ذلك أن سمامون عاد إلى خطته القديمة لجلا عن البلاد وتحاشى أن يصطدم مع الممالك في معركة فاصلة . وعندما وصل الممالك إلى دنقلة — عاصمة مملكة النوبة — وجدوا المدينة خالية ، إلا من شيخ واحد وعجوز ، أخبرا الممالك أن سمامون فر إلى جزيرة في النيل تبعد عن دنقلة خمسة عشر يوما (٣) .

وكان أن اتجه أيدير والى قوص بمن معه من جند إلى تلك الجزيرة لمطاردة سمامون ، حتى وصلوا إلى تجاههما فطلبوا منه الدخول في الطاعة وأمنوه فلم يقبل . ويبدو أن سمامون خشى أن تحاصره سفن الممالك في تلك الجزيرة ، فهرب منها جنوباً إلى جوة الأبواب على بعد ثلاثة أيام ، وعندئذ فارقه معظم جنده وأمراته فضلا عن الأسقف والقساوسة ومعهم الصليب الفضى الذى يحمل على رأس الملك

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) المقر يري : السوك . ج ١ ص ٧٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥٠ .

وتاج الملك^(١) ، وقد استسلم هؤلاء جميعا لأيدمر ، نخلع عليهم وعاد بهم إلى دنقلة ، وهناك في دنقلة توج المماليك الملك الجديد — الذى كان قلاون قد أرسله لهم — ملكا على النوبة ، بعد أن تعهد بالولاء لسلطان المماليك والوفاء بالالتزامات التى تعهد بها شكندره من قبل ، وبعد أن أحيا المماليك في دنقلة انتصارهم بأن أدوا ألعاب الفروسية وزيّنوا الحرايق والسفن فى النيل حيث لعب الزرقون بالنفط ، قفلوا راجعين إلى مصر ، واكتفوا بترك حامية صغيرة فى دنقلة لمساندة الملك الجديد^(٢).

أما سمّامون ، فإنه لم يكده يعلم بعودة المماليك ، حتى خرج من حجره مرة أخرى ، وعاد إلى دنقلة ليطرده الأمير بيبرس العزى قائد الحامية المماليكية ، فى حين قبض على الملك الذى عينه المماليك وعراه من ثيابه وألبسه جلد ثور ... وتركه حتى مات ، كما قتل حمريس^(٣).

وكان سمّامون يعرف أن سلطنة المماليك فى مصر لن تسكت عن ذلك الوضع ، ولن تغفر له عمله ، فأرسل رسالة إلى السلطان المنصور قلاون يسأله العفو ، وأنه يقوم بالبقاء المقرّر وزيادة ، وبعث رقيقا وغيره مقدمة . ويبدو أن المنصور قلاون كان فى ذلك الوقت قد ملّ حرب النوبة واستنفدت مشاكلة الداخلية وحروبها ضد التتار والصليبيين كثيرا من جهوده ، فرضى بما عرضه سمّامون وقبل تعهّداته ، وأقره على ما بيده من بلاد^(٤) ، وذلك بعد أن حلفه على يمين مشابه لليمنين التى حلف عليها شكندره^(٥). وقد ذكر النويرى

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥٣ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٠٠ .

(٥) القلاشندى : ج ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

أن السبب الذى دفع قلاون إلى قبول سياسة الأمر الواقع فى النوبة . وإقرار
سمامون على وضعه ، هو أن المنصور قلاون كان فى ذلك الوقت يتأهب
للاستيلاء على عكا بعد أن استولى على طرابلس ، ولذلك لم يكن لدى السلطان
متسع من الوقت أو الجهد لإرسال حملة جديدة إلى النوبة (١).

وخلاصة القول أن السلطان قلاون — مثل الظاهر بيبرس — اعتبر
النوبة جزءاً من مملكته الواسع ، ودليل ذلك أن كتاب ولاية العهد الذى
كتبه للملك الصالح علاء الدين ابن المنصور قلاون نص على سائر أقاليم
الدولة ، « ومن جملتها مملكة النوبة وما احتوت عليه » (٢).

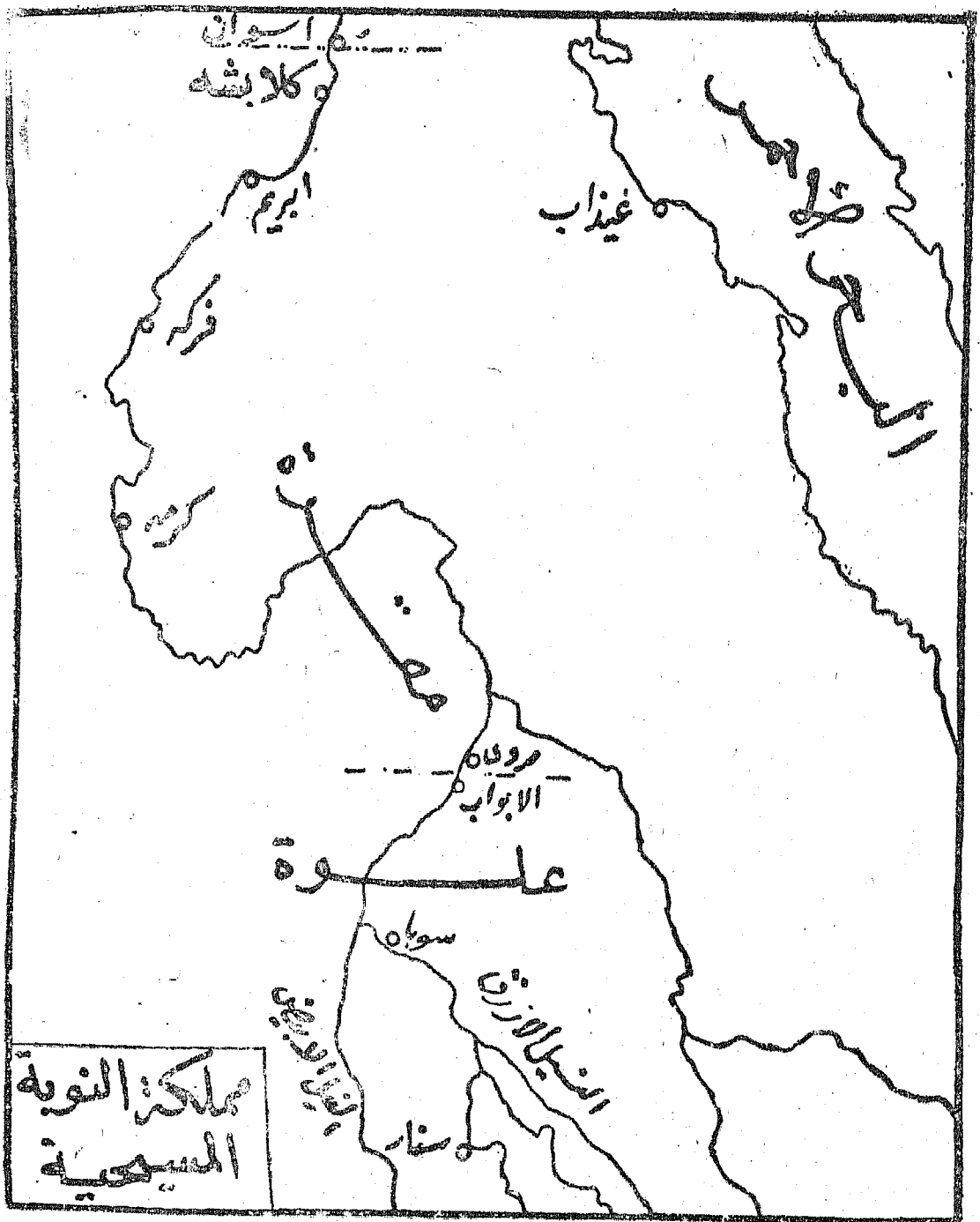
السلطان الأشرف خليل والنوبة :

على أن سمामون لم يف بالعهد الذى قطعه على نفسه إذ لم يكبد يعلم بوفاة
السلطان المنصور قلاون حتى قطع البقط المستحق عن سنة ١٢٩١ ، وبعث
إلى السلطان الأشرف خليل يعتذر بما أصاب بلاده من التخريب نتيجة « دخول
العساكر الإسلامية إليها كره بعد كره » ، وبأن إغارات الملك آدر صاحب
الأبواب قد زادت البلاد خراباً إلى خرابها (٣). لكن السلطان خليل
لم يقبل تلك الأعذار ، فأرسل الرسل إلى سمामون مهددة منذرة ، حتى سأل
الأمان وعندئذ أجابه السلطان خليل بن قلاون إلى طلبه ، كما شمل أم سمامون
وعتمته وبعض أهله بعطفه بوصفهم رهائن وأنزلهم فى دور الضيافة بالقاهرة
وبعد ذلك بقليل أرسل سمامون أخاه جريس — وهو غير جريس الذى
سبقته الإشارة إليه — برسالة إلى السلطان خليل يستعطفه لإرسال أمه إليه.

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .

(٢) النلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٥ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الألطاف الحفية ص ٢٩ — ٣١ .



وقد ذكر سمامون في رسالته « إن ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء » إشارة إلى مكانة المرأة عند أهل النوبة ، كما أرسل بعض الهدايا إلى السلطان^(١) . ويظهر أن العداء كان مستحكما في ذلك الوقت بين ملك دنقلة وصاحب الأبواب ، لأن سمامون أفرط في الشكوى من صاحب الأبواب ، وزعم أنه اعتدى على الهدية التي أرسلها للسلطان ، كما طلب من السلطان خليل ألا يفسح صدره لأي رسول يرسله ملك الأبواب^(٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن السلطان خليل لم ينفذ بكلام سمامون الممسول ، بل ضاق ذرعا بمأطلمته ، وقرر استخدام القوة لردعه ، وكان أن أنفذ السلطان الأشرف خليل بن قللاون حملة كبرى إلى بلاد النوبة للقبض على سمامون من ناحية وأمير آخر اسمه آني من ناحية أخرى . وقد ذكر يحيى الدين بن عبد الظاهر أخبار هذه الحملة في اقتضاب ؛ فقال إن الأمير الأفرم أوغل في مملكة النوبة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوب دنقلة في مطاردة الملك آني الذي فر ومعه سبعة أنفار إلى جهة الأناج^(٣) . ولمسكن الممالك لم يستطيعوا الاستمرار في مطاردة آني بسبب « شدة العطش ، ولأن البلاد التي وصلوا إليها خراب ، مأوى الفيلة والقردة والخنازير والزرافات والنعام » ، مما يثير إلى أن الممالك وصلوا إلى جنوب السودان . وقد اكتفى الممالك بتأديب تلك الجهات « ورجعوا بغنيمة » إلى دنقلة^(٤) . أما سمامون فلا تذكر عنه المراجع شيء ، ويغلب على الظن أنه هلك أثناء مطاردة الممالك له .

وفي تلك الأثناء وصلت تعليمات من السلطان الأشرف خليل بالقاهرة

(١) المرجع السابق ص ٣٩ — ٤٠

مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٦٠

(٢) ابن عبد الظاهر : الألفاظ الخفية ، ص ٣١ .

(٣) يحيى الدين بن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ص ١٥٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

إلى الأمير الأفرم بأن يعين أميراً نوبياً اسمه بدمه ملكاً على دنقلة ، وفي الحال جمع الأمير عز الدين الأفرم مقدمى الممالك وأكابر إملاكة النوبة ، واحتفل بتتويج بدمه ، وحلف الرعية بمين الولاء له ، ولكن ذلك المين جاء مشروطاً بطاعته لسلطان الممالك « ولولا مولانا السلطان ما أطعناك ومتى تغيرت أمسكتناك ؛ ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان لنا ملكاً فلاحاً أو جليلاً ، فإن بلاد النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته » (١) . وبعد ذلك حلف الممالك جريس — الذى كان نائباً للملك النوبة فى جزائر ميكائيل وعمل الدر — وبذلك تعهد كل من بدمه وجريس بطاعة سلطان الممالك « وأن أى من خرج عن الطاعة كان الآخر عوناً عليه لمولانا السلطان » .

وبعد ذلك شرع الأمير عز الدين الأفرم فى العودة بمن معه من جنود إلى القاهرة ، وبعد رحيله بخمسة أيام وصل كتاب من بدمه ملك دنقلة يفيد أن أهل المملكة عادوا إلى بلادهم وأنهم أخذوا فى عمارتها . كذلك وصل كتاب آخر من ملك الأبواب فى الجنوب يعتذر عن تأخره فى الحضور بنفسه والمثول بين يدى الأمير الأفرم لأنه كان مشغولاً بمطاردة آفى ؛ وأنه يسعى للسيطرة على بلاد الأبح ، فإذا تم له ذلك « صار جميع بلاد السودان فى قبضة مولانا السلطان وطاعته » (٢) .

وهكذا حققت حملة السلطان الأشرف خليل على النوبة نجاحاً كبيراً ولأننا وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط . وكان الأمير عز الدين الأفرم وهو فى طريقه إلى القاهرة قد طلب ثلثمائة رجل لركوب الأسرى ، فأرسلت إليه ، فدخل القاهرة وصحبته عساكره « متجملة فى أحسن دى » ؛ ومعه أحمال عديدة من غلات النوبة (٣) .

(١) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام والمصور ص ١٥٣ .

(٢) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٣) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام ص ١٥٥ .

السلطان الناصر محمد والنوبة:

ويبدو أن الحملات التي أرسلها سلاطين المماليك في مصر إلى النوبة منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس أفلحت في جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلطنة المماليك في القاهرة ويخشون بأسهم وسطوتهم. وهكذا ظل ملوك دنقلة يعبرون عن ولائهم بين حين وآخر لسلاطين المماليك، ويحتكمون إليهم فيما ينشب بينهم وبين بعض من خلاف. من ذلك أن الملك أمانى ملك النوبة أتى بنفسه إلى القاهرة سنة ١٣٠٤ يحمل الهدايا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ويطلب معونته ضد منافسيه وأعدائه. وقد استجاب الناصر محمد لنداء ملك النوبة، فأرسل معه تجريدة بقيادة والي قوص الأمير سيف الدين طقصبا، وبعد أن أنمت هذه الحملة مهمتها في مساعدة ملك النوبة عادت إلى مصر سنة ١٣٠٥^(١).

على أنه يبدو أن الأمور لم تستقر تماماً لآمانى ملك النوبة، بدليل أن أخاه كرنبس قتل سنة ١٣١١ ليحل محله في عرش دنقلة، وقد أحس الملك الجديد بحاجته إلى تأييد سلطنة المماليك، فأتى إلى القاهرة معلناً ولاءه للسلطان الناصر محمد حاملاً الجزية والضرائب المقرضة على بلاده^(٢).

ولكن كرنبس سرعان ما تنسكّر لسلطنة المماليك بمجرد استقرار الأمور بالنسبة له، وامتنع سنة ١٣١٦ عن إرسال البقطة إلى مصر. وكان أن أعد السلطان الناصر محمد حملة كبرى لتأديب كرنبس ووضع حد للمشكلة النوبية^(٣) وحشد لهذه الحملة عدداً كبيراً من الأمراء بقيادة الأمير عز الدين أيوب جها ركس عبد الملك^(٤). واصططبت هذه الحملة معها أحد النوبيين - هو سيف الدين عبد الله

(١) المقرئى : السلوكة ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٢١ .

(٣) الغلاشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٤) المقرئى : السلوكة ج ٢ ص ١٦١ .

برشبنو ابن أخت داود ملك النوبة الأسبق - لتتويجه ملكاً على النوبة بدلاً من كرنيس وكان برشبنو قد أسر في إحدى الحملات السابقة التي أرسلها سلاطين الممالك إلى النوبة وترى نشأ في الطباق السلطانية ضمن جملة عماليك السلطان واعتنق الإسلام^(١). والواقع إن تفكير سلاطين الممالك في تعيين بعض أبناء النوبة - الذين عاشوا وشبوا في مصر وتشرّبوا كثيراً من مظاهر الحضارة الماليسكية الإسلامية - ملوكاً على مملكة دنقلة ، ليدل على اتجاه جديد جدير بالتأمل والعناية. وترجع أهمية هذا الاتجاه في التاريخ إلى أن اختيار حاكم مسلم للنوبة كان كفيلًا بسرعة تحويل تلك البلاد إلى الإسلام ، وبالتالي إلى زيادة نفوذ العنصر العربي فيها ؛ وكل هذه أدت في نهاية الأمر إلى إسقاط مملكة النوبة المسيحية^(٢) . ذلك أن بنى كنز - وهم من عرب ربيعة الذين تطارقوا إلى بلاد النوبة في العصور الوسطى - أخذوا يتطلعون في ظل الاتجاه الجديد إلى ملك النوبة لأنهم مسلمون فضلاً عن أنهم تزوجوا من بنات البيت المالكي في النوبة ، حتى أن الملك كرنيس كان خال كنز الدولة أمير بنى كنز . ولما كان العرف عند ملوك النوبة قد جرى بتوريث أبناء الأخت ، فإن الملك كرنيس عندما علم برغبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتعيين ملك مسلم في عرش دنقلة فإنه أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين ... إلى الأبواب السلطانية وسأل شموله بالإفعام السلطاني في توليته الملك . وقد جاء في رسالة كرنيس إلى السلطان الناصر محمد ما نصه : إذا كان يقصده ولانا السلطان بأن يولى البلاد مسلم ، فهذا مسلم ، وهو ابن أختي . والملك ينتقل إليه من بعدى^(٣) .

ولكن السلطان الناصر محمد لم يستجب لتلك الرغبة ، ومضت حملته بقيادة

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ورقة ٩٥ .

اللقمى : أصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٥ - ٩٦ .

الأمير عز الدين أيبك وصحبتهما عبد الله برشليو إلى النوبة . وقد فر كرئيس إلى الجنوب من وجه جيوش المماليك ، ولكن ملك الأبواب قبض عليه وعلى أخيه أبرام وسلمهما لقائد الحملة المماليكية ، الذي طاههما إلى مصر سنة ١٣١٧ بعد أن تم تتويج عبد الله برشليو أول ملك مسلم على مملكة النوبة^(١).

أما كنز الدولة ، فقد اتخذ من وصول ملك النوبة وأخيه إلى القاهرة سبباً للمطالبة بالإفراج عنه ، فأذن له السلطان الناصر محمد بالسفر إلى أسوان ، ولكن ملك النوبة استهواه ، فواصل كنز الدولة سفره حتى دنقلة . وعندئذ رحب به الناس وحيوه كعادتهم في تهيئة الملوك بلفظ « موשאى ! ... موשאى »^(٢) وفي ذلك الوقت كان اسقياء الأهالي في النوبة من مملكتهم الجديد الذي عينه السلطان الناصر محمد . وهو عبد الله برشليو . قد بلغ أشده لأنه « غير قواعد البلاد وتعاظم نوعاً من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة بمثله » ، وحامل أهل البلاد بغلظة وشدة^(٣) . وهكذا استطاع كنز الدولة أن ينزل الهزيمة بالملك برشليو وأن يقتله ؛ وجلس كنز الدولة على عرش دنقلة . وقد ذكر النويرى أن كنز الدولة رفض أن يضع تاج الملك على رأسه « رعاية لحق أخواله وتعظيماً لهم وحفظاً لحرمتهم »^(٤) ولكن يبدو أن السبب الرئيسى الذى جعل كنز الدولة يرفض وضع التاج على رأسه ، هو أن ذلك التاج كان يحمل علامة الصليب ، وهو أمر لا يتفق وديانة كنز الدولة الإسلامية^(٥) .

وقد وجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر أن ما فعله كنز الدولة

(١) النويرى: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) النويرى: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٥) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ، ص ١٦٩ .

يعتبر تحدياً لمشيئة السلطنة المالكية وإخلالاً بهيبتها ومكانتها . لذلك رفض السلطان الناصر الاعتراف بكنز الدولة وأطلق سراح أبرام أخى كرئيس وأرسل إلى النوبة ليقبض على ابن أخته كنز الدولة . ولم يكذب أبرام يصل إلى النوبة حتى دخل كنز الدولة في طاعته وتنازل له عن الملك غير أن أبرام خدر بابن أخته وقبض عليه ليرسله إلى القاهرة ، لولا وفاة أبرام المفاجئة التي أوقفت ذلك الإجراء (١) .

وهكذا تكررت القصة مرة أخرى ، إذ مات أبرام ليعتلى كنز الدولة عرش النوبة من جديد سنة ١٣١٧ ، أما السلطان الناصر محمد فلم يقف مكتوف اليدين أمام تحدي كنز الدولة له ولرجاله ، وإنما بادر بإرسال حملة إلى النوبة سنة ١٣٢٣ بقيادة الأمير علاء الدين بن علي قراسنقر . وقد أرسل الناصر محمد بحملة تلك الحملة كرئيس ليعتلى عرش النوبة ، لا سيما أنه ورد في المراجع أن كرئيس اعتنق الإسلام عقب هجمته إلى مصر (٢) بدلا من كنز الدولة . وكان أن هجمت تلك الحملة في تحقيق أغراضها فهرب كنز الدولة من دنقلة واعتلى كرئيس العرش ، وليكن لم تذكر الحملة تلمسحب من النوبة حائدة إلى مصر ، حتى ظهر كنز الدولة من جديد واسترد عرشه (٣) .

المطابق بين دولة المماليك والنوبة في أواخر العصور الوسطى :

كانت حملة السلطان الناصر محمد على بلاد النوبة سنة ١٣٢٣ آخر حملة نسمع عنها في التاريخ أرسلها سلاطين المماليك لإخضاع النوبة . والواقع إن السبب

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١١٦ ،

النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٢) الغاشقىندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٥٠ .

في ذلك واضح ، هو أن سلاطين المماليك دأبوا منذ أيام بيبرس على إرسال حملات إلى النوبة للدفاع عن حدود مصر الجنوبية من جانب النوبيين . وكان لسلاطين المماليك سندوقى في تلك الحملات لأن عملاء النوبة كانت مسيحية ، حكمها ملوك مسيحيون ، الأمر الذى جعل سلاطين المماليك ينظرون إلى بلاد النوبة بوصفها ميداناً جديداً للجهاد إلى جانب الميدان الصليبي القديم في حوض البحر المتوسط .

ولكن الأمر انتهى في عصر الناصر محمد بن قلاوون بقيام كنز الدولة في حكم دنقلة ، ولم يكن كنز الدولة مسيحياً وإنما كان مسلماً انحدر من أصل عربى صريح . ثم إن الأمر لم يقف عند حد أن بلاد النوبة صار يحكمها ملك مسلم ، وإنما تعدى ذلك إلى أن تلك البلاد أخذت عندئذ - منذ أوائل القرن الرابع عشر - تهبط بالصبغة العربية الواضحة نتيجة لهجرة بعض القبائل العربية - عدا بنى كنز - إلى النوبة واستقرارهم فيها (١) . وهكذا لم يعد هناك مبرر واضح لأن يقوم سلاطين المماليك بالتدخل في شئون دولة مجاورة ذات صبغة عربية ويحكمها ملوك مسلمون ، لا سيما إذا كانت هذه الدولة في عهد الجديده قد جندحت إلى السلم ولم تعد مصدر خطر على حدود مصر الجنوبية . وإذا كان سلاطين المماليك قد تمسكوا فيما مضى بضرورة قيام ملوك النوبة بإرسال البقسط ، فإن هذه الضرورية صار لا مبرر لها أيضاً بعد أن غلب الطابع العربى الإسلامى على بلاد النوبة . ونستدل على هذا المعنى من عبارة ذكرها القلقشنندى نصها : فبعث السلطان كرنيس إليهم فليحكمهم ، وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم (٢) .

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقية من ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٢) القلقشنندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧٧ .

وكيفما كان الأمر ، فإن مملكة النوبة المسيحية سقطت في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقامت على أنقاضها وحدات عديدة صغيرة ذات صبغة إسلامية عربية ، ومنذ ذلك الوقت حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ١٥١٧ صارت العلاقة بين مصر والنوبة لا تتعدى بعض المبادلات التجارية المحدودة .

الفصل الخامس

بيت قلاون

أشرنا من قبل إلى أن المماليك لم يؤمنوا مطلقاً بمبدأ الوراثة في الملك ؛ فالأمراء جميعاً سواء والملك الأقوى والأكثر أنبياعاً والأوفر ذكاءً . وربما حاول المماليك أن يظهر وقسطاً من الوفاء للسلطان الراحل فيعينون ابنه بعده سلطاناً ؛ ولكن لا تلبث أن تنفثع الغيوم وتزول صدمة الموت وعندئذ يدرك كبار الأمراء أن ذلك الوضع غير طبيعي ، وأنهم لا يقولون أحقية في الملك عن السلطان الراحل ؛ ويكفي أنهم رضوا بحكمة حيناً من الدهر ، فلا مبرر لأن يخضعوا لابنه من بعده . أو ربما اشتد التنافس بين كبار الأمراء عقب موت السلطان ، فيتظاهرون - حسب النزاع - بموافقتهم على تعيين ابن السلطان الراحل ، حتى تنكشف الأمور ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوي الذي يبذل ملامه في سطوته وعصبيته المماليكية ، وعندئذ يسهل عليه عزل ذلك الابن وإحلال نفسه محله .

وهكذا نلحس في دراستنا لعصر المماليك عدم استمرار بيت واحد في الحكم مدة طويلة ، وإذا استطاع رجل مثل بيبرس أن يمكن لنفسه ويحلف الأمراء على احترام ولاية العهد لابنه من بعده - فإن تلك الأيمان كانت سرعان ما تنكث بعد وفاته لعدم إيمان المماليك بمبدأ الوراثة . ولم يحدث طوال القرنين ونصف القرن التي حكم فيها سلاطين المماليك مصر أن ظلت السلطنة في بيت واحد مدة طويلة . باستثناء بيت قلاون الذي حطم تلك القاعدة والذي يعتبر مثلاً فريداً في تاريخ المماليك لبقاء الحكم في بيت واحد أكثر من قرن (١٢٧٩ - ١٣٨٢) . ولا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى إيمان المماليك

في حقبة معينة بمبدأ وراثته الملك ؛ وإنما هي مجرد الصدف والظروف التي أحاطت بذلك البيت وبعض أفراد فضلاء عن أحوال البلاد عندئذ والدليل على ذلك أن أمراء المماليك لم ينتقدوا لبيت قلاون طوال ذلك القرن، وإنما قامت محاولات لعزل بعض سلاطين بني قلاون من الحكم، ونجح بعض الأمراء في تولي السلطنة فعلا في تلك الأثناء، ولكن التيار القلاوني كان لا يلبث أن يتغلب بعد قليل .

ولاشك في أن بقاء منصب السلطنة في بيت قلاون تلك المدة الطويلة، جعل عصر تلك الأسرة يكتسب طابعاً خاصاً يميز في تاريخ المماليك، وربما كان في بقاء اسم الجده قلاون، في سلسلة طويلة من أسماء السلاطين منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر، ما أضفى على ذلك العصر جواً خاصاً يميزاً . هذا بالإضافة إلى أن جميع مميزات وخصائص العصر المماليكي اكتملت ونضجت في ذلك العصر، فاستقر الحكم للمماليك تماماً في مصر والشام بعد فترة الاضطرابات الأولى التي أنهاها بيبرس بتثبيت أوتاد الدولة، وأخذت تتبلور النظم والقواعد التي سارت عليها سلطنة المماليك حتى أواخر أيامها؛ وبدأت تظهر بشائر النشاط التجاري الذي هاد على المماليك بالثروة الواسعة ومكنهم من إقامة تلك المنشآت الرائعة التي ما زالت بقاياها في مدن مصر والشام تنطق بمجدهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن عصر أسرة قلاون شهد حلقات بارزة في قصة الجهاد ضد التتار من ناحية والصليبيين من ناحية ثانية وفي أرض النوبة من ناحية ثالثة ؛ فضلاً عن النشاط الدبلوماسي والمعاهدات السياسية والاتفاقيات الاقتصادية مع كثير من القوى المعاصرة في إفريقية وأوربا وآسيا ... أدركنا في نهاية الأمر أهمية عصر بيت قلاون في تاريخ دولة المماليك .

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون : (١٢٩٠ - ١٢٩٣)

والواقع إن السلطان المنصور قلاوون نفسه لم يكن يتصور بأن السلطنة ستظل في أعقابه أكثر من قرن، لأنه كان مملوكاً قبل أن يكون سلطاناً، وحطم بنفسه مبدأ الوراثة عندما عزل سلامش - ابن الظاهر بيبرس - من السلطنة ليتولى هو الحكم بدلاً منه . وإذا كانت عاطفة الأبوة قد غلبت على المنصور قلاوون فأعلن ابنه الصالح علاء الدين سلطاناً في حياة أبيه ، فإن هذا الابن لم يلبث أن توفي في حياة أبيه أيضاً سنة ١٢٨٨ . وقد سبق أن أوضحنا كيف أن السلطان قلاوون رفض أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه الثاني خليل لاعتقاده في سوء خلقه وعدم أهليته لتولى الملك، ومع ذلك فقد شامت الظروف أن يتولى خليل السلطنة سنة ١٢٩٠

وسرعان ما أثبتت الأيام صدق نظرة الأب قلاوون وسبب مخاوفه من ابنه خليل . حقيقة إن خليلاً عرف بالشجاعة والبأس، وله مواقف مشهودة في محاربة الصليبيين والتتار والنوبيين ، وهو فوق هذا وذاك السلطان الذي اقترن اسمه في التاريخ بمحو آية الصليبيين من الشام - كما سبق أن أشرنا - ولكن ذلك كله جاء مصحوباً بنزعة تعسفية في أخلاقه ، فغدر بالأمراء وتعاظم عليهم واستخف بهم ؛ مما عجّل بنهايته . وفي ذلك يقول المؤرخ ابن أبياس : كان الأشرف بطالاً بكل من الحروب ليلاً ونهاراً . وكان مسعوداً في حركاته ولا يعرف في أبناء الملوك من كان يناظره في العزم والشجاعة والإقدام . . . ولكنه كان يسمع الكلام في الناس بالباطل من وزيره ابن السلجوس ، وكان ذلك سبباً لروايل ملكه . . . (١)

وتفصيل ذلك أن السلطان الأشرف خليل لم يكديتولى السلطنة سنة ١٢٩٠

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٦ .

حتى أخذ يغدر برجال الدولة وكبار الأمراء الذين كانت لهم الكلمة والنفوذ في عهد أبيه . ومنذ أن كان خليل ولياً للعهد ظهرت خلافات بينه وبين نائب السلطنة الأمير حسام الدين طر نطاي ، فحرض بعض الأمراء نائب السلطنة على التخلص من السلطان الجديد ، ولكن طر نطاي رفض الاستجابة لهم . وكانت النتيجة أن السلطان خليل باء بعد توليه السلطنة بأيام معدودات إلى القبض على طر نطاي وقتله فدرأ ، الأمر الذي أثار استياء الأمراء ومخاوفهم (١) . ولم يدرك السلطان خليل أنه بعمله إنما سعى إلى حتفه بظلفه ، لأنه عين الأمير بدر الدين بيدرا نائباً للسلطنة بدلا من طر نطاي ، ومنحه إقطاع الأمير طر نطاي نفسه . وكان أن ازداد نفوذ بيدرا في الدولة ، فأخذ يتطلع بدوره إلى السلطنة وازداد العداء بينه وبين خليل ، وهو العداء الذي انتهى بالقضاء على السلطان خليل نفسه .

ثم إن السلطان الأشرف خليل عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة وعين بدله شمس الدين محمد بن السلجوس . وقد ازدادت مكانة ابن السلجوس في الدولة بعد أن فوض إليه السلطان خليل الإشراف على شئون الأمراء . وهكذا ظهر التنافس بين بيدرا نائب السلطنة وابن السلجوس الوزير ، فأخذ الأخير يوشع قلب السلطان على بيدرا وأوممه أن أملاكه اتسعت ونفوذه ازداد حتى غدا خطراً على السلطان نفسه (٢) .

وقد أحس بيدرا بنية السلطان الأشرف خليل للغدر به ، ولكنه كان أقوى من أن يستطيع السلطان القضاء عليه في سهولة . ثم إن بيدرا لم يكتف بالحيلة والتحرز على نفسه . وإنما أخذ يدبر مؤامرة للإيقاع بالسلطان قبل أن يوقع السلطان به . وكان أن اغتتم بيدرا فرصة ركوب السلطان خليل للصيد

(١) بيمرس الهوادار : زبدة الفسكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٦٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٨٢ - ٧٨٣ .

في ناحية تروجه - قرب أبي المطامير بمديرية البحيرة - وانقض عليه بالسيف ثم تبعه بقية الأمراء المتآمرين مثل حسام الدين لاجين المنصوري وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين بهادر المنصوري . . . حتى خر السلطان قتيلًا بين أيديهم سنة ١٢٩٣ (١). ويقال إن عثمان السلطان خليل ظل ملقى في العراء يومين كاملين ، حتى حمل بعد ذلك إلى القاهرة ودفن فيها (٢).

السلطان الناصر محمد بن قلاوون : (سلطنة الأولى ١٢٩٣ - ١٢٩٤)

وبمقتل السلطان خليل تكررت نفس التثيلية التي حدثت عقب مقتل قطز من قبل ، إذ اجتمع الأمراء المتآمرون في مسرح الجريمة وقبل أن تجف دماء ضحياتهم لينشأوا في مصير السلطنة . وكان أن استقر رأيهم على تولية بيدرا سلطانًا خلفوا له وقبلوا الأرض بين يديه ، ولقبوه « الملك الرحيم » ، وقيل « الملك الأجدد » ، أو « الملك القاهر » ، أو « الملك الأوحده » (٣).

ولكن المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل - لم يرضوا عن ذلك الوضع ، فهبوا بزعامة الأمير زين الدين كتبغا للنار لاستاذم ، وطاروا بيدرا وأعوانه حتى لحقوا بهم في الطرانه من قرى كوم حماده بالبحيرة (٤). وهناك دارت معركة بين الطرفين انتهت بمقتل بيدرا وفرار معظم أعوانه . وبذلك يكون بيدرا قد أراد السلطنة لنفسه ولكن المقادير قهرته والدنيا الغرور غدوته (٥).

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النوح السديد ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٢) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤ - ٢٥ .

(٣) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ .

أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٣٠ .

(٤) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦ .

(٥) مفضل بن أبي الفضائل : النوح السديد ، ص ٥٧٤ .

وكان المنتظر أن يحاول الأمير زين الدين كتبغا بعد ذلك أخذ العرش لنفسه ، ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى كان السلطان خليل قد أنابه عنه بقلعة الجبل حال بينه وبين الوصول إلى القاهرة . ومن الواضح أن كلام هذين الأميرين كان يطمع فى الاستئثار بالسلطنة لنفسه ، ولما وجد كل منهما أنه أمام خصم قوى عنيد ، اتفق الطرفان على مبايعة محمد بن قلاون — أخى خليل (١) .

والواقع إن السلطان الناصر محمد بن قلاون يتمتع بأهمية كبيرة فى تاريخ دولة المماليك ، نظراً لطول حكمه ولما حدث فى عهده من أحداث وتطورات هامة ، فضلاً عن شخصيته التى جعلت الناس يتمسكون به ويرون فى بقائه تحقيقاً للاستقرار والأمن والرخاء . ولا نكون مبالغين إذا قررنا إن أهمية بيت قلاون لا تنبع من شخص السلطان المنصور قلاون مؤسس تلك الأسرة ، بقدر ما ترتبط بالسلطان الناصر محمد بالذات .

غير أن الناصر محمد بن قلاون كان صغير السن — لم يتجاوز التاسعة من عمره — وقت اعتلائه العرش . وكان من الصعب على ذلك الغلام أن يتحمل إدارة شئون تلك الدولة الواسعة ، لذلك يمكن القول أن سلطنته الأولى — التى امتدت من ١٢٩٣ حتى ١٢٩٤ كانت اسمية وأن السلطة الفعلية تركزت فى أيدي مجموعة من الأمراء أهمهم زين الدين كتبغا نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى الوزير (٢) .

وتمشياً مع التطور المألوف فى عصر المماليك كان المفروض أن يسمى كل من هذين الأميرين لافتزاع العرش لنفسه من السلطان الصغير . وفعلاً

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٩٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٨ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

تركز النزاع بين الأمير كتبغا والأمير الشجاعى ، وانضم إلى كل منهما عدد كبير من الانصار والانباغ . ويقال إن الأمير الشجاعى بدأ بالعدوان وسعى للتخلص من كتبغا ، ولكنه لم يوفق في تحقيق هدفه . ولكن كتبغا كان أوفر قوة ، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد يقول له ما نصه : « إن الشجاعى قد انفرد برأيه في القبض على الأمراء ولا بد من حضوره ، فإنه بلغنا عنه ما أنكراه . » ولما امتنع الشجاعى عن الحضور ، زحف كتبغا على رأس رجاله إلى القلعة وحاصروها وفيها السلطان الناصر والأمير الشجاعى ، وقطعوا عنها الماء يوما كاملا . ويبدو أن أم السلطان الناصر محمد خشيت عندئذ على ولدها ، وأدركت أن حقيقة النزاع بين الأميرين كتبغا والشجاعى هي الوصول إلى العرش ، فأرسلت إلى كتبغا تقول : « إيش قصدك حتى نفعله ؟ إن كان قصدك أن تطلع ابنى من السلطنة فافعل ! » . ولكن كتبغا رد - على طريقة أمراء المماليك - متظاهرا بالزهد في السلطنة وبالرغبة في إقرار الأمور لا أكثر ، فقال : « أعوذ بالله السميع العليم ! والله لو بقي من أولاد أستاذنا (المنصور قلاوون) بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ، ولا سيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك ، وإنما قصدنا الشجاعى لإخماد الفتنة ! » (١) .

وقد حاولت أم الناصر محمد التوسط بين الأميرين الثائرين لإخماد الفتنة ، فأوحى إلى ابنها بأن يعرض على الأمير الشجاعى نيابة حلب ، ولكنه الشجاعى لم يعبه الاقتراح ، وأغلظ على السلطان في القول ، فقبض عليه المماليك الذين كانوا في حضرة السلطان وقتلوه (٢) .

وبذلك أصبح كتبغا صاحب الكلمة الأولى في شئون الدولة ، ولا حيلة للسلطان الصغير الناصر محمد معه ، ولم ينقص كتبغا سوى لقب السلطنة وشعارها . وصادف أن ظهر بالقاهرة عندئذ الأمير حسام الدين لاجين ، فادى ظهوره إلى

(١) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٨٠١

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣١ .

ثورة المماليك الأشرفية - ممالك الأشرف خليل - واضطراب الأحوال في القاهرة . وكان لاجين ما كراً ، فبادر بالانصال بالأمير كتبغا وزير له لإعلانه سلطاناً بعد خلع الناصر محمد ، لأن الأشرفية مادام الملك الناصر في الملك شوكنهم قائمة ، (١) . لذلك استغل كتبغا اضطراب الأحوال في القاهرة نتيجة لثورة الأشرفية وجمع الأمراء للتشاور في الموقف ، فقال بعضهم : « لقد فسدت الأحوال ليكون السلطان صغير السن وطمع المماليك في حق الرعية ، ومن الرأي أن نولي سلطاناً كبيراً يجمع المماليك عن هذه الأفعال » (٢) وهكذا تم عزل السلطان الناصر محمد بعد سنة واحدة من توليه الحكم ، وأعلن كتبغا سلطاناً سنة ١٢٩٤ . على أن يكون حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة .

السلطان المملوك كتبغا : (١٢٩٤ - ١٢٩٦)

اعتلى كتبغا عرش سلطنة المماليك ، فأخذ يتقرب إلى أمراء المماليك بالقول والعمل . أما السلطان الناصر محمد فقد عزل له كتبغا في بعض قاعات القلعة ومعه أمه وحجبه عن الناس . وقد اختار كتبغا الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة ، كما عين صاحب نجر الدين الخليلي وزيراً (٣) .

على أن الظروف شادت أن تتجمع عدة عوامل لتجعل الناس يكرهون كتبغا ويتمنون زوال ملكه . وأول هذه العوامل أن اعتلاء كتبغا عرش السلطنة جاء مصحوباً بانخفاض النيل واشتداد الغلاء نتيجة للجذب ، حتى انتشرت المجاعة وفشت

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٣٢ .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٨٠٧ - ٨٠٨ .

الأمراض و صار الناس يسقطون صرعى في الطرقات . و يروى المؤرخون أنه بلغ من حدة الأزمة التي نتجت عن الجوع والمرض أنه كان يموت في القاهرة كل يوم بضعة ألوف ، ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملقى في الممرات اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأمواتهم والسقماء بأمراضهم ،^(١) ولم تقتصر الطامة على مصر وحدها ، بل امتدت إلى الشام حيث توقف نزول المطر ، وخرج النائب وسائر الناس مشاةً للاستسقاء^(٢).

وإذا كانت المجاعة التي صحبت اعتلاء كتبغا عرش السلطنة قد جعلت الناس يتشاءمون من حكمه وسوء طالعهِ ، فإن ثمة عاملاً آخر كان له أثره في ازدياد كراهية الناس لكتبغا . ذلك أن كتبغا كان مغولى الأصل أسره السلطان المنصور قلاوون في واقعة مصر الأولى وجعله في زمرة عماليكه حتى شب وتحرر ووصل إلى مرتبة الإمارة ومن ثم شق طريقه إلى السلطنة^(٣). ولكن وصول كتبغا إلى منصب السلطنة لم ينسهِ أصله وعهيرته ، فلم يكف يعلم أن طائفة كبيرة من التتار الوثنيين فروا صوب مصر خوفاً على أنفسهم من غازان محمود أيلخان مغول فارس الذي اعتنق الإسلام ، حتى رحب كتبغا بهم وقد أطلق على تلك الطائفة من المغول اسم العويرانية أو الأويرانية ، وما كادوا يصلون إلى القاهرة حتى أمر كتبغا الأمراء والمجند بالخروج لاستقبالهم ، ثم رحب بهم السلطان وأقطعهم الاقطاعات الوفيرة وأجرى عليهم الأرزاق السخية وأنزلهم بالحسينية^(٤).

ولاشك في أن ترحيب كتبغا بذلك العدد الضخم من التتار الذين زادوا

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩

(٢) الماروى : السلوك ج ١ ص ٨٠٨

(٣) أبو الهاسن : المنهل الصافي ج ٣ ورقة ٤٧

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١ - ٢٣

عن عشرة آلاف ، واستضافته لهم في الوقت الذي اشتد الغلاء في البلاد وندرت الأقوات ومات الناس بسبب الجوع ، كل ذلك أدى إلى استيلاء الناس من كتبغا . وزاد سمعة كتبغا سوءاً بين الجند والشعب أن أولئك الأورانية كان معظمهم وثنيين مما أظهر كتبغا في صورة حامى الوثنيين . ولا يخفى علينا أن المسلمين في مصر والشام لم يذسوا للتنازع دوانهم على الوطن الإسلامي منذ أيام هولاكو ، لاسيما وأن خطر مغول فارس على بلاد الشام كان لا يزال ماثلاً حتى أيام كتبغا (١)

ثم كان أن زار كتبغا بلاد الشام سنة ١٢٩٥ لإقرار الأمور فيها ؛ وعندئذ اشتد غضب الأمراء عندما عزل السلطان كتبغا نائب السلطنة بالشام أغرلو العادل (٢) هذا إلى أن كتبغا لم ينعم على أمراء الشام بالخلع والإعامات والهدايا ، كما جرت به عادة السلاطين من قبل ، فإن عادة الملوك إذا دخلوا مدينة مثل دمشق أن يقدقوا الهدايا والصلوات على الأمراء ، (٣)

ولا يخفى علينا أن الأمير حسام الدين لاجين كان من وراء جميع مظاهر الاستيلاء ضد كتبغا . حسام الدين هو الذي حرص كتبغا على عزل السلطان الناصر محمد ، وهو شريكه في المؤامرات التي انتهت بعزل الناصر ، ولذا فإنه كان يعتقد أن حقه في الملك لا يقل عن حق كتبغا نفسه . وإذا كان حسام الدين لاجين قد تظاهر بالتمتعف والزهد في منصب السلطنة ورضى بأن يكون نائبا للسلطان ، فإن ذلك جاء نتيجة لإحساس لاجين عندئذ بخرج موقفه بوصفه من المتأمرين على قتل الأشرف خليل . ولكن مع مضي الأيام ثبت لاجين مركزه وضعف نفوذ المماليك الأشرفية الذين كان لاجين يطمح سيطرتهم ، فلم يعد هناك

(١) Wiet : L.Egypte Arabe, p. 464.

(٢) المرقزي : السلوك ج ١ ص ٨١٧

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : التهج السعيد ٥٩٢ - ٥٩٤ .

مانع من أن يكشف لاجين عن وجهه الحقيقي ويكيد للسلطان كتبغا لانزع السلطنة منه .

وفعلا أخذ لاجين يحرك عوامل البغض ضد كتبغا ، بل لأنه رسم الخطة مع بعض أعوانه لقتله أثناء عودته من الشام إلى مصر ؛ مثلما فعل بيبرس مع قطز . ولما وصل كتبغا إلى اللجون - قرب طبرية - سنة ١٢٩٦ ، أحس بالموامرة ، ففر إلى دمشق ، ولم يتمكن المتآمرون إلا من قتل الأميرين بتخاص وبكتوت الأزرق ، وهما من أقرب أعوان كتبغا .

السلطان المنصور لأجلين : (١٢٩٦ - ١٢٩٨)

فر كتبغا ليحتمي بقلعة دمشق ، فانضم رجال الجيش إلى حسام الدين لاجين الذي استولى على خزائن السلطان ؛ ثم حاول أن يسترضى الأمراء ليبياعوه بالسلطنة ؛ فجهمهم وقال لهم : أنا واحد منكم ولا أخير نفسي عنكم ولست موليا عليكم من ماليكي أحدا ولا أسمع فيكم كلاما أبدا ، ولا يصيبكم ما أصابكم من ماليك العادل (كتبغا) وأنتم خوشد اشيني (زملائي) ومحل إخوتي ، (١) . وبمثل هذه النغمة والعيارات المعسولة استطاع لاجين أن يكتسب تأييد الأمراء الذين تعودوا سماع تلك الأقوال من كل سلطان مغتصب جديد ، ثم عدم الارتباط بها بعد وصوله إلى السلطنة ، فاشتروا على لاجين عدم الاستبداد برأيه أو تسليط ماليكه - وخاصة منكوتر - عليهم (٢) .

وهكذا بايع الأمراء لاجين بالسلطنة سنة ١٢٩٦ ، فركب بشعار السلطنة

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٦٥ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٤٨ .

قاصداً مصر حيث خف أمره مصر للقائه قرب بلبيس وحلفوا له يمين الولاء ،
ثم دخل القاهرة واستقر في القلعة بعد أن تلقب بالسلطان الملك المنصور^(١).

أما في بلاد الشام فقد خطب أولاً للمنصور لاجين في غزة والقدس
وصغد والسكر و نابلس ؛ لأن كتبغا كان لا يزال مقيماً في قلعة دمشق .
ولكن لم تلبث أن جاءت الأخبار بسلطنة المنصور لاجين ، وعندئذ انفض
الناس والأمراء في شمال الشام عن كتبغا الذي لم يسمعه سوى أن يتنازل عن
السلطنة طائفاً مختاراً ؛ وأعلن أنه يرضى بالمكان الذي عينه السلطان
الملك المنصور حسام الدين لاجين^(٢) . وقد حدد له السلطان لاجين الإقامة
في صرخد - من أعمال دمشق - فذهب إليها معزراً - ولعله رأى ذلك
الحل أوفق بكثير ، وأسلم عاقبة من المقاومة .

على أن مشكلة كتبغا لم تكن المشكلة الوحيدة التي واجهت لاجين في
مستهل حكمه ، إذ كانت أمامه مشكلة الناصر محمد الذي ظل مقيماً في القاهرة
ينظر إليه الناس بوصفه صاحب الحق الشرعي الأول في السلطنة . لذلك
فكر لاجين في إبعاد الناصر محمد إلى السكر بعد أن أمنه على حياته وتعهد
له بأنه سيعيده إلى السلطنة متى يبلغ سن الرشد^(٣) .

وبعد أن استراح لاجين نسبياً من خطري كتبغا والناصر محمد ، أخذ
ينظم شئون الحكم ، فاختار الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائباً للسلطنة
ولكن لم يلبث أن عزله وعين بذلك الأمير سيف الدين منكوتمر^(٤) . ولا يخفى علينا
أن كبار الأمراء كانوا يحشون من أول الأمر أن يؤثر لاجين الأمير منكوتمر

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٢٢ - ٨٢٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٧ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٩ ورقة ٣١٥ .

(٤) مفصل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٥٩٩ .

عليهم وأنهم اشتراطوا - كما سبق أن رأينا - على لاجين ألا تدخلوا
بملوكك منكوتمر في التحكم والتدبير، فتضل^(١). لذلك استاء الأمراء مما
فعله لاجين وأخذوا يكيدون له. وزاد من سخطهم أن السلطان حسام الدين
لاجين رآك البلاد - وهو الروك المعروف باسم الروك الحسامي -
وبمقتضاه قل نصيب الأمراء والجنود من أرض مصر. أما عامة الناس فقد
غضبوا من لاجين لإهماله وتنفى كل أحد زواله وكثر الدعا عليه^(٢).

وفي ذلك الوقت كان بمالك الأشرف خليل يتحينون الفرصة للثأر من
لاجين الذي تأمر على قتل أستاذهم، وبذلك تكاملت عناصر المؤامرة.
ولم يلبث المتآمرون - بزعماء الأمير كرجي مقدم البرجية - أن نجحوا
في قتل لاجين ومنكوتمر جميعاً سنة ١٢٩٨، وبذلك تجددت مشكلة مله
العرش مرة أخرى^(٣).

سلطنة الناصر محمد الثانية: (١٢٩٨ - ١٣٠٨)

انجبت الأفكار عقب قتل لاجين إلى إحضار الناصر محمد وتنصيبه سلطاناً
مرة أخرى ولكن ثمة ظاهرة لمسناها في تاريخ دولة المماليك منذ مولدها، هي
أن قاتل السلطان يعتبر نفسه دائماً أحق الأمراء بمنصب السلطنة. لذلك حدث
عندما اجتمع الأمراء - عقب مقتل لاجين - لبحث الموقف واختيار سلطان
أن نهض الأمير كرجي وقال: يا أمراء! أنا الذي قتلت السلطان وأخذت
نار أستاذي. والملك الناصر صغير ما يصلح. ولا يكون السلطان إلا هذا
- وأشار للأمير طنجي - وأنا نائبه^(٤). ولم يلبث أن كثرا طامعون واشتد

(١) بيبس الدوادار: زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٧٢.

(٢) ابن أبياس: بدائع الدهور، ج ١ ص ٣٧.

(٣) أبو المحاسن: المهمل الصافي ج ٣ ورقة ٦٥ - ٦٨ (مخطوط).

(٤) المقرئ: السلوك، ج ١ ص ٨٦٦.

الشقاق . وكما هي العادة دائماً في تاريخ المماليك - رؤى حسماً للخلاف -
اختيار السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً من جديد ، لا إيماناً من الأمراء
بأحقية ، ولكن حتى ينجلى الموقف ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل
القوى الذى يسهل عليه عزل الناصر محمد وفرض نفسه سلطاناً .

وكان أن استدعى الناصر محمد من الكرك سنة ١٢٩٨ ، فاستقبل في
القاهرة إستقبالا حماسياً رائعاً ، ورحب به أهالى مصر أجمل ترحيب ،
ولا يحفى علينا أن عامة الناس رأوا في حكم أسرة قلاوون نوطاً من الاستقرار
وحسماً للمنازعات بين الأمراء .

ومهما يكن من أمر ، فقد جددت أيمان الولاء للناصر محمد بالقلمة ،
وعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير
استاداراً . وقد استغل هذان الأميران بالذات صغر سن السلطان واستعباد
بالأمور ، وضيقا على الناصر محمد ، حتى أنهما تدخلتا في أبسط أموره
الشخصية مثل المصروف والمأكل والمشرب (١) .

وفي ذلك الوقت ظهر التنافس واضحاً بين الأمير بيبرس وسلار ، الأمر
الذى أدى إلى عدم استقرار الأمور في البلاد . وزاد من سوء الأحوال
في تلك الفترة احتدام الصدام بين طوائف المماليك البرجية الذين أخذ نفوذهم
يزداد تدريجياً ، في حين كان الأمير سلار يشرف على أمور المماليك الصالحية
والمنصورية . وهكذا اضطربت أحوال البلاد نتيجة لقيام سلطان قاصر
في الحكم ، وانشغال أمراء المماليك وطوائفهم بالمنافسات فيما بينهم وبين
بعض ، في الوقت الذى اشتد عبث العربان في الداخل ، وتجدد خطر التتار
على بلاد الشام .

وقد تكلمنا عما دار من حروب بين المماليك والتتار في ذلك الدور .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٠ .

أما العربان ، فقد اشتهروا فرصة انشغال الحكام في العاصمة وأكثروا الفساد في البلاد ، وبخاصة في الوجه القبلي ، فقطعوا الطرق على التجار وفرضوا عليهم إتاوات ؛ بل لأنهم امتنعوا عن أداء الخراج واختاروا اثنين منهم سمو أحدهما بيبرس والآخر سلار^(١) . وكان أن أفتى العلماء والقضاة بقتالهم ، فخرج إليهم الأمراء ، « وضربوا على الوجه القبلي حلقة كحلقة الصيد » ، أي أحاطوا بالأعراب من جميع النواحي حتى أخضعوهم وقتلوا كثيراً منهم فضلاً عن الأسرى^(٢) .

أما السلطان الصغير الناصر محمد فقد عيل صبره من تضيق الأمراء عليه ، فاتصل بالأمير بكتمر الجوكندار وطلب منه مساعدته في التخلص من الأميرين بيبرس وسلار . ولكن هذين الأميرين عرفا خبر المؤامرة ، فأحاطوا بالسلطان في القلعة وعندئذ أرسل السلطان الناصر محمد إلى الأمراء يقول : « ما سبب هذا الركوب على باب اسطبلي ؟ إن كان غرضكم في الملك فما أنا متطلع إليه ، خذوه وأبعثوني أي موضع أردتم » ، فرد الأمراء عليه قائلين : « إن السبب هو من عند السلطان ومن المماليك الذين يحرضونه على الأمراء »^(٣) .

وجدير بالذكر أن عامة الناس أظهروا عطفاً كبيراً على السلطان الناصر محمد في تلك الأزمة فتجمعوا وأخذوا يصيحون : « يا ناصر يا منصور ... الله يخون من يخون ابن قلاون » ، الأمر الذي أدى إلى عدة امتعابا كانت بين المماليك والعامة^(٤) .

وأخيراً فقد صبر الناصر محمد بعد أن شكاً ضيق يده وحرمانه من أبسط الحقوق الشخصية دون أن يجد مغيثاً ، لذلك تظاهر برغبته في الحج حتى

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٩٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٩ - ١٥٢ .

(٣) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٢ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

يسمح له بمغادرة البلاد ؛ ولكنه لم يكده يصل إلى قلعة الكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذ ذلك المكان محلا لإقامته وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلاار باعتزاله الحكم سنة ١٣٠٨ (١)، وبذلك انتهت سلطنة الناصر محمد الثانية التي استمرت نحو عشر سنين ونصف .

السلطانة المظفر بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ - ١٣٠٩)

ولم يتوقع كبار الأمراء في الدولة أن يغربهم الناصر محمد ، فغضبوا عندما تسلموا رسالته لأنهم فيما يبدو كانوا لا يستطيعون العثور على أداة سهلة في أيديهم مثل الناصر محمد الصغير . لذلك بادروا بالسكتابة إليه يطلبون منه العودة فوراً إلى مصر ومعه ماله ، وإلا طردوه من الكرك وحرموه من حقه في العرش ، نخل عنك الصبي وقم واحضر إلينا . وإلا بعد ذلك نطلب الحضور ولا يصح لك ، وتندم ولا ينفعك الندم (٢)، ولكن الناصر محمد أصر على موقفه وأبى العودة وكتب إلى الأسراء يقول لهم ما نصه ودعوني أنا في هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره .

وهكذا تجددت مشكلة شغل العرش من جديد ، فعرض الأمراء منصب السلطنة على الأمير سلاار بوصفه نائب السلطنة ، ولكنه امتنع عن قبول المنصب وخاف أن يحل به ماحل بكتيغا ولاجين ، فأشار سلاار إلى زميله الأمير بيبرس الجاشنكير وقال : والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك ولا يصلح له إلا أخى هذا ، وكان أن بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير — الذي تلقب بالمظفر سنة ١٣٠٨ ، واختير الأمير سلاار نائباً للسلطنة — على عادته (٣) .

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج ٨ من ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) القرظي : السلوك ج ٢ من ٤٦ .

ومن الواضح أن المشكلة الأولى التي واجهت السلطان الجديد كانت مشكلة الناصر محمد الذي مازال يتمتع بعطف كثير من الناس داخل مصر وخارجها. وقد بادر السلطان المظفر بيبرس (الثاني) بكتابة تقليد بمنح الكرك للناصر محمد، ظناً منه أن ذلك الحل فيه ترضية كافية للناصر وأشياعه. ولكن عدداً كبيراً من كبار الأمراء بالشام — وبخاصة قراسنقر نائب حلب وقبجق نائب حماه وأسندمر نائب طرابلس — رفضوا الاعتراف بسلطنة بيبرس الجاشنكير وأصروا على ولائهم للناصر محمد بن قلاوون، الأمر الذي أثار مشكلة خطيرة في وجه المظفر بيبرس. ثم إن هؤلاء الأمراء الثلاثة عقدوا اجتماعاً في حلب وقرروا مكانة الناصر محمد في الكرك ليعرضوا عليه مساعدتهم، فإما أن نأخذ له الملك وإما أن نموت على خيولنا. ولكن الناصر محمد أشار عليهم بالتريث والصبر، لأن هذا الأمر ما يزال بالعجلة (١).

ومن هذا يبدو لنا أن الناصر محمد عندما استقال من السلطنة لم يكن زاهداً فيها، ولكنه أثر الانتظار في الكرك إلى أن تتضح الأمور وعقدت يستطيع أن يسترد سلطاته بسهولة. هذا وإن كانت رغبة الناصر في التريث قد دفعت قراسنقر وقبجق وأسندمر إلى التظاهر بالدخول في طاعة المظفر بيبرس الذي اطمأن بعد ذلك على مهير عرشه وقال: «الآن تم لي الملك» (٢).

على أن السلطان الناصر محمد لم يظل ساكناً في الكرك؛ إذ كان الصبي الصغير قد شب وأصبح قوي يافعاً؛ فأخذ ينشط في معاملاته مع الناس بالشام وأكثر من الركوب للصيد ومعه مائة (٣). ويبدو أن ذلك النشاط أقلق مضاجع المظفر بيبرس، ففكر في الحد من نشاط الناصر، وأرسل إليه يطالبه بإرسال

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨ — ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٣) المقرئى: السلوك ج ٢ ص ٥٢.

ما عنده من الخيل والماليك وما استولى عليه من أموال الكرك ، « ولا جرى عليك ماجرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ونفيهم إلى القسطنطينية » (١) ، وعندئذ أخذ يظهر دهاء الناصر محمد الذى اشتهر به فى التاريخ ؛ فرأى « أن المغالطة أولى ، وحاول أن يستر نياته فكتب إلى المظفر بيبرس فى مصر يسترضيه ويقول له « المملوك محمد بن قلاون يقبض على الأرض . . . وإن مولانا السلطان هو الذى ربانى وما أعرف لى والداه غيره ، وكل ما أنا فيه فثقه وعلى يديه » (٢) ؛ وفى الوقت نفسه أرسل الناصر محمد إلى أمراء الشام - أعنى فواب حلب وطرابلس وحماه - يشكو لهم سوء وضعه وتهديد السلطان بيبرس الجاشنكير له ويستدر عطفهم عليه ويطلب مساعدتهم له ؛ فقال لهم ما نصه « لما اشتد على الضئك من الأمراء خرجت لهم من مصر وتركتم لهم الملك ورضيت من الدنيا بأحق المساكين وأضيق الأماكن ليستريح خاطرى من التكد ؛ فما تراجعوا عني وأرسل المظفر يهدنى بالنفى إلى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب منى ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدى المنصور (قلاون) عليكم من حق العتق والتربية ، وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال » (٣) ؛

• ولم يكن أمراء حلب وطرابلس وحماه فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد المظفر بيبرس ، فقد كان غرضهم الوئوب عليه وإعادة الناصر محمد إلى عرشه منذ إعلان المظفر بيبرس سلطاناً ، ولكن الناصر محمد هو الذى أشار عليهم بالتريث حتى يحين الوقت المناسب ، وهاهو الوقت المناسب قد حان ، فلم يبق إلا أن توجه ضربة قاصمة ضد بيبرس الثانى لإعادة الحق إلى صاحبه .

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥١ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٥١ .

وكان أن انضم عدد كبير من أمراء الشام إلى الناصر محمد الذي أخذ يعد
العدة للزحف على مصر . ولم يكبد أهل مصر يعلمون بنية الناصر محمد في
الحضور إليهم حتى أظهروا سرورهم ، وانفض معظم الأمراء في مصر ذاتها
عن المظفر بيبرس ؛ وغادر بعضهم - مثل نوغاي - البلاد قاصداً الناصر
محمد لمؤازرته في استرداد عرشه . وقد أطلع هؤلاء الأمراء الناصر محمد
على حقيقة الحال في مصر وشجوه على دخول البلاد حيث سيرحب به عامة
الناس والجند ؛ الأمر الذي شجبه على اتخاذ تلك الخطوة (١) .

أما السلطان المظفر بيبرس ، فبدلاً من أن يتدارك أموره ويرضى بالامر
الواقع ، حاول أن يبذل محاولة أخيرة للاحتفاظ بعرشه ، فطلب من الخليفة
العباسي المستكفي بالله أن يحدد له عهد البيعة سنة ١٣٠٩ ، فتم ذلك وكان
المنادون في القاهرة يصيحون : سلطانكم الملك المظفر وطيبوا قلوبكم ومن
تكلم فيما لا يعنيه قتل (٢) ، ولكن كل هذه الإجراءات لم تفلح في تغيير مجرى
الأمور . وأخيراً وجد بيبرس الجاشنكير نفسه في موقف لا يحسد عليه ،
بعد أن انفض عنه الشعب ومعظم الأمراء وصار وحيداً أمام الأخبار التي
أخذت تترى عن قرب تحرك الناصر محمد . ويقال إن الأمير سلار نائب
السلطنة رأى من واجبه أن يبصر السلطان بحقائق الأمور ، فدخل عليه
وقال له : يا مولانا السلطان ؛ إن غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد
تسحبوا من القاهرة وتوجهوا إلى الملك الناصر بالكرك ، وقد وقع الاختيار
على عوده ، ومن رأى أن ترسل إلى الملك الناصر لتسأله في مكان تتوجه
إليه أنت وعيالك فلعله يجيئك إلى ذلك ؛ وإن لم تبادر إلى هذا دهمتك
العساكر وهجموا علينا وأنت هنا (٣) .

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) زبترشتين : تاريخ المماليك ص ١٣٩ .

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٥٢ .

وفي تلك الأثناء جاءت الأخبار بأن الناصر محمد خرج من الكرك قاصداً دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا حاراً وأقيمت له الحظبة وقدم له أمراء الشام وفروض الولاء^(١). ولم يسع السلطان المظفر بيبرس إزاء تلك الأخبار سوى أن يعلن تنازله عن العرش، فأرسل إلى الناصر محمد يسترضيه ويطلب منه العفو ويقول له ما نصحه^(٢) إن حبستني عددت ذلك خلوة وإن نفيقتي عددت ذلك سياحة وإن قتلتنني كان ذلك لي شهادة^(٣)؛ وطلب من الناصر أن يمنحه الإقامة في الكرك أو صهيون أو حماء. ريدو أن بيبرس الجاشنكير أحس فعلا بأن بقاءه في القاهرة صار متعذرا، فقرر الخروج إلى أطميح بعد أن استولى على مافي خزائن الدولة من أموال. وعندما سمع العامة خبر هروبه تبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجوه بالحجارة^(٤).

سلطنة الناصر محمد الثالثة: (١٣٠٩ - ١٣٤٠)

وأخيراً خرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة فوصلها في سلام واستقبل في جميع البلاد التي مر بها بالترحاب والسرور، حتى دخل قلعة الجبل وبذلك بدأت سلطنته الثالثة.

وتعتبر هذه السلطنة الثالثة للناصر محمد على جانب كبير من الأهمية، إذ ظهرت فيها شخصيته بعد أن أصبح شابا يافعا، فعزم من أول الأمر على القبض على زمام الأمور في الدولة بنفسه وعدم الاعتماد على كبار الأمراء يتحكمون فيه كما حدث في المرتين السابقتين. هذا إلى أن حكم الناصر محمد في تلك المرة استمر مدة طويلة بلغت إحدى وثلاثين سنة (١٣٠٩ - ١٣٤٠) وهي مدة لم يتمتع

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٥.

(٢) المرجع السابق ج ٨ ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٣) المعين: عقد الجمان، ج ٢٢ ق ١ ص ١٦٨ (مخطوط).

بها سلطان واحد من سلاطين المماليك السابقين أو اللاحقين ؛ الأمر الذى أعطى عصر الناصر محمد طابعا خاصا فريدا ، والذى جعل اسم الناصر محمد يحتل مكانة خاصة في قلوب الناس . وساعد على يريق تلك الهالة التى أحاطت به عصر السلطان الناصر محمد ، أن دولة المماليك بلغت عندئذ أقصى درجات الانساع والعظمة بعد أن نجحت في قهر التتار وطرد الصليبيين من الشام وبدأت في صورة القوة العظمى في الشرق الأدنى بوجه خاص والعالم الإسلامى بوجه عام . وأخيرا فإنه لا يخفى علينا أن شخصية الناصر محمد نفسه كان لها أثرها في رسم صورة الإطار العام لعصره ؛ فقد وصف المؤرخون ذلك السلطان بأنه كان « ملوكا عظيما ، محظوظا ، مطاعا ، مهابا ، ذا بطش ودهاء ، وحزم شديد وكيد مديد ... » (١) .

وقد بدأ الناصر محمد سلطنته الثالثة بالانتقام من كبار الأمراء الذين أذلوه ، فألقى القبض على بيبرس الجاشنكير قرب غزة وهو يحاول الفرار إلى الشام ، واستحضر الناصر محمد غريمه ليؤنبه على سوء أفعاله ويذكره بمواقفه ، فقال له مانصه : « أئذ كر وقد صحت على وقت كذا بسبب فلان ، ورددت شفاعتى في حق فلان ، واستدعيت نفقة في وقت كذا من الخزانة ففقتها ، وطلبت في وقت حلوى بلوز وسكر ففقتى ياركن الدين أنا اليوم أستاذك وأمس تقول لما طلبت أوز مشوى ما يعمل به » (٢) وبعد ذلك أمر السلطان الناصر محمد بقتله فقتل ؛ في حين ألقى الأمير سلار في السجن إلى أن مات (٣) .

وقد ظن بعض أمراء المماليك أن الناصر محمد في ذلك الدور هو الناصر محمد الذى عهدوه في الأدوار السابقة ، فحاول الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى ج ٣ ورقة ٢٥٠ .

(٢) المقرئى : السلك ، ج ٢ ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٦ .

تدبير مؤامرة لخلع الناصر محمد وإقامة ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى محله في السلطنة ؛ كما حاول المماليك الأشرفية إشعال نار الثورة من جديد . ولكن السلطان الناصر محمد قبض في تلك المرة بيد من حديد على شئون الحكم فأمسك بالأمير مظفر الدين موسى وزجه في السجن ، وقلم أظفار المماليك الأشرفية ، ولم يتساهل مع أي أمير - في مصر أو الشام - شك في ولائه وإخلاصه له^(١).

وهكذا أثبت الناصر محمد كفاية نادرة ومقدرة في تصريف شئون الدولة بما أضفى عليه وعلى حكمه مهابة كبيرة في الداخل والخارج فكانت به سائر الملوك وهادوه وهابوه ، وصار جميع عسكر مصر في قبضته^(٢) ، ولا أدل على موجة الرخاء التي عمت مصر في ظل حكم الناصر محمد من المنشآت العديدة والعمائر الضخمة التي أقامها ذلك السلطان من مدارس ومساجد وخانات وسبل وقصور ؛ وما زالت بقايا بعض هذه المنشآت قائمة في مصر والشام . وقد وصف المقرئى السلطان الناصر محمد بأنه كان « محبا للعمارة ، كما ذكر أنه كان ينفق في كل يوم على العمارة سبعة آلاف درهم فضة ، أي ما يساوي ثلثمائة وخمسين دينارا ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستوى الأسعار في ذلك العصر »^(٣).

هذا كله بالإضافة إلى نضوج النظم المماليكية في عصر السلطان الناصر محمد ، فاستقرت دواوين الحكومة واستحدثت كثير من التطورات في نظم الحكم ، وألغيت بعض الوظائف الكبرى - مثل وظيفة نائب السلطنة ووظيفة الوزير - واستحدثت بدله وظائف أخرى مثل وظيفة ناظر الخاوص واهتم كذلك السلطان الناصر محمد بتنظيم الموارد المالية وزيادة الدخل عن طريق

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٤ - ٢٥ .

المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) ابن مياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٣ .

(٣) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٠٦ .

الإعاش الاقتصادي ؛ مما يشير إليه في مواضع معينة من هذا الكتاب .

وفي جميع هذه الأعمال ، استعان السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمجموعة طيبة من أمرائه المخلصين . غير أنه يبدو أن الناصر محمد كانت لديه دائماً عقدة من ناحية الأمراء ، فظلت علاقته بهم تتصف بالشك والريبة ، واشتهر عنه في التاريخ أنه كان يقرب الأمير منه ويزيد من ألقابه ويضفى عليه الكثير من ألوان التشریف ، حتى إذا ما أحس بازدياد نفوذه غدر به فجأة وتخلص منه بطريقة أو أخرى . وتبدو تلك السياسة التي اتبعها السلطان الناصر محمد تجاه الأمراء بوضوح في علاقته بالأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري الذي ولاه الناصر نيابة بالشام ثم غدر به بعد قليل ، وفي علاقته بالأمير تذكز الحسامي المنصوري الذي ولاه السلطان الناصر جميع بلاد الشام وزاد في ألقابه الكثير وصاحره ، ثم أبعد عن مناصبه وتخلص منه في نهاية الأمر (١).

عصر أولاد الناصر محمد : (١٣٤٠ - ١٣٦١)

لم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من شاكاة أولئك السلاطين الذين نسمع عنهم في عصر المماليك والذين حكم الواحد منهم عاماً أو بضعة أعوام وإنما استطاع الناصر محمد أن يحتفظ بالحكم ستين طويلاً ، مما مكن لأولاده وأحفاده في قلوب الناس . ثم إن الظروف التي أحاطت بعصر الناصر محمد وكيفية عزله مرتين وتوليه الحكم على ثلاث دفعات ، وما انتاب البلاد والعباد أثناء الفترات التي اعتزل فيها الحكم من مجاعات وشدائد وخوف ونقص في الأموال والأقوات ... كل ذلك جعل المعاصرين يزدادون تعلقاً بالناصر محمد وبيت قلاوون ويرون في بقائهم في الحكم ضماناً كافياً للاستقرار والرخاء .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٧٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

ولعل هذا هو السر في بقاء السلطنة سنين طويلة في ذرية الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - وهو أمر ليس له شبيه في تاريخ سلطنة المماليك .

ولم يكن السلطان الناصر محمد نفسه أقل رغبة في الاحتفاظ لذريته بالملك من بعده ؛ من ذلك أنه عهد بالملك لابنه الأمير ناصر الدين آتوك سنة ١٣٣١ فآقره الأمراء على ذلك « وأذعنوا لذلك كله » . وكان أن ركب آتوك بشعار السلطنة ووزعت الخلع على كبار الأمراء وكبار الموظفين . ولكن لم يلبث أن غير السلطان الناصر محمد رأيه « ورسم أن يلبس آتوك شمساً للأمراء » ؛ وربما كان السبب في ذلك صغر سنه إذ كان عندئذ في التاسعة من عمره (١) . وكيفما كان الأمر ، فإن آتوك لم يلبث أن توفي بعد بضعة سنوات في حياة أبيه سنة ١٣٤٠ ، في الوقت الذي اشتد المرض بالناصر محمد نفسه . فجمع كبار الأمراء وأوعاهم باختيار ابنه سيف الدين أبي بكر سلطاناً من بعده ، فتعهدوا له بذلك (١) .

وبوفاة السلطان الناصر محمد سنة ١٣٤٠ دخلت دولة المماليك مرحلة جديدة في تاريخها ، يمكن تسميتها عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده . وأهم ما يلاحظ على هذه المرحلة - التي استمرت حتى سقوط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك البرجية أو الشراكسة سنة ١٣٨٢ - هو ازدياد نفوذ الأمراء وتعاقب عدد كبير من أبناء السلطان الناصر محمد ثم أحفاده في منصب السلطنة ومعظمهم كانوا صغاراً أو أحداً مما جعلهم أنعوبة في أيدي كبار الأمراء .

أما أبناء الناصر محمد الذين ولوا منصب السلطنة على التوالي من بعده فعددهم ثمانية حكموا إحدى وعشرين سنة (١٣٤٠ - ١٣٦١) وبذلك يكون

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٣٠ .

متوسط حكم الواحد منهم عامين ونصف تقريباً ، مما يشهد على مدى عدم
الاستقرار الذى شهدته البلاد فى ذلك العصر .

وكان أول أولئك السلاطين من أولاد الناصر محمد السلطان سيف الدين
أبو بكر الذى تلقب بالمنصور (١٣٤٠ - ١٤٣١) . ولم يكد هذا السلطان
بلى السلطنة بعد وفاة أبيه حتى دب الخلاف بينه وبين الأمير قوصون أنابك
العسكر . وكان سيف الدين أبو بكر شاباً فى العشرين من عمره ، ليست له
خبرة بأخلاق كبار الأمراء والأعيان ، فاستثار قوصون بقية الأمراء ضده ،
وقال لهم ما نصه : هذا السلطان يريد أن يقتلكم ولا يخلي أحداً منكم ، (١)
وعندئذ استجاب الأمراء لقوصون الذى قبض على السلطان ونفاه إلى قوص
حيث قتل بعد قليل ، قبل أن تمر ثلاثة أشهر على اعتلائه عرش السلطنة (٢) .

وبعد قتل السلطان أبي بكر ، استحضر قوصون أخاه علاء الدين كجك
وولاه السلطنة بلقب الأشرف (سنة ١٣٤١) . وكان السلطان الأشرف
كجك فى الخامسة من عمره ، ولذا لم يكن منظر آمنه أن يكون له رأى مسموع
فى إدارة شئون البلاد ، فظل فى السلطنة خمسة أشهر وعشرة أيام لم يكن له
فيها أمر ولا نهى . وتدير أمور الدولة كلها إلى قوصون ، (٣) .

وكان أن خلع الأمراء كجك وعينوا بدله أخاه أحمد الذى لقب بالناصر
(١٣٤٢) . وكان أحمد وقت تعيينه سلطاناً مقيماً بالكرك ، فلم يكد يحضر إلى
مصر حتى رغب فى العودة إلى الكرك مرة أخرى ، وفعلوا انتقل إليها وترك
الدواوين فى مصر . وهكذا ساءت أوضاع البلاد بعد أن صار السلطان مقيماً فى
الكرك فى جوف الصحراء ، ناكاً مصر والشام للأمراء الذين د شق عليهم غيبة

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٦٨ - ٦٧٠ .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٥٩٣ .

السلطان منها، واضطربت أحوال القاهرة وصارت غوغاء .. وعندما طلب
الأمراء من السلطان الحضور إلى قاعدة مله بالقاهرة ، رد عليهم قائلاً :
« لاني قاعد في موضع أشتهي ، وأي وقت أردت حضرت إليكم » (١) .

ولم يرض الأمراء عن ذلك الوضع فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة - ثم
قتلوه فيما بعد - وأحلوا محله أخاه اسماعيل الذي لقب بالصالح (١٣٤٢-١٣٤٥) .
وقد وصف المقرئى السلطان الصالح اسماعيل بأنه « أعرض عن تدبير الملك
بإقباله على النساء المطربين » . ومع انخفاض إيرادات الدولة وقتئذ فإن العمار
والمنهآت ظلت تستأجر بما لا يخفى ضخمته من المال (٢) . وليست هناك أهمية خاصة
لعهد الصالح اسماعيل سوى أنه شارك في قتل أخيه السلطان السابق الناصر أحمد
بعد أن ساءت سيرته في السرك . ولم يلبث الصالح اسماعيل نفسه أن مرض
وتوفي سنة ١٣٤٥ .

أما السلطان الكامل شعبان (١٣٤٥ - ١٣٤٦) ابن الناصر محمد الذي
تولى السلطنة بعد أخيه الصالح اسماعيل ، فلم يكن أقل من أخيه عبثاً ومجوناً
واستهتاراً بمصالح الحكم ، فأغضب الأمراء ، وحاول قتل أخويه حاجي وحسين
ولكن الأمر انتهى بالقبض عليه وعقد قتلته أخوه حاجي الذي تولى السلطنة
وتلقب بالمظفر (١٣٤٦-١٣٤٧) (٣) .

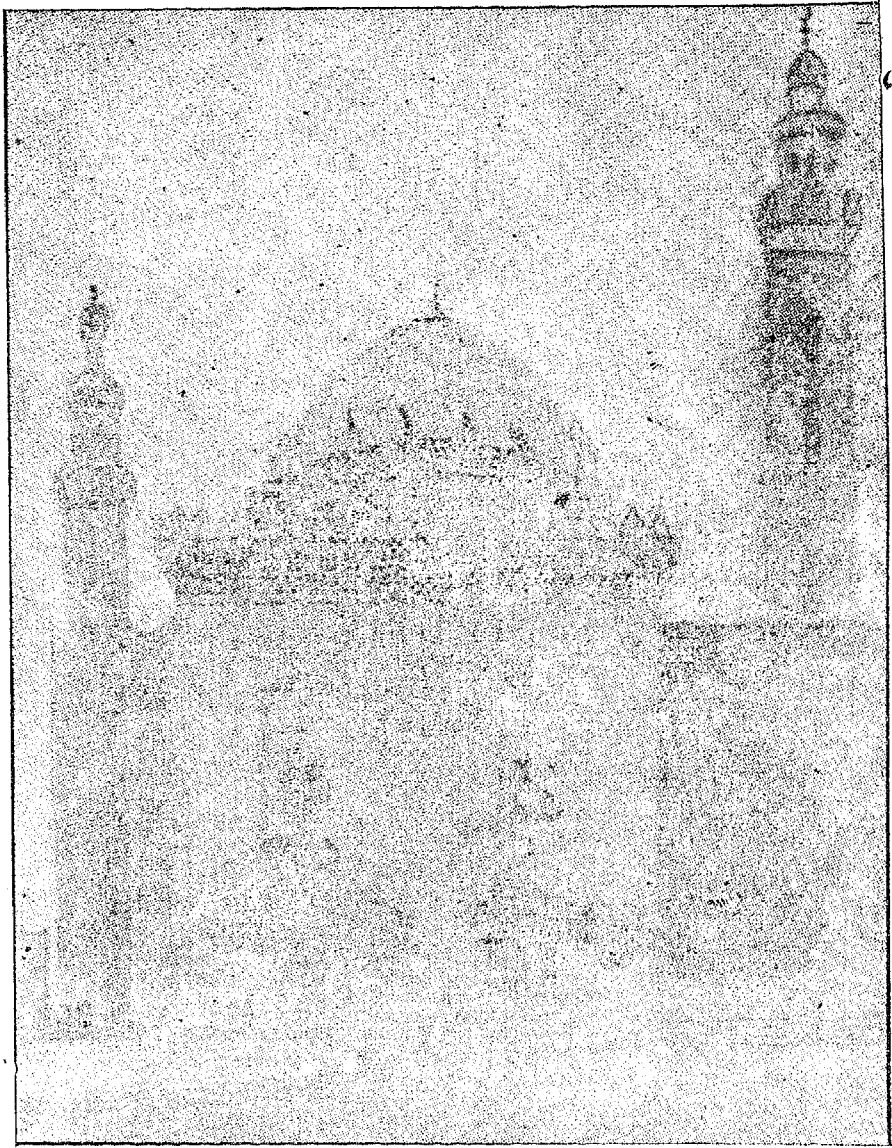
وكان المظفر زين الدين حاجي في الحادية عشر من عمره عندما اعتلى عرش
السلطنة ، فانشغل باللعب واللهو ، وتشاغل بلعب الحمام مع «الأوباش» الأمر
الذي أغضب الأمراء فقتلوه قبل أن تمر سنة على اعتلائه العرش (٤) .

(١) أبو الجاسن : النجوم ج ١٠ ص ٦٩ .

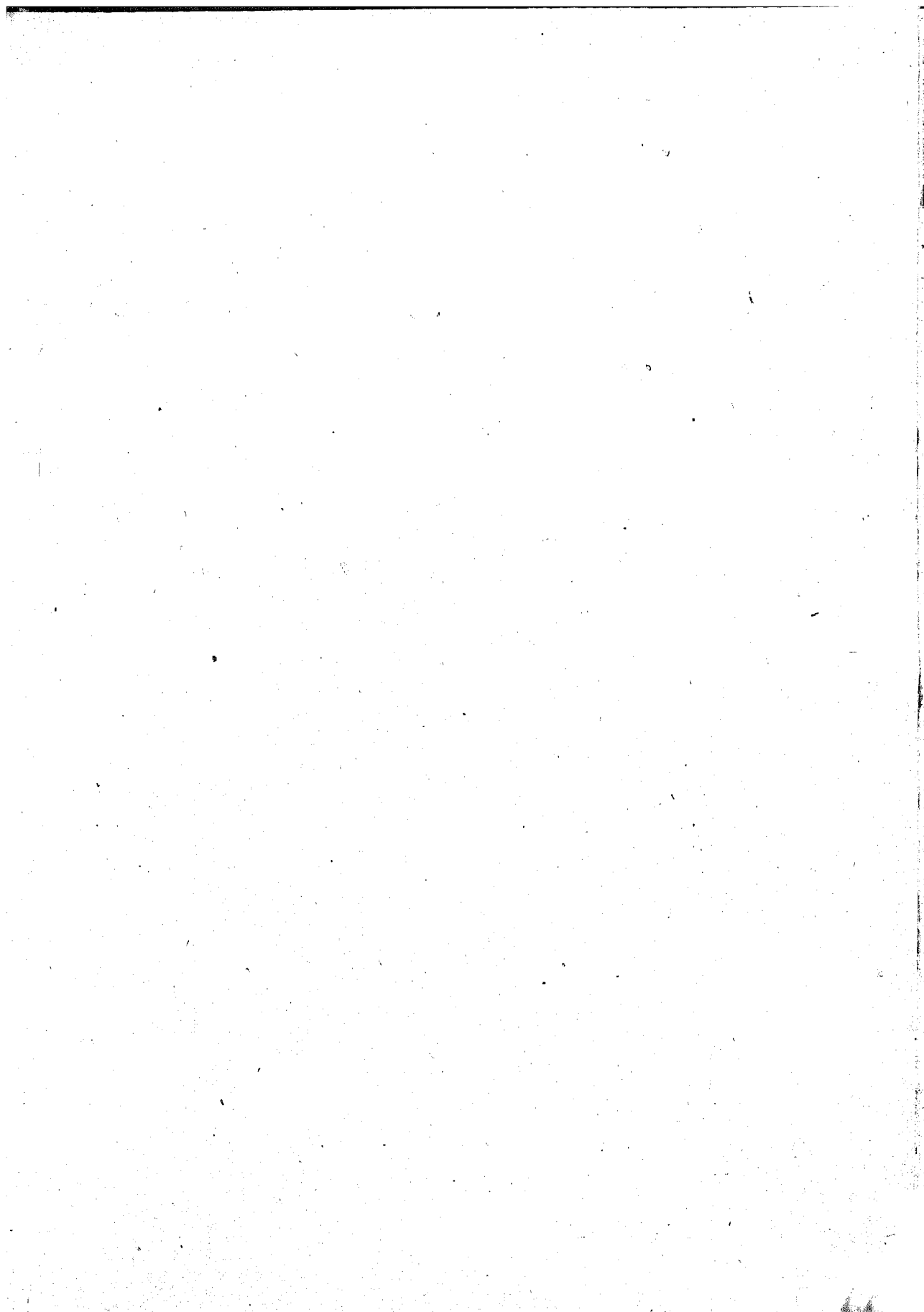
(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٧٩ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٨ .

(٤) أبو الجاسن : النجوم القاهرة ، ج ١٠ ص ١٥٨ ، ١٧٢ - ١٧٣ .



جامع السلطان حسن بالقاهرة



ولم يكن السلطان الناصر حسن (١٣٤٧ - ١٣٥١) الذي ولي السلطنة بعد ذلك أفضل حالا من إخوته ، إذ تولى السلطنة وهو في الحادية عشرة من عمره ، فظل العوبة في يد كبار الأمراء الذين رتبوا المهزوف اليومي للسلطان بحيث لا يتعداه ، ولم يسمع بمثل ذلك أن يكون ملك يجلس على تخت الملك ، ويصرف الأمور بالعزل والولاية ، وتحمل إليه أموال مصر والشام ولا يتصرف منها في شيء^(١) ، وعندما حدث خلاف بين السلطان الناصر حسن والأمراء ، لم يصعب على الأمراء إلقاء القبض على السلطان وحبسه ، وتعيين أخيه الصالح صلاح الدين بدله سلطاناً (١٣٥١ - ١٣٥٤) . وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن السلطان الصالح بأنه «لم يكن له في سلطنته إلا مجرد الاسم فقط ، لغلبة (الأمراء) شيخون وعاز وصرفتمش على الأمر ، لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقدها وإليه أمورها لا غيرهم»^(٢) . وسرعان ما انتهى أمر السلطان الصالح إلى العزل والحبس بالقلعة ، وعندئذ أهاد الأمراء الناصر حسن إلى السلطنة^(٣) .

وقد قضى السلطان الناصر حسن في سلطنته الثانية أكثر من ست سنوات (١٣٥٤ - ١٣٦٠) باشر فيها شئون الحكم بنفسه لأنه كان قد بلغ سن الرشد . وقد أجمع المؤرخون على وصف السلطان الناصر حسن بالشجاعة والكرم والعقل فكان «محباً للرعية ، وفيه لين جانب ، حمداً سائر خصاله» . كما اهتم بالعمارة وأنشأ كثيراً من المباني الفاخرة . ومع ذلك فإن الناصر حسن لم يكن بمنجاة من تدخل كبار الأمراء في شؤونه وبطشهم به ، حتى انتهى الأمر بأن قبض عليه الأمير يلبغا . وقد اختلفت الأقوال فيما حدث للناصر حسن بعد ذلك ، وإن كان الغالب أن ممالك يلبغا دقتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض^(٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٥١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، ج ١٠ ص ٢٨٧ .

(٣) ابن مياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٤ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ١٠ ص ٣١٤ .

وبقتل الناصر حسن انتهى عصر أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون،
وانتقل الحكم إلى أحفاد الناصر محمد منذ سنة ١٣٦١ .

الوباء الأسود :

ومن هذه الصورة القائمة التي يرسمها التاريخ لعصر أبناء الناصر محمد، يتضح
لنا أن البلاد غدت نهياً لمجموعة من أمراء المماليك ، يتلاعبون بالسلطتين
الأحداث حسب ما يحلو لهم . أما عامة الأهالي في مصر فكانوا يقفون غالباً موقف
المتفرج ، ليكون لمقتل سلطان ليقوموا الأفراح والزينات للسلطان الجديد .
وهكذا عاش أهل مصر والشام من الفلاحين والتجار وغيرهم في تلك الفترة
بين تيارات داخلية متضاربة ومؤامرات بين الأمراء متعاقبة . وليس هناك
ما يستحق الإشارة في تلك الفترة بالنسبة لأحوال البلاد الداخلية سوى انتشار
الوباء الأسود في أنحاء الدولة سنة ١٣٤٩م (٥٧٤٩) .

والمعروف أن العالم - مشرقه ومغربيه - شهد في العصور الوسطى كثيرًا من
الآزمات الاقتصادية التي جاءت مصحوبة بانتشار الأوبئة نتيجة لعدم الإنسان
عن التحكم في قوى الطبيعة من ناحية ولانتشار الجهل وضعف وسائل العناية
الصحية من ناحية أخرى . على أن وباء من الأوبئة لم يستأثر باهتمام المؤرخين
مثلما استأثر الوباء الأسود، نظرًا لقسوته وخطورة نتائجه واتساع انتشاره في
بلاد الشرق والغرب جميعاً^(١) . ويصف المؤرخ المقرئ كيفية انتشار هذا
الوباء فيقول ما نصه : ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم ، بل عم أقاليم
الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتى حييتان

(١) من الوباء الأسود وأثره في أوروبا، انظر المؤلف:

أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٠٩ .

البحر وطير السماء ووحش البر، ثم يشرح بعد ذلك كيف أصيبت بلاد المغول
بالوباء الأسود حتى دامت خيولهم وصاروا كلهم جيفا مرمية، ثم أخذ
الوباء يزحف شرقاً عن طريق بلاد المغول وغرباً عن طريق القسطنطينية،
حتى وصل إلى الشام ومنها إلى مصر. أما أعراض ذلك الوباء، فكانت ظهور
خراج صغير خلف أذن الإنسان وتحت لبطه، ولا يلبث بعد ذلك أن يبصق
المصاب دماً ثم يموت بعد عدة ساعات.

وقد انتشر ذلك الوباء في مصر والشام انتشاراً فظاعاً فصار الناس يموتون
كل يوم بالآلاف، وغدت الأرض لا يوجد من يزرعها أو يهدد أرباب الأموال
في أموالهم وبذلوا للفقراء، وكان انتشار هذا الوباء في سلطنة الناصر حسن
الأولى، فبادر السلطان والأمراء إلى النجاة بأنفسهم وخرجوا جهة مريافوس
ولا تخفى علينا الآثار الخطيرة التي ترتبت على انتشار ذلك الوباء، إذ أفقرت
الأرض لعدم وجود من يفلحها، وأفقرت الأسواق من البائعين والمشتريين
وانحلت إقطاعات كثيرة لوفاة أصحابها وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر...
وأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز... وبطلت
الأفراح والأعراس من بين الناس... وفي ذلك قال بعض الشعراء (١):

فهذا يوصى بأولاده	وهذا يودع إخوانه
وهذا يهوى أشغاله	وهذا يجهز أكفانه
وهذا يصلح أعداءه	وهذا يلاطف جيرانه

وخلاصة القول أن انتشار الوباء الأسود في عصر أبناء السلطان الناصر
محمد جاء ليزيد أحوال البلاد سوءاً فوق سوء.

(١) المقريزي: السلوك ج ٢ ص ٧٧٠ - ٧٨٥.

عصر أمجاد الناصر محمد (١٣٦١ - ١٣٨٢) :

لم يكد الأمير يلغا يعزل السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد ويقتله حتى اختار صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجي ابن الناصر محمد سلطانا سنة ١٣٦١ . وبذلك بدأ عصر أحفاد الناصر محمد ، وهم أربعة تعاقبوا في منصب السلطنة بين سنتي ١٣٦١ ، ١٣٨٢ . ولم يختلف عصر أحفاد الناصر عن عصر أولاده في صفاته العامة التي يمكن تلخيصها فيما يلي :-

١ - صغر سن السلاطين الذين تعاقبوا على دمت السلطنة ، وهي الحقيقة التي تتضح إذا عرفنا أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣) تولى السلطنة وسنه ١٤ سنة ، والسلطان الأشرف زين الدين أبوالمعالى شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٦) تولى السلطنة وسنه عشر سنوات والسلطان المنصور علاء الدين هلي (١٣٧٦ - ١٣٨١) تولى السلطنة وسنه ست سنوات والسلطان الصالح زين الدين أمير حاج (١٣٨١ - ١٣٨٢) تولى السلطنة وسنه إحدى عشر سنة .

٢ - كانت النتيجة الطبيعية لصغر سن السلاطين هي ازدياد نفوذ كبار الأمراء واشتداد سطوتهم ، وتحكمهم في مصالح البلاد والعباد ، وتلاعبهم بالسلاطين الصغار - إما بالزل أو بالتعيين - وفق أهوائهم .

٣ - اشتد الصراع بين كبار الأمراء بعضهم وبعض وازداد التنافر والعداء بين طوائف المماليك الذين انقسموا شيعة وأحزابا يتقاتلون في شوارع القاهرة بين حين وآخر ، مما أغرق البلاد في حالة شديدة من الفوضى .

٤ - ازداد نفوذ طائفة المماليك البرجية ، أو الجراكسة ، ازديادا مضطردا وهو الأمر الذي سنعرض له بالتفصيل فيما بعد . وتكفي الإشارة الآن إلى أن طائفة البرجية هي التي استطاعت أن تكسب الجولة النهائية في الصراع الذي

احتدم بين طوائف المماليك ، حتى تم لها انتزاع السلطنة سنة ١٣٨٢ وتأسيس دولة المماليك البرجية أو الجراكسة وبذلك انتهت دولة المماليك البحرية وانتهت أسرة قلاون .

هـ - اشتد الانحلال الخلقي في ذلك العصر - عصر أحفاد الناصر محمد - بشكل واضح ، وكان السلاطين وكبار الأمراء هم مصدر البلاء فاشتهر سلاطين ذلك العصر بالإدمان في شرب الخمر ، حتى قيل عن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣) إنه كان لا يفارق من السكر ساعة وعنده جوقة مغنيات نحو عشرة من الجوارى يدقون بالطارات عند الصباح والمساء ، كما أنه كان يفسق في حريم الناس ويخل بالصلوات .. (١) .

محمدة بطرسى لوزجنان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ :

وإذا كانت البلاد قد ابتليت في عصر أولاد الناصر محمد بانتشار الوباء الأسود - كما سبق أن أشرنا ، فإن عصر أحفاد الناصر محمد ابتليت فيه مصر بحملة صليبية كبرى خربت الإسكندرية سنة ١٣٦٥ ، وتعتبر هذه الحملة من الحفقات الأخيرة في سلسلة الحروب الصليبية .

والواقع إن الحروب الصليبية - كما سبق أن أشرنا - لم تنته بطرد الصليبيين نهائياً من الشام سنة ١٢٩١ ، وإنما استمرت ذبول تلك الحروب أمداً طويلاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وفي ذلك الدور الختامي من أدوار الحروب الصليبية ، استمرت دولة المماليك تنهض بدورها كاملاً في تلقى ضربات الصليبية من ناحية وفي الدفاع عن الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ضد هجمات الصليبيين من ناحية ثانية ، ثم في الثأر من المعتدين وتأديبهم من ناحية ثالثة .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧ .

وكان لطرده الصليبيين كلية من الشام رد فعل عنيف في الغرب الأوربي ،
فنادى المتحمسون للحروب الصليبية — وعلى رأسهم البابوية — بأن دولة
المماليك هي السبب وأنه لا سبيل لاستعادة بلاد الشام إلا بإضعاف دولة المماليك
أولا . ولما كان معروفاً أن دولة المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار
التجارة بين الشرق والغرب فقد نادى أصحاب المشاريع الصليبية في القرنين
الرابع عشر والخامس عشر بضرورة فرض حصار اقتصادي شديد على شواطئ
مصر والشام لمنع التجار الأوربيين من الوصول بسفنهم إليها والمتاجرة مع
دولة المماليك ، فتصاب تجارة المماليك بالكساد والبوار ، وبالتالي يفقدون
الأساس الأول لثروتهم وقوتهم (٢) .

وقد أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين الذهاب
بسفنهم إلى شواطئ دولة المماليك والمتاجرة مع المسلمين . ولكن كثيراً من
التجار الإيطاليين بصفة خاصة رفضوا تنفيذ الأوامر البابوية حرصاً على
مصالحهم الاقتصادية ، ومن ثم لم يعد هناك مفر أمام البابوية من إنشاء قوة
بوليسية بحرية في شرق البحر المتوسط تهديد ذلك النفر من التجار الأوربيين
الذين استمروا يغذون دولة المماليك بأموالهم ، ضارين عرض الحائط
بنداءات البابوية وأوامرها (٣) .

ولم يكن هناك في شرق حوض البحر المتوسط أفضل من جزيرة قبرص
يتخذها الغرب الأوربي مركز المراقبة للشواطئ الإسلامية في مصر والشام من
جهة ، ولضرب المسلمين وشن إغارات على موانئهم من جهة أخرى . والمعروف
أن جزيرة قبرص دخلت دائرة الحروب الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٩ - ١٢٠٨ .

(2) Heyd ; Hist du Commerce, II, p. 560 & I p. 26 .

عندما استولى عليها ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس — تحت حكم ملوكها الصليبيين من آل لوزجنان — تقوم بدور بارز في النشاط الصليبي في شرق حوض البحر المتوسط؛ وهو الدور الذي ازداد قوة وبرزوا عقب طرد الصليبيين من الشام في أواخر القرن الثالث عشر ، إذ غدت قبرس منذئذ أكبر قاعدة صليبية في شرق البحر المتوسط (١).

ذلك أن ملوك قبرس من آل لوزجنان لم يكتفوا بتقديم المشاريع الصليبية التي استهدفت خنق دولة المماليك، ولم يقنعوا بجعل جزيرتهم مركزاً لتهديد التجارة المماليكية عن طريق إيواء القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن والموانئ الإسلامية من ناحية ، وفرض رقابة على السفن الأوروبية لمنعها من الوصول من موانئ مصر والشام من ناحية أخرى .. لم يكتف ملوك قبرس من آل لوزجنان بكل ذلك ، وإنما شجعوا يهاجمون بأنفسهم المسلمين حينما وجدوهم في آسيا الصغرى والشام ومصر ، وبذلك بدأوا صفحة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية وأواخر العصور الوسطى (٢).

ومن أبرز الهجمات الصليبية التي شنها ملوك قبرس على بلاد الإسلام في القرن الرابع عشر، تلك الحملة الجريئة التي قام بها بطرس الأول لوزجنان ضد مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥. وقد مهد الملك بطرس لحملة برحلة واسعة زار فيها كثيراً من بلدان الغرب الأوروبي فضلاً عن البابوية؛ وحصل على مساعدات وإمدادات بشرية وعسكرية وعادية كبيرة وأخير اجتمعت تلك الجهود في جزيرة رودس تمهيداً لاختيار أصلح نقطة في دولة المماليك يمكن أن يوجه إليها الصليبيون ضربتهم. وكان أن أشار أحد الصليبيين على ملك قبرس بأن توجه الحملة ضد

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٥.

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٦.

الإسكندرية على أن يهاجها الصليبيون يوم الجمعة والمسلمون في المساجد^(١).

وكان أن وصلت السفن الصليبية إلى الإسكندرية بقيادة بطرس لورجنان ملك قبرس في أكتوبر سنة ١٢٦٥ ؛ في وقت كانت دولة المماليك تعاني خلافا واضحا واضطرابا كبيرا نتيجة لقيام سلطان قاصر — هو السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون — ووصى جائر متفطر من عسوف هو الأمير يلبغا الخاصكي^(٢). هذا في حين كان نائب الإسكندرية ، وهو الأمير خليل صلاح الدين بن عرام ، متغيبا في أداء فريضة الحج . وفي مثل تلك الظروف لم يصعب على الصليبيين إزال قواهم إلى الشاطئ ، فاحتلوا الإسكندرية يوم الجمعة ١٠ أكتوبر وانسابت قواتهم في شوارع المدينة يهرقون المساجد ويخربون الخانات ويدمرون المنازل ويعتدون على كل من صادفهم من النساء والأطفال والشيوخ ، وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم من بضائع وأموال^(٣).

وهكذا قضى الصليبيون في الإسكندرية نحو من ثلاثة أيام كانت من أسود الأيام في تاريخ الثغر ، ولم يغادروها إلى سفنهم إلا بعد أن أحسوا بقرب جيوش المماليك التي أسرع من القاهرة لإنقاذ الإسكندرية . ويقال إن السفن الصليبية حملت معها عندها خمسة آلاف أسير منهم المسلمون والمسلمة واليهودى واليهودية والنصراني والنصرانية ...^(٤). هذا فضلا عن المنهوبات والبضائع المسروقة ، حتى ضاقت السفن بما فيها وثقلت بما عليها فاضطر الصليبيون إلى إلقاء بعض حمولتها في البحر لتخفف من كثرة الوسق^(٥).

(1) Machaut : La Prise de l' Alexandrie P. 91.

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٢ .

(٣) الزيرى السكندري : الإمام بالأعلام ج ١ ص ٢٢٦ — ٣٣٥ (مخطوط) ٩.

ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك ج ٣ ورقة ١٣ وما بعدها .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٧ (مخطوط) .

(٥) الزيرى : الإمام ج ١ ص ٣٣٣ (مخطوط) .

وأخيراً وصل يلبغا الخاصكى إلى الإسكندرية في جند كثيف ، كالجراد المنتشر ، بعد أن أخلاها الصليبيون ، فشهد ما حل بها من دمار وخراب ، ورأى جيش القتلى وقد انتفخت وجافت ، فأمر بدفن من استشهد من المسلمين وترميم ما حارب وأحرق^(١) . وقد عاب المؤرخون المسلمون المعاصرون على ملك قبرس سرعة جلالة وعدم ثباته ودفاعه فوصفوه بأنه « دخلها لصاً وخرج منها لصاً »^(٢) .

ثم إن بطرس لوزجنان لم يكتف بما فعله بالإسكندرية وإنما أغار على طرابلس بالشام سنة ١٣٦٧ ، وإن كانت تلك الإغارة قد منيت بالفشل^(٣) . وهكذا تكرر عدوان الصليبيين على موانئ مصر والشام وسفن المسلمين في البحر المتوسط ، مما يدل على الضعف هية دولة المماليك في عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ، وعدم وجود قوة كبرى في ذلك الوقت تزود عن البلاد وتثار للعباد.

(١) سعيد هاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٩ .

(٢) الزويرى : الإسلام ج ١ ورقة ٥١٦ (مخطوط) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٦٠ (مخطوط) .

الفصل السادس

دولة المماليك الجراكسة

أصل المماليك البرجية ونسبهم :

إذا أردنا أن نختار صفة بارزة شاملة لعصر سلاطين المماليك، فلن نجد أبرز من صفة العصبية . فعصر المماليك كان عصر عصبيات، تقاسمت النفوذ والسلطان فيه عصبيات شتى ، لكل سلطان عصبية من المماليك السلطانية ولسكل أمير عصبية من المماليك الذين ارتبطوا به ودانوا له بالفضل واعتبروه أستاذهم وولي نعمتهم . وبقدر ما تقوى عصبية السلطان ويزداد عدد مماليكه بقدر ما يستطيع المسمود في وجه منافسات الأمراء ومؤامراتهم وكذلك بقدر ما تقوى عصبية الأمير بقدر ما يتمكن من مغالبة زملائه وأقرانه من الأمراء ، بل من مغالبة السلطان نفسه وانزاع دست السلطنة منه ، كما حدث في كثير من الحالات .

لذلك لا عجب إذا كثرت أسماء طوائف المماليك وعصبياتهم، فنسمع عن الصاحية والظاهرية والمنصورية والأشرفية . ثم تعدد الأسماء في كتب التاريخ بتكرار ألقاب السلاطين فنسمع عن الأشرفية خليل والأشرفية برسباي . وهكذا . وإذا كان السلطان شديد اليأس كثير المماليك ، فإنه يستطيع أن يكتسب أنفاس طوائف المماليك الأخرى المنسوبة إلى السلاطين السابقين أو الأمراء القائمين ، أما إذا كان السلطان ضعيفاً قليل الخيلة ، فعنى ذلك احتدام المنافسات بين طوائف المماليك بعضهم وبعض من ناحية ، أو بين بعضهم والمماليك السلطانية من ناحية أخرى ، وبذلك تستمر البلاد خارقة في حالة من الفوضى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . ولعل هذا هو السر في أن كل سلطان بعيد النظر، وكل

أمير حريص على تحقيق مطامعه كان يدأب دائماً على الإكثار من شراء الممالك الصغار وتربيتهم والحنو عليهم ليصيروا في المستقبل عدته وأمله في البقاء والوصول .

ومن أولئك السلاطين الذين قدروا تلك الناحية وحسبوا لها حساباً ، السلطان المنصور قلاوون ، الذي سبق أن تكلمنا بالتفصيل عن قوة شخصيته وطموحه قبل أن يلى السلطنة وبعد أن ولها ، كما شرحنا أعماله الحربية الضخمة ضد التتار والصليبيين وفي النوبة . ويهمننا الآن أن نشير إلى أن السلطان المنصور قلاوون أراد أن يكون طائفة جديدة من الممالك ، تختصه بولائها وترتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين ؛ وتختلف في أصولها عن الطوائف المماليكية الأخرى القائمة . وكان أن اختار قلاوون أن ينشأ فرقته الجديدة من عنصر الجركس - الذين كانوا ينتمون شمالي بحر قزوين وشرقي البحر الأسود - حتى لا تربطهم روابط القربى والعصبية بخيرهم من طوائف الممالك السابقة ، والذين كان معظمهم من الخوارزمية والآتراك (١) .

ولاندري بالضبط الدوافع التي دفعت السلطان المنصور قلاوون إلى اختيار ممالك فرقته الجديدة من الجركس بالذات ؛ فهل يرجع ذلك إلى توافرهم في أسواق الرقيق بعد أن شردهم المغول من بلادهم ، أم أن السبب هو ما اشتهروا به من شجاعة وقوة جعلت السلطان قلاوون يتوسم فيهم الأداة الصالحة لتحقيق أغراضه ؟ وسواء كان السبب الذي دفع قلاوون إلى اختيار ممالك الجدد من عنصر الجركس هو هذا أو ذاك من الأسباب ، فإن ثمة حقيقة هامة يجب ألا نسقطها من اعتبارنا هي أن الرقيق الجركس كانوا عندئذ - بسبب كثرتهم وتحكم قانون العرض والطلب - أرخص سعراً من عناصر الرقيق الأبيض الأخرى ،

حتى قرر بعض الباحثين أن متوسط ثمن الرأس من الجراكسة بلغ وقتذاك ١١٥ ديناراً في حين أن متوسط ثمن الرأس من عنصر الترك بلغ ١٣٥ ديناراً (١).

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان المنصور قلاوون بدأ في تنفيذ مشروعه حوالي سنة ١٢٨١، فأخذ يشتري أعداداً كبيرة من الجركس ليكوفوا مثل الحصون المانعة لى ولأولادى وللمسلمين (٢)، وأسكنهم بجواره في أبراج القلعة، ومن ثم لصقت هذه الطائفة في التاريخ تسمية «الماليك البرجية» (٣). ولم يلبث أن أكثر قلاوون من شراء الجراكسة حتى بلغوا في أواخر عهده أكثر من ثلاثة آلاف مملوك (٤)، حرص على الفصل بينهم وبين غيرهم من طوائف الممالك الأتراك، وأشرف بنفسه على تدريبهم على استخدام الرماح ورعى الثياب، كما حباهم بعطفه ولم يرض عليهم بالمال الوفير والطعام الشهي والملبس الجليل، فضلاً عن أنه - هو وأبنائه من بعده - اختصهم بالترقية إلى بعض الوظائف الكبرى في البلاط (٥).

وإذا كان السلطان المنصور قلاوون قد أعلن في صراحة أنه كون فرقة الممالك البرجية لتكون حصناً مانعاً له ولأولاده، فإنه كان طبيعياً أن يهتم أولاد السلطان المنصور بتلك الطائفة التي أنشأها أبوهم لتكون حصناً لهم. وساعد على ذلك أن المنصور قلاوون لم ينجح فقط في تأسيس فرقة جديدة من الممالك، وإنما نجح أيضاً في تأسيس بيت مستمر يتوارث السلطنة نحو قرن من الزمان، وهو أمر فريد في تاريخ الممالك. ولو كان الملك انقرض في ذرية المنصور قلاوون لاضنف

(1) Heyd : Hist. du Commerce, 2, p. 559.

(٢) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٢.

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥٦.

(٤) المقرئى : المواظ والاعتبار، ج ٢ ص ٢١٤.

(٥) ابن لمياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠.

المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤.

شأن المماليك البرجية ، ولسمعنا في التاريخ أن الأمير الذي اعتلى دست السلطنة بعد المنصور قلاوون أهمل طائفة البرجية وكون لنفسه فرقة جديدة . ولكن الذي حدث هو أن المنصور قلاوون توفي ليخلفه ابنه الأشرف خليل فآتم بناء القوة التي أقامها أبوه المنصور - قوة المماليك البرجية - حتى أنه اشترى في حكمه القصير (١٢٨٩ - ١٢٩٣) ما يقرب من ألفي مملوك جرکسى . وهكذا أضحي المماليك البرجية أو الجراكسة على درجة من وفرة العدد وحسن التدريب وشدة التماسك ، مما جعلهم يشقون طريقهم في غير صعوبة كبيرة نحو السلطان .

ظهور المماليك البرجية على مسرح الأحداث :

والواقع إنه كان من المتعذر الاحتفاظ بالمماليك البرجية - بعد أن تكاثرت أعدادهم - بهيدين عن الحياة العامة . ونسمع أن السلطان خليل بن قلاوون سمع طم - لأول مرة - بمخادرة أبراجهم وطباقيهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة ومصر بشرط أن يتم ذلك أثناء النهار وأن يعودوا قبل الليل ليبيتوا في القلعة^(١) وقد ترتبت على ذلك نتيجتان هامتان : الأولى انغماس المماليك البرجية في الحياة العامة ومشاكلها بعد أن خرجوا من عزلتهم واختلطوا بغيرهم من طوائف المماليك فضلا عن عامة الناس . والثانية أن المماليك البرجية أو الجراكسة لم يلبثوا أن استناروا حقد بقية طوائف المماليك الأتراك ، بسبب ماغدا فيه المماليك البرجية من نعمة وما حظوا به عند السلطان قلاوون وابنه خليل من مكانة .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذين العاملين ترتب عليهما دخول المماليك البرجية دائرة الصراع والمنازعات التي كانت لاتهدأ لها نازرة في ذلك العصر . وأول ما نسمعه من المماليك البرجية في ذلك الشأن ، غضبهم لمقتل أستاذهم وابن أستاذهم

(١) المقرئى : المواظ ج ٧ ص ٢١٣ .

الأشرف خليل، فثاروا بالقلعة عندما سمعوا الخبر ولم تهدأ تأثرتهم إلا عندما انتقموا لمقتل خليل بقتل بيدرا وغيره من زعماء المؤامرة؛ ثم بإعلان الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً سنة ١٢٩٣ رغم صغر سنه (١).

ولم يكن في استطاعة الناصر محمد في سلطنته الأولى أن يصمد في وجه كبار الأمراء، فغدت البلاد مسرحاً لنزاع عميق بين الأميرين كتبغا وسنجر الشجاعى، وهو نزاع هدفه الحقيقي رغبة كل أمير في الاستئثار بالسلطنة وعزل الناصر محمد. وفي ذلك النزاع ظهرت الطائفية المماليكية على أشدها، فاستعان كتبغا بالمماليك الأتراك واستعان سنجر الشجاعى بالمماليك البرجية أو الجراكسة، الذين أطلق عليهم أحياناً في بعض المراجع اسم الأشرفية نسبة إلى الأشرف خليل (٢).

وقد سبق أن ذكرنا كيف حاصر كتبغا القلعة وقطع عنها الماء، وعندئذ نزل البرجية من القلعة وأزلقوا الهزيمة بالأمير كتبغا وأعوانه من الأتراك الذين فروا من وجوههم؛ وبذلك حقق البرجية نصراً جديداً أضفى عليهم أهمية خاصة ومهد لازدياد تدخلهم في مشاكل السياسة الداخلية في ذلك العصر (٣).

على أن أمراء البرجية لم يلبثوا أن اكتشفوا نوايا سنجر الشجاعى، وأنه لا يعمل من أجل ابن أستاذه وإنما يعمل من أجل نفسه، فانفضوا عنه، الأمر الذى أدى إلى رجحان كفة كتبغا مرة أخرى ومقتل الأمير سنجر الشجاعى. ويبدو أن كتبغا أحس عندئذ بخطور البرجية بعد أن أخذ درساً على أيديهم، فعمل على تشييت شملهم وتفريق صفوفهم، وأنزل جماعات منهم من أبراج القلعة ووزعهم

(١) أبو المحاسن : الهجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٩ — ٢٠ .

(٢) السكيتى : عيون التواريخ ج ٥ ورقة ٩٩ — ١٠١ .

(٣) ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٨١ .

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٠ .

في نواحي متباعدة من القاهرة ، ولم يترك في القلعة إلا نحواً من أربعة آلاف منهم فرض عليهم رقابة شديدة^(١) . ولعل هذه الإجراءات التي اتخذها كتبغا ضد البرجية كان لها أثرها في إثارة أمراء البرجية ضد كتبغا والمماليك الترك جميعاً .

وهكذا تكررت ثورات المماليك البرجية المشردين في القاهرة ، وانخذلت هذه الثورات صورة عدائية صريحة ضد الترك وكتبغا . ومن الواضح أن المعركة بالنسبة للبرجية كانت من أجل البقاء . إذ أرادوا في إنزالهم من القلعة وتفريقهم بين أنحاء القاهرة تفتيتاً لعصبيتهم وإضعافاً لقوتهم . وعبثاً حاول البرجية أن يتمسحوا بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ كان الناصر محمد في سلطنته الأولى طفلاً صغيراً لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وكان كتبغا - كما سبق أن فصلنا - هو كل شيء في الدولة . ولم يلبث أن اغتصب كتبغا السلطنة لنفسه (١٢٩٤ - ١٢٩٦) ثم أعقبه السلطان لاجين (١٢٩٦ - ١٢٩٨) ، وفي عهد هذين السلطانين المقتصبين اشتد الصراع بين البرجية من ناحية والترك من ناحية أخرى . ويبدو أن كلا من كتبغا ولاجين اعتمد على المماليك الأتراك في مقاومة نفوذ البرجية ولذلك دأب هؤلاء الآخرون على مقاومة الترك في شخص كتبغا ولاجين^(٢) .

وأخيراً استطاع الأمير سيف الدين كرجي أن يدبر مؤامرة لقتل السلطان لاجين ، ونجحت المؤامرة سنة ١٢٩٨^(٣) . ويبدو أن البرجية كانوا لا يزالوا عندئذ على ولائهم الشديد لبيت قلاوون ، أو ربما أحس البرجية عندئذ أن الأمور لم تنهياً بعد لاستئثارهم بالحكم ، فاختروا أن يعيدوا ابن أستاذهم السلطان الناصر إلى السلطنة وتم ذلك سنة ١٢٩٨ - ١٢٩٩ . وعندما عارض بعض أمراء البرجية - مثل

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٥ ، ٨٢٢ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(١٠ - العصر المماليكي)

كرجى وطنجى - إعادة الناصر محمد ، عارضهما جبهة البرجية وعلى رأسهم
بيبرس الجاشنكير الذى أخذ نفوذه يزداد بين صفوف البرجية من ناحية ،
وفى سلطنة الناصر محمد الثانية من ناحية أخرى (١).

وهنا نلاحظ أن ثمة عوامل عديدة ساعدت على ازدياد نفوذ المماليك البرجية
فى تلك الفترة . فبالإضافة إلى الدور النشط الذى قاموا به فى السياسة الداخلية
وظهورهم أمام الناس فى صورة حماة عرش بيت قلاوون والناصر محمد بوجه خاص
فى وقت اشتد تعلق الشعب بحكم الناصر محمد ، كما سبق أن رأينا ، فإن البرجية
أظهروا شجاعة كبيرة فى ذلك الدور فى دفع خطر التتار عن بلاد الشام . الأمر
الذى جعل المؤرخ أبوالحسن يمشيد ببطولتهم فى واقعة شقجب - قرب دمشق -
سنة ١٣٠٢ ، فيقول دوصرخ (سلار) فى بيبرس الجاشنكير وفى البرجية فاتوه
دفعه واحدة . . وأبلى سلار فى ذلك اليوم هو وبيبرس الجاشنكير بلاد حسناً
وسلموا أنفسهم للموت . . وكانت سلار والجاشنكير فى ذلك اليوم اليد البيضاء
على المسلمين (٢) ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من المماليك الجرا كسة كانوا قد
أصبحوا أمراء فى ذلك الوقت - أى فى أوائل القرن الرابع عشر - أدركنا
فى النهاية سر ما صار لهم من نفوذ ، ذلك أن أية فرقة من فرق المماليك كانت تتألف
فى أول أمرها من رقيق أجلاب صغار ، يتعمدهم أستاذهم - سلطاناً كان أو أميراً -
بالرعاية والعناية كما تتعمد الدجاجة أفراسها الصغار ، وفى ذلك الدور الأول من
تكوين الطائفة أو الفرقة المماليكية لا تكون لهم قوة أو عصبية وإنما يعتمدون بحكم
طبيعة دور النشأة الذين يملكون به على أستاذهم فى حمايتهم ، وهكذا حتى يتقربون
ويتحرر الكبار منهم تدريجياً ليؤمروا أى يصبحوا أمراء ، وعندئذ تصبح

(١) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٨٩٦

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧٦٠ - ١٦١ .

لهم قيادة ذاتية تنبع من صفوفهم وتوجههم لتحقيق مصالحهم الخاصة وكانت طائفة البرجية أو الجراكسة عندما أسسها السلطان المنصور قلاوون ، تتألف من عماليك صغار لا حول لهم ولا قوة ، ولكن مع مضي السنين والأيام نما هؤلاء الصغار وصار منهم الأمراء الكبار . وهكذا نسمع أن السلطان الناصر محمد عين في سلطنته الثانية أحد أمراء البرجية - وهو الأمير عز الدين أيبك المنصوري - في الوزارة ^(١) . أما المقرئى ، فيقول في حوادث سنة ٦٩٨ هـ - أى في سلطنة الناصر محمد الثانية - ما نصه : وقويت شوكة البرجية بدار مصر ، وصارت لهم الحمايات الكبيرة ، وتردد الناس إليهم في الأشغال ؛ وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير وأمرهم عدة... وصار في قبائله الأمير سيف الدين سار ومعه الصالحية والمنصورية (من الترك) ؛ إلا أن البرجية أكثر وأقوى... ووقع الحسد بين الطائفتين وصار بيبرس إذا أمر أحدا من البرجية وقفت أصحاب سار وطلبت منه أن يؤمر منهم واحدا... ^(٢) .

على أن طبيعة البشر كثيرا ما تجعل أخلاقه ومبادئه تتغير بازدياد نصيبه من الدنيا . وهكذا كان البرجية قد أحسوا في دورهم الأول بأنهم أتباع بيت قلاوون وأن واجبههم الأول هو حماية مصالح ذلك البيت ، إلا أن هذه النظرة المثالية أخذت تتبدل عندما أحس البرجية بأنهم هم الذين يحمون عرش بيت قلاوون وليس عرش بيت قلاوون هو الذى يحميهم . وبعبارة أخرى فإن أمراء البرجية أخذوا يعملون لحسابهم الخاص وينفكرون في مصالحهم قبل مصالح السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وما دامت السلطنة غدت ضعيفة ومطمعا لكثير من أمراء الترك ، فلماذا لا يشارك البرجية في تلك المطامع بعد أن غدا منهم الأمراء الكبار وبعد أن أحس الناس جميعاً بشجاعتهم وبسالهم .

(١) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٥ - ٨٧٦ .

أما السلطان فقد أحس في سلطنته الثانية بتضييق زعماء الترك والجراكسة عليه . فأراد سنة ١٣٠٧ أن يعتمد على محبة الشعب له ويتخلص من سلا زعيم الترك ويبرس الجاشنكير زعيم البرجية جميعاً . وربما دفع هذا الخطر المشترك للأميرين سلا وبيبرس الجاشنكير إلى العمل معاً مما جعل مؤامرة الناصر محمد تنتهى بالفشل^(١) . وعندما ينس الناصر محمد من التخلص من سيطرة الأميرين سلا وبيبرس الجاشنكير وتضييقهما عليه لجأ إلى التنازل عن السلطنة ، وآثر البقاء في الكرك ، كما سبق أن شرحنا .

وكان أن أدى تنازل الناصر محمد عن السلطنة سنة ١٣٠٨ إلى فتح الباب على مصراعيه أمام البرجية ، فاعتلى كبيرهم بيبرس الجاشنكير دست السلطنة في تلك السنة ، وبذلك كان أول واحد من البرجية إلى هذا المنصب . على أن وصول أحد أمراء البرجية إلى العرش ، أثار أحقاد الترك الذين توجسوا خيفة من بطش الجراكسة ، فرفض كثير من نواب وأمراء الشام الاعتراف بالسلطان الجديد ، حتى قال بعضهم : « إن هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا أهلكونا وراحت أرواحنا معهم » ، فقوموا بنا لنعمل شيئاً قبل أن يعملوا بنا »^(٢) . لذلك لم يوفق بيبرس الجاشنكير في سلطنته فنتيجة لمعارضة الترك له من ناحية وتآمر الناصر محمد ضده في الكرك من ناحية ثانية ، ثم كراهية الناس لبيبرس الجاشنكير لاسيما وأن سنة اعتلائه دست السلطنة جاءت مصحوبة بانتشار الوباء وغلاء الأسعار وفشاور الناس بسلطنة المظفر بيبرس^(٣) . وهكذا لم تطل سلطنة بيبرس الجاشنكير وتم للناصر محمد استرداد عرشه للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، كما سبق أن فصلنا .

(١) القرينى : السلوك ج ٢ ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ١ ورقة ٣٥٩ (مخطوط) .

(٣) أبو المحاسن : التيجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٣ .

وقد اعتلى الناصر محمد العرش في تلك المرة بعد أن بلغ من العمر مائة سنة من الوقوف على قدميه في وجه كبار أمراء الترك والجزراكسة جميعاً ، فقبض على بيبرس الجاشنكير وقتله ، واتبع سياسة صارمة تجاه الجزراكسة جعلته يحرص على تعليم أظفارهم وعدم الإكثار منهم بالشراء . ولم تنجح مؤامرة الجزراكسة للتخلص من الناصر محمد سنة ١٤٠٩ . إذ قضى السلطان على المؤامرة قبل أن تولد ونكل بزعمائها من البرجية تنكيلاً شديداً . ومن ذلك ما روي المقرئ في حوادث سنة ٧١٥ هـ من أن السلطان الناصر محمد دارت جمع ما كانت البرجية قد اشترته من أراضي الجيزة وغيرها ، (١) . أما العيني فيحكي أن السلطان الناصر محمد لجأ سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢١ م) إلى تغريق من خشى خطره من البرجية في النيل (٢) ١

انديان نفوذ الجزراكسة:

ولكن إذا كان السلطان الناصر محمد قد استطاع في سلطنته الثالثة أن يقبض بيد من حديد على شئون الحكم وأن يقلم أظفار الجزراكسة ويقف بالمرصاد لمطامعهم ، فإن خلفاء الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - لم تكن لهم تلك القوة والعزيمة وقد رأينا أن معظم من ولي السلطنة من أبناء الناصر محمد وأحفاده كانوا أحمداً وأطفالا ، الأمر الذي جعلهم أداة سهلة في أيدي كبار الأمراء ، يلهون بهم وفقما شاءوا ويعزلونهم بنفس السهولة التي كانوا يولونهم بها . وهكذا أتاحت الفرصة للبرجية من جديد ، فظهروا على مسرح الأحداث وفي تلك المرة تمكنوا وازداد تعصبهم لجنسهم الجزركسي ، بعد أن تعرضوا لأخطار المقاومة والسكبت والتعريد في عهد الناصر محمد .

(١) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) العيني : عقد الجان ج ٢٢ ورقة ٣٤٠ (مخطوط) .

وكان أن رفع الجراكسة رؤوسهم في عهد السلطان شعبان بن الناصر محمد فناروا سنة ١٣٤٥ بزعماء الأمير غرلو الجركسي شاد الدواوين ، في عزل السلطان شعبان وتولية أخيه المظفر حاجي سنة ١٣٤٦^(١) . وقد أدى نجاح تلك الثورة إلى ازدياد نفوذ الجراكسة في الدولة ، الأمر الذي أثار حقد الترك ، فأوقفوا بهم عند السلطان وقتلوا الأمير غرلو الجركسي ليحلوا محله الأمير أرقطاي التركي في نيابة السلطنة^(٢) . ولم يلبث أن أدى ذلك الانقلاب إلى زيادة نفوذ المماليك الترك . فحاول السلطان المظفر حاجي أن يستعين بالجراكسة مرة أخرى للحد من سطوة المماليك الترك ، ولكن محاولته جاءت بعد فوات الأوان إذ قبض عليه الترك وقتلوه سنة ١٣٤٧ وولوا بدله أخاه السلطان الناصر حسن .

وهكذا ساءت أحوال المماليك الجراكسة في تلك الفترة نتيجة لرجحان كفة الترك وسيطرتهم على شئون الدولة ، بحيث لم يبق هناك أمل أمام الجراكسة إلا في اختلاف أمراء الترك على أنفسهم . ومن أبرز أمراء المماليك الترك في ذلك الدور الأمير يلبغا الخاصكي ، الذي زاد عدد مماليكه عن أربعة آلاف حتى غدا على جانب من القوة مكنته من قتل السلطان الناصر حسن سنة ١٣٦١ وتعيين ابن أخيه المنصور محمد سلطانا ، مما أدى إلى انتقال السلطنة من أولاد الناصر محمد إلى أحفاده^(٣) . غير أن السلطان المنصور محمد لم يستمر طويلا في الحكم ، إذ عزله يلبغا لسوء خلقه - كما سبق أن شرحنا - وعين بدله الأشرف شعبان سنة ١٣٦٣ ، وسنه عندئذ عشر سنوات .

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣٦٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧٨ .

وهكذا صار يلبغا هو الحاكم الفعلي لدولة المماليك ويده الأمر والنهي ،
في الوقت الذي ازداد عدد مماليكه وسيطره على عدد كبير من الوظائف الكبرى .
ولم يلبث طموح المماليك اليلبغاوية أن أدى إلى انقسامهم على أنفسهم ، مما أتاح
فرصة للسلطان شعبان للتخلص من امتداد يلبغا الذي انتهى الأمر بقتله سنة
١٣٦٧ (١) . وقد أعقب مقتل يلبغا تفشيت المماليك اليلبغاوية في أنحاء الدولة
والتفكيك بهم . وهنا نلاحظ أن المماليك اليلبغاوية لم يكونوا من جنس واحد ،
ولم يكونوا جميعاً أنراك ، وإنما كان منهم الجر كسي ؛ لأن يلبغا عندما أخذ يدعم
قوته ويتوسع في شراء المماليك لم يراع الجانب العنصري ، فجاء في صفوف
مماليكه الترك والجر كس وغير ذلك من الجنسيات . وقد استاء المماليك اليلبغاوية
ما حل بهم من تشريد بعد مقتل أستاذهم يلبغا الخاصكي ، وازداد هذا الاستياء
بصفة خاصة بين صفوف الجر كس من اليلبغاوية ، وهم الذين أصبح غضبهم
مزدوجاً لما حل بهم من اضطهاد بوصفهم جراً كمة أولاً ويلبغاوية ثانياً .
وكيفما كان الأمر ؛ فإن المماليك اليلبغاوية لم يلبثوا أن عبروا عن سخطهم
بتدبير مؤامرة لقتل السلطان الأشرف شعبان سنة ١٣٧٦ (٢) . ومن وراء
هذه المؤامرة كان الأمير برقوق ، أحد كبار الأمراء اليلبغاوية ، وأصله
من الجر كس .

برقوق ونائبس دولة المماليك الجراكمة :

تزعّم الأمير برقوق المؤامرة التي عصفت بالسلطان الأشرف شعبان ، ومن
ثم يرجع إليه الفضل في إمداد اليلبغاوية بفرصة جديدة للسيطرة على مقاليد الحكم
في دولة المماليك . هذا إلى أن برقوق لم يمهّد لليلبغاوية فحسب ، بل مهّد أيضاً

(١) أبو المحاسن : ج ١١ ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٩٢٠٦ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧٦ .

لوصول الجركس إلى منصب السلطنة ، لأن برقوق نفسه كان جركسيا ، وهو أول من اعتلى دست السلطنة من الجراكسة . الأمر الذي جعله المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الجراكسة في التاريخ .

وتروى المراجع أن برقوق جركسي الجاس وأنه أحضر إلى مصر صحبة بعض تجار الرقيق ، فاشتراه الأمير يلغا الخاصى حوالى سنة ١٢٦٣ ، وأعتقه وجعله من جملة مائيكه^(١) . ثم يروى أبو المحاسن أن برقوق استمر في خدمة يلغا حتى فار بعض المماليك اليلغاوية على أستاذهم ، وعندئذ لايدرى أبو المحاسن دهل كان برقوق من هو مع أستاذه يلغا أم كان عليه ؟ . ومهما يكن من أمر فإن برقوق تعرض بعد مقتل يلغا لما تعرض له جمهرة المماليك اليلغاوية من اضطهاد وحبس بالسكر سنة ١٣٦٨ . وعند الإفراج عن برقوق سنة ١٣٧١ لم يسمح له بالعودة إلى مصر إلا سنة ١٣٧٣ ؛ وعندئذ أخذ يتحين الفرص لتحقيق أطماعه العريضة^(٢) . وعلى الرغم من أن برقوق كان عندئذ أمير عشرة فحسب — أى أميراً صغيراً — ؛ فإنه أسهم بسهم وافر في المؤامرة التى انتهت بمقتل الأشرف شعبان وإعلان المنصور على سلطانا سنة ١٣٧٦^(٣) .

وقد أدرك برقوق أن انتصار اليلغاوية ونجاحهم في التخلص من السلطان الأشرف وءاليك سيقودى إلى صدام بين الأمراء اليلغاوية وبعضهم وبعض ، لاسيما وأن السلطان المنصور على كان في السادسة من عمره ، مما أغرى كبار الأمراء اليلغاوية على التنافس حول الاستئثار بالسلطة . وهنا رسم برقوق لنفسه خطة ماكرة ، فانتقل إلى خدمة الأمير أيلبك اليدرى ، حتى يبدو بعيداً عن حلقة الصراع ؛ وفي الوقت نفسه عول على ضرب كبار الأمراء بعضهم ببعض حتى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٢) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤١ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٠٦ وما بعدها (مخطوط) .

يصفوه له الجو . وكان أخطر منافس الأمير أيوبك البدرى هو الأمير قرطاي الطلازى ، فاصطدم الأميران وتمكن أيوبك من القبض على قرطاي ونفيه إلى غزه سنة ١٣٧٧^(١) . وظن أيوبك بعد تلك الخطوة أن الأمور غدت مهيأة له للوصول إلى دست السلطنة ، فأخذ يرقى ماليكه وأتباعه ليخلق عصبية قوية ، ومن هؤلاء كان الأمير برقوق الذى رقى دفعة واحدة ، من أمير عشرة إلى أمير طبلخاناه^(٢) .

غير أن مطامع الأمير أيوبك البدرى فى اغتصاب السلطنة أثارت مخاوف الأمراء اليلبغاوية فى الشام ، فأعلنوا الثورة على أيوبك سنة ١٣٧٧ بزعامة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق . وعندما سمع أيوبك نبأ تلك الثورة استشار الأمير برقوق فيما يجب عمله ، فأشار عليه برقوق بالخروج فوراً على رأس حملة إلى الشام لإخماد الفتنة . ومن الواضح أن برقوق وجد فى تلك الحملة فرصة نادرة للتخلص من أيوبك ، فرسم خطوط المؤامرة مع بعض الأمراء الذين قرروا أيوبك استصحابهم معه فى حملته على الشام ، ومنهم يلغبا الناصرى وبركة الجويانى^(٣) . وكان أن خرجت الحملة إلى الشام . وصحبها السلطان المنصور على الصغير ، وعندما بدأت أولى حلقات المؤامرة فئار الجند على أيوبك سنة ١٣٧٧ ولجأ أيوبك إلى الفرار فى حين عاد الأمراء والسلطان الصغير بالعسكر إلى القاهرة ليترقى برقوق ويصبح أمير مائة مقدم ألف ، وهى أسى درجات الإمارة فى نظام المماليك^(٤) .

ومرة أخرى وجد برقوق نفسه أمام منافسين جدد ، هما يلغبا الناصرى وبركة الجويانى ، فلجأ برقوق إلى التظاهر ليستعين به فى تحقيق مآربه ثم

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٧ (مخطوط)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٩ - ٣١٢

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٣ .

يتخلص منه في نهاية الأمر وعند ما تخوف بعض الأمراء الترك من نواب برقوق وأشفقوا على مصير بيت قلاون ونادوا بتولية السلطنة أحد الراشدين من ذلك البيت ؛ تحايل برقوق لإحباط تلك الدعوة بتولية الأمير طشتمر الدوادار أنابكية مصر (١) . ومن يدري ، فربما كان في حضور الأمير طشتمر إلى مصر فرصة طيبة للتخلص منه ، فضلاً عما في اختيار طشتمر لذلك المنصب الكبير في القاهرة من إرضاء للترك ، غير أن بركة وبرقوق لم يتركا طشتمر يحقق ما كان يطمح فيه الأتراك من سطوة ونفوذ ، وإنما ضيقا عليه الخناق حتى وقع صدام بين الطرفين سنة ١٣٧٧ انتهى بالقبض على طشتمر وحبسه بالإسكندرية ونفى عدد كبير من أتباعه (٢) .

وهكذا خطا برقوق خطوة جديدة نحو الإمام فتولى منصب أتابك العساكر في مصر وأصبح زميله بركة رأس نوبة كبير أتابكا (٣) . أما يلغا الناصري فقد قبض عليه حينما ثم أرسل إلى نيا بطة طرابلس . ويصور أبو المحاسن الموقف في ذلك الدور فيقول ما نصه « والممول على الاثنين : برقوق وبركة ، حتى طجعت الناس بقولهم : برقوق وبركة نصبا على الدنيا شيكة (٤) » .

غير أن برقوق تعرض لثورة كادت تفسد عليه خط سيره ؛ إذ ثار أحد الأمراء الجراكسة — هو إينال اليوسفي — سنة ١٣٧٩ ضد برقوق وبركة جميعاً . وتفصيل ذلك أن إينال كان يضرر كرهاً شديداً ببركة ، وحاول بشتى الطرق أن يؤلب برقوق ضد بركة ، ولكن برقوق كان شديد الحرص على

(١) السقاوي : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ج ٣ ص ١١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٣) الأتابك هو أبو الأمراء ، وهو لقب شرفي .

القلقة شندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٣ .

ألا يتعجل الأمور، فرفض الاستماع لتأليب إينال وأخيراً أحرق إينال على بركة و برقوق جميعاً فانهز فرصة غياهما عن القاهرة، وهاجم بيت برقوق ونهب ما فيه كما خدع صغار ممالك برقوق بأن مناهم بالأمانى المعسولة ليعاونه في خطته^(١). ولكن برقوق عاد مسرعاً وتمكن من إخماد الثورة، ويقال إن ممالك برقوق ما كادوا يرونه حتى سرت ما ابتغى نفوسهم : نشر والله طائعين، وتحولوا ضد إينال الذى ولى الأديار. ولكن برقوق استطاع القبض على إينال وسجنه^(٢).

وكان لابد أن تصل العلاقة بين برقوق وبركة إلى درجة تجعل الأول يفكر فى التخلص من الثانى . وقد فكر برقوق فى استنارة رأى العام ضد بركة ، فخرضه على انتزاع بعض أراضي الأوقاف وتوزيعها على أتباعه، الأمر الذى أثار شيخ الإسلام سراج الدين البلقين وجماعة العلماء والمسلمين^(٣). وفى الوقت الذى ثار رأى العام ضد بركة ، أخذ برقوق يتقرب إلى الناس عن طريق الإفراج عن بعض العامة الذين كان بركة قد حبسهم^(٤). وكان برقوق يعرف جيداً أن استفعاد بركة يعنى ثورة الترك الذين يتعصبون لأعيانهم، ولذلك استعد برقوق للمعركة القادمة بتقوية جانب الجراكسة وتوحيد صفوفهم وهكذا « صار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق ، وفرقة ترك وهم أصحاب الأمير بركة ، على قول المقرئى^(٥) . ولم يكن هناك مناصاً من الصدام بين هاتين الفرقتين ، فوقع الصدام سنة ٦٨٢هـ وانتهى بالقبض على بركة وحبسها بالإسكندرية ومصادرة أمواله ، حتى قتل بعد قليل^(٦).

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٦٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٢٣٦ (مخطوط) .

(٤) ابن حجر : أنباء القمر ج ١ ص ١٠٩ — ١٢٦ .

(٥) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٦١٠ — ٦١١ .

(٦) ابن حجر : أنباء القمر ج ١ ص ٩١٤٣ .

ابن أبياس بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

ولم تمض على التخلص من بركة بضعة أشهر حتى توفي السلطان المنصور على سنة ١٣٨١ ، ولكن برقوق رأى أن يترث قليلا ، فأقام في السلطنة أخاه السلطان الصالح أمير حاج وكان في الحادية عشرة من عمره (١) . ويبدو أن برقوق رأى أنه ليس من الحكمة أن يتمجّل إعلان نفسه سلطانا قبل أن يكسر شوكة المماليك الترك الذين عز عليهم ما حل بزيمهم بركة . لذلك ظل برقوق على حاله قبل مسك بركة وقتله وإليه حل المملكة وعقدها ، ولم يجسر على السلطنة (٢) . وفي الوقت نفسه أخذ برقوق يطارد الترك ويشردهم ، فأنقرضت دولة الأتراك بأسرها وتبعوها بالأخذ فقتلوا ونفوا وسجنوا (٣) .

وطبيعي أن السلطان الصالح أمير حاج كان لا يستطيع وحده تدبير أمور الدولة وهو طفل صغير في الحادية عشرة من عمره ، لذلك جاء كتاب ولايته السلطنة مقروفا بشرط اشتراك الأمير برقوق معه في تدبير أمور الدولة . ومعنى ذلك أن برقوق لم يعد مجرد أمير كبير أو موظف من كبار موظفي الدولة لحسب ، بل كانت له صفة عليا سامية في الوصاية على السلطان وتوجيهه وتوجيه أداة الحكم نيابة عنه . وكان أن استغل برقوق هذه الصفة وتلك السلطات الواسعة التي غدت في يده ليكن لنفسه ويملا الوظائف الكبرى بأتباعه ومماليكه ، هذا إلى أنه أخذ يتحجب إلى عامة الناس ويتقرب إلى قلوبهم عن طريق إلغاء بعض المكوس وتحسين النقد ، الأمر الذي أنعش الحالة الاقتصادية ، وجعل الناس يلمحون بشكره (٤) . أما في الخارج فقد حدث سنة ١٣٨١ أن أغار التركمان على حلب

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٥ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٨ .

(٣) القرطبي : السلوك ج ٣ ورقة ٦١٣ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٦٨ .

القرطبي : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٥٦ .

أبو الحسن : النجوم ج ١١ ص ٢١٠ — ٢١١ .

ولسكن برقوق استطاع صدهم وطردهم، الأمر الذي أظهره في صورة الرجل القادر على الدفاع عن الدولة وحمايتها وتوفير الأمن لأهلها^(١).

وفي تلك الأثناء كان المماليك الترك يرقبون ازدياد نفوذ برقوق بعين القلق، ويعلمون أنهم لن يبقى لهم ظل من النفوذ والسلطان إذا نجح برقوق في اغتصاب السلطنة. وكان أن دبر الترك مؤامرة لاختيال برقوق، وكانت المؤامرة بزعامة أيتمش الخاصكي وبطال الأشرفي. ولسكن عين برقوق البقطة اكتشفت خيوط المؤامرة قبل حبكها، فبادر برقوق بالقبض على زعماء المؤامرة ونفيهم وجاء فشل هذه المؤامرة إعلاناً لزوال سلطان العنصر التركي وإيداناً بقيام دولة المماليك الجراكسة^(٢).

وكان برقوق يدرك جيداً مدى ما بين أمراء المماليك من منافسات وأحقاد فاحتاط على نفسه، وبالغ في التخوف، الأمر الذي دفع بعض المقربين إليه إلى أن يقدموا له النصيح « بأن يتسلطن ويحتجب عن الناس ويستريح ويريح من هذا الذي هو فيه من الاحتراز من قيامه وعوده »^(٣). ولسكن برقوق ظل متخوفاً من الإقدام على تلك الخطوة لأنه خشي وقوف كبار الأمراء في وجهه ونخاف عاقبة ذلك. واعتذر بأنه يهاب قدماء الأمراء بالديار المصرية والبلاد الشامية، وعندما لمس كبار الأمراء من أعوانه تخوفه، رأوا أن يبدأوا هم الخطوات السكينة بإجلاسهم على العرش. وساعد الحظ برقوقاً بوفاة اثنين من كبار الأمراء الذين كان يخشى سطوتهم ويحترم سمو مكانتهم وهما الأمير آقتمير عبد الغني والأمير أيدمر الشمسي. وعندما سمع برقوق بوفاة هذين الأميرين « طابت نفسه » واستجاب لمؤيديه، وإن ظل « يقدم رجلاً ويؤخر أخرى »^(٤).

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٤٠٤ (مخطوط).

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٧.

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٤.

(٤) المرجع السابق ص ٢١٥.

وأخيراً صعد إثنان من أعوان برقوق وأخذوا السلطان الصالح أمير حاج من قاعة الملك وحملوه إلى أهله بالدور السلطانية بعد أن جرداه من شارات السلطنة . وفي الحال استمضى الخليفة العباسي المتوكل على الله وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وغيرهما من العلماء والأمراء والقضاة فبايعوا برقوق الذي تلقب بالسلطان الظاهر (١) .

وباعتلاء برقوق منصب السلطنة سنة ١٣٨٢ انتهى ملك بيت قلاون ، كما انتهت دولة المماليك الترك ، وبدأت دولة المماليك الجراكمة التي استمرت في الحكم حتى الفتح العثماني سنة ١٥١٧ ، وقبل أن تتكلم عن سلطنة برقوق وغيره من مشاهير السلاطين في تلك الدولة الجديدة ، يصح أن نعرض بإيجاز لخصائصها العامة في التاريخ .

خصائص دولة المماليك الجراكمة :

امتازت دولة المماليك الثانية أو الجراكمة بأن سلاطينها جميعاً كانوا من أصل جركسي ، ما عدا إثنين هما خشمقدم وتمرغا كانا من أصل يوناني .

هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثي الذي حاول بعض سلاطين دولة المماليك الأولى تطبيقه في عناد وإصرار ، والذي ظهر بوضوح في بيت قلاون ، هذا المبدأ لا نجد له أثرًا في دولة المماليك الجراكمة . والواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا زعماء أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح السلطان في الحكم يتوقف على مدى توفيقه في توجيه كبار الأمراء ، وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بنفسه حتى الوفاة ، فإن ابنه كان يخلفه عادة ، ولكن لعدة أشهر فقط . ذلك أن اختيار ابن السلطان

(١) الميني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٧٩ (مخطوط) .

الراحل لم يتم بناء على إيمان الأمراء بمبدأ الوراثة، وإنما كحل مؤقت حتى يتمجلى الموقف بين كبار الأمراء ويظهر من بينهم أمير قوى يستأثر بالعرش لنفسه .

وكان عصر دولة المماليك الجرا كمة مائة وأربع وثلاثين عاماً ، تعاقب فيها على دست السلطنة خمسة وعشرين سلطاناً . ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات ؛ في حين حكم الستة عشر سلطاناً الباقون نحواً من تسع سنوات فقط . أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين يرتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجرا كمة فهم : برقوق وفرج وشيخ ورساى وجمقم وإبنال وخشقدم وقايتباى وقانصوه الغورى . ولا ترجع أهمية أولئك السلاطين إلى قوة بأسهم أو شجاعتهم بقدر ما ترجع إلى ذكائهم ومقدرتهم في الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضها ببعض^(١) .

وعرف كثير من سلاطين دولة المماليك الجرا كمة بحبهم للأدب ومجالس العلم - مثل برقوق وشيخ وجمقم وقايتباى والغورى - كما بالغ بعضهم في العناية بإنشاء المؤسسات الخيرية من مساجد ومدارس ومستشفيات وسبل وغيرها . وربما كان الهدف من المبالغة في إنشاء هذه المؤسسات والإنفاق عليها هو محاولة بعض السلاطين - مثل برقوق وقايتباى - التكفير عن ذنوبهم ومحو أثر ما قاموا به من أعمال وحشية ضد خصومهم ومنافسيهم .

ولاشك في أن البلاد قاست كثيراً في عصر دولة المماليك الجرا كمة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم ، وما كان ينبجم عن تلك المنازعات من حوادث وقاتل في الشوارع ، مما أوجد جواً من الرعب والفزع وعدم الاستقرار في البلاد . وزاد من البلاء أن السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم ، مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ بمراكزهم

(1) Lane Poole : A Hist. of Egypt, pp, 325—326

سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالأشرفية وضرب الناصرية بالمؤيدية ، وبذلك يخلو الجو للسلطان ومماليكه فيتمحكمون في البلاد والعباد .

على أننا نلاحظ مع كل ذلك ، وعلى الرغم من كثرة الاضطرابات والفتن والثورات ، أن سلاطين دولة المماليك الجراكسة عملوا دائماً على حصر تلك المنازعات في دائرة داخلية محدودة ، بحيث لم يتمكنوا قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد أو الانتقاص من سيادة الدولة . وهكذا استمرت دولة المماليك حتى نهاية القرن الخامس عشر محتفظة بمهبتها ومكانتها في المحيط الدولي ، بل لقد تمكن المماليك في ذلك العصر من إزال ضرب قاصمة بتمورلنك في وقت اهتزت جميع الأطراف الغربية من القارة الآسيوية من هول ضرباته . ولأقل من أن نتناول أعمال أهم السلاطين الجراكسة بدراسة سريعة ، لنقف على حقيقة الخصائص التي اتصف بها دولة المماليك في ذلك العصر .

السلطان الظاهر برقوق : (١٢٨٢ - ١٢٩٩)

كان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة . وكان منتظرا منه أن يبدأ حكمه باضطهاد المماليك الترك ، ولكنه أظهر حكمة كبيرة فحرص على استرضاء الترك في أول حكمه واختار الأمير سودون الفخري - وهو من الترك - نائبا للسلطنة في مصر كما عفا عن يلبغا الناصري وأقره في نيابة حلب (١) .

على أن برقوق لم يستمر طويلا في تلك السياسة ، وإنما أخذ تدريجيا - بعد أن استتب له الأمور - يختص الجراكسة بالإقطاعات والوظائف الكبيرة على حساب المماليك الترك ، وبخاصة الأشرفية بماليك السلطان شعبان . وقد أدت

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٣١ .

هذه السياسة إلى نشوب كثير من الثورات التي انصف بها عهد برقوق ، منها ثورة الطنبيغا السلطاني نائب أبلستين سنة ١٣٨٢ ، وهو أمير تركي قاله لأكون في دولة حاكمها جركسي ، مما يشهد على مدى العداوة بين الترك والجرაკمة في ذلك الدور (١) . ولكن تلك الثورة باءت بالفشل وففرار الطنبيغا إلى بلاد التتار لعدم حصوله على ما كان يطمح فيه من تأييد نواب الشام .

ولم يكذب برقوق يستريح من ثورة الطنبيغا حتى فوجيء بأن الخليفة العباسي المتوكل على الله يطمع في السلطنة ، وأن أمراء الترك في القاهرة دبروا مؤامرة لقتل برقوق وإعلان المتوكل سلطاناً . وقد اكتشف برقوق المؤامرة قبل الشروع في تنفيذها فعزل الخليفة المتوكل وأدخل محله الخليفة الواصل بالله ، وبدأ منذ ذلك الوقت يتخذ سياسة عنيفة ضد الترك ، الأمر الذي جعل الأشرافية واليلبغاوية يتعاونون جميعاً لمواجهة ذلك التهديد . وقد ظهر هذا التحالف بين صفرف الترك — من أشرافية ويلبغاوية — في صورة ثورة كبرى اندلعت نازها سنة ١٣٨٨ وتزعما منطاش نائب ملطية — وهو زعيم الأشرافية — ، وبلبغا الناصري نائب حلب ، وهو زعيم اليلبغاوية (٢) .

وكان أن ساء موقف برقوق عندما سمع بخروج مدن الشام عن طاعته وأن جيوش الثوار تفتقل من نصر إلى آخر في طريقها إلى مصر ، بعد أن حلت الهزيمة بجيوش السلطان في دمشق ، سنة ١٣٨٩ ، وفي تلك الأزيمة أخذ برقوق يتخبط في تصرفاته ، فهو تارة يحاول كسب الرأي العام في مصر بإلغاء بعض المكوس وإعادة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، وتارة أخرى يطلب من الناس أن يحصنوا

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٩ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر : إنباء القمر ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ورقة ٤٨٩ وما بعدها (مخطوط) .

(١٩) — مصر الممالكية

الدروب وأن يساعده في مقاومة العدو الباغي، (١).

غير أن جميع هذه الإجراءات لم تفاح في دعم مركز برقوق، بل لقد أخذ الأمراء والمماليك يتسربون من القاهرة لينضموا إلى جيش يلبغا الناصري. وكان ذلك في الوقت الذي انتشر الطاعون في القاهرة، مما جعل البلاد تفرق في الفوضى. وأخيراً لم يجد برقوق مخرجاً أمامه فأنفجر باكياً وسط جنوده، وأسرع بالاختفاء في منزل خياط، في الوقت الذي دخلت جنود يلبغا الناصري القاهرة وسيطرت على القلعة (٢).

وكان منتظراً - حسب العادة عند المماليك - أن يعلن يلبغا نفسه سلطاناً، بوصفه صاحب الدور الكبير في عزل برقوق، ولكنه خشي معارضة المماليك الأشرفية الترك له بوصفه زعيم الطائفة اليلبغاوية؛ فترشح الملك الصالح أمير حاجي ابن الأشرف شعبان، وتلقب السلطان الجديد بالمنصور بعد أن كان في سلطنته الأولى يلقب بالناصر (٣).

أما برقوق فقد ألقى القبض عليه، وعندئذ خشي يلبغا انتقام المماليك الجراكسة إذا هو مس به بموته، فاكتمل بنفيه إلى الكرك سنة ١٣٨٩. ولم تلبث الأيام التالية أن أظهرت للناس فساد حكم يلبغا الناصري، في الوقت الذي بدأ الهفاق بين يلبغا وحليفه منطاش (٤). وفي الصراع الذي دار بين يلبغا ومنطاش حانت الفرصة لبرقوق، فبايعه أهل الكرك بالسلطنة سنة ١٣٨٩، والتفت حوله الجراكسة من الشام ومصر فشكل منهم جيشاً زحف به إلى دمشق (٥).

(١) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٩ - ٢٨٠.

ابن دقاق: الجواهر النقية، ج ٢ ورقة ١٨٣.

(٢) ابن أبي عمير: بدائع الزهور ج ١ ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٣) أبو الحسن: مورد الطائفة ص ٩٦.

(٤) ابن خلدون: المعبر، ج ٥ ص ٤٨٧ - ٤٨٨.

(٥) ابن أبي عمير: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨١.

أما منطاش الذى آلت إليه السلطة فى مصر عندئذ بعد انتصاره على يلبغا الناصرى ، فقد وجد نفسه أمام خطر جسيم ؛ فأخذ يتحایل على جمع المال بمختلف الطرق ليعد جيشاً يحارب به برقوق فى الشام (١) . وفى الموقعة التى دارت بين الطرفين عند دمشق سنة ١٣٩٠ ، لم ينفع منطاش وجود الخليفة والسلطان حاجى معه ، إذ وقع السلطان والخليفة فى قبضة برقوق ، مما صار له أبعد الأثر فى نفوس رجال منطاش فخلت بهم الهزيمة . وكان أن تنازل السلطان حاجى لبرقوق عن السلطنة ، فى حين احتفى منطاش بدمشق ؛ فترك برقوق بلاد الشام وعاد إلى القاهرة بعد أن بايعه الخليفة بالسلطنة (٢) . وكان أن استقبل برقوق فى القاهرة أجمل استقبال ، وجددت البيعة له فى القلعة ، فى حين انزوى المنصور حاجى حتى دس له السم بهض جواريه فمات مسموماً .

وقد امتدت سلطنة برقوق الثانية من سنة ١٣٩٠ حتى سنة ١٣٩٩ ؛ وامتازت بمجهود برقوق فى تثبيت حكمه عن طريق القضاء على معظم المالك الترك والتخلص من خصومه وعلى رأسهم يلبغا الناصرى ومنطاش . وفعل قبض برقوق على يلبغا الناصرى وقتله سنة ١٣٩١ ، فى حين قتل منطاش فى حلب سنة ١٣٩٣ وحملت رأسه إلى القاهرة حيث طيف بها فى شوارعها ثم علقت على باب زويلة (٣) . هذا فى الوقت الذى استمر برقوق يتخلص من أمراء الترك واحد بعد آخر بعزلهم عما كانوا يلونه من وظائف ومصادرة إقطاعاتهم وتوزيع تلك الوظائف والإقطاعات على عماليكه من الجراكسة (٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٥٧٣ (مخطوط) .

(٢) أبو الهاسن : النجوم ج ١١ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن حجر : المحور السكينة ج ٤ ص ٣٦٦ .

(٤) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٦ - ٣٩ .

على أن المتاعب الداخلية التي صادفها برقوق في سلطنته الثانية لم تكن كلها من جانب الترك وأسائهم ، وإنما قار العربان في مصر والشام ثورة خطيرة سنة ١٢٩٤ . وأرسل زعيم العربان في مصر - وهو الشريف العنابي - إلى موسى بن محمد بن عيسى شيخ العربان في إقليم السكرك يطلب منه معاونته في الحصول على الخلافة والسلطنة جميعاً ، على أن يتم تنفيذ تلك الخطة عند خروج برقوق من مصر لمقاتلة تيمورلنك . ولكن السلطان برقوق كشف المؤامرة ، فألقى القبض على الشريف العنابي وموسى بن محمد ، وحبسهما حتى ماتا في السجن ، كما أخضع عرب هواردة في الصعيد (١) .

تيمورلنك ودولة المماليك :

وإذا كان السلطان برقوق قد نجح في القضاء على الأخطار الداخلية التي هددت حكمه من جانب الترك والعربان ، وبذلك دانت لسلطانه مصر والشام ، فإن ثمة خطر خارجي كبير هدد دولة المماليك في ذلك الدور - هو خطر تيمورلنك . هذا وإن كان الصدام بين المماليك وتيمورلنك قد تأخر إلى ما بعد عهد برقوق . .

وكان تيمورلنك يلتزم إلى بيت من أشراف التتار ، ولد في مدينة سمرقند وتلقى فيه وتلقاها قاعدة لأعماله التوسعية التي مكنته من الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز سنة ١٣٨٦ كما خرب الرها في العام التالي (٢) . ولم يلبث حكام ماردين وبغداد وغيرهما أن كتبوا إلى السلطان برقوق يستنجدون به ضد ذلك الخطر التتري الجديد ، ولكن

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٦ - ٣٧٧

المقريزي : السلوك . حوادث سنة ٨٠١ هـ (مخطوط) ،

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٤٩

تيمورلنك كان أسرع في العمل فاستولى على بغداد سنة ١٣٩٣ وخرّبها وقتل
كثيراً من أهلها (١).

وبوصول تيمورلنك إلى تلك المرحلة صار الصدام بينه وبين دولة المماليك
أمرأ قريب الحدوث . وكان أن أرسل تيمورلنك رسالة إلى السلطان برقوق
تحوي كثير من التهديد والترغيب؛ ولكن برقوق قتل رسل تيمورلنك، وأخذ
يعقد اتفاقيات مع التركمان وبني عثمان لصد ذلك الخطر الجديد (٢).

ومهما يكن من أمر ، فإن هناك عوامل جديدة أجهلت الصدام بين تيمورلنك
ودولة المماليك ، أهمها رغبة تيمورلنك نفسه في تأجيل ذلك الصدام بسبب انشغاله
بتوطيد نفوذه في دولته الواسعة من ناحية ، فضلاً عن أنه فتح جبهة جديدة
لجيوشه عندما هاجم الهند من ناحية أخرى (٣) وكان كل ما فعله برقوق هو أنه
استغل فرصة غياب تيمورلنك في الهند ، وكتب لأحمد بن أويس تقليداً بنبأ به
السلطنة في بغداد ، وزوده بالمال والعتاد والمماليك والأمراء ، ثم أرسله سنة ١٣٩٤
إلى بغداد ، حيث تمكن بفضل تلك المعونة من استرداد عرشه والتغلب على
الحامية التي تركها تيمورلنك في بغداد (٤) .

وبمقتضى التقليد الذي كتبه برقوق لأحمد بن أويس أصبح الأخير تابعاً
لسلطنة المماليك في مصر؛ ونائباً عن السلطان برقوق في حكم بغداد ، فضرب
السكة باسمه . ولا شك في أن هذا الوضع الجديد قد أضفى مكانة كبيرة على سلطنة
المماليك ، وإن كان تيمورلنك نفسه لم يرض عن ذلك الوضع فأسرع بالعودة
من الهند سنة ١٣٩٩ ، في الوقت الذي توفي فيه السلطان برقوق .

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ وما بعدها (مخطوط) .

(٢) ابن حجر : لبناء العمر ج ١ ورقة ٣٦٧ — ٤٠٠ (مخطوط) .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ورقة ٥٦ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ ورقة ٧٣١ .

هصر أبناء برقوق :

وعندما أحس السلطان برقوق بدنو أجله ، جمع حوله الخليفة وكبار الأمراء والقضاة ، وطلب منهم أن يحلفوا بالسلطنة لأولاده من بعده - وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم - على التوالي . واختار برقوق مجلساً للوصاية على أبنائه برئاسة الأمير أيتمش البجاسى أتابك العسكر ، يساعده الخليفة المتوكل وبعض كبار الأمراء . ولم يلبث برقوق نفسه أن توفى سنة ١٢٩٩ (١) .

غير أن المماليك لم يؤمنوا - كما سبق أن رأينا - بمبدأ وراثة العرش ، ولم يلبث كبار الأمراء أن رأوا فرصتهم سانحة في قيام فرج بن برقوق في منصب السلطنة وسنة عشر سنوات فبدأت المنافسات والمنازعات بينهم ، الأمر الذى جعل السلطان فرج يزهد في العرش ، فهرب الصبي من القلعة سنة ١٤٠٥ واختفى في أحد البيوت ، وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة (٢) .

وليس هناك أهمية خاصة لسلطنة فرج الأولى سوى ما حدث عندئذ من عودة تيمورلنك من الهند ، ففر أحمد ابن أويس من بغداد واحتفى بحلب ، في حين واصل تيمورلنك غزواته فاستولى على سيواس ومرعش وعينتاب وبذلك وصلت قواته إلى أطراف الشام (٣) . ولم يستجب المماليك للإنذار الذى وجهه تيمورلنك بضرورة تسليم حلب ، فتجمعت الجيوش من نيايات الشام استعداداً للمقاومة . ولكن تيمورلنك أنزل الحرمة بقوات المماليك واقتحمت جيوشه حلب سنة ١٤٠٠ لتعمل فيها قتلاً وأسراً ونهباً (٤) . وقد اهتزت هصر لأبناء تلك

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ص ١٠٤

(٢) ابن حجر : إنباء القمر ج ١ ص ٦٨٨ (مخطوط) .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٣٦ .

(٤) ابن عريشاه : عجائب المقدور ص ٨٨ وما بعدها .

الهنزية، وخرج السلطان فرج الصغير على رأس الجيش ومعه الخليفة والقضاة،
ولكن تيمورلنك أنزل الهنزية مرة أخرى بالممالك قرب دمشق في أواخر
سنة ١٤٠٠. وبعد ذلك عاد فرج إلى القاهرة ليستعد للقيام بمحاولة أخرى ضد
تيمورلنك، في حين تمكن الأخير — عن طريق الحيلة — من دخول دمشق
حيث أقام بها قرابة ثلاثة أشهر جمع فيها كثيراً من أموالها فضلاً عن أولى الخبرة
من أصحاب الحرف والصناعات الذين بعث بهم إلى سمرقند.

ويبدو أن أخبار ما فعله تيمورلنك بدمشق جعلت السلطان فرج يرضى
بالصلح معه، فتم الصلح سنة ١٤٠١. وبعد ذلك خرج تيمورلنك من الشام
لينزل الهنزية بالسلطان بايزيد العثماني في موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢^(١). ولم يلبث
أن توفي تيمورلنك بعد ذلك سنة ١٤٠٥ في سمرقند، ثم تعرضت دولته الواسعة
للتمزيق بسبب النزاع بين ورثته، وبذلك خفت حدة خطر التتار على دولة
الممالك في مصر والشام.

أما ما كان من أحوال سلطنة الممالك في مصر، فقد رأينا كيف أن فرج
ابن برقوق ترك العرش سنة ١٤٠٥ ليضع الأمر أمه أخاه عبد العزيز. ولكن
الصراع بين أمراء الممالك في تلك الفترة اتخذ صورة مؤازرة أحد أبناء برقوق
ضد الآخر، فعندما أحس بعض الأمراء بأن الأمير بيبرس الأتابك علت مكانته
بحكم وصايته على المنصور عبد العزيز، سعوا لعودة فرج إلى العرش. وقد عاد
السلطان فرج إلى السلطنة بعد شهرين من اختفائه، واستمر تلك المرة في الحكم
نحواً من سبع سنوات (١٤٠٥ - ١٤١٢)، انصرفت بالاضطراب والفوضى
وسوء تدبير الحكم، ذلك أن فرج عرف بالقسوة والوحشية، فاستهل حكمه بقتل
أخويه^(٢)، ولم يكن سكوت الأمراء عن فرج بدافع الرضى بحكمه، وإنما لأن

(١) ابن أبي عمير: بدائع الزهور، ج ١ ص ٣٣٦.

(٢) ابن حجر: انباء الغرر ج ١ ص ٦٩٠ وما بعدها.

الموقف لم يسفر عن ظهور الرجل القوي بين صفوف الأمراء الذي يستطيع أن يضرب خصومه وينتزع السلطنة لنفسه .

وكان أن كثرت الفتن في أنحاء الدولة - وبخاصة في الشام - على عصر فرج بن برقوق . ففي سنة ١٤٠٧ ثار جكم نائب حلب وأضفى على نفسه لقب سلطان وتلقب بالعاذل . ولكن جكم قتل بعد شهرين ، فتعالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلن الثورة على السلطان فرج في القاهرة ، بل لقد زحف بجيـر شهما نحو مصر سنة ١٤٠٨ . وعندما خرج السلطان فرج إلى الشام لقمع تلك الثورة حلت به الحزيمة قرب دمشق سنة ١٤١٢ وقبض على فرج ليقتل قتلة شذمة ، في حين أدى التنافس بين الأميرين شيخ ونوروز إلى اختيار الخليفة المستعين العباسي سلطاناً سنة ١٤١٢ (١) .

السلطان المؤيد شيخ الممـمـودي : (١٤١٢ - ١٤٢١)

ومن الواضح أن اختيار المستعين للسلطنة لم يكن إلا إجراءً شكلياً حتى يستقر الموقف بين الأميرين نوروز وشيخ . ولم يكن الأمير شيخ بطمئن على سلامة موقفه حتى عزل الخليفة بعد خمسة أشهر من سلطنته ، واحتل هو دست السلطنة بعد أن تلقب بلقب المؤيد ، وكان من الطبيعي أن تكون المشكلة الأولى التي واجهت السلطان المؤيد شيخ هي التغلب على نفوذ نوروز الذي أبى الاعتراف بالسلطان الجديد ؛ ولكن شيخ خرج إلى الشام وحارب نوروز وقتله وبذلك تخلص من منافس هـمـيد (٢) .

وفي عهد المؤيد شيخ حاولت الإمارات التركمانية الواقعة على الأطراف

(١) العيني : السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد . ورقة ١٩٧ (مخطوط) .

(2) Wiet, , L'Egypte, Arabe, pp. 542-548.

الشجالية لدولة المماليك الخروج عن تبعيتها للسلطنة المماليكية ، ولكن المؤيد شيخ خرج لإخضاعهم مرتين سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ . ولما تمرد التركمان مرة أخرى بعد عودة السلطان شيخ إلى مصر ، أرسل المؤيد شيخ ابنه ابراهيم سنة ١٤١٩ لإخضاع دغاادر . فأوغل ابراهيم حتى قونه وضرب السكة باسم أبيه المؤيد شيخ وولى قيصرية حاكماً مالياً لسلطان المماليك من بيت دغاادر . وقد استقبل ابراهيم استقبالا حماسياً في القاهرة ، ولكنه لم يلبث أن مات في العام التالي ؛ وقيل إن أباه حقد عليه لما ناله من شهرة ومجد ، فدس له السم (١) .

وقد توفى السلطان المؤيد شيخ سنة ١٤٢١ ، خلفه ابنه أحمد تحت وصاية الأمير ططر ، الذي لم يلبث أن انتزع السلطنة لنفسه ؛ ولكنه لم يبق فيها إلا أربعة وتسعين يوماً ثم خلفه محمد بن ططر . وقد قضى محمد هذا في الحكم بضعة أشهر تحت وصاية الأمير برسباي ، الذي انتزع السلطنة لنفسه سنة ١٤٢٢ .

السلطان الأشرف برسباي وفتح قبرسى :

حكم السلطان الأشرف برسباي ما يزيد عن ستة عشر عاماً (١٤٢٢ - ١٤٣٨) امتازت بالاستقرار وقلة الاضطرابات على الرغم مما قاساه الناس في ذلك العهد بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وسياسة برسباي الاحتكارية التي سنشدها إليها فيما بعد .

وقد مكن ذلك الاستقرار الذي نعمت به دولة المماليك السلطان الأشرف برسباي من القيام بمشروع حربي كبير هو غزو جزيرة قبرس وإدخالها في نطاق التبعية لسلطنة المماليك في مصر . وقد رأينا فيما سبق كيف أن القبارصة اتخذوا من جزيرتهم مركزاً للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط وتهديد

(1) Lane — Poole : A Hist. of Egypt . p . 336 .

تجارة المسلمين ، حتى قام بطرس الأول لوزجنان ملك قبرص بحملة الصليبية الكبرى على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ . وعلى الرغم من الصلح الذي تم بين جزيرة قبرص وسلطنة المماليك سنة ١٣٧٠ ، إلا أن الأعمال العدوانية التي تعرضت لها شواطئ مصر والشام لم تنقطع ^(١) . وليس من الضروري أن يكون أهل جزيرة قبرص بالذات هم الذين قاموا بكل الإغارات التي تعرضت لها شواطئ سلطنة المماليك في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ، ويمكن أن يكفي أن القراصنة المسيحيين الذين دأبوا على مهاجمة الثغور الإسلامية في تلك الحقبة اتخذوا جزيرة قبرص قاعدة لنشاطهم ، مما جعل من الصعب على المسلمين اقتفاء أثرهم والقبض عليهم .

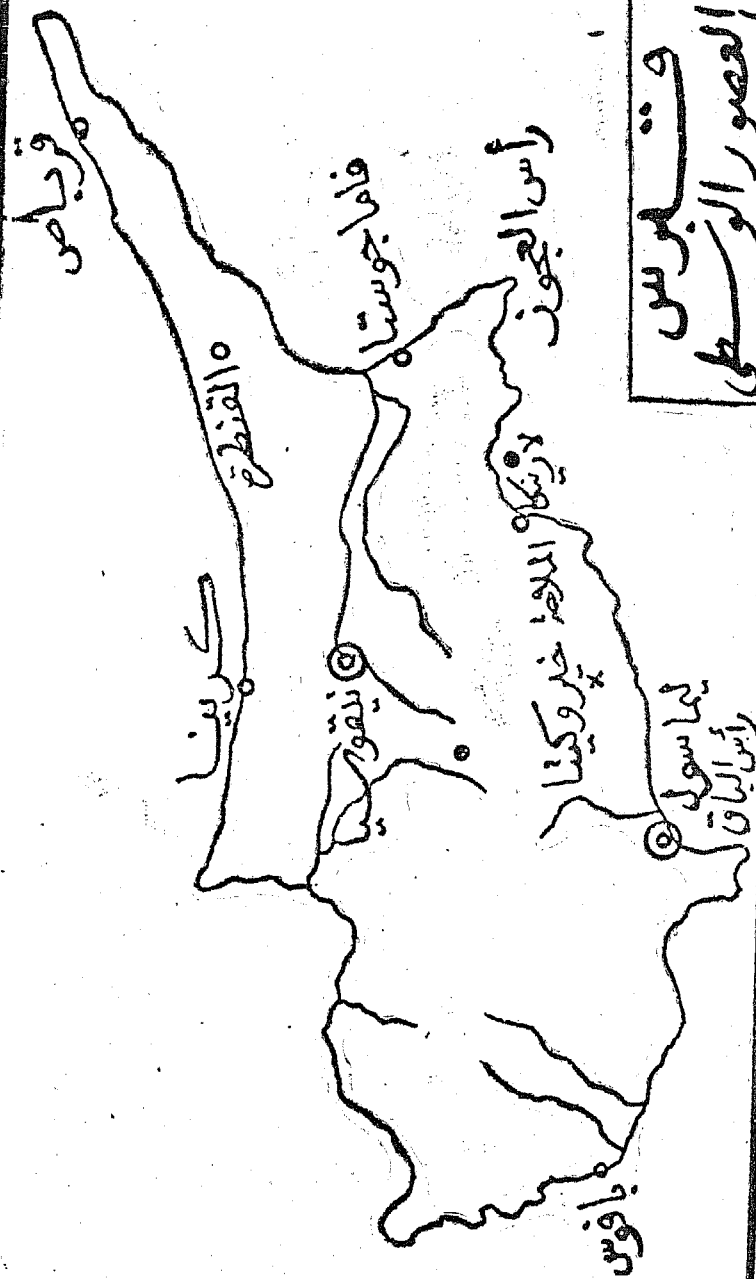
والواقع أن سلاطين المماليك في مصر حاولوا غزو قبرص أكثر من مرة لإحساسهم بخطارها ورغبتهم في دفع ذلك الخطر . وقد رأينا كيف حاول السلطان الظاهر بيبرس غزو قبرص سنة ١٢٧٠ ، ولكن محاولته باءت بالفشل ^(٢) . كذلك حاول يلغا الخاصكي أن ينتقم مما حل بالاسكندرية سنة ١٣٦٥ على يد بطرس الأول لوزجنان ، فقامت دولة المماليك في عهد السلطان شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٧) ببعض إغارات على جزيرة قبرص ، ولكنها لم تتخذ شكل غزو شامل للجزيرة ^(٣) . وهكذا حتى كان اعتلاء السلطان برسباي دسست السلطنة سنة ١٤٢٣ ، فرأى في الجهاد ضد قبرص وسيلة لتحقيق مآربه وصرف منافسيه من الأمراء عن خلق المشاكل والفتن الداخلية . ودفع برسباي إلى المضي في ذلك التفكير أن إغارات القبارصة لم تنقطع عن شواطئ دولة المماليك ، إذ اعتدى بعض القراصنة على مركب لأحد تجار دمياط سنة ١٤٢٣ ، وأسروه وساقوه

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٨٧

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٣ .

(٣) النويرى : الإلغام بالأعلام ج ١ ص ٧٦ ، ج ٢ ص ١٠٣ (مخطوط) .

فلسطين في العصور الوسطى



إلى قبرس^(١) ، ولم تجدد محاولات السلطان برسباى فى عقد معاهدة مع جانوس ملك قبرس لضمان عدم التعدى على متاجر المسلمين ، إذ ظن جانوس أن حرص دولة المماليك على الصلح لا يعنى سوى ضعف سلطان المماليك وتخوفه^(٢) .

وهكذا ظل سلاطين المماليك يتميزون غضبا ، حتى ورد الخبر على السلطان برسباى سنة ١٤٢٣ بأن الفرنج أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب نغر دمياط فيهما بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجل ، وبأن جانوس ملك قبرس استولى على سفينة محملة بالهدايا مرسله من برسباى إلى السلطان مراد العثمانى^(٣) . وعند ذلك ثارت نائرة السلطان فأمر بالاستيلاء على أموال التجار الفرنج المقيمين بالتغور المماليكية ومنعهم من السفر إلى بلادهم ، كما أخذ يعد الهدية لغزو قبرس .

وقد أرسل السلطان برسباى ثلاث حملات لغزو قبرس الأولى سنة ١٤٤٢ والثانية سنة ١٤٤٥ والثالثة سنة ١٤٢٦ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، هى فى حقيقة أمرها حملة استكشافية غرضها تحديد مسؤولية قبرس عن ذلك النفر من القراصنة الذى كان يتحرر فى البحر^(٤) . وقد أغارت تلك الحملة على النواحي القريبة من ليماسول . ثم هادت إلى مصر فى أواخر سنة ١٤٢٤ بعد أن فتم المسلمون غنائم كثيرة ودمروا وأحرقوا ما صادفوه من سفن قبرسية^(٥) .

وربما كانت أهمية هذه الحملة الأولى هى أنها أهبطت السلطان برسباى

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت من ٧١٩ - ٢٢٠ .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٨ .

(٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٣٨ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٣٦٢ (مخطوط) .

(٥) Makhtaras ; Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus d.633.

فكرة واضحة عن ضعف جزيرة قبرس من ناحية ، وعن مدى مسئولية قبرس وملوكها عن أعمال القرصنة من ناحية أخرى . ولم يشأ برسباى أن يضيع الوقت أو يعطى خصومه فرصة للاستعداد ، فأخذ يستعد عقب عودة الغزاة لإرسال حملة جديدة لغزو قبرس ، ودأب السلطان على زيارة دارصناعة السفن ببولاق كل يوم ليتفقد سير العمل فى بناء السفن ^(١) . وما زاد من حماسة السلطان برسباى وتصميمه أن أعمال القرصنة لم تنقطع بل استمرت على ما هى عليه ، فهاجمت أربع سفن قبرسية مركبا قرب اللاذقية كان مهجونا بالمجاديف المرسلة إلى مصر ؛ ثم قتلت بحارها وأشعلت النار فيها ^(٢) .

وأخيرا غادرت حملة برسباى الثانية الشواطئ المصرية فى يوليو سنة ١٤٢٥ فأتجهت إلى الشام ومنها إلى قبرس . وقد رست السفن الإسلامية أولا قرب فاما جوستا على شاطئ قبرس ، حيث هاجم الغزاة المناطق القريبة ودمروها وبعد ذلك أبحرت السفن إلى الملاحه فى حين سار شطر من جيش المماليك على الشاطئ . وقد أراد جانوس ملك قبرس أن يصد المسلمين فأرسل بعض السفن لمناوشة السفن الإسلامية ، من ناحية ، كما أرسل جيشا صغيرا ليقضى على القوة البرية المماليكية التى كانت تمير فى البر بجلاء السفن الإسلامية من ناحية أخرى . ولكن مغارة المسلمين أنزلوا الهزيمة بفارسان القبارصة ، فى حين فرت السفن القبرسية فى عرض البحر ^(٣) .

وبعد تلك الانتصارات السريعة ، أمر قائد الحملة - الأمير جرباش - بإزالة بقية القوات التى كانت بالسفن إلى البر ، فأخذ المماليك يحرقون القرى

(١) أبو المحاسن : الهجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٨٢ (طبعة كاليفورنيا) .

والعق : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٧٢ (مخطوط) .

(٢) سعيد هاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٩٢ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٣ .

ويعملون في الأهالي قتلا وأسرا ، حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى وامتلات أيديهم بالغنائم (١) . وبعد ذلك توجه المسلمون إلى ليماسول فوصلوها صباح أول أيام عيد الفطر (سنة ٨٢٨هـ) ، فاستولوا هناك على أحد الحصون وأحرقوه ، ثم أخذوا يأتون للعودة إلى مصر بعد أن حققوا كثيرا من أغراض الحملة الاستكشافية الانتقامية وكان أن وصل الغزاة إلى القاهرة في سبتمبر سنة ١٤٢٥ ، فاستقبلوا استقبالا حافلا ، وشقوا طريقهم إلى القلعة ومحببتهم أكثر من ألف أسير ، فضلا عن الغنائم التي حملت على الجمال والبغال (٢) .

على أن السلطان برسباي لم يقنع بذلك ، لأنه عندما فكر في غزو قبرص من أول الأمر ، لم يكن هدفه إرسال حملة لمجرد السلب والنهب والعودة بضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من الغنائم . والواقع إن برسباي لم يكن يود أن تعود جيوشه من قبرص قبل أن تخضع الجزيرة نهائيا ، ولذلك بدا غير قانع بتلك النتائج التي حققها جيوشه في الحملتين السابقتين ، وقرر إرسال حملة ثالثة إلى قبرص في العام التالي (٣) . وكانت هناك عوامل أخرى دفعت برسباي إلى الإصرار على إخضاع قبرص لسيادته ، منها استمرار تهديد الجنوية له ضد جانوس بسبب عدائهم لملك قبرص ، ومنها استنجد بعض قوى المسلمين الأتراك على شاطئ آسيا الصغرى بدولة المماليك لحمايتهم من عدوان قبرص وملوكها . هذا فضلا عما وصل إلى مسامع السلطان برسباي من أن جانوس ملك قبرص استنجد بملوك غرب أوروبا ضد دولة المماليك (٤) .

(١) المفريزي : السلوك ج ٤ ورقة ٣٦٨ (مخطوط) .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٦ ص ٥٩٣ طبعة (كاليفورنيا) .

(٣) سعيد هاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٣ .

(٤) ابن حجر : انباء الفهر ج ٢ ورقة ١١١٩ .

وقد وجد السلطان برسباى فى تلك العوالم مجتمعة حافزاً قويا لإرسال حملة كبرى نالته لفتح قبرس ، عهد بقيادة جيوشها الهربية إلى الأمير تغرى بردى المحمودى ، وبقيادة قواتها البحرية إلى الأمير إينال الجسكى ، وحددا اختصاصات كل منهما حتى لا يعارض أحدهما الآخر ، (١) . وفى أول يونيو سنة ١٤٢٦ أفلعت الحملة من الأسكندرية . وعندئذ أكثر من مائة سفينة تحمل نحو آمن خمسة آلاف مقاتل . ولم تسلك الحملة فصل إلى منطقة ليماسول حتى بدأت العمل فوراً ، فهاجم الغزاة مدينة ليماسول واستولوا عليها وعانوا فيها نهباً وهدماً وإحراقاً (٢) .

وفى تلك الحملة لم يكتف المسلمون بحصر نشاطهم فى الأقاليم الساحلية للجزيرة قبرس ، وإنما أغلوا داخل الجزيرة حيث كان الملك جانوس قد جمع قواته فى سهل خيروكيتا إلى الشمال الشرقى من ليماسول . وفى الموقعة الفاصلة التى دارت بين الطرفين فى ذلك السهل حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة ، فظلمت سيوف المماليك تعمل فى صفوفهم د وأسنه الرماح تطعن فى أعضائهم فصارت كثيرتهم قلة وقوتهم ضعفاً (٣) . وقد حاول جانوس ملك قبرس النجاة بنفسه عندما وجد ما حل بهيئته ولكن المماليك تبعوه وقبضوا عليه مع جملة من الأسرى . وقد رأى قائد الحملة الأمير تغرى بردى المحمودى — أن يتبع تلك الهزيمة بالزحف على نيقوسيا عاصمة قبرس ، فدخلها المماليك دخول الظافر ورفعوا على مبانيها الرايات السلطانية ، وتقديم لهم هناك أعيان الجزيرة بالأموال الكثيرة للحصول على الأمان (٤) .

وأخيراً عاد الغزاة إلى مصر فشققوا القاهرة فى موكب حافل وخلفهم الأسرى وقد امتطى الملك جانوس د بغلاً أخرجاً ، ويقال إن جانوس عندما

(١) السيوطى : غزوات قبرس ورود من ص ٩ .

(٢) القرينى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٧٤ (مخطوط) .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ورقة ٥٨١ .

(٤) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١١٤ — ١١٥ .

دخل على السلطان برسباى قبل الأرض وأخذ يستعطف السلطان ، حتى وافق برسباى أخيراً على إطلاق سراحه مقابل مائتى ألف دينار دفع منها جانوس النصف عاجلاً على أن يرسل الباقي بعد عودته إلى بلاده^(١) . كذلك اشترط السلطان برسباى أن تغل قبرس تابعة لسلطنة المماليك ، وأن يكون جانوس نائباً عنه في حكمها . وقد وافق جانوس على جميع تلك الشروط ، فأفرج عنه وسمح له بالسفر إلى جزيرته التي وصلها في مارس سنة ١٤٢٧^(٢) .

وبذلك يكون السلطان برسباى قد حقق نصراً كبيراً للدولة المماليك ، بما أضفى عليه وعلى حكمه أهمية كبرى على أنه لا يمكن أن تتخذ الحدود والاستقرار اللذين سادا عهد برسباى بأنهما داليل على سعادة الشعب ، إذ الواقع أن الناس قاسوا كثيراً في ذلك العهد بسبب كثرة الاحتكارات والضرائب ، الأمر الذي جعل برسباى يموت غير مأسوف عليه سنة ١٤٣٨^(٣) .

السلطان الظاهر جقمق وغزو رودسى : (١٤٣٨ - ١٤٥٣)

لم يستطع المنيز يوسف بن برسباى (١٤٣٧ - ١٤٣٨) أن يحصى عرشه من أطماع الرضى عليه وهو الأمير جقمق ذلك أن المنيز يوسف كان في الرابعة عشرة من عمره ، فسئل على الأمير جقمق عزله بعد عدة أشهر - كما هي عادة المماليك - وتولى هو السلطنة بنقب الظاهر . وكان جقمق معتدلاً في حكمه ، لذا قيس بسلفه برسباى ، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه فحرم المعاصى وشرب الخمر^(٤) .

(١) ابن حجر : انباء الفخر ج ٢ ورقة ١١٢ .

(٢) Maktiaras op. cit, p. 673 .

(٣) Lane-poole : op. cit, p. 340 .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة : ج ٧ في ١ ص ٢٤٥ (طبعة كاليفورنيا) .
(١٢ - العصر المماليكى)

وكما اشتهر عهد السلطان برسباى فى التاريخ بغزو جزيرة قبرس ، فكذلك اشتهر عهد السلطان الظاهر جقمق بغزو جزيرة رودس . والواقع ان جزيرة رودس كانت عندئذ مركزاً هاماً للصليبيين فى شرق البحر المتوسط ، بعد أن استولى عليها فرسان الاسبتارية سنة ١٣٠٨ واتخذوها قاعدة لنشاطهم وأعمالهم (١) . ولم يكن الاسبتارية أقل تحملاً لحرب المسلمين من آل لوزجنان فى قبرس ، الأمر الذى جعل المماليك يفكرون جدياً فى غزو جزيرة رودس للقضاء على ذلك الخطر .

ولاشك فى أن الاسبتارية فى رودس أحسوا بالخطر عقب نجاح المماليك فى فتح قبرس ، فأرسلوا بتقديم الهدايا للسلطان برسباى فى القاهرة ، وهرضوا عليه عقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء ، ولكن ذلك لم ينس السلطان برسباى موقف رودس والاسبتارية من المسلمين ، ولو طال به الأجل لقام فعلاً بغزو تلك الجزيرة . ومن جهة أخرى يقال إن السلطان مراد الثانى العثمانى سمح بمحاولات لضم فرسان الاسبتارية برودس إلى الحلف المسمى الكبير الذى أوشك أن يتكون فى أوروبا لشن حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين المسلمين ، فقام السلطان العثمانى بتحريض جقمق سلطان المماليك فى مصر على غزو رودس ليهغل الاسبتارية عن الانضمام لذلك الحلف (٢) . هذا إلى أن إغارات القراصنة على شواطئ مصر لم تنقطع عقب استيلاء المماليك على قبرس سنة ١٤٢٦ ، مما يدفع بحالاً للشك فى أن أولئك القراصنة اتخذوا جزيرة رودس قاعدة لهم بعد أن سقطت أرمينيا الصغرى وقبرس من ذلك أن أربع سفن للصليبيين دخلت فرع رشيد سنة ١٤٣٩ ، وبعد أن نهبت ودمرت عادت أدراجها ، مما أثار السلطان

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٣ — ١٢٣٤ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ص ١٩٨ .

جقمق (١). فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة السلطان جقمق في أن يحذو حذو برسباى ليحقق لنفسه مجداً يغطي به حقيقة اغتصابه للسلطنة من ناحية ، ويصرف أنظار المماليك عن المنازعات الداخلية ويوجه طاقتهم نحو الغزو والجهاد من ناحية ثانية ، أدركنا مجموعة الأسباب التي حركت جقمق لغزو جزيرة رودس .

وقد أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات ضد رودس في سنوات ١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، لم تستطع أن تقوم بعمل يستحق الانتباه ، بل على العكس تصدى لها أسطول الاسبتارية برودس وأنزل بالسفن الإسلامية بعض الخسائر (٢). أما الحملة الثانية التي أرسلها جقمق بقيادة الأمير إينال العلائي ضد رودس فقد كانت أكبر توفيقاً . فدمرت بعض الحصون الساحلية في رودس ثم قفلت راجعة إلى مصر بعد أن اضطرت لها عواصف الشتاء إلى ذلك (٣). وأخيراً كانت الحملة الثالثة وهي كبرى حملات جقمق ضد رودس وأوفرها عدة وعناداً ، فأنجحت صوب مدينة رودس عاصمة الاسبتارية وحاصرتها نحو اثنى عشر يوماً . ولكن على الرغم من مما أبداه المماليك من شجاعة نادرة ، فإنهم عجزوا عن الاستمرار في القتال بسبب شدة مقاومة الاسبتارية الذين كانوا قد ألفوا أساليب المسلمين في الحرب ببلاد الشام . هذا فضلاً عن المساعدات التي تلقاها الاسبتارية من العالم المسيحي الغربي ، وبخاصة برجنديا وقطالونيا . وهكذا رأى قائد الحملة - وهما الأميران إينال العلائي وتما باي - الانسحاب والعودة إلى مصر حرصاً على سلامة قواتهما (٤) . ولم يلبث أن تم الصلح بين

(١) Wiet : L'Egypte, Arabe, p. 582 .

(٢) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ١٢٢ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) السيوطي : غرر الخواص وروايت برودس ص ١٤ .

(٤) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ١٣٦ (طبعة كاليفورنيا) .

الاستبصارية في ردوس والسلطان جقمق في مصر بعد أن تعهد الاستبصارية بعدم العدوان على السفن والمتاجر الإسلامية (١).

هذا من نشاط السلطان جقمق في الميدان الخارجي . أما في الميدان الداخلي فقد امتاز عهده بالهدوء ، إذا استثنينا ثورتين في بداية حكمه قام بالاولى الأمير قرقاس الشعباني الناصري وقام بالثانية إينال الحسكي نائب دمشق . وقد نجح جقمق في القضاء على هاتين الثورتين في سهولة (٢) . كذلك حدث في عهد جقمق أن دارالعبيد السود في منطقة الجيزة سنة ١٤٤٢ وأقاموا عليهم سلطانا من بينهم ، ولما كان السلطان جقمق قضى تلك الفتنة وباع من في القاهرة من العبيد السود ، في حين أرسل الباقين في سفينة إلى بلاد العثمانيين حيث بيعوا هناك (٣) .

دولة المماليك في أواخر أيامها :

توفي السلطان جقمق سنة ١٤٥٣ وهو في الثمانين من عمره ، بعد أن أعلن أثناء مرضه - وهو على فراش الموت - ولاية العهد لابنه عثمان . غير أن السلطان المنصور عثمان لم يستطع البقاء في الحكم أكثر من شهر ونصف ، تخلعه الجيش لأنه وزع عليهم النفقة بنقود مغموشة غير سليمة (٤) .

وقد ولي السلطنة بعد المنصور عثمان السلطان الأشرف إينال (١٤٥٣-١٤٦٠) . ولعل أوضح ظاهرة اتصف بها تاريخ المماليك في ذلك الدور هي كثرة

(١) محمد مصطفى زيادة . المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس من ٢٠٢ وما بعدها .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ق ١ ص ٤٩ - ٥٨ (طبعة كاليفورنيا)

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٣٥ .

(٤) Wiet : op . cit . , p . 587 .

ثورات المماليك الجلبان أو الأجلاب الذين كان يحاربهم كل سلطان جديد . والمعروف أن سلاطين المماليك الأوائل اعتادوا منذ منتصف القرن الثالث عشر أن يشتروا مماليكهم صغاراً أطفالاً ويتمهدون تربيتهم ونشأتهم نشأة خاصة ، فيشرب المملوك وقد اختص بولائه أستاذه الذي اشتراه وقام على تربيته وحباه بعطفه . أما في ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك - أى في القرن الخامس عشر - فقد دأب السلاطين على شراء المماليك كباراً في سن البلوغ ، مما جعل أولئك الجلبان لا يشربون روح النظام والولاء لأستاذهم في طفولتهم ، فصاروا مصدر خطر على السلطان نفسه ، وتعددت ثوراتهم حتى صار السلاطين أنفسهم العوبة في أيديهم . ولعل هذا هو السر فيما نلاحظه في ذلك الدور بالذات من سهولة عزل السلاطين وإقامة غيرهم ، فلا يكاد السلطان يبقى في منصبه أياماً بل ساعات حتى يمزق ويتم غرقه . ومن وراء جميع هذه الحركات الثورية والفن والفن كان الجلبان في ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك الجراكسة (١) .

ولا أدل على مدى ما أصاب البلاد من اضطراب نتيجة لثورات الجلبان في ذلك الدور ، من أن الجلبان ثاروا سبع مرات في عهد السلطان إبنال البالغ طوله ثمان سنوات (٢) .

ولم يستطع أحمد بن إبنال البقاء في الحكم سوى أربعة شهور فقط ثم خلفه سنة ١٤٦١ السلطان الظاهر خشقدم الذي امتاز عهده بالهدوء . ولم يعكر صفو هذا الهدوء سوى المحاولة التي قام بها جانيك بك نائب الشام لانزاع العرش . ولكن خشقدم استطاع في سهولة أن يتخلص من مؤامرة جانيك بك وأعوانه ، حتى قتله (٣) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ٣٩٠ وما بعدها (طبعة كاليفورنيا) .

(٢) ابن أبياس : صفحات لم تنتشر من بدائع الزهور ص ٢٨ ، ٥٧ ، ٦٥ .

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٩ .

وبعد خشف قدم تولى السلطنة قايتباى المجنون سنة ١٤٦٧ ، ثم الظاهر تمر بغا الرومى فى العام نفسه . ولم يستطع تمر بغا إرضاء الممالك الحشقدمية وزعيمهم خير بك فعزله بعد شهرين . ومن الواضح أن خير بك عندما دبر عزل تمر بغا إنما كان يبغي الاستئثار بالعرش لنفسه ، وفعلًا صعد خير بك إلى دست السلطنة أثناء الليل وأقب نفسه بالسلطان الظاهر تشبهاً باستاذ الظاهر خشف قدم . ولكن الأتابك قايتباى أسرع إلى القلعة وسيطر على الموقف ، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذى أطلق عليه لقب « سلطان ليلة » ، لأنه لم يظل فى دست السلطنة سوى ليلة واحدة (١) .

ويعتبر السلطان قايتباى (١٤٦٨-١٤٩٦) من أبرز سلاطين دولة الممالك الجراكسة لأنه حكم مدة طويلة بلغت تسعة وعشرين عاماً ، وهى مدة لم يحكمها أحد من سلاطين الممالك ، عند السلطان الناصر محمد . وفى تلك المدة أثبت السلطان الأشرف قايتباى أنه أمهر السلاطين الجراكسة فى ميدان الحرب ، وأوسمهم خبرة بشئون العالم ، وأكثرهم مقدرة وشجاعة وحكمة ؛ حتى لقد وصفه المؤرخ ابن لياس بأنه كان « وافر العقل شديد الرأى ، عارفاً بأحوال الممالك ، يضع الأشياء فى محلها ... موصوفاً بالشجاعة عارفاً بأنواع الفروسية .. » (٢) . حقيقة إنه تعسف - مثل غيره من السلاطين - فى جمع الأموال وفرض الضرائب ؛ ولكن آثاره ومنشأته العديدة تثبت أنه كان ينفق تلك الأموال فى المنشآت العامة أوفى حروبه الواسعة . ويعتبر مسجداً قايتباى بالقاهرة والوكالات التى شيدها من أجل المباني العربية فى ذلك العصر . هذا إلى أنه حرص على ترميم وإصلاح المنشآت التى أقامها أسلافه ، كما تشهد على ذلك السكتات العديدة

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٩ وما بعدها .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٣٢٥ (نصر محمد مصطفى) .

المدونة على جدران المساجد والمدارس والقلاع وغيرها^(١).

وقد عرف عن السلطان قايتباي حب الرحلات والأسفار ، فطاف بلاد الشام وشمال الفرات والوجهين البحري والقبلي بمصر ؛ بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين . وكان أينما ذهب يخلد اسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس والتحسينات وغيرها من الأعمال الخيرية والمرافق العمرانية^(٢).

على أن هناك مهاماً أخرى واجهت السلطان قايتباي ؛ أخطر بكثير من الإنشاء والتعمير . ذلك أن عدم استقرار الأوضاع على الحدود الشمالية سبب دائماً مصاعب جمة لسلاطين المماليك الجراكسة . وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم تقتصر المتاعب التي واجهت دولة المماليك في تلك الجهات على الثورات التي قام بها التركان ، وإنما أدت القلاقل التي ظهرت في تلك الجهات إلى تدخل قوة جديدة هي قوة العثمانيين الذين أخذ نفوذهم يزداد ويتضخم ، وخاصة بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ١٤٥٣^(٣).

أما عن أحوال مصر في أواخر عهد السلطان قايتباي فقد امتازت بكثرة الضرائب وجمع الأموال للحروب ، هذا عدا انتشار الوباء انتشاراً فتاكاً سنة ١٤٩٢ ؛ حتى أنه كان يموت في القاهرة في اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف شخص . وقد مات بسبب ذلك الوباء ثلث المماليك ، فضلاً عن زوجة السلطان قايتباي وابنته . ثم إن ذلك الوباء ترتب عليه القحط الشديد وانتشار طاعون الموشى ، مما أدى إلى ندرة القوت وغلاء الأسعار^(٤) . ولبت المماليك قدروا

(١) Lane-poole: op. cit., p. 344 .

(٢) ابن أبي راس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٢٩ (نهر محمد مصطفى) .

(٣) Wiet : op. cit., pp. 590-592 .

(٤) ابن أبي راس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ (نهر محمد مصطفى) .

عندئذ خطورة تلك المحنة التي كانت تمر بها البلاد والعباد ، وإنما استمرت المنازعات والخلافات بين طوائفهم ، كما حدث سنة ١٤٩٥ .

وأخيراً ساءت صحة السلطان قايتباي بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، فتنازل عن السلطنة لابنه ، ثم توفي في اليوم التالي مباشرة سنة ١٤٩٦ (١) .

وقد تعاقب في منصب السلطنة بعد السلطان الأشرف قايتباي ابنه محمد (١٤٩٦ - ١٤٩٧) ثم قانصوه خمسمائة الذي لم يثبت في العرش سوى ثلاثة أيام ؛ ثم عاد محمد بن قايتباي مرة أخرى (١٤٩٧ - ١٤٩٨) ، ثم قانصوه الأشرفي (١٤٩٨ - ١٥٠٠) ؛ ثم جانبلاط (١٥٠٠ - ١٥٠١) ، ثم العادل طومان باي الأول (١٥٠١) . وجميع هؤلاء حكموا مدداً قصيرة مما يشهد على مدى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي سادت البلاد في ذلك الدور الأخير من حياة دولة المماليك (٢) . ولا أدل على تلك الفوضى التي عمت جهاز الحكم في الدولة من أن معظم السلاطين الذين تولوا السلطنة في ذلك الدور انتهى أمرهم بالقتل أو السجن أو الخنق ، مما جعل كبار الأمراء لا يرغبون في تولي منصب السلطنة الذي غدا ملطخاً بدماء الأبرياء . وعندما قتل السلطان العادل طومان باي سنة ١٥٠١ : تمنع الغوري — رغم أنه أقوى الأمراء — عن قبول المنصب بل لأنه أخذ يبكي ؛ ويقال إن الغوري قبل أخيراً أن يلبى منصب السلطنة بعد أن سجنوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكي ؛ واسكنه الله شرط على الأمراء ألا يقتلوه ، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله ، فقال لهم : أفبل ذلك بشرط ألا تقتلوني ؛ بل إذا أردتم خلعي وافقتكم (٣) .

(١) Lane-poole : op. cit. , p. 349 .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٣٢ — ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٤ (نشر محمد مصطفى) .

السلطان الأشرف قانصوه الغورى (١٥٠١ - ١٥١٦)

أنبت السلطان قانصوه الغورى أنه رجل قوى صلب ورغم أنه كان قد جاور المتين من عمره عندما ولى منصب السلطنة . ذلك أنه عمل بسرعة على إعادة النظام والاستقرار إلى العاصمة ، وملا مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية المستعصمة التي كانت تعانىها خزانة الدولة المفلسة .

وقد اتبع السلطان الغورى لإنعاش الخزانة العامة سياسة تيسيرية لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك . ذلك أنه جمع ضرائب ومكوس عشرة أشهر مقدما دفعة واحدة ، ولم يكثف بفرض هذه الضرائب على الأراضي والحوانيت والعقارات ، وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعدن والسفن ودواب النقل وخدم القصور ، بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا إلى أنه ضاعف من الرسوم الجركية ، كما تلاعب في العملة لتستفيد الخزانة من الفارق ، مما أضر بالتجار ضرراً بليغاً^(١) . وكانت النتيجة أن حقق الغورى أغراضه وحصل على ما كان يرغب فيه من أموال ، ولكن على حساب الشعب الذى ازدادت حالته سوءاً ، وأخذ يئن من قسوة الضرائب الباهظة .

وقد أنفق الغورى من تلك الأموال - التى جدد فى جمعها - على المايليك الذين أكثر من أعدادهم عن طريق الشراء ، كما شيد مسجداً ومدرسة فى الحلى الذى سمي بعد ذلك باسمه ، وهو حى الغورية . كذلك عفى السلطان الغورى بطريق الخس ، فأقام به كثيراً من الاستراحات والآبار . هذا فضلاً عن حفر بعض الترع وتعمير الإسكندرية ورشيد وإصلاح القلعة . ومن المعروف عن السلطان

(١) ابن دباس: بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٩ - ٩٠ (أمر محمد مصطفى) .

الغورى أنه عنى بفخامة بلاطه وعظمة مظهره ، فأصبحت ممالكه وحيوله وجواهره ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية بمن ضمنهم من شعراء وأدباء وعلماء (١) .

ولم تحدث قلاقل ذات أهمية في الفترة الأولى من حكم السلطان الغورى ، إذا استثنينا بعض الثورات من جانب الممالك الأجلاط والعربان . أما في الميدان الخارجى ، فكان الخطر الكبير الذى هدد مصالح البلاد في ذلك الدور الأول من حكم السلطان الغورى آتيا من ناحية البحر الأحمر . ذلك أن فاسكو دى جاما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، وسرعان ما ثبت البرتغاليون أقدامهم في كلكتا سنة ١٥٠٠ ، مما هدد مركز مصر الاقتصادى كطريق رئيسى للتجارة بين الشرق الأقصى والعرب الأوربي ، وأذن بانتقال زمام التجارة من أيدي الممالك إلى أيدي البرتغاليين (٢) . وإزاء هذا الخطر الجسيم ، استنجد أمراء المسلمين في الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية بالسلطان الغورى ، الذى رأى في الخطر الجديد تهديدا مباشرا للمورد الأساسى الذى اعتمدت عليه دولته واستمدت منه قوتها .

وقد لجأ الغورى أولا إلى الأساليب السياسية فوجه نداء إلى البابا يطلب منه منع البرتغاليين والأسبان من التعرض بشوء المسلمين في الشرق والغرب ويبدو أن القوى الأوروبية لم تتأثر بذلك التهديد الجوف مما جعل الغورى يشيد أسطولا جديدا في البحر الأحمر . وفي الصراع الذى نشب بين الممالك والبرتغاليين في المحيط العربى — غربى الهند — انتصر الممالك في أول الأمر سنة ١٥٠٨ ، ولكن لم يلبث أن ثار البرتغاليون لأنفسهم في العام التالى في

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ (نصر محمد مصطفى)

(٢) wiet : op. cit. p. 616 — 617.

موقعة ديو البحرية ، بل لقد هاجم البرتغاليون عدن نفسها سنة ١٥١٣ وهكذا ضاعت مكانة مصر في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب ، الأمر الذي أدى إلى ذبول دولة المماليك ذبولا سريعا متواصلا (١).

على أنه إذا كان الخطر الخارجى من جانب البرتغاليين قد ترتب عليه ذبول دولة المماليك ، فإن ثمة خطر خارجى آخر تفاقم فى أواخر عهد الخورى ، وترتب عليه سقوط سلطنة المماليك نفسها . ونعنى بهذا الخطر الجديد ، خطر بنى عثمان .

سقوط دولة المماليك :

والواقع إن الدولة العثمانية وصلت فى أوائل القرن السادس عشر إلى نقطة يمكن تسميتها بمفترق الطرق ، بالنسبة لحركة التوسع الضخمة التى شرع فيها العثمانيون منذ عدة قرون . وفى أوائل القرن السادس عشر كان العثمانيون قد فرغوا من احتلال آسيا الصغرى والبلقان ووصلوا إلى أواسط أوروبا ، وعندئذ صار أمامهم أن يختاروا بين أمرين ، إما الاستمرار فى التوسع فى أوروبا على حساب الأوروبيين المسيحيين مما أضفى على حركتهم التوسعية فى ذلك الاتجاه طابع الجهاد الدينى ، وإما الاكتفاء بما أصابوه من تقدم فى وسط أوروبا أو صالهم إلى مدينة فيينا ذاتها ، والتوسع شرقا على حساب الدول الإسلامية المجاورة .

وكان أن اختار السلطان سليم العثمانى الاتجاه الأخير لاسيما وأن الخلاف المذهبى والسياسى كان على أشده بين العثمانيين السنيين من ناحية والصفويين الشيعة فى فارس والعراق من ناحية أخرى . ولم يلبث السلطان سليم العثمانى أن حقق انتصارا كبيرا على القائد اسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران سنة ١٥١٤

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٨٧ ، ٢٨٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ (نهر محمد مصطفى)

ومن الواضح أن انتصار العثمانيين على الصفويين، واستيلاء سليم الأول على الجزيرة والموصل وديار بكر، وغيرها من النواحي ذات العلاقات الاقتصادية والسياسية القديمة بدولة المماليك، جعل العثمانيين قاب قوسين أو أدنى من أطراف دولة المماليك في شمال الشام والعراق.

وقد امتدأ السلطان الغورى والأمراء لأخبار انتصار السلطان سليم العثماني على الصفويين، وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان، (١). ولم يخفف من مخاوف السلطان الغورى ما تردد من أخبار بعد ذلك بأن الصفويين انتصروا على العثمانيين، لأنه أدرك أن بقاء دولة المماليك في ذلك الدور صار رهيناً باستمرار الصراع بين القوتين. لذلك حسم الغورى على الخروج إلى حلب، حتى نرى ما يكون من أمر الصفوي وابن عثمان، فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا... (٢).

ثم كان أن قضى سليم سنة ١٥١٥ على إمارة دلقادر، وهى الإمارة التركمانية المشمولة بحماية المماليك، الأمر الذى جعل السلطان الغورى يحس إحساساً قوياً بخطر العثمانيين الذى ازداد ملازمة لحدود دولته (٣). وكان أن اتخذ السلطان الغورى عدة خطوات إيجابية، فتحالف مع اسماعيل الصفوى من ناحية (٤)، كما أوى الأمير قاسم العثماني - ابن أخى السلطان سليم - الذى فر من وجهه بعد أن قتل السلطان أباه أحمد (أبو القاسم وأخو سليم) (٥).

(١) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٩٧، وكذلك ص ٢٧٨، ٣٩٦، ٤٠٠ (نشر محمد مصطفى).

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٢٢.

(٣) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٦٢ - ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى).

(٤) المرجع السابق ج ٥ ص ٣٥، ويذكر ابن لياس أن الغورى أرسل للصفوى عدة أفيال يستعين بها في حرب سليم العثماني وكان لإرسال هذه الأفيال فى الحقيقى فى خبر سر بولنه وبين الصفويين.

(٥) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٥ ص ٤٩ (نشر محمد مصطفى).

وهكذا أصبح الصراع المكشوف متوقفاً بين لحظة وأخرى بين دولتي المماليك والعثمانيين . وسرعان ما جاءت الأخبار إلى السلطان الغوري بعظم الحشود والاستعدادات التي يجريها السلطان سليم العثماني قرب حدود دولة المماليك ، ولم يصدق الغوري الإشاعات التي أطلقها السلطان سليم بأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها محاربة الصفويين ، وإنما أوجس الغوري خيفة من نيات سليم وأخذ يحشد قواته على عجل لمواجهة الموقف . وفي تلك الأوقات العصيبة لم يتدخل المماليك عن عبثهم ولم يقدروا خطورة الموقف الذي أوشك أن يعصف بهم جميعاً ، فنار الجلبان في القاهرة لتأخر روانهم ، الأمر الذي أغضب السلطان الغوري فترك القلعة واعتزل في المقياس وقال للأمراء : أنا ما بقيت أحمل سلطاناً ، ولوا عليكم من تختاروه غيري ، وقد استعقل المماليك الجلبان تلك الفرصة ، فتمادوا في العبث ونهبوا الدكاكين في القاهرة ، واستمروا يشوشون على الناس ويخطفون العمام ... وحصل منهم الضرر الشامل ،^(١) وأخيراً استطاع كبار الأمراء أن يسترضوا السلطان الغوري ، فأب المماليك قائلاً : دلائمتموا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا .^(٢) وفي الوقت الذي أخذ الغوري يكمل استعداداته ويصدر أوامره إلى الخليفة العباسي المتوكل والقضاة الأربعة بالتأهب لمصاحبة على رأس الجيش إلى حلب لمواجهة تهديد بني عثمان ، إذا برسالة تصل من خير بك نائب حلب تطمئن السلطان الغوري وتخبره أنه مخدوع فيما لديه من أخبار بصدد الاستعدادات العثمانية ، لأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها حرب الشاه اسماعيل الصفوي . وستكشف الأحداث فيما بعد عن خيانة خير بك هذا ، إذ أنه في الواقع كان متصلاً بالعثمانيين منذ وقت مبكر وقام بدور خطير

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٨٤ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٧ .

في تسهيل مهمة العثمانيين في احتلال الشام ، ولكي يسبك خاير بك أكذوبته ، فإنه أخذ يروى في رسالته إلى السلطان الغوري تاريخ الحرب بين العثمانيين والصفويين (١) ، كما انهل بالأمير سيباى نائب الشام وطلب منه أن يطمئن السلطان الغوري ، فكتب سيباى إلى الغوري يخبره أن الأحوال الاقتصادية في الشام سيئة بحيث لا تحتل البلاد بجيـء السلطان ومعه جيشه الغفير ، لاسيما وأن العثمانيين لم يتحركوا على الحدود ، وإن كان العدو متحرك فنحن له كفاية (٢) .

ولكن السلطان الغوري لم يأخذ بكلام خاير بك الخائن ومضى في استعداداته فحشد الجند والأمراء في الريدانية استعداداً للخروج إلى الشام . وفي تلك المرحلة وصلت السلطان الغوري رسالة ثانية من خاير بك يقول فيها إن رسولا جاءه من قبل السلطان العثماني لمفاوضته في الصلح ، ومع رسالة خاير بك رسالة من السلطان سليم نفسه إلى الغوري ، كلها ألفاظ مسوولة لمحاولة بث الطمأنينة في قلبه وصرفه عن الاستعداد للحرب ، إذ يقول السلطان سليم للغوري في رسالته : ... أنت والدي وأسالك الدهاء ... وجميع ماترونه ويريده السلطان فعلاه (٣) ... ومرة أخرى لم ينخدع الغوري بتلك الحيلة ، فلم يهض على تسلمه رسالة السلطان سليم يومان حتى خرج على رأس جيشه إلى الشام ، بعد أن أناب عنه أثناء غيبته الأمير طومانباى .

وعند غزوة سمع السلطان الغوري لأول مرة بخيانة خاير بك ، ولكنه رفض تصديق التهمة ، ومضى في طريقه حتى وصل حلب في يوليو سنة ١٥١٦ (٤) .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٣ (نشر محمد مصطفى)

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٦ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٥ (نشر محمد مصطفى)

(٤) ابن زنبيل : آخره المالك ص ١٥ .

وهناك في حلب اعتدى جيش الغورى على الأهالى وأخرجوا الناس من بيوتهم وسبوا حريمهم وأولادهم وكان ذلك سببا (فجا بعد) لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة ، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم ، (١) وكان أن وصل معسكر الغورى في حلب رسولان من قبل السلطان سليم العثماني يطلبان المفاوضة في الصلح ، وذلك بقصد خديعته وإحاطته بجو من السلامة والعلمانية حتى يأخذه سليم على غرة . وقد تمادى الرسولان في التمويه على الغورى فقالا له : نحن فوض لنا أستاذنا الأمر ، وقال مهما اختاره السلطان أفعلاه ولا تشاوروني . ويرى ابن إياس أنه من جملة مخادعة ابن عثمان إلى السلطان أنه أرسل يطلب منه سكر وحلوى فأرسل إليه السلطان مائة قنطار سكر وحلوى في علب كبار ، وكل ذلك حيل منه ، (٢) ومع أن الغورى استقبل الرسولين استقبالا حسنا وأرسل بدوره للسلطان سليم يؤكد رغبته هو الآخر في الصلح ، إلا أن سلطان المماليك كان يحس بنية العثمانيين بدليل أن الغورى استدعى أمراءه جميعا — ومن جملةهم خير بك — وحلفهم على القرآن في حضرة الخليفة العباسي بأنهم لن يخونوه في ساعة الشدة ، مما يدل دلالة واضحة على أنه توقع الشر من سليم (٣) .

ولم تلبث أن تحققت مخاوف الغورى ، إذ لم تكف تصل الإمدادات بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا إلى سليم ، حتى أساء معاملة الرسول الذى أوفده الغورى إليه ورفض الحديث معه في الصلح وقال له دقل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق ، وهكذا درسول الغورى إليه وهو في حال نحس ، ليخبره بما حدث ، وبأن العثمانيين تحرخوا فعلا واستولوا على ملطية وكركر وبهتسا

(١) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٢٢

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٦ ص ٦٠ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) ابن زنبيل : ص ٢٤

وغير هامي القلاع^(١) وفي ذلك الموقف أدرك الأمير سيباى نائب الشام أن
خاير بك غرر به عندما استعنه على الكتابة للسلطان الغورى في مصر يطمأنه
من ناحية سليم ، فهجم سيباى على خاير بك وأمسك به صائحا « يا مولانا
السلطان إن أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله ، فاقتل هذا الفادر الخائن
في الحال ١ ، »^(٢) ، ولكن خاير بك لم يكن وحده في الحياة إذ كان له شريك
هو الأمير جابر دى الغزالي نائب حماه ، الذى أسرع بالتدخل وأقنع السلطان
بعدم السماح لتلك التهم حتى لا يؤدى ذلك إلى بعثرة الجهود ورفرة الصفوف
وبذلك ترك خاير بك حراً طليقاً ليتم الدور الذى بدأه^(٣) .

وكان أن خرج الغورى على رأس جيشه متوجهاً شمالاً لملاقاة العثمانيين . وعند
دابق — إحدى قرى بلدة عزاز — أخذ الغورى ينظم جيشه ويصدر تعليماته
النهائية استعداداً للمعركة المقبلة . ولم تلبث أن لاحت مقدمة الجيش العثماني
ثم دارت المعركة بين الطرفين في أغسطس سنة ١٥١٦ . وفي تلك المعركة أبدى
المماليك و«سلطانهم» الغورى شجاعة نادرة أفاضت في وصفها كتب التاريخ ،
فقتلوا كثيراً من العثمانيين واستولوا على بعض عديم وأعلامهم ، حتى لقد
فكر السلطان سليم نفسه في « الهروب أو طلب الأمان ، عمى أن يتمكن من
إعادة تنظيم صفوفه »^(٤) وفي تلك الساعة ظهرت خاير بك ليتم دوره الأهم
فأخذ يطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف المماليك المقاتلين ، فهو حيناً يشيع
أن السلطان الغورى أمر بماليكة الأجلاب ألا يتقدموا ، الأمر الذى جعل بقية
طوائف المماليك يستاءون من السلطان ويظنون أنه إنما يبغى أن يجعلهم وحدهم

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٨ .

(٢) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٢٥ .

(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢١٨ .

(٤) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٩ (نهر محمد مصطفى) .

وقود تلك الحرب ويحفظ بماليكه سلاماً معافين^(١) ؛ وحيناً آخر يشبع
خاير بك أن السلطان الغورى سقط قتيلاً في المعركة ويترجع هو وجنوده
مولهن الأدهار ، ليحذو حذوهم بقية الجيش الماليكى^(٢) .

وأخيراً أدرك السلطان الغورى حقيقة الحياة ، بعد أن وجد معظم جيشه
ولى الفرار وهيناً حاول الغورى أن يستحث جيشه على الثبات ، فأخذ يصيح
« يا أغوات ! هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة ! يا أغوات ! الشجاعة !
صبر ساعة ! »^(٣) ، وكان أن تقدم الأمير ثمر الزردكاش إلى السلطان وأخذ
العلم السلطانى وطواه خفية أن يقع في يد الأعداء ، ثم نظر إلى السلطان
الغورى وقال له « يامولانا السلطان ! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فانج
بنفسك واهرب إلى حلب ! » ويقال إن الغورى لم يحتمل فسوة الموقف
فأصيب بفالج وطلب بعض المساء ليشرب ، ثم سقط من فوق فرسه ميتاً
على الأرض^(٤) .

وهكذا انتهت موقعة مرج دابق ، وهى الموقعة الفاصلة بين الماليك
والعثمانيين والى حددت مستقبل مصر والشام لعدة قرون تالية ذلك أن ملول
الجيش الماليكى أسرعت إلى حلب ومنها إلى دمشق فمصر دوم فى أخص حال ،
فوصلوا القاهرة فى أكتوبر سنة ١٥١٦ ، وعندما تأكد أهل القاهرة من خبر

(١) ابن زنبيل : آخره الماليك ص ٢٨ .

(٢) وبفهم من كلام المؤرخ ابن لياس (ج ٥ ص ٧٩) أن خاير بك لم يكن وحده فى
جريمة الحياة ، وإنما وجد كثيرون من أمراء الغورى وخصيانته كانوا موالين عليه ... وكانوا
مع ابن عثمان فى الباطن ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة . ويشهد
هذا على مدى انحلال الماليك فى أواخر أيامهم .

(٣) ابن زنبيل آخره الماليك ص ٣٠ .

(٤) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ص ٧٠ (انظر محمد مصطفى) .
(ويروى ابن لياس أنه لم يثر على أثر لجنة السلطان الغورى فيما بعد ، فشكل
الأرض انشقت وانقلبت فى الحال » ، فى حين روى ابن زنبيل (ص ٣١) أن بعض أمراء
الماليك قطعوا رأس الغورى ورموا بها فى حب حتى لا يعرف مسلم جثته) فيبحث بها .
(١٣) - العصر الماليكى)

الجزيمة بعد أن رأوا بأعينهم فلول الممالك وقد عادوا في حالة سيئة من الكسرة والجزيمة ، سرت فيهم موجة من الرعب والخوف ، فقام العزاء والهمز الخ ... ورجت القاهرة في ذلك اليوم وكثر الاضطراب والقال والقييل ... ، ولم تكن هناك فسحة من الوقت للبحث والنقاش ، فأمرع الأمراء في مصر باختيار طومان باي - نائب السلطنة - سلطاناً خلفاً للغوري فتمنع طومان باي في أول الأمر غاية الامتناع حتى قال له الأمراء : ما عندنا سلطان إلا أنت طوعاً أو كرهاً (١) . ومن الواضح أن منصب السلطنة في تلك الظروف كان غير مرغوب فيه ، بما جعل كبار الأمراء يهدون فيه . هذا إلى أن طومان باي - وهو أحد أمراء الممالك - كان يعرف ما اعتري أخلاق الممالك في ذلك الدور من تدهور وفساد ، فلم يقبل السلطنة إلا بعد أن أحضر مصحفاً شريفاً وحلف الأمراء بأنهم إذا سلطوه لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله (٢) .

ولم تلبث أن جاءت الأخبار بأن العثمانيين استولوا على الشام فقال الناس : ما بقي بعد أخذ الشام إلا مصر ، فاشتد الطمع وأخذ كثيرون يفسكرون في الهروب إلى الصعيد ، في الوقت الذي كان الناس دجرحهم طرى بسبب موت السلطان (الغوري) وكثرة العسكر (مرجع سابق) .

وفي تلك الأزمة الخطيرة لم يقدر جنود الممالك الموقف ، فاشتدوا على طومان باي للخروج والحرب مصاريق باهظة ، في الوقت الذي استولى العثمانيون على دمشق ودخلوا فعلاً غزة ، وأحرقوا منها بعض بيوت ، وأن نائب غزة هرب . وهكذا أخذ طومانباي يستحث العوام من الذهب والصبيان

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٥

(٢) المرجع السابق ص ٨٦

والشطار ، حينئذ ؛ ويتوسل إلى المماليك أحياناً ويقول لهم : اخرجوا وقاتلوا
من أنفسكم وأولادكم وأزواجكم ؛ فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار ،
وأنا واحد منكم ؛ إن خرجتم خرجت معكم ، وإن قعدتم قعدت معكم ؛
وما عندي نفقة أنفقها عليكم (١) . ١١١ .

ولم يتحرك المماليك لدفع خطر الأعداء عن حدود مصر إلا في ديسمبر
سنة ١٥١٦ ، فخرجت حملة على رأسها جان بردى الغزالي - وهو الأمير الخائن
فريك خاير بك . وقد رأى جان بردى الغزالي أن يسبك دوره في الحياة ،
فلما رأى أن العثمانيين استولوا على غرة مرج عنها واتجه شمالاً حيث تظاهر
باشقباك مع العثمانيين في معركة تمثيلية قرب بيسان ، وانهمزم فيها (٢) .

وفي أوائل سنة ١٥١٧ تسلّم طومان باي رسالة من السلطان سليم العثماني
بعبارة فيها بأصله المماليكي ، ويقول له : إنك مملوك تباع وتشترى ولا تصح
لك ولاية ملك ، ويطلب منه أن يكون نائباً عنه في مصر ، ويهدده إذا رفض
ذلك بأنه سيدخل مصر ويقتل جميع من فيها من المماليك « أشقى بطون الخوامل
وأقتل الجنين الذي في بطنها من الأتراك » (٣) ، وفي الوقت الذي أرسل السلطان
سليم رساله وسفراءه لمطالبة طومانباي بالدخول في طاعته ، دأب خاير بك
الخائن على تسهيل مهمة العثمانيين ، فواصل إرسال الكتب إلى أمراء مصر
د يرغبهم في الدخول تحت طاعة ابن عثمان ويطنّب في محاسنه وهدله في الرعية (٤) .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١١٩ - ١٢١ (نصر محمد مصطفى) .

(٢) ابن زنبيل : آخرة المماليك ص ٤٥ - ٤٦ .

محمد مصطفى زيادة : نهاية سلاطين المماليك ص ٢٢١ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

ويروي ابن زنبيل (ص ٤٢) أن السلطان سليم لم يكن في نيته أن يغزو مصر
وأنه بعد أن استولى على حلب والشام فسكر في العودة إلى بلاده لولا خاير بك الذي حرضه على =

وقد أحس السلطان طومان باى بخرج موقفه وعظم الخطر الذى يهدده ويهدد مصر ، حتى يقال إنه عندما تسلم رسالة سليم العثمانى د بكى وحصل له غاية الرعب ، ومع ذلك فقد صمم طومان باى على الخروج لدفع العثمانيين ، ولكنه لم يجد استجابة من المماليك الذين تخاذلوا ورفضوا الخروج ، بل تطاولوا على السلطان طومان باى وقالوا له : إن رحمت لعنة الله عليك ؛ غيرك يحى بعمل سلطاناً^(١) ، وعندئذ لم يسع طومان باى سوى الوقوف عند الريدانية - قرب العباسية بظاهر القاهرة - واتخاذ تلك البقعة مركزاً للدفاع ضد الغزو العثمانى للبلاد ، ولكن العثمانيين الذين وصلوا عن طريق الشرقية فى أواخر يناير سنة ١٥١٧ حاولوا دخول القاهرة وتحاشى الاصطدام بالمماليك ، فلتحق بهم طومانباى وأظهر دهمة عالية ، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين قتل فيها سنان باشا الصدر الأعظم ، واستمر طومانباى يقاوم فى شجاعة نادرة ؛ حتى ألقى نفسه وحيداً فى نهاية الأمر ، فاضطر إلى الفرار^(٢) . والواقع أنه لم يكن هناك ثمة مناص من هزيمة الريدانية ، لأن الأمير جان بردى كان متصلاً بشريكه الخائن خاير بك ، ولم يقنع بإفشاء خطة للمماليك عن طريق خاير بك إلى السلطان سليم مما أدى إلى تجنّب العثمانيين تحصينات الريدانية ؛ بل نجح فى إقناع طومانباى بضرورة إخفاء الطوارىء والمكاحل حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال ، مما كان له أسوأ الأثر فى الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين^(٣) .

ومن الواضح أن هزيمة المماليك فى الريدانية جعلت القاهرة تحت رحمة

— فر ومصر ، وقال له : « نركب إلى مصر نأخذها ، ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جملة واحدة ، وأنا ضامن لك هذا الأمر بمنابة الله »

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٦ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٢٤ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٤٥ — ١٤٦ (نصر محمد مصطفى) .

العثمانيين ، فدخلت الجيوش العثمانية مدينة القاهرة في اليوم التالي لموقعة الريدانية - وهو يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ - دون أن تلقي مقاومة ، وفي ذلك اليوم بالذات دعى في خطبة الجمعة في مساجد القاهرة للسلطان ، الملك المظفر سليم شاه ، وكان طبيعياً أن يعمل العثمانيون السيف في كل من صادفوه من المالك في شوارع مصر ، كما استباحوا لأنفسهم نهب القاهرة ، فافتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شيء فاخر ... (١) . أما طومانباي الذي فر من الريدانية فإنه لم يلق السلاح في سهولة ، وإنما استمر يقاوم المعتدين ، واشتبك معهم في معركة الصليبة ، ولكنه هزم وفر إلى الهياك بالصعيد حيث فكر في الصلح مع سليم : (٢) فأرسل يمرض عليه أن يكون نائباً عنه في حكم مصر ويعمل الخطبة والسكة بإسمه ، ويعمل له خراج البلاد ، بشرط أن يرحل سليم وجنوده عن مصر ، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولا تقبض في الجزيرة (٣) . وكان طبيعياً أن يرفض سليم العثماني الجلاء عن البلاد بعد أن تمكن منها ، فعاد طومانباي إلى الجزيرة حيث دارت اشتباكات بينه وبين العثمانيين عبر النيل ، ثم التقى الفريقان في معركة عنيفة هُزم وردان في أول أبريل سنة ١٥١٧ ، ولكنها انتهت أيضاً بانتصار العثمانيين .

وهكذا لم يأس طومانباي من المقاومة واستمر في ذلك الدور ينزل ألحاح الحساثر بالعثمانيين ، الأمر الذي أفاظ السلطان سليم ، فصب جام غضبه على خاير بك الذي حرصه على فتح مصر ، وقال له : أنت أفررتني وطمعتني في أخذ

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٥١ - ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٩ - ١٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

هذا الإقليم ، فانظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف ، وإلا فهيا برأسك ١١ ، (١) .

أما طومان باي فقد تضرع في ذلك الدور لعقبات شديدة بسبب نفرق رجاله وانفضاضهم عنه ، فضلا عن خيانة البدو والأعراب الذين دأبوا على مهاجمته بما أوقفه بين نارين . وأخيراً وجد طومان باي نفسه وحيداً عاجزاً عن المقاومة ، فجمع من حوله من أفراد المماليك وقال لهم : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ١١ اعللوا يا غرابت أن دولتنا قد دالت وآجالنا قد ماليت ، وما بقي لنا في هذه الديار نصيب ١١ ، ولم يجد طومان باي مخرجاً سوى أن يهتدى في مدينة سخا بالشيخ حسن بن مرعي - أحد مشايخ العربان وكان بينه وبين طومان باي صداقة قديمة - وليكن الشيخ خاتمه ، وأرسل إلى سليم وسلمه إليه (٢) . وما كاد السلطان سليم يتحقق من خبر القبض على طومان باي حتى فرح فرحاً شديداً وقال : الآن ملكنا ملك مصر (٣) . وكان أن أحضر طومان باي مقيداً بالجديد في حضرة السلطان سليم الذي أخذ يوبخه ويقرعه على مقاومته وأنما له ، وليكن طومان باي لم يفقد رباطة جأشه ووقف أمام سليم ليدافع في شجاعة عن سلوكه ويعلن في صراحة أنه لم يفعل إلا ما عليه عليه واجبه وشرفه ، وما يؤثر عن طومان باي في ذلك الموقف أنه قال للسلطان سليم العثماني : الآنفس التي تربت في العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لأنتم أفرس منا ولا أشجع منا ، وليس في مسرك من يقايسني في حومة الميدان ١١ ، ويذكر ابن إياس أن السلطان سليم أعجب فعلاً بشجاعة غريمه فأشار إلى طومان باي وقال : والله مثل هذا الرجل لا يقتل ، وأوشك

(١) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٧٠ .

(٢) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ١٢٢ - ١٣١ .

(٣) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ١٣٢ .

أن يبق على حياته فيرسله منفياً إلى مكة أو يصطحبه معه إلى القسطنطينية ،
لولا تهريض الخائنين خاير بك وجانبردى للسلطان سليم ، مما جعله يأمر
بإعدام طوما باباي^(١) .

وقد تلقى آخر سلاطين المماليك القرار بإعدامه في أسر وثبات ، فحمل
إلى باب زويلة في اليوم المحدد لإعدامه ، وأخذ يسلم على الناس على طول
الطريق ، حتى أرخى له المشاعلى حبل المشنقة ، وعندئذ طلب طومان باباي
من الناس أن يقرأوا له الفاتحة ثلاث مرات ، وبسط يديه إلى السماء وقرأ
الفاتحة عن نفسه في صوت مسموع ، ثم التفت إلى المشاعلى وقال له : اعمل
شغلك ، فوضع الحبل في رقبتة ، وما هي إلا لحظات حتى سقط آخر سلاطين
المماليك ميتاً على عتبة باب زويلة . وبذلك انتهت سلطنة المماليك لتظل مصر
والقمام بضعة قرون تحت السيادة العثمانية^(٢) .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٥ .

ابن زنبيل : آخر المماليك ص ١٣٦ .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٦ .

الفصل السابع

بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك

امتداد نفوذ المماليك إلى الشام :

رأينا عند كلامنا على قيام دولة المماليك ، كيف أن بني أيوب لم يرضوا عما فعله المماليك في مصر من قتل توران شاه واغتصاب حكم مصر من أصحابها الشرعيين من بني أيوب . وقد حاول الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق غزو مصر والقضاء على المماليك سنة ١٢٥٠ ، ولكن أقطاي هزمهم عند غزة . وعندما تكررت المحاولة في نفس العام ، أنزل أيبك هزيمة كبرى بالجيوش الأيوبية عند العباسية قرب الصالحية (١) .

والواقع أنه لم يخف من حدة الصراع في ذلك الدور بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سوى اشتداد خطر التتار بزمامة هولاكو على الوطن العربي في الشرق الأدنى . وكانت الخلافة العباسية في بغداد أشد إحساساً بذلك الخطر ، بحكم تطرف العراق نحو الشرق ، فأمرع الخليفة العباسي بإصلاح ذات البين بين الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر . حتى تم الصلح بين الطرفين في أبريل سنة ١٢٥٣ ، وبمقتضى ذلك الصلح تم الاتفاق على أن يكون أسلمة المماليك نور الأردن بما في ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل ، في حين تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين (٢) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٧٢ - ٣٧٤ .

أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٨٥ .

وترجع أهمية ذلك الصالح إلى أنه جاء بمثابة اعتراف رسمي من الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف الأيوبي بدولة المماليك . وليس معنى ذلك أن الأيوبيين رضوا عن حقيقة قيام دولة المماليك على حساب جزء من ممتلكات بني أيوب ، بل ظل الأيوبيون رغم صلح سنة ١٢٥٣ في حالة قلق وعدم رضى ، بدليل أنهم انتهزوا فرصة هرب بعض زعماء البحرية إلى الشام عقب مقتل أقطاي وقاموا بمحاولة جديدة لهدم دولة المماليك والاستيلاء على مصر سنة ١٢٥٥ (١) . ومرة أخرى أسرع الخليفة العباسي إلى التوفيق بين الطرفين ، وتجديد الصلح بين الناصر يوسف والمعز أيك . هذا وإن كان زعماء البحرية بالشام قد حرضوا الملك المنيف عمر الأيوبي في الكرك على مهاجمة مصر ، ولكن المحاولتين اللتين قام بهما المنيف عمر سنتي ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ باءتا بالفشل (٢) .

ثم كان أن حدث ما توقعته الخلافة العباسية ، فاجتاح التتار العراق وسقطت بغداد في أيديهم سنة ١٢٥٨ ، وبعد ذلك جاء دور الشام ومصر . وفي تلك الأزمة التي أملت بالوطن العربي في الحرق الأدنى أظهر الأيوبيون تحازلا واضحا ، فأرسل الناصر يوسف ابنه العزيز إلى هولاء كويطلب مئة مساعده في القضاء على دولة المماليك وفتح مصر . حقيقة إن الناصر يوسف عاد فأحسن بخطر التتار على ممتلكاته في بلاد الشام ، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ، فنجح هولاء كوي في امتلاك حاب ودمشق ، وزحف التتار جنوبا في فلسطين صوب مصر (٣) .

ومن المعروف أن الوظيفة الأولى لأي حاكم أو أية حكومة هي توفير الأمن

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٠ .

(٢) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٩ .

المريزي : السلوك ج ١ ص ٤١٩ .

والسلام والاستقرار للرعايا وحمايتهم من الأخطار الخارجية والداخلية التي قد يتعرضون لها . فإذا فشل الحاكم أو فشلت الحكومة في تحقيق ذلك الغرض فقدت أهميتها التي قامت من أجلها ، وبدأت في نظر الشعب في صورة غير شرعية فلا داعي لتقديم الولاء والطاعة لحاكم ليس أهلاً للنهوض بالمهمة الأساسية التي رشحته الأحداث لها . ومعنى ذلك أنه إذا كان ملوك البيت الأيوبي بالشام قد نادوا دائماً بأنهم ورثة صلاح الدين وأنهم هم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام ، فإن هذه الدعوى لم يعد لها سند واضح بعد أن عجز الأيوبيون عن دفع خطر التتار ، فسقطت بلاد الشام مدينة بعد أخرى في قبضة رجال هولاكو ، بل لقد انضم بعض ملوك بني أيوب إلى صفوف التتار وحاولوهم في زحفهم . ونرى لنا المراجع أن حلب لم تكن تسقط في أيدي التتار حتى أسرح الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص إلى حلب ليقدّم فروض الطاعة لهولاكو ، في حين فر الملك المنصور صاحب حمص إلى مصر ومعه حريمه وأولاده تاركاً حمص وشأنها (١) . أما الناصر يوسف فقد فر من دمشق إلى غزة عن طريق نابلس بنية الهروب إلى مصر وترك دمشق خالية (٢) ، ولكن الناصر يوسف لم يلبث أن وقع في قبضة التتار فمعاذنه هولاكو ووعدوه بإعطائه حكومة الشام بعد أن يستولى التتار على مصر ، فاستمر الناصر يوسف تابعا لهم وبقى معهم في ذلك وهو ان إلى أن قتل (٣) . كذلك وقع الملك السعيد - ابن الملك العزيز عثمان الأيوبي - في قبضة هولاكو الذي ولاه على الصببية وبانياس . ولم يجعل الملك السعيد بعد ذلك من معاونة التتار ومصاحبتهم دافعا لهم وأعلن الفسق

(١) القرطبي : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٣ .
أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٢) القرطبي : السلوك ج ١ ص ٤٢٣ .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧ .

والفجور وسفك دماء المسلمين .. (١) .

ولاشك في أن ذلك السلوك الشائن الذي سلكه ملوك الأيوبيين في الشام جاء بمثابة فصل الختام لدولتهم ، وإعلانا لتنازلهم عن حقوقهم في الملك بعد أن نقاعسوا عن حماية ذلك الملك . وصار منطق الأحداث يحتم أن تدول دولة بنى أيوب ليرثهم في ملكهم إما التتار وإما المماليك ، حسبما تقرره الممركة المنتظرة بين هاتين القوتين (٢) .

وفي الوقت الذي أثبتت الأحداث ضعف الأيوبيين وعجزهم عن حماية المسلمين في بلاد الشام من خطر التتار ، إذا بالمماليك يظهر على المسرح لينزلوا بالتتار ضربة كبرى في موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وبذلك ظهر المماليك في صورة القوة الكبرى في الشرق الأدنى التي استطاعت أن تهمي كيان أهل مصر والشام من ذلك الخطر الوثنى الرهيب . ولاشك في أن فعل الأيوبيين في صد خطر التتار ، ونجاح المماليك في القضاء على ذلك الخطر ، جاء بمثابة فصل الخطاب بين المماليك والأيوبيين ، وخاتمة لحركة التنافس بين هاتين القوتين على مسرح الشام ، بعد أن صار من الواضح أن قوة الأيوبيين المتداعية لن تستطيع بحال الصمود في وجه فورة التتار .

وكان أن استطاعت جيوش المماليك بعد عين جالوت إجلاء التتار عن دمشق وحماه وحلب ومطاردتهم حتى أطراف بلاد الشام . ومعنى ذلك أن نفوذ المماليك امتد إلى بلاد الشام فجأة بعد عين جالوت ، فأناش السلطان المظفر قطار الأمير سنجر الحلبي في دمشق . وإذا كان المظفر قطار قد أقر بعض ملوك بنى أيوب في حكم بلاد الشام — مثل الأشرف موسى صاحب حمص والملك المنصور

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

المقريزي السلوك ج ١ ص ٤٢٠ .

(٢) Grousset : Hist des Croisades, III, p. 586 - 587 .

صاحب حماه — فإن هؤلاء الملوك الأيوبيين تغير وضعهم وأصبحوا تابعين لسلطان المماليك في مصر (١). ولم يبق من ملوك الأيوبيين بالشام من ظل خارجا عن نفوذ سلطنة المماليك سوى الملك المنيف عمر صاحب السكرك والشوبك ، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦١ من نوابه من أسلم الشوبك من الملك المنيف . كما قبض على الملك المنيف نفسه سنة ١٢٥٣ واحتقله في قلعة الجبل وعين أحد أمرائه قائما للسكرك (٢).

وإذا كان المماليك قد ظهروا في صورة ورثة الأيوبيين في حكم مصر والشام ؛ فإن معنى ذلك أن المماليك لم يرثوا الأيوبيين في ملكهم العربي فحسب ، بل أيضا في سياستهم الخاصة بالجهاد . هذا بالإضافة إلى أن المماليك كانت عندهم عقدة كبيرة من ناحية أصلهم غير الحر ، فضلا عن اغتصابهم الحكم من أصحابه الشرعيين وهم الأيوبيون ، ولذلك حرص المماليك منذ أن استقرت لهم الأوضاع في مصر والشام على أن يظهروا أمام أهل مصر والشام في صورة حماة المسلمين وزعمائهم في حركة الجهاد ضد الصليبيين . ولم يلبث سلاطين المماليك أن استأنفوا سياسة الأيوبيين ، بحيث أنه لم يكف بمحض قيام دولة المماليك نحو من أربعين سنة حتى تم طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، وبذلك أصبحت لا توجد قوة تهيمن على بلاد الشام غير قوة المماليك .

ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استولى على قيسارية سنة ١٢٦٥ ، ثم استولى على أرسوف بعد قليل وعلى صفد في العام التالي (٣). ولم يلبث أن أخذ يتابع انتصاراته في سرعة مذهلة ، فاستولى على طبرية وعلى قلعة يافاسنة ١٢٦٨

(١) المقرئى السلوك ج ٩ ص ٤٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ١١٣ (مخطوط) .

(٣) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ص ١٣٧ ، ١٤٨ .

ثم على العقيف ، حتى توج انتصاراته على الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية
— كبرى المدن الصليبية في شمال الشام — في مايو سنة ١٢٦٨ (١) .

ولم يكن خلفاء بيبرس من سلاطين المماليك أقل حاسة لمহারبة الصليبيين
فاستطاع السلطان المنصور قلاوون الاستيلاء على طرابلس سنة ١٢٨٩ ،
وبذلك لم يبق للصليبيين من مملكتهم العريضة ببلاد الشام سوى عكا وصيدا
وصور وعكا ، وقد استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على عكا
سنة ١٢٩١ ، ولم تكبد تنتهى تلك السنة حتى استسلمت آخر البقايا الصليبية
بالشام وبذلك تم طرد الصليبيين نهائياً من تلك البلاد (٢) .

وبتطهير بلاد الشام من التتار والصليبيين جميعاً ، استقرت الأمور نسبياً
للمماليك في بلاد الشام كما أن تلك البلاد دخلت دوراً جديداً في تاريخها
يقاسم وأهميتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية من ناحية ، فضلاً عن
أهميتها بوصفها إقليماً هاماً من الإقليمين الكبيرين اللذين تألفت منهما دولة
المماليك من ناحية أخرى .

التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك :

قسم المماليك بلاد الشام من الناحية الإدارية إلى ستة أقسام تسمى نيابات ؛
تخضع للحكومة المركزية في القاهرة . أما هذه النيابات فهي نيابة دمشق ونيابة
حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صفد ونيابة السكر ، ويبدو أن
هذا التقسيم في حد ذاته كان ضرورياً لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام
الجغرافية حتى أن معظم تلك النيابات التي نراها في بلاد الشام على عصر
سلاطين المماليك ، إنما كانت في حقيقة أمرها أقساماً إدارية واضحة في

(١) صمد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٩٤

(٢) أبو الدنا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ

المصور السابقة ، بل لقد وصل بعضها فعلا - قبل عصر المماليك - إلى درجة الدول المستقلة ، مثل طرابلس ودمشق وحلب^(١) على أنه ينبغي من باب الدقة التاريخية أن نشير إلى أثر عصر الحروب الصليبية بالذات في إبراز أهمية بعض أقاليم الشام ، مما تطلب جعلها نيابات ، وذلك مثل نيابة السرك ذات الموقع الهام على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام والحجاز ، مما جعلها تقوم بدور خطير بالنسبة لمواصلات المسلمين على عصر الحروب الصليبية .

وثمة ملحوظة أخرى هي أن تلك النيابات الست لم تنشأ في وقت واحد أو سنة واحدة ، لأن طبيعة انتشار النفوذ المماليكي على بلاد الشام انصفت بالتدرج ، الأمر الذي جعل ظهور التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك يأتي على مراحل . من ذلك أن تاريخ إنشاء نيابتي دمشق وحلب يأتي سنة ١٢٦٠ عقب هزيمة التتار في عين جالوت مباشرة . أما حماه - فكما سبق أن ذكرنا - اختار المماليك عقب عين جالوت أن يبقوا على الأيوبيين فيها ، فعفا السلطان قطر عن الملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماه وأقره على حكمها^(٢) ، وبذلك لم تصبح حماه نيابة في عصر المماليك إلا سنة ١٣٤١ ، أي بعد وفاة المؤيد على آخر ملوكها من بني أيوب . وأما نيابة السرك فيبدأ تاريخها في عصر المماليك سنة ١٢٦٣ على عهد السلطان بيبرس أيضاً ، ومثلها نيابة صفد التي ترجع إلى سنة ١٢٦٦ ، أما نيابة طرابلس فترجع لشأنها إلى عهد السلطان قلاوون الذي استولى على تلك المدينة من الصليبيين سنة ١٢٨٩^(٣) .

(١) Demombynes : La Syrie a l'époque des Mamelouks ,
p. 106.

(٢) المهریزی : السلوك ج ١ ص ٤٣٣ .

(٣) المهریزی : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ ، أبو الحسن : التجوم ج ٧ ص ٣٢١

ولما كانت كل من هذه النيابات الشامية لها وضعها الخاص ، وتمتد لتشمل مساحة كبيرة ، ويتبعها من الناحية الإدارية عدد من المدن أو الموانئ أو القلاع الهامة ؛ فإنه روعى أن تقسم كل نيابة منها إلى أقسام إدارية صغيرة هي التي أطلق عليها القلقشندي اسم «النيابات الصغار»^(١). ولكي تتضح صورة كل نيابة من هذه النيابات في عصر المماليك يحسن تناولها بكلمة موجزة :-

أولا : نيابة دمشق . ، وهي كبرى نيابات الشام في عصر المماليك ، حتى أطلق عليها القلقشندي اسم « نيابة الشام » ، أو « مملكة الشام » ؛ ووصفها بأنها « أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة »^(٢). وقاعدة هذه النيابة مدينة دمشق التي اختصها سلاطين المماليك بعنايتهم وأقاموا فيها كثيرا من المنشآت . من ذلك ما يقال من أن الظاهر بيبرس جدد شرفات قلعة دمشق وروءوس أبراجها التي كان التتار قد هدموها ، وبني فيها حماما ، كما جدد مشهد زين العابدين رضى الله عنه بجامع دمشق ، وأمر بترخيم الحائط الشمالى وتعميد باب البريد وفرشه بالبلاط . هذا كله عدا القصر الأبقى الذي شيده بيبرس بالميدان في دمشق ، وما حوله من العمار^(٣).

وكان يتولى أمر مدينة دمشق وإلى ينظر في شئون المدينة ويتحدث في أمر الشرطة ، في حين كان يتولى أمر ضواحي دمشق - وهو الإقليم الذي يعرف باسم البر - وإلى آخر^(٤). وكان يقبع نيابة دمشق عدة نيابات صفرى وولايات . أما النيابات الصفرى فأهمها غزة والقدس وصرخند وعجلون وبلبك وحمص ومصياف والرحبة ؛ مع ملاحظة أن غزة صارت أحيانا نيابة قائمة بنفسها

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٩٠

(٢) المرجع السابق : ج ٤ ص ١٨٠ ، ١٨٤ .

(٣) ابن شاطر السكتبي : فوات الوفيات - ترجمة بيبرس .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٧ .

في القرن الرابع عشر^(١). وأما ولايات نيابة دمشق فمدينة أهمها الرملة وبيسان والبقاع وبيروت وصيدا وقارا وغيرها .

ثانيا : نيابة حلب ؛ وكانت تتمتع هي الأخرى بأهمية خاصة في عصر المماليك نظراً لخطورة موقعها على الأطراف الشمالية لدولة المماليك مما جعلها محورا لكثير من أحداث العلاقات المضطربة بين المماليك من ناحية وجيرانهم مثل التتار والتركمان والعثمانيين من ناحية أخرى . لذلك اشتملت نيابة حلب على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل في بقية نيابات الشام ؛ ومن هذه النيابات الصغرى التابعة لنيابة حلب نيابة قلعة الروم أو قلعة المسلمين غربى الفرات في مواجهة البصرة ، ونيابات السكخنة وكركر وبهسنى وسميساط وعينتاب ودر بساك والراوندان وبغراس والتقصير والشفر وبكاس . هذا فضلا عن عدد آخر من النيابات الصغرى كانت تقع خارج حدود الشام ولكنها تتبع نيابة حلب بحكم ملكية دولة المماليك لها . ومعظم هذه النيابات الصغرى الأخيرة كانت داخل بلاد الأرمن ، مثل ملطية ودبركي ودرندة والابلسين وإياس وطر سوس وأذنه وغيرها^(٢).

أما ولايات النيابة الحلبية فأهمها برحلب وكفر طاب وعزاز وتل باشير ومنبج وتيزين والباب وبزاعا وأنطاكية^(٣).

ثالثا : نيابة طرابلس ؛ وكانت تشمل من النيابات الصغرى نيابة حصن الأكراد ونيابة حصن عكار ونيابة بلاطس ونيابة صهيون ونيابة اللاذقية ؛ هذا فضلا عن ست نيابات صغرى أخرى أسماها القلعة مندى ؛ نيابات قلاع

(١) Demombynes, op cit., p 174

ابن فضل الله العمري : التعريف ص ١٧٧ .

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣ .

الدعوة ، أى أنها كانت مراكز جماعة الاسماعيلية الباطنية ، وهى نيابة الرصافة ونيابة الخوابة ونيابة القدهوس ونيابة الكهف ، ونيابة المنيفة ونيابة القلعة .

أما الولايات التابعة لنيابة طرابلس فعددها ست هي : أنطراطوس ، وجبة المنيطرة ، والظنين ، وبشرية ، وجبة وأنفة^(١) .

رابعا : نيابة حماه ، ومركز هذه الولاية مدينة حماه ، ولا يتبعها نيابات صغرى ، وإنما يتبعها ثلاث ولايات هي : ولاية برحماه ، وولاية بارين ، وولاية المعرة^(٢) .

خامسا : نيابة صفد ، وهى المدينة الحصينة التى ترتفع عن سطح البحر نحو ألف وستائة قدم ، والى جدد يبرس قلعتها بعد أن استولى عليها من الصليبيين ، وليس لهذه النيابة نيابات صغرى - مثل نيابة حماه - وإنما تتبعها إحدى عشرة ولاية هى ولاية برصفد ، وولاية الناصرة وولاية طبرية ، وولاية تبزين وهونين وولاية عنليت وولاية عكا ، وولاية صور وولاية الشاغور وولاية الإقليم ، وولاية الشقيف ، وولاية جينين^(٣) .

سادسا : نيابة الكرك ، وليس لها نيابات صغرى هى الأخرى وإنما تتبعها أربع ولايات هى ولاية ير الكرك ، وولاية الشوبك ، وولاية زغر ، وولاية معان^(٤) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

وبعد ، فهذا عرض سريع لنيابات الشام في عصر المماليك أمام أنظمة الحكم في تلك النيابات ، فأول ما يلاحظ عليها أن كلا منها كانت صورة مصغرة لسلطنة المماليك الكبرى في مصر ، حتى لقد أطلق الفقه شندي على تلك النيابات اسم « الممالك الشامية » ، وقال إن « كل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة مضاميه للمملكة المستقلة » .

ولتفصيل ذلك نقول إن كل نائب من حكام النيابات الشامية كان في حقيقة أمره « سلطاناً مختصراً » ، مع تسميته سلطان مصر ، فكان لكل نائب حاشيته ومماليكه وأتباعه ، وأطلق عليه أحياناً اسم « ملك الأسراء » لقيامه مقام السلطان في التصرف وقيام الأسراء على خدمته كخدمة السلطان (١) .

وكان لكل نائب من نواب الشام بيوت خدمة مثل بيوت خدمة السلطان ، كالشراب خاناء ، والفراش خاناء ، والزراد خاناء ، والطبلخاناء ، وغيرها . واحتوت بيوت نواب الشام على وظائف مثل وظائف بيوت السلطان مثل رأس نوبة وأمير مجلس وأمير أخور وأمير جانداز... وغير ذلك . كذلك كان لكل نيابة من النيابات الشامية وزير يتمتع بما يتمتع به الوزير في مصر ، هذا وإن لم يسمح للوزير في نيابات الشام بلقب وزير إلا إذا كانت قد سبقت له ولاية الوزارة بمصر ، أما إذا لم يكن قد سبق له تولي منصب الوزارة في مصر ، فإنه كان يلقب بلقب « ناظر للنظار » (٢) .

كذلك كان في كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، متساوياً كان الحال تماماً في مصر منذ أيام الظاهر بيبرس . هذا فضلاً عن الوظائف الأخرى المتعددة التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام والتي كان

(١) الفقه شندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٦٥ .

بعضها يتعلق بأرباب السيوف والبعض الآخر يتعلق بأرباب القلم، والقسم الثالث يشمل الوظائف الدينية .

أما الدواوين التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام ، فكان أهمها ديوان الإنشاء وديوان النظر وديوان الجيش وقد اختص ديوان الإنشاء بجميع المراسلات التي ترد إلى النائب أو تصدر منه . وأقرب صاحب ديوان الإنشاء بمكانب السر . ويبدو أن كاتب السر في النيابات الشامية كان يقوم أيضا بمهمة التمسس على النائب لحساب السلطان ، ويطلع الأخير على ما قد يخفيه النائب عنه (١) . وأما ديوان النظر فكان يمثل الإدارة المالية في النيابة ، بحيث له الإشراف التام على المصروفات والإيرادات . وأما ديوان الجيش ، فكان يشرف على جيش النيابة وتوزيع الأقطاعات وترتيب الجوامك الخاصة بالمماليك . ومن الثابت أن أراضى الشام قد مسحت وقسمت من جديد سنة ١٣١٣هـ ، وهذا ما إجمعي والروك الناصري ببلاد الشام ، نسبه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون . أما عن عدد الجنود ببلاد الشام فقد ذكره خليل بن شاهين الظاهري على الوجه التالي : —

١٥٠٠٠	أجناد الحلقة بدمشق وماليك الكافل والأسراء
٨٠٠٠	أجناد الحلقة بحلب وماليك الكافل والأسراء
٥٠٠٠	أجناد الحلقة بطرابلس وماليك الكافل والأسراء
٢٠٠٠	أجناد الحلقة بهمد وماليك الكافل والأمراء
١٠٠٠	أجناد الحلقة بحماه وماليك الكافل والأمراء

على أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وإنما تعرضت للتغيير والتبديل في عصر المماليك ، وكذلك عدد الأقطاعات وتوزيعها ببلاد الشام (٢) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ - ١٠٦ .

وبالاحظ أن خليل بن شاهين أغفل ذكر عدد الأجناد بولاية السكر .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لكافة النيابات الشامية في عصر المماليك فإننا نحب أن نؤكد مرة أخرى أن نائب دمشق بالذات تمتع بأهمية خاصة فاقت أهمية بقية النواب في النيابات الشامية الأخرى؛ حتى لقد قال القلقشندي عن نائب دمشق إنه «قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته، ويكتب عنه التوافيع الكريمة، ويكتب عنه المربعات بتعيين لإقطاعات الجند، وتجهز إلى الأبواب الشريفة فيشمها الخط السلطاني الشريف» (١).

ومن الواضح أن تلك المكانة الضخمة التي تمتع بها نائب دمشق في عصر المماليك كان من الممكن أن تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه، كما حدث في بعض الحالات. لذلك حرص سلاطين المماليك على فرض رقابة خفية على نوابهم في الشام عامة وفي دمشق خاصة، فكان السلطان يحرص أحيانا على التدخل في شئونهم لاشعارهم بوجوده. وهذا إلى أن السلطان لم يكتب بأن يكون صاحب ديوان الإنشاء عينا له على النائب، وإنما كان السلطان أيضا يجعل من نائب القلعة أو الحصن الموجود في الاقليم عينا له على النائب، ويقاومه إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان (٢). ولهذا السبب كان لنائب القلعة أجنادا مقيمين معه ولا يتصلون بدار النيابة في المدينة (٣).

والواقع أنه على الرغم مما تمتع به نواب النيابات الشامية من سلطان ونفوذ كبير، إلا أنهم كانوا قبل كل شيء تابعين لسلطنة المماليك في القاهرة؛ وبالتالي فإنهم لم يكونوا مطلقا يتصرف في كثير من النواحي. من ذلك أن سلطان

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٤ .

(2) Demombynes : op. cit., p. 108.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٥ .

العمري : التعريف ص ١٤٨ .

المماليك احتفظ بحقه في شغل الوظائف الكبرى بالنيابات الشامية ؛ فكان
النواب يعيشون في وظائف أرباب السيوف من إمرة عشرة فإدونها ، في حين
كان التعمين في الوظائف من إمرة طلبة ناه فإدونها من حق السلطان . أما
وظائف أرباب القلم فكان النواب لا يعينون إلا صفار الموظفين مثل كتاب
الدرج ، في حين كان السلطان يعين كبار الموظفين مثل الوزارة وكتابة السر
ونظر الجيش ونظر المال وغيرها . كذلك في الوظائف الدينية كان من حق
السلطان وحده أن يعين كبار الموظفين مثل قضاة القضاة ، في حين ترك للنواب
تعيين صفار الموظفين ، كالذين يقومون بالخطابة في الجوامع الصغيرة (١) .

وهكذا ظل سلطان المماليك هو القوة الكبرى التي تسيطر على مصر
والشام وتصرف إشرافا تاما على سير الأمور في مختلف أرجاء الدو
المماليكية الواسعة .

المجتمع الشامي في عصر المماليك :

كان أهل الشام في عصر المماليك لا يختلفون عن أهل مصر من حيث
أنهم مغلوبون على أمرهم ، يخضعون لارستقراطية حاكمة استأثرت بالحقم
وبالوظائف وحرمتهم من المشاركة في قيمة في أمور بلادهم .
وهكذا كان المماليك في بلادهم الشام هم أصحاب السيادة والطبقة المسيطرة ذات
النفوذ والسلطان ، في حين خضع أصحاب البلاد الأصليين من أهل الشام للأمر
الواقع ، ورضوا بما فعله المماليك بهم .

وقد انقسم أهل بلاد الشام الأصليون إلى حضر وبدو ، فالحضر هم أهالي
المدن والقرى الشامية ، وقد اشتغلوا بالنشاط الاقتصادي من صناعة وتجارة

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٦ - ٧ .

وزراعة ، وكان كل ما يطعمون فيه هو أن يلى أمرهم نائب عادل من المماليك يحسن معاملتهم ولا يجرهم حقوقهم . ومن الواضح أن النشاط الاقتصادي الذي نهض به الخضر من أهل الشام تطالبونها من الاستقرار والهدوء ، مما جعلهم ينجحون إلى مسألة المماليك ولا يحاولون الخروج عن طاعتهم أو المشاركة في الثورات التي اعتاد أن يقوم بها بعض نواب الشام بين حين وآخر ، وبخاصة عند قيام سلطان جديد في مصر ،

أما البدو ، فقد تألفوا من العشائر المنتشرة في بادية الشام ، وكان لكل عشيرة أئفادها وبطونها . وعلى رأس تلك العشائر كان آل فضل ، من ربيعة ، الذين امتدت منازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة ، بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبي نهر الفرات (١) . ومن الواضح أن آل فضل اضطروا — بحكم موقع منازلهم — إلى توزيع ولايتهم بين القوى العديدة التي تقاسمت السلطان في شمال العراق والشام . ومن ذلك ما نسبته عن زعيمهم عيسى بن مهنا الذي داب على مقاصرة التتار حينما والمماليك أحيانا حتى ضاق السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذرها بآل فضل وطردهم ليحل محلهم إخوتهم من آل علي ، ؛ ولكن الناصر محمد هاد فعفا عن آل فضل وردم إلى بلادهم واقطاعهم (٢) .

ويلاحظ أنه إذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف دولة المماليك بالشام قد لجأت أحيانا إلى الخروج عن سلطان الدولة ، فإنه وجد قسم آخر من تلك العشائر انتشرت في داخلية بلاد الشام ، وهذه كانت أكثر ارتباطا بعمور الولاء للدولة وخضوعا لسلطانها . ومن هذه العشائر آل مرة في حوران

(١) القاضى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٠٦ .

وآل على في المرج والغوطة حول دمشق ؛ وغيرهم كثيرون^(١) ، وقد حاول سلاطين المماليك إدخال عشائر البدو ببلاد الشام في النظام الانطاقي ، فأضفوا على زعماء تلك العشائر ألقاب الإمارة وأقطعتهم الإقطاعات ، وفرضوا عليهم التزامات معينة أهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب . ولكن عشائر البدو أنفت الخضوع لذلك النوع من التنظيمات الحكومية التي تفقدها كثيراً من حريتها فأخذت ما في النظام من مميزات ، وفي الوقت نفسه تخلصت مما فيه من التزامات .

وبالإضافة إلى العصبية العنصرية التي وجدت ببلاد الشام على عصر سلاطين المماليك — مثل الأكراد والتركمان والأرمن — ؛ فإنه وجدت ببلاد الشام في ذلك العصر عصبية عديدة مذهبية ودينية كان لها دور كبير في الأحداث التي شهدتها بلاد الشام . ونستطيع أن نلخص أهم هذه الطوائف أو العصبية فيما يلي :

أولاً : الكسروانيون : وهم أهل جبل (جبال) كسروان وكانوا من النصرانية والعلويين والمتأولة^(٢) . ويبدو من خلال ما ذكرته المراجع أن الكسروانيين وقفوا موقفاً عدائياً من المماليك ، وبخاصة أثناء الصراع بين هؤلاء الأخيرين والصليبيين بالشام . من ذلك ما حدث أثناء حصار السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس سنة ١٢٧٩ ، إذ خف الكسروانيون لنجدة بوهموند السابع أمير طرابلس . وقد أغضب ذلك السلطان قلاوون ، فزحف المماليك على جبل كسروان لتأديب أهله ونجحوا في كسر شوكتهم^(٣) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٨ — ٢١٠ .

(٢) Lammens ; La Syrie, 2, p. 16.

(٣) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٧ ص ١٢٦ .

وعند ما استولى السلطان الأشرف خليل على عكا وغيرها من البقايا الصليبية بالشام، لجأ بعض الصليبيين إلى جبل كسروان وحاولوا استثارة أهله ضد سلطنة المماليك، فبادر السلطان الأشرف خليل بإرسال حملة في بداية ١٢٩٢ بقيادة الأمير بدر الدين بيدرا، ولكن الكسروانيين أنزلوا الهزيمة بالمعسكر المماليكي في تلك الواقعة، الأمر الذي زاد من نفوذ الكسروانيين وبطشهم^(١) وفي سنة ١٣٠٠ - أي في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية - سار أقوش الأفرم من دمشق إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عن موقفهم من دولة المماليك، بعد أن كان دضرهم اشتد. وقد تحصن الكسروانيون بمجملهم المنيع، واجتمعوا - نحو اثني عشر ألف رام - لقتال المماليك، فاستمر القتال بينهم وبين المماليك ستة أيام ألقى الكسروانيون بعدها السلاح وغادوا الأمان. وكان أن فرض عليهم أقوش (أفش) الأفرم مبلغ مائة ألف درهم جبرها بعد أن تعهدوا بالطاعة^(٢).

ونمة أهمية أخرى لتلك الحملة هي أن التنوخيين عاونوا جيش الأفرم، الأمر الذي أثار العداء بين الكسروانيين والتنوخيين. وقد أرسل الأمير الأفرم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بأن يصلحوا شئونهم مع التنوخيين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم أصحاب الأراضي والإقطاعات، ولكن الكسروانيين رفضوا تلك الدعوة. ونتيجة ذلك خرج الأمير أقوش الأفرم في جيش كبير بلغ خمسين ألفاً من الرجال سنة ١٣٠٥ (٥٧٥ هـ)، فهاجم الكسروانيين وخرّب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم بعد ما قاتلهم أحد عشر يوماً... وملك الجبل عنوة، ووضع فيهم السيف وأمر ستائة رجل، وغنمت المساكن منهم مالا عظيماً...^(٣). وقد ساعد

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص ٣٠.

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٩٠٢ - ٩٠٣.

(٣) المقرئى: السلوك ج ٢ ص ١٥.

الأفرم في جهوده لإخضاع الكسروانيين الأمير اسندمر نائب طرابلس ،
الذي تذكر عنه المراجع مبالغته في التثكيل بالكسروانيين وقتلهم^(١) ، ويبدو
أن حملات الأمير أفوش الأفرم على جبال الكسروانيين نجحت في إخضاعهم
والقضاء على كياناتهم وعصبيتهم ، فيروى المقرئ أن السلطان الناصر محمد أقطع
« جبال كسروان بعد فتحها » لبعض أمراء المماليك ، فذهبوا إليها وفزعها
لهم الجبلية ورفعت أيدي الرقصة عنها^(٢).

ثانياً : التنوخيون ؛ وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية وانتشروا في جهات
متفرقة من لبنان ، وظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حيناً والمسلمين
أحياناً ؛ كما تأرجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من أيوبيين
وتتار من ناحية أخرى . وكان من أشهر عشائر التنوخيين جماعة البحريين
الذين غضب عليهم السلطان الظاهر بيبرس بسبب ثقلهم ، فاعتقل
بعض زعمائهم في مصر ورفض أن يطلق سراحهم حتى ينتهي من حروبه ،
حتى إذا ما تم للسلطان بيبرس فتح أنطاكية أطلق سراحهم . ومع
ذلك فقد ظل بيبرس يتشكك في ولاء البحريين ، حتى أرسل ضدهم حملة
قوية اجتاحت بلادهم وعاقبتهم في عنف^(٣) . وبعد بيبرس لجأ السلطان
قلاون إلى اضطهاد البحريين عاقبة عنسادم فعادوا إلى الولاء لدولة
المماليك ، وعندئذ ردت إليهم الدولة إقطاعاتهم وعهدت إليهم بحراسة
بيروت وشواطئها ؛ وكان ذلك سنة ١٢٩١ على عهد السلطان الأشرف
خليل بن قلاون . كذلك ساعد البحريون المماليك في قتال غازان خان

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٢ - ٣٣

أبو القدا : المختصر حوادث سنة ٧٠٥ هـ

(٢) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٧٥ .

تتار فلوس ، وذلك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١) .
وثمة فريق آخر من التنوخيين ، هم الارسلانيون ومركزهم قرب بيروت
وكانوا مواليين لدولة المماليك ، واشتهروا بمواقفهم ضد الصليبيين ، الأمر الذي
جعلهم يظفرون برضاء سلاطين المماليك (٢) .

ثالثاً : بنو مهن أو المهنيون ؛ وقد بدأ ظهورهم في القرن الثاني عشر ، حين
ندبهم أمراء السلاجقة لقتال الصليبيين على الساحل السوري ، فألبوا في ذلك
بلاد حمصنا ؛ كوفئوا عليه بمنحهم إقليم الشوف ، وقد حالفوا أقرباءهم التنوخيين
في الغرب والشهابيين في وادي التيم (٣) .

رابعاً : الشهابيون الدروز ؛ وكانت منازلهم في وادي التيم منذ سنة ١١٧٣
واشتركوا بنجاح في قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة أثناء إغاراتهم على
بلاد الشام في عهد السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨١ . وقد حالف الشهابيون
بنو مهن وأصهروا إليهم .

خامساً : المتأولة ؛ وهم فرقة من غلاة الشيعة ، كانت زعامتهم في الجهات
الشمالية من لبنان لبني حمادة . ويبدو أن التنافس كان قويا بينهم وبين الشهابيين
الدروز حول الزعامة على لبنان (٤) . وقد حقق المماليك على المتأولة بسبب
شدوذهم المذهبي ، مما جعلهم يتعرضون لبعض الاضطهاد في ذلك العصر .

سادساً : الذهبية أو العلوبون ؛ وقد عاشوا في شبه عزلة في القسم الشمالي
من جبل لبنان تحت زعامة شيوخهم (٥) .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني ص ١٣٦ .

(٢) الشدياق : أخبار الأعيان في جبل لبنان ص ١٧٤ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري ص ١٣٦ .

(٤) Lammens : op. cit., vol. 2, p. 13.

(٥) Demombynes : op. cit., p. 227.

سماهاً. الإسماعيلية، وكانوا يعرفون أيضاً باسم الباطنية، وكانت لهم قلاع عديدة أهمها مصياف (أو مصياب) والقدموس والكهف والحواب والمنيفة والرصافة. وقد قام الإسماعيلية الباطنية بدور مشهور في تاريخ بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية^(١)؛ ولم يتورعوا عن اغتيال كثير من الشخصيات الإسلامية والصليبية سواء. ولم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شذوذهم المذهبي من ناحية، ثم بسبب موقعهم المانع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى. لذلك فرض السلطان الظاهر بيبرس ضرائب باهظة على الهدايا التي أهداهم أن يبعث بها الصليبيون إلى شيخ الباطنية، وذلك لإفساداً لنواويس الإسماعيلية وتعجيزاً لمن اكتفى شرهم بالهدية^(٢). ثم إن السلطان الظاهر بيبرس لاحظ أن طائفة الإسماعيلية لجأت — عندما أخذ نفوذها يضعف في بلاد الشام — إلى دفع الأموال للصليبيين، وبخاصة الاستنارية في حصن الأكراد. لذلك انتهز السلطان فرصة الصلح الذي عقده مع الاستنارية سنة ١٢٦٧ واشترط عليهم الامتناع عن أخذ الجزية التي كان يدفعها لهم الإسماعيلية الباطنية. ويروي المقرئ أن رسل الإسماعيلية وفدوا على السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧ ومعهم جملة من الذهب وقالوا: هذا المال الذي كننا نحمله قطعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين لينفق في المجاهدين^(٣).

على أنه يبدو أن الإسماعيلية ببلاد الشام لم يلبثوا أن ضاقوا بالجزية التي كانوا يدفعونها للسلطان الظاهر بيبرس، بدليل أن نجم الدين حسون بن الشعراني مقدم الإسماعيلية ببلاد الشام أرسل مبعوثاً إلى السلطان سنة ١٢٦٩ يطلب منه إنقاص المال الذي كان يحمله الإسماعيلية إلى بيت المال. وفي ذلك الوقت كانت العلاقة سيئة بين السلطان وأحد زعماء الإسماعيلية — وهو صارم الدين مبارك

(١) سميح عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥٠ وما بعدها.

(٢) العيني: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩.

(٣) المقرئ: السلوك ج ١ ص ٥٥٧.

ابن الرضى صاحب العليقة - فتوسط صارم الدين للسلطان حتى رضى عنه بيبرس؛
وعندئذ قلده زعامة الإسماعيلية بدلا من نجم الدين الشمراني . وكان أن توجه
صارم الدين إلى مصياف - المركز الرئيسي للدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام -
حيث أخذ يباشر مهام منصبه (١) .

وبدل ذلك على مدى ما صار لسلطين المماليك من هيمنة على الإسماعيلية
ببلاد الشام على عهد بيبرس . بل إن السلطان بيبرس اشترط على الإسماعيلية
أن تكون مصياف وبلادها للسلطان : وأرسل صحيفة صارم الدين نائبا عن
السلطان بمصياف ولم يكن صعبا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصون
الإسماعيلية ببلاد الشام واحدا بعد آخر ، حتى استولى عليها جميعا
(١٢٧٠ - ١٢٧٣) ؛ وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام ، وأقطعهم السلطان
بدلا من قلاعهم الشامية بعض الجهات في مصر ليعيشوا فيها (٢) .

تورات الشام في عصر المماليك :

لم تكن الشام في عصر المماليك هرة إقليم من أقاليم الدولة ، وإنما كانت
أهم من ذلك بكثير . لقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذي بدونه يتعذر
على دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها ، والثبات في وجه الأخطار الاسبوية
الضخمة التي هددت تلك الدولة ، حينما من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين ،
وأحيانا من جانب الأرمن والتركمان ثم العثمانيين . وهكذا أدرك سلاطين المماليك
هذ أن أقاموا دولتهم في مصر أنه لا بقاء لهم ولا دولتهم إلا في ظل وحدة تربط
بين الشام ومصر تحت حكمهم ، وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التي يمكن

(١) - سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٢ .

(٢) - المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٠٨ .

أن تؤثر في كيانهم ، فضلا عن مراقبة الطرف الرئيسية التي سلكها الأعداء في تهديدهم لمصر والشام في المصور الوسطى .

وإذا كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشام نظرة خاصة ، فوضعوا لها تقسيما إداريا يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، فإننا نلاحظ في نفس الوقت أن نواب الشام وأمراء المماليك في تلك البلاد أدركوا أهميتهم ، واستغلوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أخرى في محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين وكثيرا ما أحس أمراء المماليك في الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات في وجه السلاطين في مصر ، بل لقد طالب بعض أمراء الشام بالسلطنة لأنفسهم معتمدين على ما عرف عن المماليك من بغض للنظام الوراثي وإيمان بأن الملك الأقوى . ولم ير بعض أمراء الشام - عندما استفحل النزاع أحيانا بينهم وبين سلاطين المماليك - مانعا من الاتصال بأعداء الدولة من تتار وعثمانيين ، مما عرض دولة المماليك لكثير من الأخطار . هذا كله فضلا عما نلصقه في عصر المماليك من فرار كثير من خصوم السلاطين ومنافسيهم من مصر إلى الشام ، حيث يجدون ملاذا ويعملون على تأليب الأعداء وإثارة المتاعب في وجه السلاطين .

ومع قيام سلطنة المماليك عند منتصف القرن الثالث عشر انطلق أول صوت للمعارضة من دمشق ، حيث رفض المماليك الأكراد (القيمرية) أن يقسموا يمين الولاء للسلطان شجر الدر ، كما امتنع الأمير جمال الدين بغمور - نائب السلطنة بدمشق - عن الاعتراف بشجر الدر . وكان من الطبيعي أن ينضم أولئك المتمردون إلى جانب الملك الناصر يوسف الأيوبي ، مما سبب لسلطنة المماليك في مصر كثيرا من المتاعب في دورها الأول ، ولم يخفف من حدة هذه المتاعب ، سوى الأصوات التي ارتفعت للمطالبة بتوحيد الكلمة في وجه خطر التتار (١) .

(١) المقريري : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

على أنه حدث في ذلك الدور - وقبل أن يواجه المماليك خطر التتار - أن انقسم المماليك في مصر على أنفسهم ، فاجأ السلطان أيك إلى قتل أنطاي وعيم المماليك البحرية ، مما جعل هؤلاء يفرون إلى الشام وعلى رأسهم من زعمائهم بيبرس وفلاون وسنجر ويسرى وغيرهم من الأمراء . وقد ظل زعماء البحرية في الشام ثلاث سنوات (١٢٥٤ - ١٢٥٧) بسبيون المتاعب لسلطنة المماليك في مصر ، حتى كان سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ١٢٥٨ وظهور خطر التتار في صورة جدية على الشام ومصر ، وعندئذ دخل البحرية في طاعة السلطان قنق ليواجهوا جميعاً الخطر الجديد (١) .

والواقع إن سيادة سلطنة المماليك لم تمتد على بلاد الشام إلا بعد موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ كما سبق أن رأينا . ومنذ تلك السنة أصبحت المتاعب التي صادفها سلاطين المماليك في بلاد الشام لا تأتي من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين لحسب ، بل أيضاً من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام . من ذلك أن الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق ناز في وجه بيبرس سنة ١٢٦٠ ، أي بعد شهر واحد من توليته السلطنة ، بل إن الأمير سنجر طالب لنفسه بمنصب السلطنة ، فتلقب بالملك المجاهد ووضع اسمه على النقود ودعا لنفسه في خطبة الجمعة ، وصار يركب في دمشق بشعار السلطنة (٢) . ولكن الظاهر بيبرس أخذ حركة الأمير سنجر عن طريق الحيلة ، وذلك بعد أن عرض أمراء الشام فأنفضوا عن سنجر وقاوموه ، ثم قبض عليه بعد ذلك . كذلك ناز الأمير شمس الدين أقوش البرلي ووطد مركزه في حلب ، ولكن السلطان الظاهر أحمد حركته (٣) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٩ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١١ .

ولم تكن المتاعب التي صادفها بيبرس في بلاد الشام في ذلك الدور التأسيسي لدولته كلها ناشئة من جانب أمراء المماليك، وإنما ظل بعض بقايا ملوك بني أيوب يشكلون خطراً على سلطان دولة المماليك. من ذلك أن الملك المغيث عمر الأيوبي صاحب الكرك استعان بمجموع الأكراد الفارين من وجه التتار وأخذ يغير على الثوبك وغيرها من المناطق القريبة التابعة لسلطنة المماليك. ولم يهدأ بيبرس إلا بعد أن قبض على المغيث عمر سنة ١٢٩٢ واعتقله بقلعة الجبل إلى أن قتل بعد ذلك (١) ،

ولما اعتلى المنصور قلاوون دامت السلطنة سنة ١٢٧٩ ، خرج عليه شمس الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته ، بل إنه دعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل وخطب له في الجامع الأموي . وفي أثناء النزاع بين السلطان قلاوون والأمير سنقر لم ير الأخير حرجاً في الاتصال بالتتار ، فاتصل بخان مغول فارس — وهو أبغا بن هولاقو — وحرضه على مهاجمة بلاد الشام ، ثم انتهى الأمر بفرار الأمير سنقر إلى صهيون (٢) . ولم تلبث المتاعب التي واجها السلطان قلاوون في بلاد الشام عند ذلك الحد ، إذ حدث سنة ١٢٨١ ، والسلطان قلاوون مشغول بمحاربة الصليبيين ، أن دبر الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار مؤامرة لاختيال السلطان (٣) . ولم يتردد المتآمرون في الاتصال بالصليبيين ، ولكن المنصور قلاوون علم بالمؤامرة في الوقت المناسب فأحبطها وأعدم رعاها وفر عدد كبير من أتباعهم إلى صهيون ليأمنوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر (٤) .

(١) ابن شاكر الكنتي : عيول التواريخ ج ٢ ورقة ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ورقة ١٧٠ .

(٣) مفصل بن أبي الفضائل : المنهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٨ ب .

والملاحظ أنه لم تحدث اضطرابات في الشام عقب وفاة السلطان قلاوون وقيام ابنه الأشرف خليل في السلطنة سنة ١٢٩٠ ، أو عقب مقتل الأشرف خليل وقيام أخيه الناصر محمد بن قلاوون في السلطنة سنة ١٢٩٣ . وفي الفترة المضطربة التي أعقبت وفاة المنصور قلاوون وامتدت حتى قيام الناصر محمد في السلطنة المرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، شهدت بلاد الشام بعض الأحداث ، من ذلك أن السلطان كتبها الذي اغتصب السلطنة سنة ١٣٩٤ زار بلاد الشام حيث عزل الأمير عز الدين أيك الحموي نائب دمشق وعين بدله الأمير سيف الدين أغرلو العادلي . ولم يكذ السلطان كتبها يعود إلى مصر حتى عزله حسام الدين لاجين وولى السلطنة بدله سنة ١٢٩٦ ، وعندئذ هرب كتبها إلى دمشق (١) .

وقد لجأ السلطان المنصور لاجين إلى تعيين الأمير سيف الدين قبجق نائباً بالشام ، كما أرسل السلطان السابق الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك ليأمن خطره (٢) . غير أن السلطان لاجين أوفر صدور أمراء مصر والشام عليه بسبب سياسته . فخرج عليه الأمير قفجق بالشام (قبجق) ثم رحل ففجق إلى بلاد التتار حيث رحب بهم غازان محمود (٣) .

ولم يلبث أن عاد السلطان الناصر محمد إلى عرشه سنة ١٢٩٨ ليضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار ، الأمر الذي جعل الناصر محمد يتظاهر بالخروج إلى الحجاز ، حتى إذا بلغ الكرك أعلن تنازله عن السلطنة . وإزاء إصرار الناصر محمد على رغبته ، اختار الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطاناً سنة ١٣٠٨ . غير أن أمراء الشام لم يرضوا جميعاً بحكم السلطان الجديد ، فأقسم بعضهم بمن الولاء

(١) أبو الهاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٣ ، ٦٤ .

القرنبي : السلوك ج ١ ص ٨١٩ — ٨٢٢ .

(٢) الزبيرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٤٠ .

ليبرس الجاشنكير ، في حين راسل البعض الآخر الناصر محمد وأفهموه أنهم على ولائهم له .

وزاد الموقف في بلاد الشام تعقيداً ، أن يبرس الجاشنكير أخذ يضيق الخناق على الناصر محمد بالكرك ؛ الأمر الذي جعل الأخير يكتب إلى نواب الشام يذكّرهم بأنهم ممالك أبيه وأنه طالما أحسن إليهم ، فلا أقل من أن يساعده في استعادة عرشه وإلا فإنه سيلجأ إلى التتار ، ويطلب مساعدتهم . وبفضل مساعدة أسراء الشام تمكن الناصر محمد من العمل لاستعادة عرشه ، فسار إلى دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا طيباً ، وأقيمت له الخطبة وقدم له أسراء الشام فروض الولاء^(١) . وبعد ذلك عاد الناصر محمد إلى مصر حيث اعتل دست السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩

وكان أن عين الناصر محمد الأمير قراستقر المنصوري نيابة السلطنة بالشام ، فأغضب ذلك الممالك الأشرافية لاتهمهم الأمير قراستقر هذا بالمشاركة في قتل السلطان الأشرف خليل . وقد أحس الأمير قراستقر بأن الممالك الأشرافية يوغرون صدر السلطان الناصر ضده ، فانفق مع بعض أسراء الشام - مثل الأمير أفوش الأفوم نائب طرابلس - إلى بلاد التتار ، حيث رحب بهم أولجاتير ليلنخان التتار في فارس^(٢)

ولم يلبث أن عين السلطان الناصر الأمير تذكز الحسامي الناصري نيابة الشام سنة ١٣١٢ ، ثم ولاه جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حماه وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه . ولم يلبث أن ازداد نفوذ تذكز في الدولة ، وبخاصة بعد أن ارتبط مع السلطان الناصر محمد برباط المصاهرة ؛ ويروى

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) - المصدر المألي

أبو الحاسن أن تذكر طلب من السلطان عزل يلبغا نائب حلب فعزله على الفور (١). غير أن الناصر محمد لم يلبث أن أوجس خيفة من ازدياد نفوذ تنكز لحقد عليه وعزله وتخلص منه وأحل محله في نيابة الشام الأمير الطنبغا الصالحى (٢).

وإذا كانت سلطنة الناصر محمد الثالثة قد امتازت بطول المدة الزمنية (١٣٠٩ - ١٣٤١) والاستقرار النسبى في أوضاع الدولة الداخلية ، فإن عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده شهد كثيراً من التقلبات والفتر في مصر والشام جميعاً من ذلك أنه حدث في عهد الملك الصالح صلاح الدين (١٣٥١ - ١٣٥٤) ، أن خرج عن طاعته معظم نواب الشام مثل نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه ونائب صفد ، وبذلك لم يبق على طاعة السلطان سوى أرغون الكاملى نائب دمشق الذى اضطر إلى الحرب إلى غزة فاستولى عليها أرس نائب حلب على دمشق ، حتى نجح السلطان في القضاء على الفتنة (٣).

وفي عهد المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى (١٣٦١ - ١٣٦٣) أعلن الأمير بيدمر الخوارزمى نائب دمشق العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة ، وشاركه في حركته جماعة من نواب الشام ، فخرج السلطان إلى الشام سنة ١٣٦١ وقبض على بيدمر وأرسله مقيداً إلى الاسكندرية وعين اثنين من أمرائه نواباً على دمشق وحلب ثم رجع إلى القاهرة (٤).

وفي عهد المنصور على بن الأشرف شعبان (١٣٧٦ - ١٣٨١) خرج الأمير بيدمر نائب دمشق عن الطاعة مرة أخرى ولكن نائب قلعة دمشق تمكن من القبض عليه (٥).

(١) المرجع السابق ج ٩ ص ١٢٩.

(٢) أبو الحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٤٥ - ١٤٧.

(٣) المرجع السابق ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٧.

(٤) ابن دباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١١ (بولاق) .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥١٣ - ٥١٤ .

وقد استمرت بلاد الشام في عصر دولة المماليك الجراكسة مسرحاً للكثير من الثورات والحركات التي قام بها بعض الأمراء ضد السلطة ، ففي الأحداث التي أدت إلى انتقال الحكم من المماليك الترك إلى المماليك الجراكسة ، لسمع كيف ثار الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذي سبق للبلبغاوية لهجاده إليها ، وإن كانت الأمور قد هدأت بسرعة في الشام سنة ١٢٧٧ ، وفي الزاع الذي دب سنة ١٢٧٧ بين الأميرين برقوق وبركة من ناحية وطشتمر من ناحية أخرى ، لجأ برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بنقل أنصاره إلى وظائف النيابة بالشام .

ثم كان نجاح برقوق في القضاء على سلطنة الترك وإقامة دعائم دولة المماليك البرجية سنة ١٢٨٢ ، ليجهل بلاد الشام مسرحاً جديداً لازاع بين الترك والجراكسة ، إذ سار أطنيفنا التركي نائب أبلستين ضد برقوق سنة ١٢٨٢ ، وإن كان فواب الشام لم يؤيدوه في ثورته مما اضطره إلى الفرار إلى بلاد التتار^(١) . ويضهم من المراجع أن الأمير يلبغا الناصري نائب حلب وقف موقفاً عدائياً من برقوق ، فخرص على الاحتفاظ بصدافة سولي بن دلفادر التركاني - وهو أحد أعداء دولة البرجية - مما جعل برقوق يعزل يلبغا نائب حلب سنة ١٢٨٥^(٢) . غير أن برقوق لم يكبد يفرغ من أمر يلبغا حتى سمع بمؤامرة جديدة في دمشق سنة ١٢٨٦^(٣) . وفي الوقت نفسه أخذ منطاش نائب ملطية يجمع عناصر المقاومة ضد برقوق ، الأمر الذي جعل الأخير يعيد يلبغا الناصري إلى نيابة حلب ليتخذ أداة في محاربة منطاش . على أن يلبغا للناصري لم يقف موقفاً حاسماً من منطاش ، الأمر الذي دعم نفوذ الأخير وزاد من خطورة حركته^(٤) .

(١) أبو الهاسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حنبل : لباء الفرج ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ٣ ورقة ٤٧٠ .

(٤) الميني : عقد الجان ج ٣٤ ق ٢ ورقة ٣٢٨ .

ولم يلبث الأمير يلبغا الناصري أن أعلن ثورته علناً على السلطان في حلب ، فاستمال منطاش إليه ، وسيطر على شمال الشام . وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار إلى السلطان برقوق من دمشق بأن بعض الأمراء الترك في الشام هاجروا طرابلس وقتلوا من فيها من أمراء مواليين لبرقوق (١) . وهكذا لم تكن تذهب سنة ٦٣٨٩ حتى كانت معظم مدن الشام - فيما عدا دمشق وبعليك والكرك - قد دخلت في طاعة يلبغا الناصري . وقد بادر السلطان برقوق بإرسال جيش إلى دمشق لمحاربة يلبغا الناصري ، ولكن الحزيمة حلت بجيش السلطان قرب دمشق ، مما مكن يلبغا الناصري من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها (٢) .

وهكذا غدت بلاد الشام في ذلك الدور مسرحاً لنزاع مرير ، هو في حقيقة أمره صراع بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة حول السلطنة ، أما يلبغا الناصري ، فإنه لم يضع الوقت ، وإنما دحف إلى غزوة ومنها دخل أرض مصر إلى الصالحية ، الأمر الذي جعل برقوق مضطراً إلى التنازل عن السلطنة ؛ فنفى إلى الكرك سنة ١٣٨٩ (٣) .

غير أن برقوق استغل وجوده في بلاد الشام ليجمع الأنصار ، في الوقت الذي اشتد النزاع في مصر بين يلبغا الناصري ومنطاش . ولم يلبث أن خرج برقوق من الكرك إلى دمشق . وقوى مركز برقوق في حصاره لدمشق انضمام الأمير كمشبقا الحموي نائب حلب إليه ، الأمر الذي جعل برقوق يطمئن إلى جبهته الشمالية ، ويترك حصار دمشق ليتفرغ لمواجهة الجيش الكبير الذي خرج من مصر بقيادة منطاش لمحاربتة . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين سنة ١٣٩٠

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٧٥ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

تغلب برقوق وإن لم يستطع دخول دمشق ، فزحف على مصر ليدخل القاهرة ويسترد هرشه (١) . وسرعان ما استطاع برقوق بعد ذلك توطيد نفوذه بالشام ، وإن كان ذلك لم يتم إلا بعد أن غدت بلاد الشام مسرحاً لصراع مرير بين بليغا الناصري ومنطاش سنة ١٣٩١ ، مما أثر تأثيراً سلبياً في أوضاعها الاقتصادية (٢) .

وإذا كانت الأمور قد استقرت نسبياً في بلاد الشام في أواخر عهد برقوق ، فإن ثورة الأمراء لم تلبث أن تجددت بعد وفاته . من ذلك ما نسمعه عن ثورة الأمير تنم نائب الشام في عهد السلطان فرج بن برقوق سنة ١٤٠٠ ؛ وانضم إليه في ثورته نواب صفد وطرابلس وحماء وحلب (٣) . وقد استطاع السلطان لإخماد هذه الثورة ؛ ولكن ذلك الانتصار لم يكن معناه استقرار الأمور في بلاد الشام ، إذ حدث بعد قليل أن تعرضت بلاد الشام لغزو التتار بزعامة تيمورلنك ، الذي أباد جيش المماليك عند حلب سنة ١٤٠٠ واستولى على حلب ، ثم أنزل الهزيمة بالسلطان فرج عند دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠ ودخل دمشق نفسها (٤) . والمعروف أن تيمورلنك جمع مهرة صنائع وأرباب الحرف في الشام ورحلهم إلى سمرقند ، مما أضر بحضارة الشام ضرراً بليغاً .

واستمرت أحوال بلاد الشام في اضطراب بعد الصلح مع تيمورلنك والمماليك ، إذ ثار نائب غزة ونائب طرابلس ضد السلطان فرج سنة ١٤٠٥ . وفي عهد السلطنة الثانية للسلطان فرج ثار نائب حلب الأمير جكم سنة ١٤٠٧ وأعلن سلطنته وتلقب بالملك العادل ، وضرب السكة باسمه ولم يكذب بقتل جكم بعد

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٣٤ - ٦٣٥ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ وما بعدها .

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١٩ - ٣٢٤ (بولاق)

(٤) ابن مرشاه : عجائب المفرد في أخبار تيمور ص ٩٨ وما بعدها .

شهرين حتى انضم نوروز نائب الشام إلى شيخ نائب طرابلس واستبدا ببلاد الشام ، بل لقد زحفا على مصر سنة ١٤٠٨ . وقد حلت الهزيمة بالسلطان فرج قرب دمشق سنة ١٤١٢ ، ثم قبض عليه وقتل بعد قليل (١) .

وهكذا ظلت بلاد الشام مسرحا لكثير من الفتن والمؤامرات والثورات طوال عصر المماليك . وقد درس الأستاذ جاستون فييت تراجم أربعة وسبعين نائبا لنياية دمشق في عصر المماليك ، فبين له أن تسعة وعشرين منهم خرجوا على السلطنة وأعلنوا الثورة ، واستطاع اثنان منهم — هما لاجين وشيخ — أن يصلوا إلى السلطنة ؛ وتمكن اثنان من الحرب إلى خارج الدولة ، وحصل خمسة على عفو السلاطين ، وسجن خمسة ثم أفرج عنهم ، في حين أعدم خمسة عشر (٢) ، هذا في دمشق فقط وهي إحدى نيايات الشام ١

أثر نيايات الشام في أحوال دولة المماليك :

أما عن نصيب نواب الشام في سياسة دولة المماليك العامة ، فيلاحظ أنهم كانوا قوة يخشاها السلاطين في مصر ؛ حتى أن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان عليه أن يفكر في مدى إخلاص نواب الشام له . ولعل هذا هو السر فيما لجأ إليه سلاطين المماليك من كثرة تغيير نواب الشام بين حين وآخر وبخاصة في أوائل حكم كل سلطان .

ولا أدل على قوة نواب الشام ومدى إدراك سلاطين المماليك لخطورتهم من أن السلطان بيبرس الجاشنكير لم يتمالك نفسه من الفرح عندما حلف له نواب الشام عقب توليته السلطنة سنة ١٣٠٨ ، وقال ، د الآن تم لي الملك ١ ، (٣)

(١) ابن مياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(٢) Hauteceour et wiet : les mosques du caire p.56.

(٣) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٢ .

ثم إن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان يحرص بمجرد اعتلائه
دست السلطنة ، على أن يرسل خبر سلطنته إلى الشام ليطمئن إلى أن نواب
الشام وأمرائها جميعا يؤيدونه .

وهناك أربع حالات في دولة المماليك الترك اشترك فيها أمراء الشام مع
بعض أمراء مصر في خلع أربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء الموالين
لهم . وأول هؤلاء السلاطين هو بركة خان بن بيبرس ، وسبب خلعهم قيام
خلاف بينه وبين أمراء الشام ومصر . ويقال إن بركة خان كان بالشام سنة
١٢٧٨ عندما هلم بمؤامرة أمراء الشام ضده ، فأرسل إليهم ملتصقا منهم العفو
متطلفا إليهم بأنواع الخضوع (١) . ولكن الأمراء لم يهتموا بكلامه وساروا
إلى مصر ليميلوا على خلعهم ، وعندئذ رحل بركة خان عن دمشق قاصدا مصر حيث
حاصره الأمراء حتى اضطره إلى التنازل عن السلطنة . ويقول النويري إن
بركة خان أرسل إلى الأمراء أثناء الحصار وسألهم أن يسكون الشام بكماله
لهم ، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه (٢) .

أما السلطان الثاني الذي خلع عن السلطنة عندما غضب عليه أمراء الشام
فهو كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦) ، الذي استثار أمراء الشام عندما عزل الأمير
أيبك الحموي نائب دمشق وعين بدلة مملوك أغرلو العادلي ، فضلا عن أنه لم
يمنح أمراء الشام الإقطاعات والهدايا عند زيارته الشام لأول مرة ، كما جرت
بذلك عادة السلاطين في عصر المماليك (٣) .

وأما السلطان الثالث الذي خلع عن السلطنة بسبب غضب أمراء الشام
عليه ، فهو بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ - ١٣٠٩) الذي لم يرض عنه نواب

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ٢٨ (مخطوط) .

(٢) النويري نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ١٢٦ .

(٣) تاريخ ابن الوردي ج ٣ ص ٢٤٠ .

الشام وكاتبوا الناصر محمد في السرك يخبرونه بتأييدهم له حتى يسترد ملكه (١)
وكان أن خرج الناصر محمد من السرك إلى دمشق — كما سبق أن ذكرنا —
ونظرت عساكر دمشق إلى طاعته وتلقوه ، وبفضل هذه المعونة تمكن
الناصر محمد من استعادة عرشه سنة ١٣٠٩ (٢) .

وأخيرا فإن السلطان الرابع الذي خلع بسبب قيام أمراء الشام ضده هو
علاء الدين كجك بن الناصر محمد سنة ١٣٤١ ؛ ولقد تسلطن بعده أخوه أحمد (٣)
ومهما يكن من أمر ، فإن قيام بعض الحركات في الشام لمساعدة سلطان
أو عزل آخر لا ينبغي أن تجعلنا ننسى إطلاقا المساعدات القيمة التي أمدت بها
نيابات الشام مصر في أوقات الحرج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين
والتتار . ولا شك في أن الملاحظة الهامة التي يهجر بها الدارس لتاريخ مصر
سلاطين المماليك في مصر والشام هي أن أمراء المماليك — في مصر والشام —
كانوا غالبا ما يتنافسون ما بينهم من خلافات لمواجهة الأخطار الخارجية ،
وأن وحدة مصر والشام كانت ضرورة حتمية لمواجهة خطر الأعداء الذين
هددوا كيانه المروية في الشرق الأدنى في ذلك العصر .

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤١ .
(٢) أبو القدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٨ .
(٣) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢١ وما بعدها .

الفصل الثامن

العلاقات الخارجية

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام سنة ١٢٥٠ أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ؛ فنظر إليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال ، في حين نظرت إليها القوى الأخرى — خارج المحيطين العربي والإسلامي — نظرة خوف واحترام . وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت الوطن العربي في الشرق الأدنى في شجاعة وبأس ، لحمت الشام ومصر من خطر التتار ، وعارذت الصليبيين كالية من أرض الشام بل لاحقهم في مراكزهم القريبة مثل أرمينية الصفوى وقبرس ورودس . هذا فضلا عن أن نهج سلاطين المماليك في إحياء الخلافة العباسية في مصر — بعد سقوطها في بغداد — جعل لهم ولدواتهم مكانة مرموقة في العالم الإسلامي أجمع ، إذ جعلهم يبدون في صورة الرعاء الحقيقيين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتهما .

وهكذا خدمت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قبله الأصدقاء والأعداء جميعا ، الأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها ، والأعداء يبغون ملاحقتها ومساومتها ، أو مهادتها أنقاء لبطشها . وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقا في ذلك العصر ليجعل التجار والسفراء يترددون على مصر بين فينة وأخرى ، يبغون عقداً اتفاقية تجارية أو إلغاء مكس أو تخفيف ضريبة . وبذلك شهدت القاهرة نشاطاً دبلوماسياً ضخماً في عصر المماليك ، وصارت مركزاً الشبكية واسعة من العلاقات

الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة ، بحيث أننا لا نبالغ إذا قلنا إن ديوان الإنشاء في عصر المماليك قدما يمثل أضحى وزارة خارجية شهدها العالم أجمع في ذلك العصر ، ولا أقل من تتبع هذا النشاط بإلقاء نظرة سريعة على العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر والشام من ناحية وأهم الدول التي ربطتها بها علاقات دبلوماسية من ناحية أخرى (١) .

المماليك ومغول القفجاق :

عندما قدم جنكيز خان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعة قرب بحر قزوين وفي حوض نهر الفولجا من نصيب جوجي ابن جنكيز خان ، فأقام هناك دولة عرفت باسم دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مخيماتهم . ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التتار ، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام ، الأمر الذي ترتب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين مغول القفجاق والقوى الإسلامية المجاورة وبخاصة دولة المماليك من ناحية ، وازدياد العداء والتنافس بين مغول القفجاق وبقية طوائف المغول الوثنيين وبخاصة مغول فارس من ناحية أخرى .

وفي موجة العداء بين سلطنة المماليك في مصر وتتار فارس ، كان طبيعياً أن يزداد التقارب بين المماليك وتتار القفجاق المسلمين من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكن يعلم بإسلام بركة خان حتى كتب إليه د يفريه بقتال هولاء كويرغيه في ذلك (٢) . ثم إن الظاهر بيبرس أخذ يكرم وفود المغول

(١) استبعدنا من هذه الدراسة الدول التي لم تربطها بدولة المماليك سوى علاقات حربية واضحة مثل مغول فارس وأرمينية الصغرى وقبرس ورودوس وغيرها ، وقد سبق الكلام على كل من دولة المماليك وتلك الدول من علاقات يغلب عليها الطابع الحربي .
(٢) القرينى : السلوك ج ١ ص ٤٦٥ .

الوافدين على بلاده من القبيلة الذهبية ، وكان بعض هؤلاء خاضعين لهولاكو
ففرروا إلى الشام عندما لمسوا العداء المستحكم بين زعيمهم بركة خان وحاكمهم
هولاكو^(١) .

ولم يلبث أن وفد على مصر سنة ١٢٦٣ رسل بركة خان يحملون رسالة
للسلطان بيبرس جاء فيها : فليعلم السلطان أني حاربت (هولاكو) الذي منى
لحقى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تمصبا لدين الإسلام لأنه باغى والباغى كافر
بالله ورسوله ... (٢) ، وكان أن رد الظاهر بيبرس على بركة خان برسالة طويلة
جمع فيها : من الترغيب والاستمالة والإغراء على هولاكو وإظهار الميل
إليه ... (٣) ، ولم يكتف بيبرس بتلك الرسالة ، وإنما أمر بالدعاء ببركة خان
بعد الدعاء للسلطان على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة ، كما أرسل
محمبة الرسل هدية ثمينة للملك بركة ، من جملتها فيل وزرافة ، ويقال إن
رسل بيبرس قوبلوا بالحفاوة البالغة في بلاد بركة خان ، وحكوا عند عودتهم
إلى مصر أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماما ومؤذنا خاصا ،
وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس^(٤) .

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩

المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١١٧ — ١٩٨ .

(٢) النيفي : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ .

(٣) ابن واصل . مفرج السكروب ج ٢ ص ٤٢٢ (مخطوط) .

(٤) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠ .

ويلاحظ أن بعض الكتاب ذكروا أن الظاهر بيبرس تزوج من ابنة بركة خان ملك
القمجاق (انظر مثلا جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ١٠٦) ، وأخذوا
هذا الرأي من : Lane - Poole : op-Cit. p266

ولكن هذا الرأي يبدو لنا خاطئا ، إذ لا يوجد في المراجع المعاصرة أدنى إشارة إلى
ارتباط الظاهر بيبرس بملك القمجاق بركة خان بصلته المصاهرة . وربما كان سبب ذلك الخطأ التقى وقع
فيه ابن بول ومن أخذ عنه ، أن المراجع عندما ذكرت زوجات الظاهر بيبرس قالت إن أولى
زوجاته هي ابنة حسام الدين بركة خان التتري وأنها كانت خوندالكبرى في حريم بيبرس وأم
ولده وولي عهده السعيد بركة خان . ولكن الأمير حسام الدين بركة خان غير بركة خان ملك

ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقة بين الظاهر بيبرس في مصر وبركة خان ملك مغول القفجاق لم تكن مجرد علاقة شخصية بين رجلين وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وأحسنتا بخاطر واحد مقترن هو خطر مغول فارس . وهكذا لم تؤد وفاة بركة خان سنة ١٢٦٧ إلى انقطاع صلات الود بين مغول القفجاق ودولة المماليك ، إذ تبوأت السفارات والكتب بين بيبرس ومنصور — خليفة بركة خان — بقصد توجيه القوى ضد مغول فارس وزعيمهم أبا (١) . واستمرت هذه السياسة نافذة بعد بيبرس ، إذ حدث سنة ١٣٠٤ أن أرسل طقطاي ملك القفجاق سفارة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون تحمل هدية ورسالة خلاصتها استعداد له مشاركته في محاربة غازان ابنخان مغول فارس ؛ فأجاب الناصر محمد بأن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه أوجلتاور رضى بالصلح (٢) .

وقد أراد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يدهم الصلات بين دولتي المماليك والقفجاق ، فواصل إرسال الرسل والهدايا إلى أربك خان ؛ بل لقد أرسل سفارة سنة ١٣١٦ إلى أربك خان ليطلب الزواج من « بعض الجماعات الجنسكية » أي أميرة من بيت جنسكز خان ، وذلك توثيقا لصلات الود بين سلطنة المماليك ومغول القفجاق . ولكن يقال إن رجال أربك خان تمنعوا في أول الأمر ، واشتطوا « في طلب المهر وطول المدة وكثرة الشروط » (٣) ، الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد يعدل مؤقتا عن ذلك المشروع حتى عاد

== القفجاق ، ولا يبدو الأمر مجرد تماه في الاسم أوجد ذلك الخطأ (المهر يزي : السلوك ج ١ ص ٦٤٠ — ٦٤٤) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٥٧ .

(٢) المهر يزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٩ .

محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٨ .

(٣) النويري نهاية الأرب ج ٢٠ ورقة ١٣٧ .

المهر يزي : السلوك ، ج ٢ ص ٢٠٤ .

أرسله خان إلى تلبية رغبة السلطان الناصر فقال : قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجفكرخاني ، وفي سنة ١٣٣٠ وصلت الأميرة التتارية واسمها دلتينية - ويقال طولونية - إلى الإسكندرية عن طريق البحر فاستقبلت أحسن استقبال ، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام (١) .

وهكذا استمرت العلاقات أقوى مما تكون صفاء بين سلطنة المماليك في مصر ودولة مغول القفجاق . ويفهم مما ذكره القلقشندي أن المراسلات استمرت بين السلطان الحسن ابن الناصر محمد وجاني بك ابن أرك ، وأن جاني بك كان يحاطب في رسائل المماليك بعبارة التثنية والتقدير والمبالغة في الاحترام (٢) . ويبدو أن انحلال إيلخانية مغول فارس بعد ذلك قلل من إحساس كل من مغول القفجاق والمماليك في مصر والشام بذلك الخطر المشترك . هذا إلى أن دولة مغول القفجاق نفسها أخذت في الانحلال والضعف البطيء ، في الوقت الذي شغلت سلطنة المماليك بأعداء جدد مما أضعف صلاتها مع مغول القفجاق .

المماليك والدول الاسيوية في آسيا :

حرصت مصر في عصر المماليك على بسط نفوذها السياسي والديني على الحجاز ، أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين . وكان شرفاً عظيماً وأدعامة كبرى ليكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في صورة حامي الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . ومنذ قيام سلطنة المماليك في مصر ، وسلاطين المماليك يبدون اهتماماً خاصاً بالحجاز وعناية كبرى بشؤنه . ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية على العناية بعارة الحرم النبوي وإرسال

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

المكسورة إلى الحجاز (١)؛ وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذ المماليك السياسي على الحجاز. ومن ذلك ما يقال من أن السلطان الظاهر بيبرس إنما قصد بإحياء الخلافة العباسية في مصر، أن يستغل هذه القوة الجديدة في بسط سيادته على الحجاز مثلما كان الحال أيام الأيوبيين (٢).

والواقع إن الخلائق بين أشراف الحجاز هي التي أتاحت فرصة طيبة لسلطين المماليك لتحقيق أغراضهم. ذلك أنه حدث سنة ١٢٦٦ أن قدم إلى مصر الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شبيحة ليشتكو إلى السلطان بيبرس من أن الشريف حمزة أمير المدينة حرمه من المشاركة في الإمرة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالده حمزة. وهكذا وجد السلطان فرصة طيبة للتدخل، فسكتب إلى حمزة يطلب منه تسليم بدر الدين نصف الإمرة، وتسلم الشريف بدر الدين تقليداً بذلك من بيبرس، وفامتثل حمزة.

ثم حدث سنة ١٢٦٨ أن وقع خلاف في مكة بين الشريف نجم الدين أبي حمى وبين عمه وشريكه في إمارة مكة الشريف بهاء الدين لإدريس. وقد انتهز السلطان بيبرس تلك الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيده سيطرته عليهما جميعاً، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة، بشرط ألا يجمعوا من أحد مكوساً وألا يمنع أحد من زيارة البيت والأيتام والناجر. وأهم من هذا كله، فإن السلطان بيبرس اشترط على أميرى مكة أن يخطب باسمه في الحرم والمشاعر، وأن تضرب السكة باسمه، مما يضمن له سيادة سياسية فعلية على الحجاز. وبعد أن وافق أميرا مكة على كل ذلك، كتب لهما بيبرس تقليداً بالإمارة وصلت لنوابهما أوقاف الحرم التي بمصر والشام (٣).

(١) القرينى: السلوك ج ١ ص ٤٤٥.

(٢) Van Berchem: Titres Califiens pp. 286—292.

(٣) القرينى: السلوك ج ١ ص ٥٦٠، ٥٦٩.

ولم يبق بعد ذلك أمام بيرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى ، وكان أن تفقد بيرس عزمه سنة ١٢٦٩ (٦٦٧ هـ) فوار المدينة ، وغسل الكعبة بيديه . وانهزم تلك الفرصة ليعين أحد أمرائه — وهو الأمير شمس الدين مروان — نائباً عنه في مكة ليكون الحل والعقد على يديه^(١) . على أنه يتضح من خلال أحداث زيارة بيرس للحجاز أن العلاقة بينه وبين أشرف الحجاز لم تكن على ما يرام ، بدليل أن أميري المدينة جواز ومالك رفضاً مقابلة السلطان بيرس ، وفراً منه ، مما يشهد على أن أمراء الحجاز أحسوا بثقل وطأة حكم بيرس عليهم^(٢) .

ولم تستقر الأوضاع لدولة المماليك في الحجاز بعد عهد بيرس ، إذ استمرت الخلافات بين الأشراف في مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة في وجه دولة المماليك . من ذلك ما حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون من استنجد الشريف منصور بن أبي شامة أخيه ماجد بن مقبل الذي انتزع منه إمارة المدينة ، فأرسل السلطان الناصر محمد بعضاً من جنده لمعاونة الشريف منصور^(٣) .

أما في مكة فقد عانت الهكوى من الأخوين حميضة وأسد الدين رمينة ، مما جعل السلطان الناصر محمد يرسل حملة سنة ١٣١٤ لإحلال أخيهما أبي الفيث محلهم في الحكم^(٤) . ولم يكتف أمراء مكة بالاستعانة بسلطنة المماليك في مصر لفض ما بينهم من منازعات ، بل بلغ الأمر ببعضهم أن فر إلى أوجا تيو ليخان

(١) العيني ، عقد الجمان ج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٥٥١ (مخطوط) ٩

النويري . نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥١ — ٥٢ (مخطوط)

(٢) المقرئ ، السلوك ج ١ ص ٥٨٠ — ٥٨٢

(٣) محمد جمال الدين سرور . دولة بني قلاوون في مصر ص ١١٨

(٤) أبو الفدا . المختصر ج ٤ ص ٧٣

المفول في فارس لطلب النجدة منه^(١) . وهكذا ظلت مكة مسرحاً
لمنازعات عديدة الأمر الذي جعل سلاطين المماليك يرسلون بين حين وآخر
بعض القوات إلى هناك لإقرار الأمور أو المناصرة أمير على آخر. هذا إلى أن
سلاطين المماليك كثروا ما قصدوا الحجاز لأداء فريضة الحج ، وعندئذ كانوا
يفتتمون فرصة وجودهم هناك لبحث المشاكل التي يعاني منها أهل الحرمين ،
وتوزيع القمح والفلال على المحتاجين ، فضلاً عن إقرار الأمن والنظام
بالأراضي المقدسة^(٢) .

أما بلاد اليمن فقد ارتبط حكمها من بنى رسول بعلاقات الود مع
سلاطين المماليك في مصر ، ويفهم من المراجع أن عدة سفارات أتت من اليمن
تعمل الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧٥ ، (١٢٦٦ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٤) ومن هذه الهدايا التحف والفيلة والحيوانات والطيور .
وكان السلطان الظاهر بيبرس يحسن استقبال تلك السفارات ويرد على تلك
الهدايا بأحسن منها^(٣) .

ويبدو أن ملوك اليمن من بنى رسول كانوا يخشون سطوة سلاطين
المماليك في مصر ، لأنه كان من المفروض أن تظل بلاد اليمن تابعة لمصر منذ
أن فتحها تورانشاه أخو صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧٣ . هذا إلى أن قيام
الخلافة العباسية في مصر جعل لسلاطين المماليك نوعاً من الولاية على بقية
ملوك العالم الإسلامي ، وبخاصة البلاد التي ورد ذكرها في التقليد الذي منحه
الخليفة المستنصر بالله العباسي للسلطان الظاهر بيبرس ، وهي الديار المصرية
والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية . ولعل هذا هو
السبب في حرص ملوك بنى رسول باليمن على علاقاتهم الودية مع سلاطين المماليك

(١) النويري . نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٩

Howorth : Hist. of the Mongols, III, p. 572.

(٢) المغربي : السلوك ج ٢ ص ١٩٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٣ ، ٥٩٥ ، ٦٢١ .

في مصر ، فأرسل المظفر شمس الدين على سفارة سنة ١٢٨١ إلى السلطان المنصور قلاوون فحمل هدية قيمة من العنبر والعود والصيني وغيرها . وقد ألح ذلك الوفد في الحصول على أمان من السلطان قلاوون لملك اليمن ، فلبى السلطان رغبتهم وأعطاهم أمانا نص فيه على ألا يتناوله من ماضية مدي الدهر وأعمارنا ، ما دام ملازما لشروط مودتنا . . . (١) .

وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في مصر على إرسال الرسل إلى اليمن لينذروا أهلها ما أحرزه سلاطين مصر من انتصارات باهرة رفعت شأن الإسلام والمسلمين . من ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل أحد أمرائه إلى اليمن ليبشر بانتصاره على التتار في موقعة مرج الصفر سنة ١٣٠٢ (٢) .

على أنه حدث سنة ١٣٠٣ أن تولى ملك اليمن المؤيد هزير الدين داود ، الذي لم يتبع أسلافه من ملوك اليمن في التودد إلى سلاطين مصر ، بل على العكس مضائق التجار المصريين وامتنع عن إرسال المال المقرر إلى مصر . لذلك أرسل إليه كل من السلطان الناصر محمد والخليفة المستكن بالله يندرونه ويهددونه ؛ بل لقد أخذ الناصر محمد بعد العدة لإرسال قوة حربية لتأديب صاحب اليمن ، لولا اضطراب الأحوال الداخلية في مصر بما حال دون تنفيذ ذلك المشروع (٣) .

على أن الأمور لم تلبث أن انتظمت بين سلطنة المماليك من ناحية وملوك اليمن من ناحية أخرى . ومن الثابت أن المنازعات بين أمراء اليمن وبعضهم

(١) بيبس الدواوار : ربيعة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٣ (مخطوط) ؛

(٢) محمد بن خالد الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٢٠ .

(٣) المقريزي : الملوك ج ٢ ص ٢٤ — ٢٨ .

(١٩) — العصر المماليكي

وبعض من جهة ، أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى . أتاحت لسلطان الماليك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر في شئون اليمن وادعاء هيمنتهم على ملوكها . من ذلك أن الملك المجاهد سيف الدين طاب من السلطان الناصر محمد سنة ١٢٢٥ أن يمدّه بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور الذي سيطر على معظم أنحاء اليمن ، فأمدّه السلطان الناصر محمد بحملة كبيرة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب^(١) . وهكذا ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء لسلطان الماليك في مصر ويحرصون على إرضائهم بما حقق لأولئك السلاطين سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وثمة دولة إسلامية أخرى في آسيا ربطتها بسلطنة الماليك علاقات المودة والصداقة ، هي دولة هندستان . وقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دهلي (١٢٢٥ — ١٢٥١) في توطيد دعائم دولته عن طريق التوسع على حساب الصين وخراسان من جهة ، ومخالفة سلطنة الماليك في مصر بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمغول فارس من جهة أخرى^(٢) . ولهذا الغرض أرسل محمد بن تغلق في أوائل حكمه سفارة مزودة بالهدايا الثمينة ، وإن كانت هذه السفارة لم تصل إلى مصر بسبب ما دب بين أعضائها من نزاع مما مكن الملك المجاهد صاحب اليمن من الاستيلاء على ما معهم من هدايا . ولما سمع محمد بن تغلق بما حدث لسفارته الأولى ، عاد وأرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٢٣١ يطلب معونته ضد المغول^(٣) .

ثم إن محمد بن تغلق لم يكتف بالسمي لكسب تأييد للسلطان الناصر

(١) المريزي : السلك ، ج ٢ ص ٢٥٩ — ٢٦٥ .

(٢) Lane — Poole : Med. India under Mohaumedan Rule, pp. 116—120:

(٣) محمد جمال الدين مرور : دولة بني قلاوون ص ١٤٠ — ١٤٩ .

محمد ، بل حاول أيضا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسي بالقاهرة ، فأجاب الخليفة المستكفي بالله العباسي إلى رغبته . وقد حرص فيروز شاه الثالث - الذي خلف محمد بن تغلق في الحكم سنة ١٣٥١ - على اتباع نفس السياسة ، فطلب تمويضا من الخليفة العباسي ، وأرسله الخليفة المعتضد بالله سنة ١٣٥٩ (١) .

وهكذا يتضح لنا كيف أن سلطنة المماليك أيام ذروة مجدها حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقا يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها .

سلطنة المماليك والدول الإسلامية في شمال أفريقيا :

أما الدول الإسلامية بشمال أفريقيا فقد ربطتها بسلطنة المماليك في مصر علاقات قوية أدت إليها رابطة الجوار والإسلام من جهة ، ورابطة الخلافة من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذي هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوروبي من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج ، نظرا لأن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة .

وكانت مشكلة الخلافة سببا من أسباب فتور العلاقات في وقت ما بين سلطنة المماليك في مصر وبني حفص في تونس (١٢٢٨ - ١٥٧٣) . ذلك أن ملوك بني حفص لم يطلبوا من الخليفة العباسي في بغداد تفريضا بالحكم مثل غيرهم من غالبية الحكام المسلمين ، مما يشير إلى شيء أضمره في نفوسهم . ولم يلبس أن ظهر ذلك الشيء عند ما اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحفصي الملقب بالمنتصر (١٢٤٩ - ١٢٧٦) لقب الخلافة والإمامة ، وتلقب بلقب

(1) Allan : The Cambridge Shorter Hist. of India, p. 246.

المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الامراء الراشدين^(١). وبذلك كان أسبق ملوك شمال أفريقية — بعد الموحدون — إلى اتخاذ لقب أمير المؤمنين .

وتفسير المراجع إلى أن الذي شجع الحفصيين على الإقدام على تلك الخطوة كان شريف مكة أبو نعيم بن الحسن، الذي أسرع بالاعتراف بسيادة الحفصيين على مكة^(٢)، ولم تكن سفارة أبي نعيم هي الوحيدة التي وصلت إلى تونس، وإنما أعقبها أيضا سفارتان إحداهما من سلطان بني مرين والأخرى من ملك التكرور .

ولم يمض على اتخاذ أبي عبد الله الحفصى لقب الخلافة مدة طويلة حتى قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ١٢٦٠ ، مما أوجد نوعا من الضغينة بين سلطنة المماليك في مصر وملوك الحفصيين في تونس . والواقع إن سلطنة المماليك في مصر حاولت دائما أن تقلل من شأن خلافة الحفصيين ، بدليل ما ذكره العمري من أن ملك تونس يخاطب بأمير المؤمنين في بلاده^(٣) . كذلك شكك القلقشندي في دعوى انتساب الحفصيين لقبش ، وقال إنهم لبسوا من العرب في شيء ، وحقر من شأنهم وشأن خلافتهم^(٤) . أما المؤرخ أبو المحاسن فقد بلغ من تحقيره للحفصيين وخلافتهم أن قال مانعه دوفيا (٥٦٥٢هـ) وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء إنسان على أفريقية وادعى أنه خليفة وللقب بالمستنصر ...^(٥) .

(١) Van Berchem : Titres Califieu, p. 292.

(٢) القهرواني : المرسل إلى أخبار أفريقية وتونس ، ص ١٧٨ .

(٣) العمري : التمريل بالمصطلح العربي ص ١٢ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢ .

ويبدو لنا موقف سلطنة المماليك في مصر من الحفصيين في المكاتب الصادرة عن ديوان الإنشاء ، إذ ليس في هذه المكاتب ما يشير إلى اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين . ولم يحاول سلاطين المماليك تلقيت الحفصيين بلقب أمير المؤمنين ، وإنما لقبوهم فقط بلقب « أمير المسلمين » وهو لقب دون الأول في المرتبة ولا يعني أنه خليفة شرعي على المسلمين ، وإنما هو مجرد حاكم أو أمير من أمراء المسلمين يعمل تحت لواء الخلافة ^(١) . وليس في القلعة هندی سوى رسالة واحدة بعث بها الظاهر برقوق إلى أحد ملوك الحفصيين لقبه فيها بلقب « أمير المؤمنين » ؛ وربما كانت عبارة المؤمنين فيها تحريفا عن المسلمين نتيجة لخطأ النساخ ، أو ربما كان سوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين في القاهرة وسلاطين المماليك عندئذ سببا دفع الظاهر برقوق إلى الاعتراف بالخلافة الحفصية نكاية في الخلافة العباسية .

على أن مشكلة الخلافة بين المماليك والحفصيين لم تصل إلى درجة من الحدة تحول دون تكاتف القوتين لمواجهة الخطر الكبير الذي هدد العالم الإسلامي عندئذ من جانب الصليبيين . من ذلك أن أخبار رحلة لويس التاسع إلى تونس سنة ١٢٧٠ أثار اهتمام السلطان الظاهر بيبرس ، فأخذ يستعد بمرحلة لدفع هادية الصليبيين عن تونس ، بل يقال إن السلطان الظاهر بيبرس بادر بإرسال رسول إلى فرنسا لتحذير لويس التاسع من عاقبة مشروعه ، وذلك بمجرد وصول أخبار استعدادات لويس التاسع إلى مصر ^(٢) . وعند نزول القوات الصليبية في تونس بادر السلطان الظاهر بيبرس بإرسال رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره بأنه سيرسل إليه ما يستطيع من عسكر ، كما طلب من عربان برقة المبادرة

1) Van Berchem : Titres Califiens. p. 261.

(٢) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٢٩١

بمساعدة المستنصر الحفصي . هذا إلى أن يبصر أمر بحفر الآبار في الصحراء
الغربية ليعتمد عليها جنوده في طريقهم لفجدة تونس (١).

على أن السلطان يبصر لم يكذب يعضى في استعداداته حتى جاءت الأخبار بموت
لويس التاسع في تونس ونشل حملته ، الأمر الذى جعل يبصر يوقف استعداداته
الحربية لمساعدة تونس ويرسل البشائر إلى سائر بلدان المسلمين ابتهاجا بالخلاص
من ذلك الخطر (٢) . ومع ذلك فإن السلطان يبصر لم يفته أن يتخذ تلك الحملة
الصليبية وسيلة للتفنيح على المستنصر الحفصي والخط من شأنه . ويروى المقرئى
أن رسول صاحب تونس قدم إلى مصر سنة ١٢٧١ يحمل هدية وكتابا للسلطان
الظاهر ببصر ، ولكن يبصر استاء من أسلوب المخاطبة وظن أن صاحب تونس
تعمد عدم مخاطبة سلطان مصر بما يستحقه من تقدير . لذلك تعمد السلطان
ببصر من ناحيته أن يفرق هدية صاحب تونس على الأسماء دون أن يحتفظ
لنفسه بنصيب منها ، كارد على ملك الحفصيين مستقبعا تظاهره بالمنكرات
واستخدامه الفرنج ، فضلا عن تقاعسه في الجهاد وعدم خروجه لمقاومة
الصليبيين عندما هاجروا بلاده . ويروى المقرئى أن السلطان ببصر قال
للمستنصر الحفصي : «ملاك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين» (٣) .

هذا عن العلاقة بين سلطنة المماليك ودولة الحفصيين في تونس ؛ أما عن
علاقة المماليك ببقية بلاد المغرب الإسلامى - مثل بنى زيان فى تلمسان وبنى مرين فى
فاس - فلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقة بين سلطنة المماليك وبنى
مرين فى فاس ، فى الوقت الذى سادت العلاقات بين بنى زيان وبنى مرين .

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٠

(٢) سعيد ماضور . الظاهر ببصر ص ١١٤

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٦٠١

والواقع إن الزيبانيين نطلعوها في أول الأمر إلى سلاطين المماليك للحصول على تأييدهم ضد أطماع بني مرين ، ولكن سلاطين المماليك في مصر كانوا على درجة من بعد النظر جعلتهم يدركون أن بني مرين هم أضخم قوة في بلاد المغرب ، فحرصوا على إظهار الود نحوهم واكتساب صداقتهم ، الأمر الذي أدى إلى نفوذ بني زيان من سلطنة المماليك . وليست هناك بداية محددة لذلك النفوذ ، وإن كانت المراجع تشير إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل سفارة سنة ١٣٠٥ إلى أبي يعقوب يوسف المريني ، ومع السفارة هدية جليلة ، وبعد أن لقبى السفارة من بني مرين كل ترحاب وحفاوة ، تعرضت وهي في طريق عودتها إلى مصر لعدوان الأعراب في تلمسان ، على الرغم من أن أعضاء السفارة كانوا قد طلبوا من بني زيان في تلمسان حمايتهم في أراضيهم (١) . وكان أن غضب السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما أتاه صاحب تلمسان - وهو عندئذ أبو حمزة موسى (١٣٠٧-١٣١٨) فأرسل يعقب عليه ويؤنبه ، كما بعث له بهدية صغيرة تحقيرا لشأنه . وقد رد التلمساني على السلطان الناصر محمد محتجا ، كما رفض قبول الهدية (٢) . وعلى الرغم من أن أبا تاشفين عبد الرحمن بن موسى التلمساني حاول أن يصلح الأمور بعد ذلك مع سلطنة المماليك ، وأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ معبرا عن حسن نواياه ويوضح له أن سبب استياء أسلافه هو د ميلكم إلى خيرتا ، (يقصد بني مرين) (٣) ، فإن دعوته لم تجد ترحيبا من سلطنة المماليك ولم يلبث بنو مرين أن بسطوا سيادتهم على تلمسان سنة ١٣٣٧ ، وكتب أبو الحسن علي المريني رسالة إلى السلطان الناصر محمد يخبره بما تم على يديه من فتوح ، فرد عليه السلطان الناصر مؤيدا ومهنئا (٤) .

(١) النويري ، نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٥٥ (مخطوط)

(٢) ابن خلدون العبر ج ٧ ص ٣٢٧

(٣) الفقهندي صبح الأعشى ج ٨ ص ٨٦

(٤) المرجع السابق ج ٨ ص ٨٧ - ٩٩ ج ٧ ص ٣٩٥ - ٤٠٧

وهكذا يبدو لنا كيف انظر سلاطين المماليك في مصر إلى بني مريد نظرة احترام وإجلال ، بوصفهم أكبر قوة في المغرب العربي ، فضلاً عن دورهم البارز في حماية الإسلام بالمغرب وجهاد المسيحيين بأسبانيا^(١).

والواقع إن مظاهر العلاقات الوثيقة التي ربطت مصر بالمغرب العربي في أواخر العصور الوسطى بوجه عام وفي عصر سلاطين المماليك بوجه خاص عديدة ومتنوعة . ومن هذه المظاهر حرص سلاطين المماليك على إرسال البشائر إلى المغرب كلما أحرزوا انتصاراً على أعداء المسلمين في الشرق ، مثل التتار أو الصليبيين . ولا يخفى علينا أن ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلطنة المماليك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامي ضد الأخطار التي تهدده من جهة الشرق . وهناك في المراجع ما يشير إلى أن ملوك المغرب كانوا يقفون مواقف المتربص عندما دم خطر التتار المشرق العربي على أيام هولاكو ثم تيمورلنك ، وأنهم كانوا يسارعون إلى تهنئة المماليك عقب كل انتصار أحرزوه على خصومهم^(٢).

كذلك كانت مصر في عصر سلاطين المماليك ملجأ لكثير من المغاربة اللاجئين إليها فراراً من حكام بلادهم . ولم يقتصر الأمر على الأسراء المغاربة الفارين من بلادهم ، وإنما تعدى ذلك إلى هجرة بعض أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر يلتمسون فيها العلم والرفق . وكان بعض أولئك المغاربة من الفقراء والصوفية ، فتركوا أنراً عميقاً في أحوال مصر الاجتماعية نتيجة لما ترتب على مجيئهم من انتشار حركة التصوف فيها . ولا يخفى علينا أن مرور ركب الحجاج المغاربة بمصر في طريقهم إلى الحجاز أو إلى بلادهم بعد أداء الحج

(١) العمري : التعريف من ١٦ - ٣٣

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٧

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ من ٧٩ - ٨٤ ، ١٠٣ ج ٧ من ٤٠٧ - ٤١١

كان فرصة طيبة لإطلاع نسبة كبيرة من أهل المغرب على أوضاع مصر ، ولا شك في أن تلك العلاقات الطيبة بين مصر والمغرب مهدت لا تتعاش التبادل التجاري والثقافي بين الطرفين . أما عن النشاط التجاري فثمة إشارات في المراجع إلى أن مصر كانت تستورد من المغرب الخيول والزيت وتصدر إليه المنسوجات الحريرية والسكتاتية . وقد روى ابن خلدون أنه أتى إلى مصر سنة ١٣٨٢ على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة^(١) ، كما ذكر في موضع آخر : إن تهار المغاربة إلى المشرق ثروتهم بعيدة لبعده الشقة وغلو أسعار بضائعهم^(٢) . وأما عن التبادل الثقافي فالمعروف أن مصر في عصر المماليك صارت محل سكن العلماء وعط رحال الفضلاء ، كما وصفها السيوطي^(٣) . لذلك قصدوا في ذلك العصر كثير من المغاربة لطلب العلم ؛ فضلاء العلماء المغاربة الذين حظوا بعطف سلاطين المماليك وسمحوا لهم بالتدريس في الأزهر^(٤) . وعلى رأس هؤلاء العلماء يذكر التاريخ اسم ابن خلدون الذي أتى إلى مصر لائتداء بها سنة ١٣٨٢ ، وظل يواصل نشاطه العلمي في التأليف والتدريس حتى وفاته في مصر سنة ١٤٠٥ ، أما ابن بطوطة - الرحالة المغربي الشهير - فقد وفد على مصر في عهد السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٤ ؛ وسجل إعجابه بها ووصفه لما شاهده بين ربوعها في رحلته المعروفة .

وهكذا تدل جميع الشواهد على تنوع الصلات وقوتها بين مصر في عصر المماليك والمغرب العربي ، مما ترك أثراً كبيراً في التاريخ ويعتبر شاهداً قوياً على وحدة التاريخ العربي .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٤٥١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٩٤ .

(٣) السيوطي . حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٤) ابن حجر . الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦١ - ٣٦٢ ج ٤ ص ٣٢٧ .

الموقف بين سلطنة المماليك والسودان الغربي :

أما دول السودان الغربي ، فلم تقم بينها وبين سلطنة المماليك في مصر علاقات سياسية قوية مباشرة وذلك بعد الشقة بين الطرفين ، وليس معنى ذلك انعدام الصلات بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ، فقد كانت هناك صلات قوية ، ولكنها كانت أكثر وضوحاً في نواحي الحج والتجارة والجوانب الثقافية .

والواقع إن الحج ظل يمثل أقوى الروابط التي ربطت سلطنة المماليك بدول السودان الغربي ، حيث أن سكان تلك النواحي اعتادوا في طريقهم إلى الحجاز أن يسلكوا الدرب الصحراوي المعروف بطريق غات ، وهو يبدأ من مدينة غات نفسها وينتهي عند الأهرام^(١) ، فإذا وصل حجاج السودان الغربي إلى مصر فإنهم اعتادوا أن يقضوا فيها وقتاً حتى ينهوا ركب الحجاج والمحمل إلى مكة . ولا شك في أن تلك المدة التي كانوا يقضونها في مصر أثناء طريقهم إلى الحجاز ، كانت فرصة طيبة يتصلون فيها بالمصريين ويتصل المصريون بهم ويعتبر كل طرف على الآخر .

وأول من مر بمصر في طريقه إلى الحجاز من ملوك مالى والتكروري هو متساوولى الذى حج أبام السلطان الظاهر بيبرس^(٢) . وتنبهنا المراجع أن ثمة وفداً من الحجاج التكروري وفد بعد ذلك إلى مصر سنة ١٣٢٣ ، وكان يتألف من عشرة آلاف تكرورى على رأسهم متساموسى^(٣) . وقد أحاط

(١) ابن خلدون : البرج ٥ ص ٤٣٤

(٢) القلاشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣ . ويذكر القلاشندى أن متسا معناها السلطان وولى معناها على .

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٢٥ .

ذلك الملك نفسه بمظاهر الترف ، وأخذ ينفق في مصر عن صمة استمرت نظر المعاصرين ، وأقدم هذا يا جليلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون من بيتها حمل جليل من الذهب المعدني الخام . أما السلطان الناصر محمد فقد أكرمه وبعث إليه وإلى أفراد حاشيته بالفلح والسيوف وغيرها ، كما أمده بالخيول والجمال والمؤونة ليتمكن من مواصلة سفره إلى الحجارة (١) .

ولم يلبث سلاطين مالى أن أدركوا أهمية الحصول على تقليد من الخلافة العباسية بالقاهرة في توطيد نفوذهم . من ذلك أن محمد أبو بكر سلطان مالى انتصر فرصة مروره بمصر سنة ١٤٩٤ في طريقه إلى الججاز لأداء فريضة الحج ، ورأى أن يدعم ملكه ويكسبه صبغة شرعية ، فطلب من الخليفة العباسي تقليداً بتفويضه حكم بلاده ، ومنحه الخليفة ما أراد . ويقال إنه عند وصوله إلى مكة ، نادى به شريف مكة « سلطانا وخليفة بأرض التكرور ، وأن كل من خالفه فقد خالف الله ورسوله (٢) » .

ويبدو أن نفوذ مصر السياسي صار معترفاً به في تلك الجهات منذ أواخر القرن الرابع عشر ، إذ حاول ملوك الكاتم الحصول على تأييد شرعي لحكمهم من سلطنة الممالك (٣) . هذا مع ملاحظة أن ملوك السودان الغربي ظلوا في نظر سلاطين الممالك في مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقية ، بدليل أن الفريق الأول كانوا يخاطبون في المكاتبات السلطانية الصادرة عن ديوان الإنشاء بلقب « الجناب الكريم العالى » ، في حين أن الفريق الثانى كانوا يخاطبون بلقب « المقام العالى (٤) » .

(١) العمري : مسالك الأبصار ص ٩٤٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ .

(٢) محمد كمت التليكي : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص ١٢

(٣) Ziada : Foreign Relations, p. 113.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧ .

والواقع إن المراسلات المتبادلة بين سلاطين الممالك في مصر وملوك السودان العربي تلقى ضوءاً هاماً على العلاقة بين الطرفين ، وتدل على مدى العناية دولة الممالك بتعرف أحوال تلك البلاد من ناحية ، ومدى اهتمام بلاد السودان العربي بأخبار دولة الممالك من ناحية أخرى وما تعرض له من أحداث وبخاصة من جهة انتشار . ويستشف من كلام العمري أنه يأسف لعدم العناية بعناية تامة بأحوال التكرور الذين تربطهم بمصر روابط الإسلام ، ويطالب بمزيد من الاهتمام بأخبارهم^(١) .

ولاشك في أن روابط الإسلام بين مصر ودول غرب إفريقيا أدت إلى نمو الروابط العلمية والثقافية بين الطرفين . من ذلك ما يقال من أن السلطان منسا موسى افتتح فرصة وجوده في مصر فابتاع جملة من الكتب ليوفر لأهل بلاده جانباً من الثقافة الإسلامية^(٢) . كذلك يقال إن جامعة تفكتو الدينية التي أنشئت حوالي سنة ١٣٣٥ حاولت دائماً أن تحتذى أساليب الأزهر في التعليم . ويبدو أن بعض المصريين من العلماء وغيرهم استقروا في السودان الغربي ، بدليل ما يذكره ابن بطوطة من أنه عندما مرض في مدينة مالي لم يسمعه بالعلاج إلا أحد الأطباء المصريين^(٣) .

ومن جهة أخرى ، فإن بعض طوائف من بلاد التكرور أقامت في مصر لطلب العلم والدراسة على مشايخ العصر المبرزين أمثال ابن جوزي وأبي حيان وغيرهما^(٤) . وقد نبغ من التكرورة في مصر صبيح بن عبد الله التكروري الملقب بالكوتاني الذي اشتغل بتدريس الحديث في دمشق حيث مات سنة ١٣٣٠^(٥) .

(١) Demombynes : *Masalik Alabsar*, Intr ; IX.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ج ٧ ص ٢ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٥ .

كذلك ابنتي تجار التكاورة بمصر مدرسة للمالية عرفت بمدرسة ابن رشيق^(١)؛ وأصبحت هذه المدرسة المالية مركزاً لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور، حتى أن الخبيرين من أهل تلك البلاد اعتادوا أن يعيشوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات^(٢). ولا يخفى علينا أن كثير من التكاورة في مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر، وهؤلاء كان لهم نصيب من عطف سلاطين الممالك، إذ يروى المقرئ أن السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس «عمل للتكاورة نحو أن حضره كثير من أهل الخبر»^(٣).

وأخيراً، فإنه لا يخفى علينا أن التجارة كانت تمثل رباطاً قوياً دعم العلاقات بين دولة المماليك ودول السودان الغربي. وسنتكلم عن النشاط التجاري بين الجانبين في مكان آخر من هذا الكتاب، ولذلك نكتفي بالإشارة هنا أن الأمر لم يقتصر في عصر المماليك على مجيء التجار التكاورة إلى مصر يحملون حاصلات السودان، وإنما تعدى ذلك إلى تردد بعض التجار المصريين على بلاد الكانم والتكرور، الأمر الذي قوى الصلات بين دولة المماليك ودول السودان الغربي.

الموقف بين سلطنة المماليك والحبيشة :

أما عن العلاقة بين سلطنة المماليك والحبيشة فكانت من نوع آخر. ذلك أن الحبيشة دولة مسيحية تتبع كنيسة الكنييسة المرفسية بالإسكندرية؛ ثم إنها كانت بعيدة عن مصر لا تربطها بها حدود مباشرة مما حال دون وقوع

(١) سميت بهذا الاسم لأن علم الدين ابن رشيق هو الذي أدرج على رأسها قبل متصرف

الفرق السابع المهرى، وهو أيضاً أول من درس بها.

(٢) المقرئ المواظ والاهتمام ج ٩ ص ٩٩٥.

(٣) المقرئ: التواضع ج ١ ص ١٩٨٩.

صدام مباشر بين القوتين ، مثلما حدث بين مصر وملك النوبة المسيحية في مصر الماليك ، أو بين سلطنة الماليك من ناحية والقوى الصليبية القرية في الشام وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس من ناحية أخرى .

والواقع أنه منذ أن تآكدت تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية في أوائل العصور الوسطى ، والعادة جرت بأن تستورد الحبشة مطاراتها من مصر ؛ فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين لإحداهما الحاكم مصر والأخرى لبطرك الاسكندرية طالباً تعيين من يشغل كرسي المطرانية في الحبشة . كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعاياه (١) . وعند وصول هاتين الرسالتين والمال ، يتصل بطرك الاسكندرية بالسلطان أو الحاكم في مصر ويستأذنه في رسالة أحد الرهبان الأكفاء ليشغل كرسي مطران الحبشة .

وهكذا وجد عامل ديفى قوى ربط بين الحبشة وسلطنة الماليك ، وحقق قدراً كبيراً من الاتصالات بين الدولتين . ويفهم من المراجع أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، ولما كن هذه السفارة تأخرت في العودة بسبب الحروب الداخلية التي كانت دائرة هناك حول العرش ، الأمر الذي أغضب بيبرس . وقد أحس ملك الحبشة بغضب سلطان مصر ، فلم يجرؤ على طلب مطران منه مباشرة ، وإنما اتصل بسلطان اليمن وطلب وساطته لكي يصدر بيبرس أوامره إلى البطرك غبريال الثالث ليبعث إلى الحبشة مطراناً رجلاً جيداً عالماً لا يجب ذهاباً ولا فسخاً . ونخرج من رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس بنتيجتين أولاهما أنه اشترط في المطران أن لا يجب ذهاباً ولا فسخاً ، مما يفهم منه أن بعض المطارنة

1) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abysinie, t. I, p. 179.



المصريين الذين كانوا يوفدون إلى الحبشة أظهروا تكالباً على المال؛ وثانيهما أن ملك الحبشة حرص على أن يحشو رسالته لسلطان مصر بعبارات الملق والرفى، ومن ذلك قوله، ... وهذه الخاق كلهم يقولون آمين بطول بقاء حمر سلطاننا مالك مصر، ويهلك الله عدوه ... (١).

ومع ذلك فإنه يبدو أن العلاقة استمرت سيئة بين السلطان الظاهر بيبرس وملك الحبشة، فامتنع بيبرس عن إرسال المطران المطلوب، مما دفع الحبشة إلى استحضار مطرانا سورياً من بلاد الشام (٢).

خير أن الأحباش لم يرتاحوا للمطارنة السوريان، فكتب ملك الحبشة يهبأصيون (صهيون) إلى السلطان المنصور فلان يعتذر له ويسأله إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصارى والمسلمين. كذلك كتب ملك الحبشة إلى بطرك الاسكندرية يقول له: وهؤلاء السريان المطارنة الذين هندنا من غير مصر بغضناهم وما حبيناهم، ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم (٣).

وقد تكررت رسائل ملك الحبشة إلى السلطان فلان بعد ذلك، وكلها رسائل مليئة بالتوسلات والتضرعات، حتى أنه قال في إحدى رسائله: ... اسمع يا سلطان مصر - نصرك الله - : إعطى البطريرك الدستورييحيى لي أسقفاً، فنحن وهم أمانتنا واحدة من ذمن مرقص وإلى اليوم ... (٤) وكان أن استجاب السلطان المنصور فلان لرجاء ملك الحبشة فسمح بتعيين المطران المطلوب وسفروه إلى الحبشة.

(١) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٦ (مخطوط).

(٢) Coulbeaux: op. cit., T. I, pp. 288—290.

(٣) يحيى الدين بن عبد الظاهر: تفريل الأيام والمنصور ص ١٧٠ - ١٧٣.

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣.

(١٧ - مصر المالى)

ومن هذا يبدو أن علاقة كنيسة الحبشة بالكنيسة المرفسية بالإسكندرية كانت سبباً في اتصالات دائمة بين دولة المماليك والحبشة . وجدير بالذكر أن سلاطين المماليك في مصر كانوا يرثون أحياناً في العلاقة بين بطاركة الإسكندرية وملوك الحبشة ، ولهذا أصرروا أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق سلطنة المماليك نفسها وليس اتصالاً مباشراً . ويدل ذلك على أن بعض سلاطين المماليك أخذوا عهداً على بطرك النصارى بأن لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ولا ظاهراً ولا باطناً ، ولا يولى أحداً في بلاد الحبشة ولا قسيساً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابته ... (١) . كذلك كان سلاطين المماليك يوجهون دائماً النصيح إلى بطرك النصارى في مصر بأن يتوفى ما يأتيه سرّاً من تلقاء الحبشة (٢) ، ولا شك في أن تلك المخاوف التي سادت سلاطين المماليك في مصر من الاتصالات بين بطرك مصر وملوك الحبشة إنما كانت أمراً طبيعياً في عصر الحروب الصليبية ، وهو العصر الذي طفق بروح التعصب الديني من ناحية والذي ظهرت فيه دولة المماليك في صورة القوة الإسلامية الكبرى التي تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين من ناحية أخرى .

على أن موضوع تعيين مطران للحبشة من قبل بطرك الإسكندرية لم يكن السبب الوحيد للاتصال بين سلطنة المماليك ودولة الحبشة . ذلك أنه ثمة مظهر آخر للعلاقات بين الطرفين ارتبط بمروء الحجاج الأحباش بمصر وهم في طريقهم إلى بيت المقدس . والمعروف أن الأحباش كانت لهم جمالية كبيرة مقيمة في بيت المقدس ، كما كان لهم دير كبير في تلك المدينة المقدسة اتخذوه مقرأ لهم . وقد اعتاد ملوك الحبشة إرسال الهدايا والهبات إلى رهبان ذلك الدير ، فضلاً عن التماس كرم سلاطين المماليك في رعاية أولئك الرهبان . من ذلك ما جاء في رسالة ملك

(١) السخاوى : الثبر المسبوك في ذيل السلوك ص ٢١٠ .

(٢) العمري : التمرين بالمصطلح الشريف ص ٤٨ .

الحبشة يهبأصيون (١٢٨٤ - ١٢٩٣) إلى السلطان المنصور قلاوون ؛ من أن ذلك الملك أرسل ثوباً ومائة شمة د وسأل إنقاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف ، ويوصى عليهم بالأيمنعوا من دخول الهيكل^(١) . كذلك أرسل ملك الحبشة المذكور إلى رهبان دير الأحباش في بيت المقدس يقول لهم د سلام عليكم يا رهبان الحبوش الذين صبروا على العباداة والزهد إلى هذه الأيام ، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سيرت لكم ثوب أحمر دياج ، ومائة شمة ، وثيابي وهو زفاري الذي تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القران . . فعرفوني بوصول هذا ، واكتبوا أسمائهم ، واذكروني في صلواتكم بدعوانكم . . .^(٢) .

ويبدو أن جموع الحجاج الأحباش الذين كانوا يمرون بمصر في طريقهم إلى بيت المقدس بلغوا درجة من الكثيرة تطلب نوعاً من دوام الاتصال بين ملوك الحبشة من ناحية وسلاطين مصر من ناحية أخرى ، لإعفاء أولئك الحجاج من رسوم المرور . وقد ذكر ألفاري أنه شاهد قافلة تضم نحواً من ثمانمائة من حجاج الأحباش تمر بالأراضي المصرية قرب شواطئ البحر الأحمر في طريقهم إلى بيت المقدس^(٣) .

والمتواتر في المراجع أن السلطان صلاح الدين الأيوبي شمس دير الأحباش برهائيه عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، ولذلك دأب ملوك الحبشة في عصر المماليك على إرسال السفارات والكتب لسلطين المماليك ، راجين أن يشملوا حجاج الأحباش بمطعمهم ولا يمنعهم من زيارة كنيسة القيامة

(١) محمد الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والعصور ٩٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧٣ .

(٣) Alvarez : Portuguese Embassy, pp. 243-244. (٣)

بالقدس (١).

والواقع إن وجود جمالية كبيرة من الأحباش مقيمة إقامة دائمة في بيت المقدس، ووجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة، أمر له أهميته من حيث اطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولاً بأول. ولم تغب عن البابوية وأصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوروبا فكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية الكبرى - وهي الحبشة - في محاربة المسلمين، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن الثالث عشر (٢). ومن الثابت أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين. وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استئثار ملوك الحبشة، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرص من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥. كذلك فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩) في غزو مصر، وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرص وأمسروا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦. وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوروبا مباحثات في هذا الشأن، ولكنها باءت بالفشل (٣). كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتحويل مصر، وهي الفكرة التي ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أرغونه والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى (٤).

(١) ابن لباس: بدائم الزهور ج ٥ ص ١٢.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢، ص ١٢٠٩.

(٣) المقرئى: الإلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٤.

أبو الهاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٣٧ - ٦٤٠ (طبعة كالمفورنيا).

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٣ - ١٢١٤.

المعركة بين سلطنة المماليك ودول التركان :

عاشت على الأطراف الشمالية لدولة المماليك جماعات من شعوب متنوعة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان ، وهؤلاء جميعاً ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حيناً والثورة والعدوان أحياناً ، وفقاً لملته الظروف الخاصة والعامة التي أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى وشعوبها منذ منتصف القرن الثالث عشر .

وقد عرف عن التركمان بالذات أنهم ساهموا بنصيب بارز في حركة الجهاد ضد الصليبيين منذ وقت مبكر ، فعملوا جنوداً في جيوش أتابك السلاجقة ثم في جيوش الأيوبيين فالمماليك . على أنه بصرف النظر عن تلك الأعداد من التركمان الذين عملوا جنداً مرتزقة في جيوش المماليك ، فإن التركمان أقاموا لأنفسهم دولاً وأدويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد النهرين ، اشتهرت منها دولة بني دغادر ودولة بني رمضان ودولة بني قرمان ودولة الشاه البيضاء ودولة الشاه السوداء . وكان المفروض أن تكون هذه الدول التركمانية تابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام ، ولكن الحاصل فعلاً هو أنها لم تظل على ولائها للمماليك ، وإنما دأبت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك بل ومهاجمة أراضيها ، مما سبب لدولة المماليك كثيراً من المتاعب على حدودها الشمالية .

وقد اشتد تهديد الدول التركمانية لسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر ، عندما كثرت القلاقل والفتن داخل دولة المماليك وظهر ضعف هذه الدولة وعجزها عن الاحتفاظ ببيتها والدفاع عن كيائها ضد الأخطار الخارجية التي هددها ، وبخاصة من جهة تيمورلنك . وكان أن أحس السلطان المؤيد شيخ بطغر التركمان وروى ضرورة تأديبهم فقام بمحملتين ضدهم سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ ،

ولكنهم أعلنوا ثورتهم من جديد عقب عودة السلطان ، فأرسل السلطان المؤيد شبح ابنه إبراهيم على رأس حملة كبرى سنة ١٤١٩ ؛ فوصلت هذه الحملة إلى قونية ، وخرب إبراهيم بلاد التركمان ثم عاد محملاً بالغنائم (١) .

ولم يغفر التركمان لسلطنة المماليك ما حل ببلادهم من تهريب وتدمير ، فقام عثمان قرايلوك زعيم الشاه البيضاء بمهاجمة خرتبرت سنة ١٤٢٩ كما أوغل داخل حدود دولة المماليك . ويبدو أن قرايلوك أقدم على مهاجمة دولة المماليك بتحريض من شاه رخ ابن تيمورلنك ، الأمر الذي جعل السلطان الأشرف برسبای يبادر بإرسال حملة خربت الرها - التابعة للشاه البيضاء - وأسرمه حاكمها هايل بن عثمان قرايلوك (٢) .

وقد بلغ من استخفاف عثمان قرايلوك زعيم الشاه البيضاء بسلطنة المماليك أنه أرسل إلى السلطان برسبای سنة ١٤٣٣ سفارة تحمل هدية تشمل امرأة وخروف وخلعة . وكان أن فهم برسبای ما يعنيه قرايلوك من تلك الهدية ، إذ برمز الخروف إلى السلطان والمرأة إلى أن السلطان وأمراه كالنساء ، في حين تشير الخلعة إلى أن برسبای تابع لقرايلوك . ولم يستطع السلطان برسبای أن يخفي غضبه فأمر بذيخ الخروف أمام الرسل وألبس الخلعة لأجد الهريسين فرقص بها في حضرة السلطان وحطم المرأة ، ثم صرف رسل قرايلوك بعد أن أهانهم وقص أذنان خيولهم وقال لهم «قولوا لأستاذكم يلاقيني على الفرات فكان ذلك إعلاناً للحرب (٣) .

ومع أن الحرب التي شنها برسبای ضد قرايلوك سنة ١٤٣٣ انتهت بصلح سريع لهد فيه زعيم الشاه البيضاء بأن يكون تابعا مخلصا لسلطان المماليك ، إلا

(١) Wiet : op cit., pp. 546-547

(٢) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة من ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ من ١٩ - ٢٠

أن قرايلوك كان ينفك دائما بوعوده ، الأمر الذى سبب للسلطان برسباى متاعب كثيرة . ولم يلبث برسباى أن انتهز فرصة استحكام الخلاف بين دولتي الشاه البيضاء والشاه السوداء وأعلن تأييده الأخيرة . وقد انتهى ذلك النزاع بتغلب دولة الشاه السوداء فتمكن زعيمها من هزيمة قرايلوك وقتله ، وعندئذ أرسل رأسه إلى السلطان برسباى سنة ١٤٣٥ فعلقها السلطان على باب دويلة وأمر بإقامة الزينات في القاهرة ابتهاجا بالخلاص من ألد خصومه (١) .

وفي سنة ١٤٣٨ احتل دست سلطنة المماليك السلطان جقمق الذى انصف هذه جهوده العلاقات مع التركمان فصاهر أمراء دغاادر ، وتدخل سنة ١٤٤٩ في النزاع بين أبناء عثمان قرايلوك الذين دب فيما بينهم الخلاف ، وفر أحدهم وهو الأمير قاسم إلى السلطان جقمق فنهضه وساعده (٢) . كذلك يروى السخاوى أن تركان الشاه السوداء خطبوا ود السلطان جقمق وأرسلوا له هدية ثمينة سنة ١٤٥١ ، فقبلها السلطان وأكرم الرسل ورد على الهدية بأحسن منها (٣) . وفي العام التالي - أى سنة ١٤٥٢ - أرسل أوردون حسن - أمير الشاه البيضاء - مفاتيح آمد إلى السلطان جقمق بعد أن انزع تلك المدينة من أخية جهانكير المعادى لسلطنة المماليك فشكره جقمق ورد إليه المفاتيح (٤) .

على أنه يلاحظ منذ منتصف القرن الخامس عشر ازدياد المتاعب التي سببتها دول التركمان لسلطنة المماليك وذلك بسبب ظهور قوة العثمانيين وتدخلهم في شئون الإمارات التركمانية من ناحية وفي العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٥٤ أن اعتدى السلطان محمد الفاتح

(1) Wiet : op. cit., p. 565.

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

العثماني على إمارة دلفادور، فأرسل أميرها إبراهيم بن قرمان مستنجدا بالسلطان إينال، فما اكرث السلطان بذلك، بسبب صلة الصداقة بين الدولة العثمانية وسلطنة المماليك عندئذ. ويبدو أن موقف إينال السلبي من أمير قرمان - وهو معمول بالحماية المماليكية - أثار إبراهيم بن قرمان فخرج على سلطنة المماليك، الأمر الذي جعل السلطان إينال يبادر بإرسال حملتين ضده حتى تم القضاء على تلك الفتنة (١).

ولم يلبث أن اتخذ التنافس بين سلطنة المماليك من ناحية وسلطنة العثمانيين من ناحية أخرى شكلا مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على الحدود بين دولتي المماليك والعثمانيين. من ذلك أنه حدث نزاع سنة ١٤٦٦ في إمارة دلفادور بين شاه سوار وأخيه بوداق، فناصر السلطان محمد الفاتح شاه سوار وناصرت سلطنة المماليك أخاه بوداق وكان أن انتصر شاه سوار على أخيه فغضب له في العاصمة أبلستين وأخذ يهاجم أطراف دولة المماليك، الأمر الذي أثار السلطان قايتباي وجعله يرسل حملة سنة ١٤٦٧ لتأديب شاه سوار. ولكن جيش قايتباي وانكسر كسرة شنيعة، (٢). ولم تفلح الحملة التي أرسلها قايتباي في العام التالي ضد سوار، إذ تمسكت بنفس المصير من الفضل والهزيمة.

ويبدو أن سوار تمادى في الاستخفاف بدولة المماليك والعيب بحدودها فضلا عن أنه اعتدى على الدول التركمانية المحالفة لسلطنة المماليك مثل دولة بني رمضان. لذلك لم يستطع السلطان الأشرف قايتباي السكوت عن ذلك التهديد الخطير لحياة دولة المماليك، فأرسل حملة كبرى ضد سوار سنة ١٤٧٠ بقيادة الأمير يشبك الدوادار. وقد زود قايتباي قائد هذه الحملة بسلطات استثنائية واسعة ليوفر

(١) ابن دباس: صفحات لم تنفرد ص ٢٣، ٤٧ (نشر محمد مصطفى).

(٢) ابن دباس: بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢ (نشر محمد مصطفى).

له إمكانيات النصر ، د ففوض إليه السلطان أمور البلاد الغامية والحلجية وغير ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل في جميع أحوال المملكة ... (١) .
وفعلا انتصر الأمير يشبك على شاه سوار واستولى منه على قلعة عينتاب ، كما استرد منه أذنه وطر سوس ، حتى اضطر سوار إلى الاستسلام سنة ١٤٧١ .
ولم يلبث أن عاد يشبك إلى مصر منتصرا ومعه سرار مقيدا في الأغلال ، وذلك بعد أن هين بوداق أميراً على إمارة دلفادر بدلا من أخيه سوار .

ومع ذلك ، فإن سلطنة المماليك استمرت تعاني كثيرا من المتاعب من جانب إمارة دلفادر ، لاسيما بعد أن خلف علاء الدولة أخاه بوداق في حكم الإمارة سنة ١٤٨٠ . ذلك أن علاء الدولة وقع تحت تأثير العثمانيين وتهرى بهم وإن كان تفوق الجيوش المماليكية على الجيوش العثمانية في ذلك الدور قد جعل علاء الدولة يلتزم جانب الحرص في معاملاته مع دولة المماليك ويتودد إليها .

إما أوزون حسن - أو حسن الطويل - زعيم قبيلة الشاه البيضاء ، فقد استغل المتاعب التي سببها شاه سوار لدولة المماليك وأغار على إقليم حلب كما وصلت جيوشه إلى الرها ، وبعد سقوط سوار حاول إثارة أخيه بوداق ضد سلطنة المماليك لذلك بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة بقيادة يشبك الدوادار ضد حسن الطويل سنة ١٤٧٣ (٢) . على أنه رغم الانتصارات الجريئة التي حققها المماليك على حسن الطويل ، فإن دولة الشاه البيضاء لم تخضع في سهولة ، ولا سيما وأن الأمير خليل الذي خلف أباه حسن الطويل في حكم الشاه البيضاء سنة ١٤٧٨ لم يكن أقل عنادا . وقد حدث في الحروب التي شنها الأمير يشبك في شمال الشام والعراق في ذلك الدور أن أسرى يشبك نفسه وقتل سنة ١٤٨٠ . ولما سمع السلطان قايتباي

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٥٩ (نشر محمد مصطفى) .
(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٠ ، ٨٦ (نشر محمد مصطفى) .

ذلك الخبر، اضطربت أحواله وما جت القاهرة عن آخرها وكان يوماء هولاء (١).
وقد بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة للانتقام بقيادة الأمير أركك ولكن
دولة الغناء البيضاء بادرت بالاعتذار عما سلف، ومن ثم هدأت العلاقات بين
سلطنة المماليك وتلك الدولة إلى أن التهم الأتراك العثمانيون دول التركان
ودولة المماليك جميعا .

المماليك والعثمانيون :

أما العلاقة بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين فقد بدأت أتم ما تكون
صفاء ، لاسيما وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها في الدور الأول من حركتها
التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة، وبخاصة الدولة البيزنطية. وهو أمر قابل
بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية في
الشرق الأدنى . وزاد من ذلك الشعور الودي المتبادل بين المماليك والعثمانيين
تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك مما حتم ضرورة
الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر .

وثمة إشارة في المراجع إلى أن السلطان مراد الأول العثماني أرسل سنة ١٣٨٨
سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من تحركات تيمورلنك من
تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية (٢) . وإذا كان السلطان
برقوق قد أكرم وفادة رسل السلطان العثماني ، وأظهر استعدادا للتضامن معه
لصد خطر تيمورلنك إلا أنه لم يستطع أن يخفي مخاوفه من أطماع العثمانيين
وخطورتهم على مستقبل دولته ، فقال : إني لا أخاف منه (تيمورلنك) فإن

(١) ابن أبياس : يدافع الزمور ج ٣ ص ١٧٤ (١) نصر محمد مصطفي .

(٢) الخطيب : نزعة النفوس والأيدان ورقة ١٦ .

كل أحد يساعدني عليه ، وإنما أخاف من ابن عثمان ا ، (١) .

ولم تلبث الأحداث أن أثبتت صدق ظن برقوق إذ أثار بايزيد الأول
العثماني على قيصرية سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذي كان مشمولاً بحماية
دولة المماليك . هذا وإن كان تخوف بايزيد من خطر تيمورلنك الذي أخذ
يزداد اقتراباً من حدود دولته قد جعله يسارع إلى إصلاح الأمور مع السلطان
برقوق فاعتذر له عما حدث وأرسل له هدية ثمينة (٢) . ويبدو أن بايزيد العثماني
لم يجهله حليفاً قوياً يساعد في دفع خطر تيمورلنك سوى دولة المماليك ، فأرسل
إلى السلطان برقوق يحذره من ذلك الخطر ويقول إنه وضع تحت تصرفه مائتي
ألف فارس ليستعين بهم في محاربة تيمورلنك فضلاً عن أنه طلب من السلطان
برقوق أن يرسل إليه طبيباً حاذقاً في صناعة الطب ، ليدار به . وقد قابل برقوق
كل تلك العروض في حذر ، فمسكر السلطان العثماني واحتفي برسله وأوفد إليه
الطبيب شمس الدين محمد بن صفير ومعه من الأدوية والعقاقير ما يكفي
للعلاج (٣) .

ونعمة مظهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين في ذلك الدور
بدولة المماليك في مصر هو طلب بايزيد العثماني تفويضاً شرعياً بالسلطنة من
الخليفة العباسي بالقاهرة سنة ١٣٩٤ . ومع أن سلطنة المماليك وقفت موقف
المتحفظ من ذلك الطلب ، إلا أن بايزيد أرسل إلى تيمورلنك حوالى سنة ١٣٩٩
يلدكره بأن الخلافة العباسية ما زالت قائمة في مصر وبأن هذه القوة الكبيرة

(١) ابن حجر : إنباء الفرج ج ١ ورقة ٣٨٥ .

(٢) ابن قاضي شعبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٦٩ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٧٠٨ .

الخطيب : نزهة النفوس ورقة ٤٥ .

كفيلة برده إذا حاول العدوان^(١) ومن جهة أخرى فإن السلطان بايزيد حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على الأوربيين في موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتي أسير^(٢).

على أن تلك العلاقة الطيبة بين سلطنة العثمانيين وسلطنة المماليك أضعفت من شأنها أطماع العثمانيين. وكان ذلك في مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق عندما أغار بايزيد العثماني على أطراف دولة المماليك واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارندة^(٣). ولا شك في أن ذلك العدوان كان كافيا في حد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا ابن عثمان؛ هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعا إلى الاحتفاظ بود المماليك، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محالفة السلطان فرج لإقامة جهة متحدة في وجه تيمورلنك؛ ولكن كبار الأمراء في مصر رفضوا محالفة ابن عثمان وأرسلوا إليه يدكرونه بعدوانه على ملطية. وهكذا أتاحت الفرصة لتيمورلنك لكي ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على أفراد فرح على دولة المماليك وأزل الهزيمة بهيوشها قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠، كما أوقع بالسلطان بايزيد وأزل به كارثة أنقرة سنة ١٤٠٢.

على أن وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتفكك دولته أتاح فرصة لدولتي المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التي أنزلها بهما تيمورلنك. وكان أن تجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلطنة المماليكية، فأرسل السلطان

(1) D'Oshson : Tableau de l'Empire Othoman, VI, p. 223 & Arnold : The Caliphate, p. 106.

(2) ابن قاضي شعبة، ذيل تاريخ الإسلام ج ٣ ورقة ١٢٣.

ابن حجر : لبناء الغمر ج ١ ص ٤٩٤.

(3) العيني : عقد الجن ج ٢٥ ورقة ٧٨.

مراد الثاني العثماني سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٣٣ انتهت السلطان الأشرف برسباي بالسلطنة ، ومعها هدية . وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان المماليك لم تصل إلى السلطان العثماني بسبب وقوعها في أيدي قراصنة البحر من الأوربيين^(١) . ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثاني من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباي سنة ١٤٣٦ ، وقد أقامت هذه السفارة في القاهرة حين شهدت مجيء ثالث حملات السلطان برسباي على قبرص سنة ١٤٣٧ ، وهي الحملة التي نجحت في غزو الجزيرة وأمر ملكها جانوس لوزجنان . ويبدو أن أخبار هذا النصر الذي أحرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثاني العثماني ، فبادر في العام التالي - ١٤٣٨ - بإرسال خمسين أسيراً مسيحيّاً أوربياً هدية للسلطان برسباي^(٢) .

وعند ما ارتقى جقمق دسنت سلطنة المماليك (١٤٣٨ - ١٤٥٣) ازدادت أواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والمماليكية فتبوءت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني العثماني وجقمق ، وحرص السلطان مراد الثاني على أن يبعث إلى مصر عدة من أسرى انتصاره على الحلف الأوربي عند قار ناسنة ١٤٤٤ . وقد استمرت هذه السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثاني والسلطان إينال ، فاحتفلت القاهرة احتفالاً رائعاً لسقوط القسطنطينية في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فريخت الأسواق والحارات وأوقدت الشموع في الشوارع والمآذن ودقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام^(٣) .

غير أنه لم يكف يتم للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على البلقان ، حتى هادوا يوجهون بصرهم تجاه الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التي مارالت

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢٠٠ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٠ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٢ .

خارج قبضتهم في آسيا الصغرى . والمعروف أن الإمارات التركمانية القائمة في آسيا الصغرى وشرقها — وأهمها إمارة قرمان وإمارة دغاادر — كانت مضمولة بالحماية المماليكية ؛ فأئذ تطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على تلك الإمارات بصدام مقبل بين العثمانيين والمماليك . وقد اتخذ الصدام بين العثمانيين والمماليك في ذلك الدور الأول شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم في الإمارات التركمانية ، فتساعد سلطنة العثمانيين أميراً منافساً للأمير الذي تؤيده سلطنة المماليك ، مما أوجد حالة من الصدام غير المباشر بين العثمانيين والمماليك . وازدادت العلاقة توتراً بين سلطنتي المماليك والعثمانيين عند ما رحب السلطان قايتباي بأخ صغير للسلطان بايزيد الثاني العثماني اسمه جم ، وكان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التي اعتاد كل سلطان عثماني أن يدبرها للتخلص من منافسيه (١) .

ولم يلبث التنافس بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين أن اكتسب شكلاً سافراً ، فأخذ السلطان بايزيد بمد يد العون للأمير علاء الدولة أمير دغاادر الخارج على سلطنة المماليك ١٤٨٣ ، وساعده بمجنود عثماني في الإغارة على إياكة مطية التابعة للمماليك في آسيا الصغرى ولم تنجح جهود السلطان قايتباي في إصلاح العلاقات بين دولتي المماليك والعثمانيين ، بل لقد أخذت جموع من العثمانيين تهاجم حدود الشام دون سابق إنذار . وإذا كانت جيوش المماليك قد أحرزت عدة انتصارات في الجهة الشمالية في أواخر القرن الخامس عشر فإن هذه الانتصارات لم يكن لها نتيجة سوى إيفار صدر السلطان العثماني وتحريك الرغبة في الانتقام عنده .

وعند ما توفي السلطان قايتباي سنة ١٤٩٦ ، أرسل ابنه محمد — الذي ولي

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين ص ٢٠٣ - ٢٠٤

السلطنة بعده - رسولا اسمه خاير بك إلى السلطان بايزيد الثاني ليعلمه بنها
سلطنته . وخاير بك هذا هو صاحب دور الحياة الذي سبق الإشارة إليه
هذه الكلام عن سقوط دولة المماليك ؛ وربما رجعت الخيوط الأولى لمؤامراته
وخيانته إلى ذلك الوقت الذي أوفده فيه محمد بن قاينباي إلى القسطنطينية .
وفي الوقت الذي اضطربت أحوال سلطنة المماليك في أواخر القرن الخامس
هشر وأوائل السادس عشر نتيجة لثورة المماليك والأمراء وكثرة تغير
السلطين والمتخلص منهم بالقتل أو العزل ، كانت السلطنة العثمانية تستعد
استعداداً جدياً للمركة الفاصلة التي ستحدد مستقبل الزعامة السياسية على
العالم الإسلامي في الشرق الأدنى وقد سبق أن رأينا كيف استطاع السلطان
سليم الأول العثماني إسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦
ثم موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ .

المماليك والرونة البيزنطية :

أثبت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة
على اكتساب الحلفاء في الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديداً مباشراً
في مصر والشام . وهكذا حالف المماليك مغول القفجاق ليضربوا بهم مغول
فارس الذين طالما هددوا بلاد الشام . ولكن مغول فارس لم يكونوا الخطر
الوحيد الذي هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم في بلاد الشام ، وإنما كان هناك
الخطر الصليبي ما زال قائماً عند قيام دولة المماليك ليثقل خطراً حقيقياً
لا يستهان به .

وكان طبيعياً أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين ، مثلما حالفوا أعداء مغول
فارس ، فلم تكمد سلطنة المماليك تقف على قدميها في عهد الظاهر بيبرس حتى أخذت
تسمى للتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهي العدو التقليدي للصليبيين بالشام
منذ قيام الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر . ولم تلبث أن توطن

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل باليولوجس، فأرسل الإمبراطور إلى سلطان المماليك يطلب منه إيفاد بطرك من المماليكين ليرعى شئون الطائفة المملوكية في دولته. وكان أن استجاب بيبرس لرغبة الإمبراطور فأرسل إليه سنة ١٢٦٢. الرشيد السكحال - وهو أحد رجال المذهب المملوكي - صهبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي. وهناك في القسطنطينية احتفى الإمبراطور البيزنطي بالسفارة المماليكية، وأطلع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذي كان المسيحيون قد هدموه في الحملة الصليبية الرابعة والذي شرع الإمبراطور في ترميمه (١) وكان أن أسهم بيبرس في ترميم مسجد القسطنطينية فأرسل إليه والخضر العبداني والقنديل المذهبة والسطور المرقومة، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والممك وماء الورد (٢).

ومع أن الإمبراطور أقوش المسعودي عاد من القسطنطينية يحمل هدايا الإمبراطور البيزنطي للسلطان الظاهر؛ إلا أن الأخير استاء عند ما علم أن الإمبراطور طاق رسله أثناء سفرهم سنة ١٢٦٤ عبر بلاده إلى بركة خان زعيم مغول القفجاق. وقد غضب بيبرس لذلك الأمر وجمع رجال الدين ليشهدم على أن الإمبراطور البيزنطي يخالف الأيمان. على أن الإمبراطور ميخائيل باليولوجس لم يلبث أن استدرك غلطته في سرعة، فأطلق رسل بيبرس وسمح لهم بالسفر إلى بركة خان وفي الوقت نفسه، بادر بإرسال الهدايا إلى بيبرس ليصير ضيه (٣).

وقد استمرت العلاقات الودية بين سلطنة المماليك والإمبراطورية البيزنطية بعد عهد بيبرس، إذ تروى المراجع أن السلطان المنصور قلاوون أرسل إلى

(١) المبنى: عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٤٨١

محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس ص ١١٠

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٤٧١ - ٤٧٢

(٣) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٥١٤، ٥٣٧

الامبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الأمير ناصر الدين الجزرى وبطرك الأقباط حنا المابع ؛ وحملت تلك السفارة رسالة تفيد الإمبراطور باعتلاء السلطان قلاوون دسست السلطنة ورغبته فى الإبقاء على مودة الامبراطور وصداقته . وكان أن أجاب الامبراطور ميخائيل الثامن على السلطان قلاوون مؤكدا حرصه على الصداقة بين الدولتين ويطلب منه أن يبعث إليه يمينا يتمسك بها فأرسل إليه قلاوون من حلفه على ذلك اليمين (١) .

ولم تتغير سياسة الدولة البيزنطية تجاه سلطنة المماليك فى مصر عندما اعتلى عرش الدولة الامبراطور أندرونيق الثانى سنة ١٢٨٢ . إذ بادر هذا الامبراطور الجديد بإرسال هدية إلى السلطان قلاوون اشتمل حملا من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط ، فسر قلاوون بتلك الهدية سرورا كبيرا وغمر الرسل بالعطايا (٢) .

والمعروف أن سلطنة المماليك بلغت أقصى درجات النفوذ والسلطان على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان طبيعيا أن يكون للدولة البيزنطية نصيب كبير من النشاط الخارجى الضخم الذى ميز دولة المماليك فى ذلك العصر . ويقال إن الإمبراطور البيزنطى أندرونيق الثانى أرسل سفارة إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٥ تحمل هدية له وتسأله إعادة كنيسة المصلبة فى بيت المقدس إلى أصحابها ، وكان المسلمون قد حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد فى عهد السلطان بيبرس (٣) . على أنه يبدو أن الناصر محمد لم يستجب فى سرعة لتلك الرغبة فكرر الإمبراطور رجاءه بعد ذلك بعدة سنوات ، وعندئذ أعاد الناصر محمد تلك الكنيسة إلى المسيحيين بعد أن أفتى علماء المسلمين بأنه لا يجوز اغتصابها ، كما استجاب السلطان الناصر محمد لرغبة الإمبراطور البيزنطى فى التماسح مع أهل الكتاب

(١) بيبرس الدوادار : زبد الفسكرة ج ٩ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٥ .

(٣) المرجع السابق ج ٣ ورقة ٢٨٥ .

وسمح لهم بإنشاء عدة كنائس في دولته^(١) . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي ارتاح لاستجابة السلطان الناصر محمد له ، فأرسل له هدية ثمينة من الجوخ والأطلس وغير ذلك من التحف الجميلة^(٢) .

والملاحظ أن الإمبراطور أندرونيق الثاني بالذات أظهر حرصاً شديداً على صداقة دولة المماليك ، فاستمر في إرسال الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بين حين وآخر . ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعمل حساباً في ذلك الدور لزيادة نفوذ الدول التركية في آسيا الصغرى مما شكل خطراً جديداً عليها ، لذلك سعى الإمبراطور البيزنطي لعمل تحالف مع سلطنة المماليك ضد الترك^(٣) . ولا أدل على حرص الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني على مسالمة سلطنة المماليك ، من أنه رفض المشاركة في تنفيذ المشروع الصليبي الذي وضعه أحد دعاة الحروب الصليبية من البنادقة - واسمه مارينو سانودو - وهو المشروع الذي استهدف خنق دولة المماليك إقتصادياً تمهيداً لاحتلالها حربياً ثم الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام^(٤) .

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين المماليكية والبيزنطية قائمة في عصر أولاد السلطان الناصر محمد وأحفاده . من ذلك ما تشير إليه المراجع من أن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة إلى مصر سنة ١٢٦٩ لإزالة الأثر السيئ الذي تركته حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة ١٢٦٥^(٥) .

وكان أن قامت دولة المماليك الجراكسة سنة ١٢٨٢ ، فاستأنفت علاقاتها

(١) مفضل بن أبي الفضائل : الزيج السديد ج ٢ ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق : ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني فلان في مصر ص ٣٩١ .

(٤) صفيه هاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٨ ، ١١٩٩ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٩٦ (مخطوط) .

الخارجية على نفس الأسس التي اتبعتها دولة المماليك البحرية. ويقال إن الامبراطور
حننا الخامس أرسل سفارة سنة ١٣٨٥ إلى السلطان الظاهر برقوق تحمل إليه
الهدايا وتطلب منه أن يكون للبين نظيين فنصل بالاسكندرية أسوة بالبنادقة ،
فأجاب السلطان الامبراطور البين نظى إلى طلبه^(١) . على أن الملاحظ هو أن
الامبراطورية البين نظية أخذت تتعرض لضغط شديد من جانب العثمانيين منذ
أواخر القرن الرابع عشر، وعندئذ ضعف نشاطها الخارجى وبات واضحاً أن
تلك الدولة تسير في طريقها إلى الموت البطيء . ولم يكن بوسع الإباطرة
البين نظيين الاعتماد على مساعدة سلطنة المماليك أو تأييدها ضد العثمانيين لأن
المسلمين جميعاً - داخل دولة المماليك وخارجها - كانوا ينظرون إلى توسع
العثمانيين على حساب القوى المسيحية في شرق أوروبا نظرة ارتياح ويعتبرون
الفتوحات العثمانية جزءاً من حركة الجهاد الديني في ذلك الدور الأخير من العصور
الوسطى . وهكذا حتى جاءت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء العثمانيين على
القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، فاحتفل السلطان إينال بذلك الحدث احتفالاً كبيراً
« ودقت البشائر بالقلعة » ، وزينت القاهرة لإبتهاجاً بسقوط عاصمة الروم ،
وأرسل إينال إلى محمد الفاتح العثماني ديهشته بهذا الفتح العظيم^(٢) .

سلطنة المماليك والقوى الأوروبية :

وأخيراً ، فإن سلطنة المماليك ربطتها علاقات عديدة - تجارية أو عدائية -
مع بعض القوى الأوروبية وبخاصة في حوض البحر المتوسط . ولم يكن
منتظراً من سلطنة المماليك - وهي إحدى قوى البحر المتوسط وذات السيطرة

(١) ابن خلدون : لنبأ الفخرية ورقة ٢٢٣ ،

(٢) ابن دباس : صفحات لم تذكر من بدايع الزهور ص ١٥ (نشر محمد مصطفى) .

على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى — لم يكن منتظراً من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوروبية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية في البحر المتوسط .

والمعروف أن صقلية ربطتها بحكام مصر من بني أيوب علاقات ودية كانت أبرز أركانها الصداقة بين الامبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي ، وهي الصداقة التي استمرت قائمة بعد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ ، واتخذت صورة هدايا وسفارات متبادلة بين الجانبين ، ولا أدل على استمرار عرى هذه الصداقة من أن الامبراطور فردريك الثاني لجأ إلى تحذير السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بخروج لويس التاسع على رأس حملته الصليبية لمهاجمة دمياط سنة ١٢٤٨ — ١٢٤٩^(١) . ويبدو أن سقوط دولة الأيوبيين لم يغير من تلك الصداقة بين ملوك صقلية وسلاطين مصر ، إذ حرص مانفرد ابن فردريك الثاني على مصادقة سلاطين المماليك ، كما حرص سلاطين المماليك على الاحتفاظ بعلاقة الود التي ربطت مصر بمملكة الصقليتين . من ذلك ما تشير إليه المراجع من تبادل الهدايا بين مانفرد ملك الصقليتين والسلطان الظاهر بيبرس ، حتى أن بيبرس أرسل سنة ١٢٦١ وفداً برئاسة المؤرخ جمال الدين ابن واصل إلى ملك صقلية^(٢) . وكان وفد بيبرس يحمل هدية جليلة إلى مانفرد منها بعض الزراف وبعض أسرى عيون جمالوت من التتار . وقد رد مانفرد على تلك السفارة بمسفارة مشابهة تحمل الهدايا إلى السلطان بيبرس^(٣) . وليس هناك ما يشير إلى تغير هذه العلاقة بين ملوك صقلية وسلاطين المماليك بعد عهد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٥ .

(٢) Lane-Poole : op cit. p. 266 & Enc. of Islam,

(٣) محمد جمال الدين ضرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٢ .

ما انفرد وإنما استمرت العلاقات الودية بين الطرفين قائمة في عهد البيت الأنجوى الذى تولى حكم صقلية منذ سنة ١٢٦٦ . ويشير المقرئى إلى أن شارل الأنجوى ملك صقلية أرسل إلى الظاهر يبرس هدية وكتاباً على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه : « بأن محنومه أمره أن يكون أميراً الملك الظاهر نافذاً في بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه » (١) . ويبدو أن الغرض من هذا الكتاب كان عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك وملك صقلية (٢) .

أما الجمهوريات الإيطالية التجارية - وبخاصة البندقية وجنوا - فقد ربطتها بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ، فكان لكل جمهورية قنصل في المدن والموانئ الكبرى يرضى مصالحها . ولم يكن منتظراً من الجمهوريات الإيطالية أن تضحي بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبي العام ، ولذلك نسمع أن البندقية بالذات اهتزت لغياً لغارة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ وأرسلت رسالها إلى السلطان شعبان في إبريل سنة ١٣٦٦ تؤكد له أن السفن التى أغارت على الاسكندرية لانت إلى البندقية بصفة ، وأن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه (٣) .

وكان الجنوية لا يقلون عن البنادقة حرصاً على مصالحهم التجارية في مصر واستياء مما فعله ملك قبرس بالاسكندرية ، بعد أن تأثرت تجارتهم نتيجة لذلك مع جميع البلدان الإسلامية ، من ذلك ما يرويه التويرى السكندرى من أن البنادقة والجنوية قصدوا بلاد العراق براً بعد واقعة الاسكندرية للتجارة كما دأبهم ،

(١) المقرئى : السلوك ١ ج ١ ص ٥١٣
(2) Lane-Poole : op. cit., p. 266.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور . قبرس والحروب الصليبية ص ٧١ .

فمنهم السلطان أويس من دخول بغداد والمتاجرة بها وقال لهم «أرجعوا أولا إلى سلطان مصر واستدركوا ما أفسدتم في الاسكندرية ، وأتوني بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته وحينئذ تبيعون ببلدي وتبتاعون منه»^(١). وهكذا ألح البنادقة والجنوية في الصلح على الملك بطرس لوزجنان من ناحية وعلى سلطان المماليك من ناحية أخرى ؛ وبفضل وساطتهم تم الصلح بين الطرفين في ديسمبر سنة ١٣٧٠ ، وعندئذ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرس والبندقية وجنوا من ناحية ومصر والشام من ناحية أخرى ؛ وأخذت سفن الفرنجة تهد إلى الإسكندرية بكثرة « واطمأنت الناس وما فات فات »^(٢).

والمعروف أن التنافس التجاري بين البندقية وجنوا انتهى في القرن الرابع عشر بتفوق البنادقة الذين احتسكروا معظم النشاط التجاري في البحر المتوسط . ولم يرص الجنوية عن ذلك الوضع فأخذوا يغيرون على موانئ وشواطئ دولة المماليك الجراكسة ، وشاركهم في تلك الإغارات بعض قراصنة القطلان والروادسة والقبارسة . ويبدو أن إغارات الجنوية على شواطئ مصر والشام اشتدت في عهدي السلطان برقوق وابنه فرج ، فهاجموا صيدا وبيروت ورشيد ودمياط ، الأمر الذي جعل السلطان برقوق يهتم بتدعيم قواته البحرية في البحر المتوسط لدفع خطر القراصنة عن شواطئ دولته من ناحية وتأديب الجنوية من ناحية أخرى . وقد حدثت عدة اشتباكات قرب دمياط بين الأسطول المماليكي والصفن الجنوية سنة ١٣٨٥ ، انتهت بنزعة الجنوية وأمر بعضهم^(٣).

(١) النويري : الإلغام بالاعلام ج ٢ ورقة ٨٢ (مخطوط) .

(٢) سعيد طاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٢ & .

النويري : الإلغام ج ٢ ورقة ٢٨٣ ب

(٣) ابن حجر : لبناء القصر ج ١ ورقة ٧٢٤

المقرئزي : السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ .

وعلى الرغم من أن الجنوبية أسرعوا إلى مصالحة السلطان برقوق سنة ١٣٨٦، إلا أنهم عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة والاعتداء على سفن المسلمين في شرق البحر المتوسط من ذلك أن بعض سفن تابعة للسلطان برقوق كانت قادمة إلى مصر وعليها شحنة من الرقيق الجراكسة، فضلا عن أخذ السلطان برقوق نفسه وبعض أقاربه، ولكن الجنوبية أغاروا على تلك السفن وأسروا من فيها، الأمر الذي أغضب برقوق وجعله ينتقم من التجار والقناصل الأجانب في دولته^(١) ومرة أخرى عاد الجنوبية إلى طلب الصلح، فأطلقوا سراح الأسرى وأرسلوا هدية إلى السلطان برقوق سنة ١٣٨٨^(٢).

وهكذا استمرت العلاقة بين سلطنة المماليك وجمهورية جنوا تتأرجح بين الصلح حيناً والعداء والحرب أحياناً. وقد حدث سنة ١٤٠١ - على عهد السلطان فرج بن برقوق - أن أغار بعض القراصنة من الجنوبية على طرابلس واستولوا على سفينتين كانتا في طريقهما إلى مصر تحملان قدراً كبيراً من البضائع^(٣) وبعد ذلك بعامين أعد حاكم جنوا قوة بحرية كبيرة واعتزم ضرب الاسكندرية، ولكن حملته سنة ١٤٠٣ باءت بالفشل بسبب الاحتياطات التي اتخذها السلطان فرج. ولم يستطع الجنوبية بعد ذلك إعادة العلاقات الصافية بينهم وبين سلطنة المماليك^(٤). وزاد من سوء العلاقات بين جنوا ودولة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر أن جنوا مدت أطباعها إلى جزيرة قبرص واستولت على ميناء قاماچوستا فعلا في الوقت الذي كانت جزيرة

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ق ١ ص ٣٣.

(٢) ابن حجر : لمبىء الفرج ص ٢٦٥-٢٧٤.

(٣) ابن قاضي : مذهب : ذيل تاريخ الاسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥.

(٤) Piloti : L'Egypt au Commencement du Quinzieme. Siecle. pp. 89-90.

قبرس تخضع لحماية سلطنة المماليك منذ أن فتحها السلطان برسباي
سنة ١٤٢٦م^(١).

ويبدو أن سوء العلاقات بين سلطنة المماليك وجنوا في ذلك الدور هو
الذي دفع الجنوبية بالذات إلى البحث عن طريق آخر - غير طريق دولة
المماليك - يوصل إلى الهند. وقد نهج الجنوبية إلى كشف بعض أجزاء الساحل
الغربي لإفريقية في مواجهة جزر كناريا بما يعتبر مقدسة للجمود التي أدت إلى
كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد^(٢).

* * *

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد اضطرت لها ظروفها التجارية وما كان
بينها من مشاحنات إلى الدخول في منازعات أحيانا مع دولة المماليك فإن الوضع
اختلف بالنسبة لدول أسبانيا المسيحية مثل أرغونة وقشتالة وأشبيلية . ويبدو
أن حرص الدول المسيحية في أسبانيا على عدم وصول نهجيات من دولة المماليك
للمسلمين في أسبانيا جعل ملوك تلك الدول يسألون سلاطين المماليك من ذلك
أن جيمس الأول ملك أرغونة نود إلى السلطان بربرس وبأدله الهدايا . وقد
استمرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين ملكة أرغونة من ناحية ودولة المماليك
من ناحية أخرى ؛ فأرسل جيمس الثاني ملك أرغونة (١٢٩١ - ١٣٢٧)
عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يسأله تسهيل مهمة الحجاج الذين يذهبون
لزيارة بيت المقدس ، وكذلك يطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق
رعاية تجار كل بلد في البلد الآخر . وكانت طلبات ملك أرغونة تجاب كلها
لدى سلطنة المماليك مما ساعد على بقاء العلاقة طيبة بين الطرفين^(٣).

(١) سعيد طاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(2) Beazley : 'Note Book of Middle Ages'. p. 156.

(3) Atiya : 'Egypt and Aragon'. pp. 60-62.

كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين السلطان المنصور قلاوون من ناحية
والفونس العاشر صاحب قهتاله (١). أما أشبيلية فيروى النويرى أن صاحبها
الفونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته ، فرد عليه بيبرس
بإرسال سفارة تحمل هدايا جليلة وقدة و كانت سفارة بيبرس بالحفاوة والإكرام
في أشبيلية ، وعند انتهاء مهمتها أعد لها صاحب أشبيلية سفينة حملتها إلى
الاسكندرية (٢).

وحديث بالذكر أن القوى الغريبة التي طالما ناصبت سلطنة المماليك العداء
بسبب السياسة الصليبية كانت أحياناً تلجأ إلى مسالمة المماليك رغبة في التخفيف
عن أهل الذمة في مصر أو طمعاً في تحقيق سياسة الصليبيين في السيطرة على
الأماكن المقدسة عن طريق مسالمة المماليك وكسب ودهم . من ذلك أن البابا
حنا الثاني والعشرين اشترك مع ملك فرنسا شارل الرابع في إرسال سفارة إلى
القاهرة سنة ١٢٢٧ تطالب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون معاملة المسيحيين
في دولته برفق ، حتى يمكن أن يلتقي المسلمون نفس المعاملة في غرب أوروبا ،
وأنه مهما حمل معهم (مع المسيحيين) بمصر والشام عاملوا من عندهم من
المسلمين مثله (٣). كذلك أرسل فيليب السادس ملك فرنسا سفارة ضخمة تألفت
من مائة وعشرين رجلاً إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٣٠ ، ومع السفارة
كتاب يلتمس فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين

(١) بيبرس الوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ورقة ٢٢٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٨٧ .

ولكن السلطان الناصر غضب لذلك الطلب وأهان سفراء ملك فراسا وأمر
بردم إلى بلادهم (١).

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لسلطنة المماليك، حتى
أن بلاط سلاطين المماليك غدا مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق
والغرب جميعاً.

(١) النويري . نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٠٤ .

الفصل التاسع

النشاط الاقتصادي

الزراعة :

أهتم سلاطين المماليك في مصر بالزراعة اهتماما كبيرا ، حيث أن الزراعة في تلك العصور كانت الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي. والمعروف أن أراضي مصر الزراعية توزعت في ذلك العصر لإقطاعات على السلطان والأمراء والأجناد بعد أن قسمت إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان نفسه بأربعة قرايط والأمراء بعشرة ، وما تبقى كان من نصيب الأجناد .

على أن الأراضي الزراعية قيست وسمحت أكثر من مرة في عصر المماليك وتبع ذلك فك الزمام وتعديله ، وهي العملية المعروفة باسم الروك^(١) . واشتهر في عصر المماليك الروك الحسامي الذي أجراه السلطان حسام الدين لاجين سنة ١٢٩٦ والروك الناصري الذي أجراه الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣١٥ .

أما عن الروك الحسامي فيقال إن السلطان المنصور لاجين لاحظ أن الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الدوائية ، مما يجعلها مغنا لأعوانهم ومستخدميه . لذلك ندب السلطان لاجين الأمير بدر الدين بيليك الفارسي الحاجب والأمير بهاء الدين قراوش الظاهري وجماعة من الكتّاب على رأسهم تاج الدين عبد الرحمن الطوبل مستوفي الدولة ؛ لروك

(١) القلشندي : سبح الأعشى ج ٢ ص ٤٣٢ .

أراضي مصر . وبعد أن قام هؤلاء بفك زمام الأراضي المصرية وتعديله
وزعت الوثائق الخاصة بحدود الإقطاعات على الأمراء والأجناس سنة ١٢٩٨
(١) (٥٦٩٧) .

على أن توزيع الأراضي المصرية لم يلبث أن تعرض للتغيير والتبديل .
الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون يلجأ في سلطنته الثالثة إلى
فك زمام الأرض وتوزيعها من جديد وهي العملية المعروفة باسم الروك
الناصري سنة ١٣١٥ (٥٧١٥) . وقد عهد السلطان الناصر محمد إلى بعض
أمرائه بهذه المهمة ، فأرسل جماعة من أمرائه إلى كل جهة من جهات البلاد ،
في حين توجه السلطان الناصر نفسه إلى الصعيد ليشرف على العملية التي
استغرقت خمسة وسبعين يوماً (٢) .

• • •

وانقسمت الأراضي الزراعية في مصر إلى أقسام حسب جودتها وما يتبع
ذلك من قيمة محصولها . وأهم هذه الأقسام هي :- (٣) .

١ - الباق ؛ وهو خير الأراضي وأعلاها قيمة وأوقاها سعرا ؛ لأنها
تصلح لزراعة الكتان والقمح ، وكان يؤجر الفدان منه بأربعين درهما
وذلك سنة ١٣٨٨ م .

٢ - البرائب ؛ وسعرها دون الباق اضعف الأرض وتصلح لزراعة
القرط والمقاتي ، ويؤجر الفدان منها بثلاثين درهما .

٣ - البرش ؛ وهو عبارة عن كل أرض خلت من أثر ما ررع فيها
للسنة الماضية .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٤٢ - ٨٤٤ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩١ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

٤ - الوسخ ، وهو عبارة عن الأرض التي استحکم وسخها ولم يتمكن المزارعون من إزالته ، بل حرثوها وزرعوها . فجاء زرعها مختلطاً بالخلفاء ونحوها .

٥ - الحرس ؛ وهو عبارة عن الأرض التي فسدت بما استحکم فيها من موانع قبول الزرع واستخدم مراعى للدواب .

٦ - الشراق ؛ وهو الأراضي التي لا يصل إليها الماء لقصور النيل أو علوها أو لسد طريق الماء عنها .

٧ - المستبحر ؛ وهو الأرض الوطنية التي إذا سار فيها الماء لا تجد مصراً له .

٨ - السباح ؛ وهو الأرض التي غلب عليها الملح ، فأصبح لا ينتفع بها في زراعة الحبوب . وقد يزرع فيها الباذنجان والقصب الفارسي .

ويبدو أن محصول الأرض الزراعية في مصر إزداد على عصر المماليك نتيجة للعناية بمراعى الزراعة من جمود وترع ومقاييس النيل وغيرها . وقد قسم القلقشندي الجمود في ذلك العصر إلى نوعين : الجمود السلطانية ، وهي الجمود العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التي تعمر في كل سنة من الديوان السلطاني بالوجهين القبلي والبحري . والجمود البلدية ، وهي الخاصة ببلد دون بلد ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم ، (١) .

وقد بلغ من عناية سلاطين المماليك بالجمود أنهم كانوا يرسلون في كل سنة هدداً من الأمراء إلى مختلف الأعمال لمهارة الجمود ، ويهرض الأمير منهم باسم

(١) القلقشندي صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

« كاشف الجسور » ، كما كان « للجسور خولة ومهندسون لكل عمل ، يشومون في خدمة الكاشف في عمارة الجسور إلى أن تنتهى عمارتها »^(١) . فإذا عاد الأمراء المعينون لكشف جسور الوجهين القبلى والبحرى من مهمتهم خلع عليهم السلطان تقديراً لأهمية العمل الذى همضوا به^(٢) . وعرف عن بعض سلاطين المماليك أنهم كانوا يخرجون بأنفسهم أحياناً للتفقد أحوال مرافق الزراعة وبخاصة الجسور . من ذلك ما يرويه المقرئون من أن السلطان الناصر محمد ما كاد يسمع بشريق بعض الجهات قرب شبين حتى سار بنفسه سنة ١٣٣٦ (٧٣٧ هـ) ومعه بعض المهندسين لكشف تلك النواحي . ولم يلبث أن أمر السلطان الناصر محمد ببناء جسر يمتد من شبين القصر إلى منها العسل ، وجمع له اثني عشر ألف رجل ليعملوا على إنجازه ، ثم أقام به عدة قناطر وبذلك أمكن وصول المياه إلى الأراضي المرتفعة بتلك الناحية^(٣) .

* * *

أما عن أهم الحاصلات الزراعية في مصر في ذلك العصر ، فمنها القمح الذى كان محصوله يفيض عن حاجة البلاد أحياناً وعقدت كان السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز والنوبة بمقادير وفيرة منه ، كذلك كان الكتان من أهم مزروعات مصر في عصر المماليك وكانت تصدر كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية إلى البلاد المجاورة . واشتهرت مصر في ذلك العصر بزراعة قصب السكر - لاسيما في مناطق ملوى وقفط ونجع حمادى - ، هذا عدا أنواع الفواكه والخضروات لسد حاجة السوق المحلية^(٤) . هذا كله فضلاً عن الزهور والرياحين

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤٩ .

(٢) المقرئى : السلك ج ٢ ص ٧٢٠ ، ٧٢٤ .

(٣) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٤) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

التي زرعت في الحدائق والبساتين (١).

وأدت الأراضي الزراعية ضريبة الخراج للدولة، واختلف ذلك باختلاف البلاد، فأكثر خراج الوجه القبلي كان عيناً من قمح وشهدير وسمس وفول و عدس وتحوها، وكان يؤخذ في الغالب عن خراج كل فدان من هذه الأصناف ضريبة اقراوح بين أرد بين وثلاثة. أما الوجه البحري فكان أغلب خراج بلاده نقداً وليس فيه ما خراج بلاده عيناً إلا القليل (٢). ولما كان هناك تفاوت بين السنة القمرية المعتمدة عليها في استخراج الخراج والسنة الشمسية التي تضبط بها الزروع والثمار ومواعيد استحقاق الجباية - إذ تنقص السنين القمرية عن السنين الشمسية سنة تقريباً كل ثلاث وثلاثين سنة - فإن النظام الخراجي كان يقتضى تقديم السنة الهلالية سنة كلما انقضت ثلاث وثلاثون سنة منها، وهذا هو السر في تلك الإشارات التي نجدها في المراجع المعاصرة فيقول المقرئى مثلاً في حوادث سنة ٨٦٩٧ وحوادث سنة ست وتسعين إلى سنة سبع وتسعين على العادة (٣).

* * *

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية على السلاطين في عصر المماليك بالثروة الحيوانية فأكثر ما من نتائج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها تربيتها حتى ازداد عدد المواشي وازدهرت سلالتها. ويقال إن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قام بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية، إذ بنى حظيرة على قطعة أرض بجوار قلعة الجبل وأجرى إليها الماء من القلعة وأنشأ بها بيوتاً للدواجن وأخرى للأغنام والمواشي؛

(١) القلشندي: صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٥٠ - ٤٥١.

السيوطي: حسن المحاضرة ج ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥٢.

(٢) القلشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٣) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٨٤٥ وكذلك حاشية ١ في نفس الصفحة.

القلشندي: صبح الأعشى ج ١٣ ص ٥٠٤.

ثم أودع بها ألني رأس من الضأن بعث في طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجه البحرى، فضلاً عن عدد كبير من البقر^(١). هذا إلى أن عناية الناصر محمد بإنتاج المواشى والأغنام لم تقتصر على المناطق القريبة من عاصمته، وإنما صار يتتبع مراعيها في عيذاب وقوص وغيرهما من أنحاء البلاد، كما كان يبعث في طلب الأغنام الممتازة من بلاد القوبة والدين^(٢).

على أن هذه العناية بالزراعة ومرافقها في عصر المماليك لاتعنى بأى حال تقدم أحد الفلاحين أو ارتفاع مستوى معيشتهم فالفلاح المصرى عاش في ذلك العصر قنناً مربوطاً إلى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته في خدمتها وليس له من خيراتها إلا القليل. ذلك أن خيرات البلاد وعصولات الأراضى الزراعية كانت في الواقع نهباً مورداً بين السلاطين والأمراء ومماليكهم، في حين لم يبق للفلاحين سوى الكد والعمل ودفع ما يطلب منهم من أموال وهم صاغرون. ويذكر الشربيني أن الفلاح في آخر ما كوله كان لا يتناول إلا الشعير والحب القريش والبصل^(٣). ولا عجب، فإن الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في الذات رغباتهم، فخربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتمردهم في البلاد...^(٤).

الصناعة :

أما الصناعة فقد ازدهرت في عصر المماليك نتيجة لكثرة الثروة والمعروف أن الصانع أو الفنان يحاول دائماً أن يرقى بإنتاجه إذا اطمأن إلى أنه سيحظى في

(١) محمد جمال الدين السمرور : دولة بني الايوبي في مصر ص ٢٩٤ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٣) المقرئى : هن القهوف في شرح قصيدة أبى شادوف ص ٤٥٩ .

(٤) المقرئى : لغاة الأمانة ص ٣٦ ، ٤٦ .

النهاية تمن أتعابه ويتقاضى جزاء يناسب ما يبذله من جهد ووقت ومن ناحية أخرى فإن المستهلك إذا عظمت ثروته وفاضت عن مطالبه الامامية، فإنه يفكر في اقتناء الكماليات ولا يرضى بما لا يبذله في شراء التحف والحصول على النفائس. وكان هذا الوضع الذي أثر في ارتفاع الصناعة والصناع على عصر المماليك، عندما فاقت الحزائن بالثروة العظيمة، فانعكس أثر ذلك فيما خلفه ذلك العصر من مصنوعات راقية، بلغت شأوا بعيدا في الدقة والإتقان^(١).

وقد رأينا في صفحات هذا الكتاب السابقة أن دولة المماليك كانت دولة حربية بكل معاني الكلمة، قامت وليدة المعركة الصليبية في أرض المنصورة، وأثبتت جدارتها في ساحة الحرب ضد التتار والصليبيين في الشام، واستمدت بقاؤها من نجاحها في الدفاع عن مصر والشام ضد الأخطار الخارجية الكبرى التي هددهما في ذلك الدور الهام من العصور الوسطى ... هذا إلى أن المماليك أنفسهم من سلاطين وأمراء وأجناد كانوا يمثلون طبقة حربية تعتمد على الفروسية ويستطيع كل فرد فيها أن يصل إلى أعلى الدرجات ويحقق أعظم الآمال بفضل مهارته في القتال واستعمال القوس والنشاب والحربة.

لذلك لا عجب إذا احتلت الصناعات الحربية مكانا بارزا في النشاط الصناعي لدولة المماليك. وقد وجد بالقاهرة في ذلك العصر سوق كبير اسمه سوق السلاح ذخر بالأسلحة المتنوعة وبالصناع الذين كانوا يصنعونها فإذا حدثت فتنة أو نشبت حرب هرع الأمراء والجنود إلى ذلك السوق وعندئذ ترفع دسمة الحديد وأجور الحدادين وصناع آلات السلاح، لإقبال الناس على شرائه^(٢).

ويرتبط بالصناعات الحربية صناعة السفن، إذ حرص سلاطين المماليك

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: عصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٠

(٢) المقرئى: الملوك، ج ١ ص ٥١٢ و (١٩) - العصر المملوكي

على إنشاء أسطول بحرى قوى يحمى شواطئ دولهم الواسعة ويصد غارات المعتدين ويؤدب القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن الإسلامية فى البحر المتوسط وقد عنى السلطان الظاهر بيبرس عناية كبيرة بدور صناعة السفن فى الروضة والإسكندرية ودمياط، فكان يتفقد أمورها بنفسه ويرتب ما يجب ترتيبه ، ومنع الناس من التصرف فى أخشاب السفن^(١)، ومثل ذلك يقال عن السلطان الأشرف خليل قلاون الذى عنى - أثناء حكمه القصير - بإنشاء أسطول قوى عهد بإعداده إلى الوزير الصاحب شمس الدين بن السلموس، حتى إذا ما بلغت عدة ذلك الأسطول ستين مركباً ، أمر السلطان بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال واستمرضها فى جزيرة الروضة فى يوم حافل مشهود^(٢) .

وكانت السفن الحربية على أنواع منها الشوانى والحراريق والطرائد . أما الشوانى فكانت أعظمها شأنًا وهى مراكب حربية كبيرة أقيمت فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وتكونت هذه الأبراج من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالآقواس والسهام والحرب ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف . وكانت الحراريق أقل حجماً ، وهى بمثابة ناقلات الجند والذخيرة فكان يحمل فيها المشاة المقاتلون فضلاء عن الذخيرة والبارود والنفط . أما الطرائد فهى السفن الخاصة بحمل الخيل ، وكانت تنسج لنحو أربعين فرساً وأحياناً لثمانين فرساً^(٣) . وكانت السفن الحربية فى مصر تصنع على صنفين ، فبعضها كانت تحكم أجزاؤه بمسامير ، ومن هذا النوع السفن المستخدمة فى البحر المتوسط ، والبعض الآخر كانت تضم أجزاؤه بأحبال الليف . أما الأخشاب

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٧

السلوك : ج ١ ص ٤٤٧

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى فلان ص ٤١٥

اللازمة لصناعة السفن فكانت تستورد من بلاد الشام وآسيا الصغرى أو من غرب أوروبا عن طريق تجار البندقية. وأحياناً استخدمت الأخشاب المحلية مثل خشب السنط والنبج في صناعة السفن^(١).

هذا عن الصناعات الحربية ، أما الصناعات المدنية فكانت عديدة وعلى جانب كبير من الرقي في عصر المماليك ومن أم هذه الصناعات صناعة المنسوجات المتنوعة ، حتى غدت لمصر في ذلك العصر شهرة خاصة في صناعة أنواع معينة من المنسوجات مثل قماش القسطنطين نسبة إلى القسطنطينية والقماش الديبقي نسبة إلى ديبق^(٢). هذا فضلاً عن اشتهار تنيس - قرب الفرما - بصناعة قماش رقيق سمى القصب صنعت منه عمامة الرجال وملابس النساء وكذلك اشتهرت دمياط بصناعة أقمشة من التيل ذات عدة ألوان بحيث يتغير لونها باختلاف الضوء الواقع عليها^(٣).

وسواء كانت الأقمشة التي صنعت في مصر في عصر المماليك من الحرير أو القطن أو الصوف أو الكتان ، فإنها امتازت جميعاً بدقة الصناعة وثبات الألوان وجودة الحامة ومتانة النسيج ، كما تشهد على ذلك قطع النسيج المتبقية من ذلك العصر^(٤). وبالإضافة إلى أقمشة الملابس العادية ، وجدت مصانع خاصة تسمى دور الطرز تصنع فيها الخلع التي يمنحها السلاطين لكبار رجال الدولة وموظفيها وتنقش عليها أسماء السلاطين وألقابهم ، كذلك اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة الفرش والستور والخيام والفساطيط والحبال المكسرة بالقطن والحرير

(١) آدم مينز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٦٢

المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٢٠٤

(٢) الفيلسوفى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٢

(٣) محمد جمال الدين مرور : دولة بني قلاوون ص ٢٩٥

(٤) زكى محمد حسن : أطلال الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ٢٠٠

ولم تكن العناية بصناعة المعادن في عصر المماليك أقل منها بصناعة المنسوجات ، فاستخدم النحاس بصفة خاصة في صناعة الثريات والأواني المنزلية والأباريق والصحن والطسوت وغيرها ، كذلك استخدم النحاس في عصر المماليك في تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء . وكان النحاس عند استخدامه في هذا الغرض يعد على هيئة صفائح رقيقة مقسمة إلى أشكال هندسية بديعة المنظر^(١) ، وما زال بدار الآثار العربية بالقاهرة باب من مصراعين مصفحين بصفائح من النحاس منقوشة برسومات عربية رائعة تتخللها كتابة بالنسخ الجميل ، وهذا الباب كان لأحد أمراء السلطان قلاوون .

وانتشرت في عصر المماليك صناعة تمكفيت (تطعيم) البرونز والنحاس بالذهب والفضة ، واشتهرت بهذه الصناعة سوق السكفتين بالقاهرة . ويشهد المقرئ على أن المعاصرين كانت لهم في النحاس المكفيت رغبة عظيمة ... فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفيت^(٢) . كذلك عني المصريون في عصر المماليك بصياغة الذهب والفضة ، فأكثرُوا من صنع الأواني والحلي الذهبية والفضية ، وزينوها بكثير من النقوش والكتابات . أما الحديد فلم تكن مصر مركزاً مهماً لصناعته في ذلك العصر ، وإذا امتدَّت مصر كميات من الأدوات الحديدية من أوروبا . ومع ذلك فقد أجاد العمال المصريون في ذلك العصر صناعة بعض أنواع الأسلحة والدروع ، فضلاً عن التماثيل والأقفال والمفاتيح^(٣) .

وازدهرت صناعة الزجاج في مصر في العصر المماليكي ؛ وكان أهم مراكزها القساط والفهرم والأشموين والإسكندرية . تشهد بذلك أعداد المشكوات

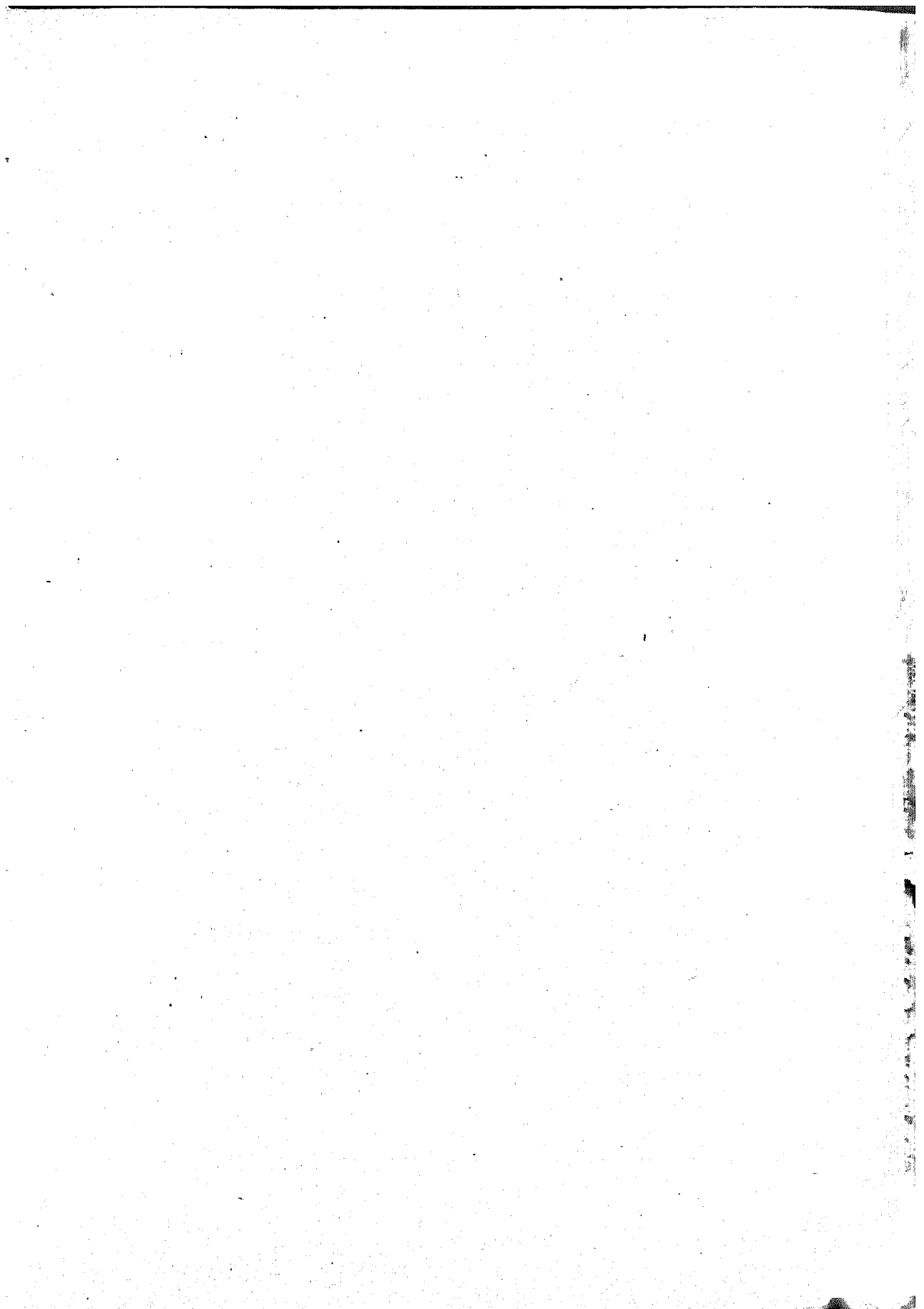
(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام من ١٥٥٥ :

(٢) المقرئ : المواعظ ج ٢ من ١٠٥ (بولاق) :

(٣) صعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية من ١٢٥٥ :



ميشقرة من عصر المماليك مصنوعة من النحاس المكنت بالذهب والفضة
ولها غطاء على شكل قبة



الوجاجية المحفوظة بدور الآثار والتي تمتاز بجمال أشكالها وانسجام زخرفتها وإتقان صنعها . وبالإضافة إلى ذلك صنع في مصر الزجاج الملون المستخدم في الشبائيك ، وكذلك بعض أنواع البلور الصخري المحبب . أما الخزف فكانت مصر من المراكز الأساسية لصناعاته في العالم الإسلامي ، ومنها انتشر كثير من نماذجه إلى البلاد الأخرى وقد جرت العادة على أن تزين الأواني الخزفية المصنوعة خصيصاً للسلطين والأمراء برؤسهم أو شعاراتهم (١) .

وبلغت المصنوعات الخشبية درجة كبيرة من التقدم في عصر المماليك والبعث المصريون في زخرفة المصنوعات الخشبية عدة طرق منها الحشوات والخراط والتطعيم . فالحشوات استخدمت لتجانب تشقق الخشب من جهة والرغبة في زخرفته بأشكال هندسية من جهة أخرى . والخشب المخروط كانت تصنع منه الشبائيك والحواجز والمشربيات . أما تطعيم الخشب فكان يتم عادة بالمعاج أو الأبنوس ، لاسيما في الكراسي والمناضد والأبواب وحوامل المصاحف (٢) .

أما المصنوعات الجلدية - وبخاصة السروج - فكان لها شأن كبير في عصر المماليك ، إذ كانت السروج تصنع على أنواع وألوان مختلفة وأثمنها ما كان يصنع من الجلد البلغاري ، وأحياناً كانت تحلى بالذهب والفضة (٣) .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة الصناعات الصغيرة التي ازدهرت في عصر المماليك ، ولكن يكفي أن نختم هذا العرض السريع بالإشارة إلى أن مصر شهدت أيضاً في ذلك العصر عدداً من الصناعات الغذائية أهمها صناعة السكر . ويذكر المقرئ أنه كان في سمر ودسبعة عشر معصرة العصير القصب ، كما كان في ملوى

(١) زى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤١٩ وما بعدها .

(٢) زى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٦٢ وما بعدها .

(٣) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٩٨ (بولاق) .

عدة معاصر^(١). ومن الواضح أن هذه المعاصر التي انتشرت في كافة أرجاء البلاد في عصر المماليك، أنتجت كميات ضخمة من السكر، يدل عليها ما تشير إليه المراجع من كثرة استهلاك السكر في عمل الحلوى في ذلك العصر، حتى أن استهلاك السكر على أيام الناصر محمد بلغ في شهر رمضان وحده (سنة ٧٤٥هـ) ثلاث آلاف فنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار، منها ستون فنطار اكل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية^(٢).

هذا عن الصناعة، أما الصنائع وأصحاب الحرف فقد خضعوا في عصر المماليك لنظام النقابات، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين بعض من ناحية، وفيما بينهم وبين الجمهور من ناحية ثانية، وفيما بينهم وبين الحكومة من ناحية ثالثة ولكل نقابة من هذه النقابات رئيس أو شيخ يرأسهم، يفض مشاكل أفراد النقابة ويرجعون إليه في كل ما يهمهم. ولما كان دخول أى فرد غريب في حرفة من الحرف يؤدي إلى منافسة أصحابها الأصليين، فإنهم كانوا لا يبرنون أحدا على طرق صناعتهم، إلا أن يكون من أبنائهم ولا يسمعون لأى شخص في مشاركتهم إلا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم، وفي هذه الحالة يقبل بشروط خاصة.

التجارة الخارجية:

شاءت الظروف أن يكون قيام دولة المماليك في مصر والشام في منتصف القرن الثالث عشر مصحوبا بأبازدهار طريق البحر الأحمر وموانئ مصر، واضمحلال ماعداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب. ذلك أنه لم

(١) القرينى: المواءم ج ١ ص ٢٠٤.

(٢) القرينى: المواءم ج ٢ ص ٢٣١.

(٣) سعيد طاشور: المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٣٦ - ٣٧.

يكبد يمضى على قيام دولة الممالك سنوات معدودة حتى استولى المغول على بغداد سنة ١٢٥٨ ، وامتد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى . فضلاً عن بلاد فارس التي اتخذوها هولاً كرمركزاً لدوائمه في الشرق الأوسط ؛ وبذلك اضمحل طريق التجارة البرى بين الصين من جهة وآسيا الصغرى وموانى البحر الأسود من جهة أخرى .

وقد قام ماركو بولو برحلة شهيرة إلى الشرق الأقصى في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فأشار إلى ما ترتب على غزوات المغول من انعدام الأمن في ذلك الطريق واعتداء اللصوص على القوافل والتجارة^(١) . وكان ذلك في الوقت الذي قل لإقبال السفن التجارية الآتية من الشرق الأقصى على الخليج الفارسى بسبب ازدياد نشاط القراصنة من سكان جزر البحرين في ذلك الخليج ومن ثم تحولت السفن التجارية إلى اليمن وميناء عدن بالذات .

على أن ملوك اليمن أظهروا تعسفاً كبيراً مع التجار ، فلم يكتفوا بفرض الضرائب الباهظة على ما يحملونه من بضائع ؛ بل لجأوا إلى استخدام القسوة في معاملة التجار ، حتى صار من التقاليد المربعة عند وصول إحدى السفن التجارية إلى عدن أن يصعد حمال ملك اليمن إليها وينزعوا قلاعها ودفتها ومرساتها حتى لا يمكنوها من الإبحار قبل أن تدفع الأموال والضرائب المستحقة عليها . أما التجار أنفسهم فكانوا يفتشون نفثيهاً دقيقاً قبل أن يسمح لهم بالنزول من السفن إلى الميناء ؛ وبلغ من دقة هذا التفتيش وقسوته أنه تناول العمامة والشعر والكمين وحرة السراويل وتحت الأباط . كذلك وجدت عجوز تفتش النساء وتضرب يديها في أعجاذهن^(٢) . فإذا ما أتم التاجر إزال بضاعته ودفع ما عليها من

(1) Marco Polo : Travels (vol.) pp : 107-108 .

(٢) أبو محمد عبد الله باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٥٨ .

ضرائب وتسويقها ، أخذ يتأهب للعودة من حيث أتى ، فيطوف المئادى في طرقات عدن ويعان في الأسواق أن التاجر الفلاني سيغادر الميناء فن له عليه دين أو مال فليطالبه به ، وإن لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل^(١) . وهذا يجدد أن نلاحظ أنه لم يسمح للسفن التجارية الوافدة من الشرق الأقصى سواء كانت من الهند أو الصين أو جزر الهند الشرقية - بتخطى عدن شمالا في البحر الأحمر ؛ وإنما كانت رحلتها تنتهى عند عدن ثم تقفل واجعة من حيث أنت ، في حين جرت العادة بنقل البضائع من عدن شمالا إما بطريق القوافل في شبه الجزيرة العربية وإما بطريق السفن الإسلامية ، إلى موانئ مصر والحجاز .

وهكذا ترتب على اضمحلال طرق التجارة الآسيوية في القرن الثالث عشر انتعاش طريق البحر الأحمر - مصر ؛ الأمر الذى أتاح لسلطين المماليك في مصر فرصة ذهبية للإفادة من القيام بدور الوسيط بين تجار الشرق وتجار الغرب . وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد شغل بالأعمال التأسيسية اللازمة لحفظ كيانه دولة المماليك الناشئة وحمايتها من الأخطار الخارجية والداخلية التى هددتها ؛ فإن السلطان المنصور قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) عمل على تنشيط التجارة في البحر الأحمر بمختلف الطرق . من ذلك أن السلطان قلاوون أخذ يتوعد إلى القوى الإسلامية الواقعة في حوض البحر الأحمر ويحسن علاقته بمحكاهما ، فأرسل إلى الملك يوسف الأول ابن عمر ملك اليمن يسأله ويعاهده على التحالف والمودة ، بعد أن كان بيبرس قد امتن ملوك اليمن وأهائهم . وعندما وصلت رسل ملك اليمن إلى مصر ، حرص قلاوون على إكرامهم وأرسل معهم الهدايا والتحف إلى ملك اليمن^(٢) . ومثل ذلك يقال عن سياسة قلاوون تجاه أبى تمى شريف مكة .

على أن جعل مصر حلقة الوصل في النشاط التجارى بين الشرق والغرب

(١) المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨

(٢) المفريزى : السلوك ١ - ص ٥٨١ ، ٧٠٢

كان يتطلب أمرين : أولهما تأمين طرف التجارة داخل مصر ذاتها حتى تصل البضائع سليمة من موانئ البحر الأحمر - وبخاصة عيذاب - إلى موانئ البحر المتوسط ، وبخاصة دمياط والإسكندرية . وثانيهما إغراء تجار الشرق على جلب بضاعتهم إلى موانئ مصر المطلة على البحر الأحمر ، ثم إغراء التجار الأوروبيين على التردد على الإسكندرية ودمياط لشراء ما يلزمهم من حاصلات الشرق .

أما عن الأمر الأول فإن السلطان قلاون ومن خلفه من سلاطين المماليك حرصوا على أن يضربوا بيد من حديد على العائثين والمعتدين على قوافل التجارة بين النيل والبحر الأحمر ، وبخاصة قبائل الأعراب الذين سكنوا تلك الجهات والذين اعتادوا حياة السلب والنهب ، حتى أن قوافل الحجاج نفسها لم تسلم من عبثهم^(١) . ويروى المقرئى أنه عندما اشتد القتال في صحراء عيذاب سنة ١٢٨١ بين عرب جهينة وعرب رفاعة ، أمر السلطان قلاون الشريف علم الدين صاحب سواكن د بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على أخرى ، خوفا من فساد الطريق^(٢) .

وأما عن الأمر الثانى فإن السلطان قلاون أرسل إلى نوابه بالثغور يأمرهم بحسن معاملة التجار وملاطفتهم والتودد إليهم وترغيبهم ، ومراعاة العدالة فيما يجربونه منهم من أموال بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية^(٣) . وقد أورد القلقشندى بعض رسائل صادرة من سلاطين المماليك لناظر الثغر الإسكندرية ، وفيها يأمر السلطان ناظر الثغر بحسن معاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق... فإنهم هدايا البحور ودواب الثغور ومن أسنتهم يطلع

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ - ٨٥٩ (مخطوط) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ .

(٣) تاريخ ابن القرات ج ٧ ص ١٩٨ .

ما تجننه الصدور ؛ وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور... (١). ولا شك في أن أمثال هذه الوصية إنما كان يوجهها سلاطين الممالك إلى عاملهم بمختلف الثغور المصرية التي يرد إليها التجار من المشرق والمغرب جميعا .

كذلك كتب السلطان قلاوون منشورا إلى التجار الذين يقدون على مصر ومن الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم... يرحب بهم ويصف لهم محاسن مصر ويفرهم على القدوم إليها بمناجرهم ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد... فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ذخيرة ، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلة لمن تغرب عن الوطن... فن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن ، والهند ، والصين والسند ، وغيرهم ، فليأخذ الأمانة في الارتحال إليها والقدوم عليها ، ليجد الفعالي في المقال أكبر ، ويرى إحساننا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر... (٢).

وفي الوقت الذي دأب سلاطين الممالك على تشجيع تجار الشرق الأقصى بوجه خاص على الحضور ببضائعهم إلى مصر ، حرصوا أيضا على الترحيب بالتجار الأوروبيين الذين يقدون إلى الاسكندرية ودمياط لشراء حاصلات الشرق . ولا أدل على اتساع أفق سلاطين الممالك ورغبتهم الأكيدة في الاستفادة من موقع مصر التجاري ، من أنهم فرقوا بين الدين والتجارة ، فقدموا كافة التسهيلات للتجار الغربيين في الوقت الذي كانوا يحاربون الصليبيين — ومن خلفهم الغرب الأوروبي .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢١ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

ولقد ترتب على تشجيع سلاطين الممالك للتجار الأوربيين على القدوم إلى مصر أن كثر عددهم ، فذكر البلوى المغربي في رحلته أنه رأى بمصر سنة ١٣٣٦ أناسا كثيرين من مختلف الأجناس^(١). بل إن بعض الباحثين الأوربيين قدروا عدد الأجانب في الإسكندرية وحدها في أوائل القرن الرابع عشر للميلاد بحوالي ثلاثة آلاف تاجر أوربي^(٢). ومن الواضح أن هؤلاء التجار الأوربيين فضلوا دائما الإقامة بالمدين التجارية والغور على شاطئ البحر المتوسط مثل الإسكندرية ودمياط^(٣). وكان لكل جالية من هؤلاء الأجانب فئصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحهم وإذا ما حدث من طائفة أحدم ما يشين الإسلام يطلب منه الكف عن ذلك ،^(٤) كذلك اتخذت كل جالية لنفسها فندقا أو أكثر ينزل فيه أفرادها. وقد زار مصر سنة ١٣٩٥ أمير فرنسي فحكى الكثير عن فنادق البنادقة والجنوية والكتلان والقبارسة وأهل نابلي وأهل كريست وأهل مرسيليا وغيرهم^(٥). ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث تكون لكل منها إدارة مستقلة ، على رأسها مدير يدير شئون الفندق . وعند وصول تاجر أجنبي إلى الثغر ، تفتش أمتعته بدقة وعناية ، ويطلب منه دفع ٢٪ من قيمة ما معه من ذهب وعملة نقدية ؛ وبعد ذلك يقصد فندق جاليته حيث يضع بضائعه ويحتسب بمواظنيه وأبناء بلده ويستطيع أن يعيش وفق النمط الذي اعتاده في بلاده . ذلك الفندق احتوى جميع ما احتاجه التاجر الأجنبي من مأوى وكنيسة ومخبز وحمام^(٦).

(١) رحلة البلوى المغربي ورقة ٤٤ (مخطوطة) .

(2) Kammerer : Le Regime et le Statut des Etrangers en Egypte ; p. 17 .

(3) Schefer : Le Voyage d'Outremer, p. 122 .

(٤) خليل بن شامين : زبدة كشف الممالك في ٤١ .

(5) Schefer : Le Voyage d'Outremer . p. 122 .

(6) Kammerer : op. cit. p. 20 .

ثم إن التجار الأوربيين تمتعوا داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية ، إذ سمحت لهم السلطات المصرية بإحضار الخمر اللازمة لهم في سفنهم وإنزالها إلى فنادقهم^(١). ويبدو أن التجار الأجانب اعتادوا إحضار هذه الخمر بكميات ضخمة ، حتى أنه عند ما حاول السلطان الصالح اسماعيل منع الأجانب سنة ١٣٤٢ من إحضار الخمر إلى الاسكندرية ، عارضه حاكم المدينة ، وقال إن الضرائب التي تحصل في السنة من تلك الخمر تبلغ أربعين ألف دينار^(٢) . ١

أما أهم أبواب تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك فكانت مدينة أسوان بالنسبة لتجارة النوبة ، وعيذاب بالنسبة لتجارة الصين والهندوچين ، ومنها تحمل المتاجر على ظهور الإبل عبر الصحراء حتى قوص فتسير بها السفن في النيل شمالا ويبدو أن طريق عيذاب - قوص لم يلبث أن أهمل بعد إخراج الصليبيين من الشام ، وأصبحت التجارة تأتي من البحر الأحمر إلى السويس ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة . أما التجارة بين مصر وأوربا ، فكانت أهم أبوابها الاسكندرية ودمياط ، فتأتي إليهما السفن الأوربية محملة بالفراء والجوخ والأخشاب والحديد والنبذ وغيرها من المنتجات الأوربية ، وتعود محملة بالتوابل والبخور والعطور والخزف والأقمشة وغيرها من منتجات الشرق^(٣) . وبالإضافة إلى تجارة الشرق الأقصى والغرب الأوربي شهدت دولة المماليك نشاطا تجاريا كبيرا مع بلدان السودان الغربي وإفريقية الوسطى وقد عرف تجار تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة إلى عملة الكانم كما عرفوا أحيانا باسم التكرور نسبة إلى عملة التكرور^(٤) . وكان هؤلاء التجار يحملون إلى دولة المماليك بضاعة

(١) Reinaud : Traité de Commerce, p. 40 .

(٢) المفريزي السلوك ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٣) سعيد طاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٨ .

(٤) من المرجح أن يكون تسمية ساحل مصر باسم بولاق المذكور نسبة إلى تجار التكرور الذين كانت ثمة بضائعهم من قوص عن طريق النيل إلى ساحل بولاق .

من أهم البضائع التي قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها ، وهي التوابل والفلفل والبحار والبخور والقرنفل ، وكلها أصناف اشتهرت بها الأوربيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الأثمان المرتفعة . ثم لانه يلاحظ أن تلك الطائفة من التجار لم يقتصر نشاطها على محاصيل بلادها لحسب ، وإنما امتد ذلك النشاط إلى جلب البهار من اليمن والصين والهند ، حتى أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من اشتغل بتجارة البهار والفلفل (١) . ويبدو أن نسبة كبيرة من تجار الكارمية في عصر المماليك اتخذوا مدينة فوص مركزاً لنشاطهم الواسع ، فغدت تلك المدينة الهامة في صعيد مصر سوقاً تجارياً واسعاً لمنتجات إفريقيا الوسطى واليمن والهند والحبشة . وهناك في فوص كون تجار الكارمية نقابة حافلة لأنفسهم ، هيمنت على تجارة التوابل والبخور والعاج واحتكرتها أحياناً ؛ وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك وأطلق عليه اسم رئيس الكارمية (٢) . ولا شك في أن تجار الكارمية في مصر جنوا ثروة عظيمة من وراء تجارتهم حتى قال المقرئى مانصه : « وكان تجار الكارم بمصر حينئذ في عدة وافرة ولهم أموال عظيمة » ؛ مما جعل سلاطين المماليك يقترضون المال منهم أحياناً لما اضطرتهم الظروف إلى ذلك (٣) .

وهكذا نجحت مصر في عصر سلاطين المماليك في أن تستأثر بالجزء الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، ولم يدخر سلاطين المماليك وسعاً في تقوية تلك الروابط الاقتصادية بين مصر وبلدان الشرق والغرب ، عن طريق المعاهدات والاتفاقيات والاتصالات الدبلوماسية مع ملوك وحكام تلك البلدان .

(١) انظر ترجمة عز الدين عبد العزيز بن منصور السكولى التاجر السكارى المتوفى

سنة ٧١٣ هـ

(المقرئى . السلوك ج ١٣٢ - ١٣٣ هـ)

النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩٤ ،

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٢ ،

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ .

من ذلك المعاهدات التجارية العديدة التي عقدها سلاطين الممالك في مصر مع ملوك صقلية وقشتالة وأرغونة فضلا عن جنوا والبندقية وغيرهما من جمهوريات إيطاليا التجارية . وقد حدث سنة ١٢٨٣ أن أرسل حاكم جزيرة سيلان - واسمه أبو نكبا - سفارة إلى السلطان المنصورى قلاوون تحمل كتابا يدعو فيه إلى تنشيط التجارة بين دولة الممالك وجزيرة سيلان الغنية . وقام هذا الحاكم في كتابه بدعاية واسعة لجزيرته ، فذكر ما يمتلكه من سفن تجارية عديدة ، وما تنتجه سيلان من محاصيل وفيرة ، فضلا عما يستخرجه أهلها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة . وأكد أن المصريين سيجدون في سيلان كثير آمن الحاصلات التي يسعون للحصول عليها من الهند ، ثم طلب في كتابه تعيين مندوب تجارى لدولة الممالك في سيلان . وكان أن رحب السلطان قلاوون بسفراء ملك سيلان وأجرل لهم العطايا وأرسل معهم سفارة تحمل رد كتاب ملكهم (١) .

وإذا كانت عيذاب وقوص قد نزعتا حركة النشاط التجارى بالنسبة للتجارة الآسيوية والإفريقية ، فإن دمياط والإسكندرية قامتا في عصر الممالك بدور بارز في استقبال التجار الأوربيين الذين وفدوا بسفنهم عن طريق البحر المتوسط لابتياح حاصلات الشرق وبيع ما يحملونه من حاصلات الغرب . ويبدو أن هدم بعض أجزاء دمياط في أوائل عصر الممالك خوفا من مجيء حملة صليبية جديدة بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر ، ثم ردم فم بحر دمياط زمن السلطان الظاهر بيبرس ، أدى إلى عدم استطاعة سفن البحر الكبيرة الوصول إليها ، فأصبحت ترسو على مقربة من ملتقى النيل بالبحر المتوسط ، ثم ترسل ما تحمله من بضائع أو تأخذ ما يتطلبه من حاصلات بواسطة مراكب نيلية صغيرة (٢) . لذلك اختار

(١) يبرس الوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٤٢

المريزى : السلوك ج ١ ص ٧١٣ .

(٢) معبد عاشور : مصر في عصر دولة الممالك البحرية ص ١٠٠ هـ

كثير من السفن الأوربية في عصر المماليك أن تستعير بالإسكندرية عن دمياط ؛ وبذا صارت الإسكندرية كبرى موانئ دولة المماليك على البحر المتوسط ، وإليها تهوى ركائب التجار في البر والبحر وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض ... (١) .

وكان من الطبيعي أن تراقب سلطنة المماليك تلك الحركة التجارية الواسعة ، ففرضت رقابة شديدة على الوارد والصادر من المتاجر ، وضربت عليه مكموساً اختلفت باختلاف الظروف والأحوال ، ثم تختم البضاعة بختم خاص للدلالة على استيفاء المكس . وربما كان هناك خاتم آخر للدلالة على مصدر كل سلعة حتى لا يكون سبيل إلى الغش في بيعها . وقام بهذا العمل موظفون أطلق عليهم اسم « مباشرى الختم » كانوا أشبه بموظفي الجمارك في عصرنا الحالى (٢) . ويبدو أن هذه الضرائب التي فرضها سلاطين المماليك على التجارة الخارجية - وبخاصة التوابل - كانت قاسية حتى أن حمولة الفلفل التي يبلغ ثمنها في القاهرة خمسين ديناراً كانت تباع أحياناً في الإسكندرية للتجار الأوربيين بثلاثة أمثال هذا الثمن . وقد دفع ذلك التجار الأوربيين - وبخاصة البنادقة - إلى رفع شكواهم إلى السلاطين أكثر من مرة ، فيروى المقرئى كيف قدمت رسل البنادقة (٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) بهدية وسألوا الرفق بهم والمنع من ظلمهم وألا يؤخذ منهم إلا ما جرت به عادتهم ، وأن يمكنوا من بيع بضائعهم على من يختارونه . وفي بعض الأحيان كان السلاطين يستجيبون لدعوات التجار الغربيين ؛ ليكثر الفرنج من بلادهم جلب البضائع ؛ فيأمر السلطان ناظر الخاص بالتخفيف عنهم وعدم إيذائهم (٣) .

(١) الفلكسندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية للدكتور محمد مصطفى زيادة .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١ . (٢٠ - عصر المماليك)

على أن نشاط تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك لم يستمر دون محاولات لمرقلته من جانب القوى المعادية لسلطنة المماليك . من ذلك أن البابوية التي ألحقتها سقوط عكا في يد المسلمين سنة ١٢٩١ وطرد الصليبيين نهائيا من الشام ، فكرت في إضعاف سلطنة المماليك عن طريق حرمانها من المورد الأساسي لغناها وقوتها وهو التجارة . لذلك أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوروبيين المتاجرة مع دولة المماليك^(١) . وقد تضمنت هذه المراسيم توقيع عقوبة الحرمان على الأفراد والمدن والجمهوريات والدول التي تتعامل تجاريا مع دولة المماليك ، واختصت أصنافا معينة حرمت تصديرها إلى تلك الدولة بعضها له أهميته في الحرب كالحديد والخشب والقار والكبريت ، وبعضها له أهميته الغذائية كالقمح والنفيد والزيت ، هذا كله فضلا عن الرقيق الأبيض الذي اعتمد عليه نظام المماليك^(٢) .

ولكن الجهود التي بذلتها البابوية عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١ لحل التجار الأوروبيين على مقاطعة مصر اقتصاديا والاستعاضة عن طريق مصر - البحر الأحمر بطريق إيبس - تبريز ، هذه الجهود لم تفلح وبات بالفشل . ذلك أن القوى التجارية في غرب أوروبا أدركت مدى الخسائر التي طالت عليها نتيجة لحرمانها من التجارة مع مصر ، وتحاولت بمختلف الطرق على كسر المراسيم البابوية واستئناف نشاطها التجاري مع الاسكندرية ودمياط . ولم يلبث جاييم الثاني ملك أرغونه أن جدد إنفاقه التجارية مع السلطان الأشرف خليل - وهو السلطان الذي استولى على عكا من الصليبيين - كما حرصت ملكة أرغونة بالذات على عدم سحب قناصلها التجاريين من مصر عقب سقوط عكا . أما البندقية

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٣ .

(2) Kammerer : Le Mer Rouge T. 1, partie 2, p. 151 & Heyd : Hist, du Commerce, II, p. 26.

فقد أرسلت سفيراً إلى مصر سنة ١٣٠٢ - على عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون - ليبلغ المسؤولين في القاهرة رغبة جمهوريته في استئناف علاقاتها التجارية مع مصر ، وكان أن رحب السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالسفير البندقي وأعلن من جانبه استعدادَه الطيب لتقديم كافة التسهيلات لتجار البندقية ومنحهم الامتيازات القديمة التي كانوا يتمتعون بها قبل قطع العلاقات ، كما وافق على أن يكون فرانيسكو دي كنالي فمثلاً للبندقية في الإسكندرية يرعى مصالحها ومصالح رعاياها الاقتصادية^(١).

ولكن إذا كان سلاطين دولة المماليك الأولى قد حرصوا على الاحتفاظ لمصر بمكانتها المرموقة في النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، فإن الوضع اختلف كثيراً في عصر دولة المماليك الثانية . ذلك أن النظام الإقطاعي الذي اعتمد عليه سلاطين المماليك في عصرهم الأول ، لم يلبث أن تطرق إليه الفساد ، ولم يعد يكفي لسد حاجاتهم المادية ومطالب ملوكهم العريض . لذلك اتجه سلاطين دولة المماليك الجراكسة نحو الاشتغال بالتجارة ، واتبعوا سياسة الاحتكار التجاري لتعويض ما حل بهم من خسائر نتيجة لاختلال النظام الإقطاعي من ناحية ، وللحصول على المسائل الوفير من أيسر طريق في نظرهم ، من ناحية أخرى .

ولا شك في أن احتكار سلاطين دولة المماليك الجراكسة لبعض السلع والغلات الهامة - مثل التوابل والبخور - أدى إلى ارتفاع أسعارها فاحشاً ، الأمر الذي أنزل أبلغ الضرر بالتجار الأوربيين بوجه خاص ، فضلاً عن المستهلك الأوربي . وقد بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباي (١٤٢٢ - ١٤٣٨) الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي وسك الدينار الأشرفي ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوربيين^(٢).

(1) Diehl : Venise, p. 72 .

iW (2) et : L' Egypte Arabe, p. 573 .

وأخيراً دفع الضيق القوى التجارية في غرب أوروبا إلى مضاعفة جهودها للوصول إلى الهند وتجارة الشرق الأقصى عن طريق المحيط الأطلسي (١). وما زال الغرب الأوربي يجد لا اكتشاف طريق بحري جديد إلى الهند ، حتى توصل فاسكو دي جاما إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ، لجاء ذلك لإبذانا بثورة كبرى في طرق التجارة العالمية من ناحية ، وإعلانا لأهمية طريق مصر بوصفه الطريق الأساسي للتجارة بين الشرق والغرب في تلك الفترة من ناحية أخرى . ولم يلبث أن أدى تدهور مركز مصر التجاري في أواخر عصر المماليك إلى إضعافهم ثم سقوط دولتهم بعد أن حرموا من المورد الأساسي الذي ظللما أمدهم بالمال والقوة

التجارة الداخلية :

أما التجارة الداخلية فكانت على درجة واسعة من النشاط على عصر سلاطين المماليك ، فاشتهرت المدن المصرية - وعلى رأسها القاهرة - بأسواقها العامرة ذات الطابع الخاص المميز ، وأهم ما في هذه الأسواق أن كل سوق منها يختص بنوع معين من البضائع ، فسوق الشبانين يختص ببيع الشمع ، وسوق النحاسين يختص ببيع النحاس ، وسوق الفرايين ببيع الفراء ... وهكذا (٢).

ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التي يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشتري إن لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فإنه يستطيع أن ينتقل في سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة . أما عيوب هذا النظام ، فأهمها أن الفرد

(1) Ronciere : La Decouverte de L'Afrique au Moyen Age, Tome 3. p. 31.

(٢) القريزي : المواظ ٢ ص ١٠٣ (بولاق) .

إذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع ، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته ، لأنه لن يجد في السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع^(١) .

أما المواد الغذائية فوجدت لها أسواق قائمة بذاتها منها بالقاهرة سوق باب الفتوح وسوق بين القصرين وسوق باب الزهومة ، وكلها اشتهرت في ذلك العصر بكثرة المعروض فيها من لحوم وخضروات وزيوت وألبان ... فضلا عن اكتظاظها بجمهور المشتريين^(٢) . أما الفواكه فكان لها سوق خاص بها قرب باب زويلة ، وعرف هذا السوق باسم دار التفاح ، كانت تحمل إليه ثمار البساتين المحيطة بالقاهرة ، حيث يتفنن الباعة في عرضها ، ويتأقنون « في تنصيدها واحتفافها بالرياحين والأزهار »^(٣) .

وقد حفلت البلاد في ذلك العصر بالمنشآت الخاصة بالتجار الأتراك والينيين والهنود والفرس والمغاربة وغيرهم ، وجرت العادة أن التجار المسلمين الوافدين من بلد واحد كانوا ينزلون في وكالة معينة حيث يألفون بعضهم ببعض ، فوكالة قوصون مثلا كان ينزلها التجار الوافدين ببضائع بلاد الشام - مثل الزيت والصابون والفسق والوز والجوز وغيرها - وفي الوكالة يستطيع التاجر أن يصدح أمواله وبضائعه في مأمن من كل سوء ، وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على حراسة الوكالات من هبث العابثين ، كما أنهم احتاطوا عليها من خطر الحرائق وغيرها^(٤) .

ولم يترك سلاطين المماليك حركة البيع والشراء في الأسواق دون رقيب أو حسيب ، وإنما همدوا إلى المحتسبين بالطواف ليلا ونهارا للتفتيش على

(١) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر المماليك ص ٨٦ .

(٢) الماريزي : المواظ ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) الماريزي : المواظ ج ٢ ص ٩٣ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : دولة بني فلان ص ٣٢٦ .

الباهة وضبط من يحاول التلاعب في الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة . وقد روعى في المحتسب دائماً أن يكون ذا رأى وصرامة وخشونة في الدين ،^(١) . وكانت رقابة المحتسب أشد ما تكون على الأاطعمة والمشروبات التي تباع في الأسواق والطرق لتأكد من سلامتها ونظافتها حرصاً على صحة الناس ، فإذا وجد بعضها فاسداً أخذ البائع بالشدّة^(٢) .

المالية العامة :

تشمل المالية العامة الموارد الأساسية لبيت المال في ذلك العصر ، والأوجه التي كانت تنفق فيها هذه الأموال . أما عن الموارد فتتقسم إلى قسمين : موارد شرعية وموارد غير شرعية ، وكانت الموارد الشرعية تتمثل في عدة ضرائب هي :-

أولاً : ضريبة الأرض أو الخراج ، وكانت تتفاوت وفقاً لدرجة خصب الأرض من ناحية ، وزيادة المحصول أو نقصانه تبعاً للفيضانات من ناحية أخرى .

ثانياً : الزكاة ، والمفروض في كتب الفقه أن من وجبت عليه الزكاة كان مخيراً بين أن يدفعها إلى الإمام أو نائبه وبين أن يفرقها بنفسه ، ولكن الذي أصبح عليه الوضع في عصر المماليك هو أن المؤدين للزكاة صاروا يفرقونها بأنفسهم ، ولم يبق ما يؤخذ من الناس على صورة زكاة في عصر المماليك إلا نوعين ، أولهما ما يؤخذ من التجار على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب وفضة ، وتكون هذه الضريبة حوالي $\frac{1}{20}$ أو $\frac{1}{10}$ ، وثانيهما

(١) ابن الأخوة : معالم القرية في أحكام الحسبة ص ٨ .

(٢) السبكي : معيد النعم ص ٩٢ .

ما يؤخذ من مواشي أهل برقة من الغنم والإبل عند وصولهم إلى البحيرة لارعى^(١).
ثالثاً : الجوالى وهى الجزية المقررة على أهل الذمة ؛ وقد نقصت هذه
الجزية فى عصر المماليك حتى أصبحت تقراوح بين خمسة وعشرين درهماً وعشرة
درهم على الفرد . وكان لهذه الضريبة ناظر فى مصر والقاهرة يوليه السلطان
ويضاف جزء من متحصل إيرادها إلى بيت المال ، فى حين يخصص الباقي
للإفناق على بعض القضاة وأهل العلم . أما خارج القاهرة فإن الوضع جرى
بأن تكون جزية أهل الذمة فى كل بلد لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره ،
وتجرى مجرى مال ذلك الإقطاع .

رابعاً : الثغور ، وهى ما يؤخذ من التجار الواصلين فى البحر إلى الديار
المصرية . والمعروف أن المقرر فى الشرع هو أن يؤخذ العشر من بضائع هؤلاء
التجار ، ولكن مذهب الشافعى أباح للحاكم أن يأخذ أكثر من العشر ، كما أباح
له أن يخفض هذه الضريبة إلى نصف العشر ، بل أن يلغى هذه الضريبة كلية إذا
وجد أن بلاد المسلمين فى حاجة إلى نوع معين من البضائع المستوردة . وكان
الوضع فى دولة المماليك هو أن يؤخذ الخمس عن كل ما يجلبه تجار الفرنج من
بضائع ، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً^(٢) .

خامساً : الموارد الخشبية ؛ ويقصد بها مال من يموت وليس له وارث
خاص . وهذه الجهة ناظر يولى من قبل السلطان ، ويحمل المتحصل منها إلى
بيت المال .

سادساً : ما يتحصل من دار ضرب النقود بالقاهرة ، وكان يضرب بها
ثلاثة أصناف هى الذهب والفضة النقرة والفلوس النحاس . ويقصد بهذه

(١) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية من ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .

الضريبة ما يؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم أو فلوس بعد ضبط عيارها. وكان بالديار المصرية، داران أساسيان لضرب العملة، أحدهما بالقاهرة والآخر بالاسكندرية. هذا فضلاً عن دور أخرى أقل أهمية في تروجه وفوه وبلاد الصعيد^(١)، وأجرة كل ألف دينار تضرب بالدار أربعة عشر درهما ونصف تقريباً.

سابعاً: المتجر، والمقصود به أن الحاكم - سواء كان خليفة أو سلطان - كان يقصد إلى استغلال أمواله بتشغيلها في التجارة طلباً للكسب؛ وبذلك ينافس أرباب الأعمال والتجار في أرزاقهم.. وكان بعض الخلفاء العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة قد دأبوا على مباشرة هذا الأسلوب في استثمار أموالهم، فيشترون مقادير كبيرة من الغلات ويخزنونها للتجارة فيها. وعند ما وجدوا أن سعر الغلات والحبوب قابل للقلب بما يعرضهم للخسارة، فطلا عن احتمال تلفها نتيجة للخبز، استبدلوا بالغلات الأخشاب والصابون والحديد والرصاص والعسل وغيرها، وعملوا لهذه التجارة ديواناً اسمه ديوان المتجر ظل قائماً حتى عصر المماليك^(٢). وقد انتقد ابن خلدون هذا التصرف من جانب الحكام واعتبروه منافسة غير مشروعة لأن الرعايا مائة كافتون في اليسار متقاربون، ومراحة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم، فإذا رافقهم السلطان في ذلك - وماله أعظم كثيراً منهم - فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته،^(٣).

ثامناً: المعادن المستخرجة من أراضي مصر وأهمها الزمرد والشب والنطرون، وقد احتكرها جميعاً سلاطين مصر لشدة طلب الأوربيين عليها، وباعوها

(١) المقرئى: السلوك ج ٢ ص ٤٤٤ م

(٢) سعيد طاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٧.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

بأضمااف أثمانها ، وليس لأحد أن يبيعه أو يشتريه سوى الديوان السلطاني ،
ومتى وجد مع أحد شيء من صنفه استهلك (صودر) ،^(١)

* * *

أما الموارد المالية غير الشرعية فيقصد بها المكوس المتنوعة التي لا يوجد
سند شرعي اعتمد عليه السلاطين في فرضها ، ولم تكن جميع المكوس في عصر
المماليك من ابتكارهم ، بل كان بعضها موروثاً عن العصور السالفة ، حتى أحدث
السلطان قطز مكوساً كثيرة ، لأجل جمع المال وقتال التتار ،^(٢) . كذلك يلاحظ
في أمر هذا النوع من الضرائب أنها لم تكن ثابتة على حال واحد طوال عصر
المماليك ، فربما يتطرق أحد السلاطين في جمعها ورفع قيمتها ؛ ثم يعقبه
سلطان آخر تغلب عليه روح التخفيف عن الرعية فيلغى بعض هذه المكوس
أو معظمها .

ومن أمثلة هذه المكوس مكس ساحل الغلة ، وهي الضريبة المفروضة
على الغلات والانبجار فيها ، ورسوم الولاية التي يجمعها الولاة من عرفاء الأسواق
ومقرر الحوائص والبغال ؛ ومقرر السمجون وهو مبلغ يؤخذ على كل من
يسجن ولو لحظة واحدة ، ومقرر طارح الفراريج دفلاً يمكن أحداً من الناس
في جميع الأقاليم أن يشتري فروجا فـاً فوقه إلا من الضامن ،^(٣) ، ومقرر
الانصاب والمعاصر وهو ما يجني من مزارعي قصب السكر ومن رجال المعاصر ،
ومقرر المراكب وهو ما يؤخذ من كل مركب ؛ وزكاة الدولة وهو ما يؤخذ
من الرجل عن زكاة ماله ولو عدم ، وإذا مات يؤخذ من ورثته ، ومقرر

(١) اللهندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٩

(٢) القريري : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٠ (بولاق)

(٣) القريري : المواعظ ج ١ ص ٨٨ (بولاق) .

البشارة بفتح الحصون فإذا حضر مبشر بفتح حصن تجمع هضرية من الناس على قدر طبقاتهم ، ويجتمع من ذلك مال كثير ، (١) ، ومقرر وفاء النيل إذ يجتمع من الناس لهذه المناسبة أموال تعمل بها شوى وحوى وفاكة عند المقياس هذا عدا المكوس المفروضة على الخمر وبيوت البغاء وغيرها .

* * *

أما عن الأوجه التي كانت تنفق فيها هذه الأموال المتحصلة من الضرائب الشرعية وغير الشرعية ، فيلاحظ عدم وجود فارق في تلك العصور بين مالية الدولة ومالية السلطان . وقد استغل سلاطين المماليك الأموال التي جمعوها في شراء المماليك وتربيتهم والإنفاق عليهم في سخاء ، حتى أن الطباق السلطانية كانت تعج بأعداد كبيرة من المماليك الذين يأكلون أنثر المأكولات ويلبسون أئمن الملابس . ثم إن حياة السلاطين الخاصة تشهد بما كانوا عليه من ترف وسعة ويكفي أن يقف الباحث على وصف لقلعة الجبل بقصورها الفخمة وسقوفها المذهبة وطرقها المغطاة بالرخام الثمين وبيوتها المزخرفة بالزجاج القبرسي الملون وما احتوت عليه من اصطبلات شريفة ضمت الخيول السلطانية الأصيلة ، وساحات للأغنام والطيور والحيوانات الغريبة من زراف وفيلة وغزلان ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والثراء التي استلزمت من سلاطين المماليك صرف الأموال الطائلة عن بذخ وطيب خاطر (٢) . ولعل ما أفاضت في وصفه المراجع المعاصرة عن أفراح السلاطين وحفلاتهم وثرواتهم ، يكفي لتوضيح بعض الأوجه التي كان يصرف فيها سلاطين المماليك أموالهم ، من ذلك ما قيل من أن جهاز الأمير

(١) المقرئى : المواظ ج ١ ص ١٠٦ (بولاق) .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٥٨ — ٦٣ .

أنوك بن السلطان الناصر محمد بلغ حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطاراً من البغال وبلغ الذهب في المصاغ والملابس ثمانين قطاراً ، ومع ذلك استصغر أبوه هذا الجهاز (١) .

ولم يرض سلاطين المماليك على نسائهم وجواريمهم بالمال والمتاع . بحيث أننا لو أردنا وصف ملبوس كل منهن وتجميل بيوتهن لاحتجنا إلى عدة مجلدات ، ؛ على قول أحد المؤرخين المعاصرين (٢) . وحسبنا أن إحدى الخوفدات توفيت فلما حصرت تركتها بلغت نيفا وستمائة ألف دينار . كذلك يقال إن ابنة الناصر محمد خلقت ثروة طائلة أغاضت المراجع في وصفها .

على أنه إذا كان الجزء الأكبر من الثروة التي جمعها سلاطين المماليك قد أنفقوها في حياة الترف ؛ فإن هناك جانباً منها كان ينفق في دفع أرزاق موظفي الدولة من الولاة والوزراء والقضاة ورجال الدواوين من نظار وكتاب . هذا فضلاً عما تطلبت به البلاد من منشآت ومرافق وإصلاحات كالجسور والقلاع والمساجد والزوايا والمدارس والسجون والطرق ... وغيرها . أما شئون الغزو والجهاد - وبخاصة ضد التتار والصليبيين - فقد تطلبت من سلاطين المماليك كثير من الأموال لإعداد الجيوش وتزويدها بالسلاح وبناء الحصون والقلاع فضلاً عن إعداد السفن الحربية بمختلف أنواعها من شواني وطرادات وحراريق وأغربة وغيرها .

السياسة النقدية :

قامت دولة المماليك والنقود التي يتعامل بها الناس في مصر والشام هي الدراهم الكاملية التي أمر السلطان الكامل الأيوبي بضرها سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) ، وكانت نوعين ؛ الأول من الفضة النقرة بحيث كان ثلثا الدرهم من فضة وثلثه

(١) المرجع السابق ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) خليل بن شامين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ .

من نحاس ، والثاني دراهم الفلوس النحاسية وهي مصنوعة من النحاس ، وكثير استخدامها بعد الأزمات الاقتصادية التي حلت بالبلاد سنة ٨٦٣٠ (١٢٢٣ م) والتي صاحبها انحطاط سعر الدراهم الفضية . وكان الوضع في أواخر دولة الأيوبيين هو أن يستبدل كل درهم فضة نقرة بستة من الدراهم والفلوس النحاسية (١) .

وكان من الطبيعي أن تكون الاضطرابات التي صاحبها سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك مقرونة باختلال النقد واضطرابه . وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك الأوائل - مثل شجر الدر والمماليك والمنصور على بن أيك والمظفر قطز - قد سكوا نقوداً بأسمائهم ، إلا أن النقد ظل مضطرباً طوال العشر السنوات الأولى من تاريخ دولة المماليك . وهكذا استقرت الأمور للسلطان الظاهر بيبرس ، وأخذ ينظم شؤون الدولة ، وهندئذ أمر بضرب دراهم جديدة عرفت باسم الدراهم الظاهرية ، نقش رنكة عليها ، وهو يمثل صورة سبع ، ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع بدراسة العملة في عصر المماليك أن نميز بين ثلاثة أنواع من النقود هي الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية .

أما عن الدنانير الذهبية ؛ فيلاحظ أن الذهب كان دائماً هو أساس النقد وبه تقوم بقية النقود من فضة ونحاس . ولكن تمرض العملة الذهبية في عصر المماليك للتلاعب في العيار والتغيير في الوزن والتبديل في الحجم ، جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين من التجار وغير التجار . وقد أشار القلقشندي إلى أن العبرة في وزن الدنانير بالمثاقيل ، ولكنه قال عن الدنانير التي سكنت في مصر في عصر المماليك : إن الغالب فيها نقص أوزانها ، وكانهم جعلوا نقصها في نظير كلفه ضربها (٢) .

(١) عبد الرحمن فهمي محمد : النقود العربية ماضيها وحاضرها ص ٧٦

(٢) القلقشندي : صبح الأمل ج ٣ ص ٤٤١ .

وفي الوقت الذي اعتري الدنانير الممالئكية ذلك الخلل ، وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء بغية الربح غير المشروع ؛ إذا بالبندقية تلجأ في القرن الثالث عشر إلى ضرب عملة ذهبية تعرف باسم الافرنقية أو الدوكات تمتاز بعمارها الصحيح ووزنها الثابت وسمكها المحدد ، مما جعلها تحوز ثقة المتعاملين . وقد وصف القلقشندي هذه العملة الأوربية فقال إنها معلومة الأوزان ، كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من المصري ... وهذه الدنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه وعلى الوجه الآخر صور تاتار وس وبولس الخواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية . ويعبر عنها بالافرنقية جمع افرنقى وأصله افرنقى ... ويعبر عنه أيضاً بالدوكات وهذا الاسم في الحقيقة لا يطلق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفرنجة ، وذلك أن الملك اسمه عندم دوك ... (١) .

ولم يلبث أن انتشر الدوكات البندقى وعم استعماله في مصر والشام وغيرها من بلدان المسلمين بعد أن حاز ثقة المتعاملين ، الأمر الذي أزعج سلاطين المماليك ، فحاول السلطان الناصر فرج بن برقوق عمل دنانير جديدة على زنة الدنانير الافرنقية المتقدمة الذكر ، بمعنى أنه جعلها ثابتة الوزن ، ووزنة متقال تماماً . وقد عرفت هذه الدنانير بالناصرية نسبة إلى السلطان الناصر فرج ، وكثر وجودها وعم استعمالها ، ولكنهم مع ذلك كانت تقل بمقدار عشرة دراهم عن الدنانير الإفريقية (٢) . وهكذا ظل مصروف الذهب بالديار المصرية لا يثبت على حاله بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال ، على قول القلقشندي ؛ الأمر الذي جعل تلك الدنانير التي سكها سلاطين المماليك لا تقوى على منافسة

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٢ .

للدوكلات البندقية ، فانحطت قيمتها في الأسواق الحرة عن قيمة البندق (١) .

أما الدراهم الفضية فالمفروض فيها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثاها من نحاس (٢) . ولكن هذه الدراهم لم تلبث هي الأخرى أن تعرضت للفساد منذ أواخر القرن الثامن الهجري - أو على وجه التحديد منذ سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) - عند ما انتشرت الدراهم الخوية التي ضربها المماليك بحماه ، وقد تضرر الناس من هذه الدراهم الأخيرة لزيادة نسبة النحاس فيها حتى بلغت الثلثين ، مما قلل من الإقبال عليها ، فازداد استخدام الفلوس النحاسية (٣) .

أما هذه الفلوس النحاسية فكانت أقل أنواع العملات في تلك العصور ، وكانت - على قول المقرئ - لا يشتري بها شيء من الأمور الجارية ، وإنما هي لنفقات البيوت ولا غراض ما يحتاج إليه من الخضر والبقول ونحوها (٤) . ويروي القلقشندي أن السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن علاون عني بضرب فلوس جديدة سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) اشترت بالفلوس الجدد جمع جديد ، وجعل ذلك كل فلس منها مثقال فجاءت في نهاية الحسن وبطل ما عداها من الفلوس وهي أكثر ما يتعامل به أهل زماننا (٥) . غير أن الملاحظ في عصر المماليك أن الفلوس النحاسية هي الأخرى لم تسلم من تلاعب السلاطين طمعا في الربح فكان وزنها عرضة للتغيير والتبديل ، كما أن السلاطين اختلفوا في تقدير قيمتها بالوزن ، فحينما يكون الرطل منها بستة دراهم وأحيانا باثنى عشر درهما أو بدرهمين ونصف ؛ وفي جميع الأحوال يرغم التجار والأهالي على التعامل بها

(١) عبد الرحمن فهمي محمد : النفود العربية ص ٩٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٣) المقرئ : شذور القود في أخبار القود ص ١٥ .

(٤) المقرئ : لغاة الأمة بكشف النمة ص ٧٠ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٤ .

وفى القيمة التى تحددها الحكومة بما يشيع حالة من القلق فى الأسواق (١).

* * *

وبعد ، فإن اضطراب العملة المتداولة فى عصر المماليك أدى إلى زعزعة الحياة الاقتصادية فى كثير من حلقات ذلك العصر . وربما أدى ضعف ثقة الناس فى قيمة النقود إلى أنهم عمدوا إلى نظام المقايضة ، ومن ذلك ما يرويه المقرئى « وأدركت أنا والناس من أهل نجر الإسكندرية وهم يجعلون فى مقابلة الخضره والبقول ونحو ذلك كسر الخبز لشراء ما يراود منه ، ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعين ، وأدركتنا ريف مصر وأهلها يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات ببيض الدجاج وبخال الدقيق .. » (٢) . ولم يقتصر نظام المقايضة على التجارة الداخلية بل استعمل على مقياس أوسع فى التجارة الخارجية وبخاصة فى القرن الخامس عشر ، فكان الحمل الإسكندرانى من الفلفل يزن خمسمائة رطل فرפורى ويشترى فى الإسكندرية نقدا أو مقايضة بسلع متعددة كالفضة وقوالب النحاس وسبائك القصدير والرصاص والصابون الأبيض والشمع والمصطكى ؛ كما أنه يقايض أيضا بما كولات كبيرة كالزيت بأنواعه وعسل النحل وعسل السكر ولوز أبوليا وبرونسة والقسطل وبندق مملكة نابلى وفواكه أخرى ، ويعطى كذلك قنطار من هذه السلع مقابل الحمل الواحد من الفلفل (٣).

(١) المقرئى : لغاية الأمة ص ٤٧ وما بعدها .

السلوك ج ٢ ص ١٧ ، ج ٣ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢) المقرئى : لغاية الأمة يكشف الغمة ص ٦٩ .

(٣) توفيق اسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٧ ص ٤٢)

الفصل العاشر

الأحوال الداخلية

بناء المجتمع :

كان المجتمع في عصر المماليك مجتمعاً طبقياً ، بمعنى أنه تألف من عدة طبقات متميزة بعضها عن بعض في خصائصها وصفاتها ومظاهرها ، فضلاً عن نظرة الدولة لها ومقدار ما تتمتع به من حقوق أو تنهض به من واجبات . وفي ظل مثل هذا التنظيم الطبقي يبدو الفارق كثيراً بين الحكام والمحكومين ، وبخاصة إذا كان الحكام أغراب عن البلاد وأهلها ، لم تربطهم بأبناء مصر والشام أربطة الدم أو الأصل والجنس ، مما جعل المماليك لا يشعرون في كثير من الحالات بروح التجاوب مع الأهالي والعطف على مصالحهم والعمل من أجل رفاهيتهم .

والواقع إن المماليك حكموا البلاد دائماً بوصفهم طبقة عسكرية متميزة ، استأثروا بالحكم وبشئون الحرب ، ونظروا إلى الأهالي على أنهم أقل منهم درجة أو درجات لا ينبغي لهم أن يشاركوا في الحياة الحربية ، وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة في شئون الحكم فبإلزام الحدود الذي تخوله صلاحيتهم . وتشير الشواهد التاريخية إلى أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد ، بل كان منهم التركي والجرماني والمغولي والصيني والاسباني والألماني واليوناني والسلافي وغير ذلك من الجنسيات العديدة التي حملها تيجار الرقيق إلى مصر . وقد شجع التجار على مواصلة تلك التجارة ، الأرباح الطائلة التي كانوا يحصلون عليها من وراء الاشتغال بها إذ لم يكن سلاطين المماليك وأمرؤهم بالمال في شراء مزيد من المماليك يكتفونوا

لهم سنداً ودعامة تقوى مركزهم داخل البلاد وخارجها ، وبقدر ما في المملوك من مزايا وصفات طيبة ومواهب بقدر ما يرتفع ثمنه ، وبالعكس بقدر ما قد يكون فيه من عيوب بقدر ما ينهط سعره . ولعل هذا هو السر في أن مملوكا مثل قلاون عرف بالآلافى لأنه اشترى بألف دينار ، وهو مبلغ كبير يستحق الفخر لأنه يشير إلى عظم مواهبه وحسن صورته (١) .

على أنه جرت العادة غالباً أن ينسب المملوك إلى أستاذه ، أى سيده الذى اشتراه بالمال ، فبيبرس البندقدارى نسب إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار والمماليك الأشرفية الخليلية نسبوا إلى السلطان الأشرف خليل ، والناصرية إلى الناصر محمد .. وهكذا . وقد ينسب المملوك أحيانا إلى تاجره الذى جلبه إذا كان ذلك التاجر مشهوراً مثل يلبغا السالمى نسبة إلى تاجر معروف اسمه سالم والمماليك العثمانية نسبة إلى الخوارجا عثمان نثر الدين وهو من كبار التجار الذين جلبوا كثيراً من المماليك والجواري إلى السلاطين (٢) .

وقد عنى سلاطين المماليك عناية فائقة بمماليكهم وحرصوا على تربيتهم تربية سليمة ، فإذا اشترى السلطان عدداً من المماليك أرسلهم أولاً لفحصهم للتأكد من سلامة أبدانهم ، وبعد ذلك ينزل كلا منهم في طبقة جنسه بحيث لا يقيم في طبقة من الطباق المخصصة للمماليك بالقلعة إلا المماليك ذوى الأصل المشترك أو المجلوبين من بلد واحد . ويقوم بتربية المماليك في الطباق مجموعة من الطواشيخ الخصيان ، فضلاً عن الفقهاء الذين كانوا يترددون على الطباق لتعليم المماليك القرآن والحط وأحكام الدين الإسلامى ثم إن الأساندة من سلاطين وأمرام

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤١

أبو الحسن : المنهل المانى ج ٣ ص ٣٧ ب (مخطوط) .

(٢) ابن قاضي شعبة : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ٤ ص ٢٧٣ (مخطوط)
(٢١ - العصر المماليكى)

لم يرضوا على ممالكهم بالآرزاق والأموال ، وإنما نظروا إليهم نظرة أبوة
معبودة بالعطف والحنان ، فخصصوا لهم أشهى الأطعمة وصرفوا لهم الكسوات
الفخخة (١) .

فإذا شب المملوك وأدرك سن البلوغ ، بدأ تعليمه فنون الحرب والفروسية
حتى إذا انتهت هذه المرحلة التعليمية خرج من الطباقي وانتقل في أدوار الخدمة
السلطانية ، رتبة بعد أخرى حتى يصبح من الأمراء . وعندما يفاد المملوك
الطباقي تغطى له جامكية أو مصروف يبلغ ستة دنانير في المتوسط ، ولكنه سرعان
ما ينتقل من الجامكيات إلى الإقطاعات وإلى إمرة العشرات ثم الطبلخانات ،
وعندئذ يصبح الأمير سلطاناً مختصراً ، على قول الفلقشندي (٢) .

على أنه يلاحظ أن الممالك ظلوا طبقة منفصلة عن سائر السكان في مصر
والقمام ، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم وجواربهم من بنات جنسهم
للأثريين التجار . وقد دأبت حكومة الممالك دائماً على تحذير الناس من انتقال
مملوك من الممالك عن طريق البيع إلى دكانب أو عامي ، أى إلى أحد من غير
طبقة الممالك ، ومن خالف ذلك التحذير تعرض للأذى والعقوبة (٣) . ولا شك
في أن هذه العزلة التي عاش فيها الممالك أو جدت فجوة واسعة بين الحكام
والحكوميين ، مما ترك أثراً واضحاً في المجتمع المعاصر ، ذلك أن أهل البلاد في
مصر والشام ظلوا طول عصر الممالك لا يعينهم شيء من أمرا الأحداث الكبرى
الداخلية والخارجية التي أحاطت بمجتمعهم ، وحسبهم ما كانوا يشهدونه من
مواكب حافلة أو من منازعات صاخبة بين طوائف الممالك ، وما ترتب على

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين الممالك ، ص ١١
وما بعدها .

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٠ .

(٣) أبو المعاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ .

فذلك النزاع من سقوط سلطان وقيام غيره . وهكذا ظل الفلاح يعمل في حقله والتاجر في متجره والفقير في مدرسته أو جامعته .. ينفذون جميعا مشيئة سادة البلاد من المماليك ويدفعون لهم ما يطلب منهم وهم صاغرون . حقيقة إن المماليك عملوا حسبا لبعض فئات من المصريين والشاميين وأعطوها بعض حقها من التقدير والعطف ، ولكن ذلك لم يمنعهم من التنكر لهم أحيانا . ثم إن هذه الفئة التي حظيت بقسط من عطف الحكام المماليك كانت أقلية صغيرة من المعممين ، في حين ظلت غالبية السكان من التجار والفلاحين العامة لا تلقى من المماليك سوى الهوان والمغارم (١) .

وإلى جانب طبقة المماليك - وهم حكام البلاد - وجدت جماعة المعممين أو أهل العمامة ، وهذه الطبقة كانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتّاب . والملاحظ أن هذه الفئة امتازت طول عصر المماليك بسميزات معينة ، على الرغم مما تعرض له أفرادها من الامتحان أحيانا . ويبدو أن المماليك أحسوا دائما بأنهم غرباء عن البلاد وأهلها ، وبأنهم في حاجة إلى دهامة يستندون إليها في حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب فلم يجدوا أمامهم سوى فئة العلماء ، بحكم ما للدين ورجاله من قوة وأثر . فالمماليك احترموا للعلماء ورجال الدين لأنهم قوة لها خطرها في اكتساب الرأي العام في البلاد « ولأن بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون » (٢) . ومن جهة أخرى فإن المعممين اعتدوا بمكانتهم في عصر المماليك فعمدوا أحيانا إلى معارضة السلاطين في الحق ، حتى حكى ابن بطوطة عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنه قال « إني لا أخاف أحد إلا شمس الدين الحريري قاضي فضاة الخنفية » (٣) .

(١) سميد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية من ١٥٨٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٣٨٣ (مخطوط) .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٨٨ .

على أن هذه المكانة الكبرى التي وصل إليها العلماء في عصر المماليك لم تمنح
بعض السلاطين والأمراء من التعرض لهم بالنقد والتهكم . ولم يرض المماليك
أن تشاركهم فئة من السكان في ركوب الخيل ، فاشتروا على السلاطين حرمات
المتعممين من ركوبها . وكثيراً ما انصابت جموع المماليك في شوارع القاهرة
للاعتداء على الفقهاء والمعممين وإنزالهم عن خيولهم وسلبهم إياها^(١).

أما التجار فكانوا يؤلفون طبقة مقربة أحياناً إلى سلاطين المماليك ، لأنهم
أحسوا بأن التجار دون غيرهم هم المصدر الأساسي الذي يمدهم بالمال في ساعات
الخرج والشفقة . وتدل جميع الشواهد على أن التجار تمتعوا في عصر المماليك
بثروات طائلة ، وهذا أمر طبيعي في عصر كانت مصر حلقة النشاط التجاري
بين الشرق والغرب . على أن كثرة الثروة في أيدي التجار جعلتهم دائماً
مطمعين سلاطين المماليك ، فأكثرُوا من مصادرتهم بين حين وآخر ، فضلاً عن
إثقالهم بالرسوم الباهظة^(٢) . لذلك لم يطمئن التجار في عصر المماليك على أموالهم
وتجاريتهم بل كانوا يدعون على أنفسهم أحياناً أن يغرقهم الله حتى يستريحوا
تماماً فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم^(٣).

واكتظت القاهرة وغيرها من المدن الكبرى في عصر المماليك بجموع
كبير من العمال والصناع والباعة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين
أو أشباه المعدمين ، وهي الفئات التي جمعتها المراجعة المعاصرة تحت اسم «العوام» .
وقد عاش أفراد هذه الطبقة في ضيق وعسر بالقياس إلى المماليك وغيرهم من
الطبقات الممنعة ، حتى لاحظ بعض الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر في عصر
المماليك أن القاهرة وحدها بها عدد يتراوح بين خمسين ألف ومائة ألف بلامأوى

(١) سعيد حاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٢ .

(٢) ابن حجر : إنباء الفرج ١ ص ٣٦٥ ، ٥٢٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ٤ ص ٤٤٤ .

سوى الطريق وبلا ملابس سوى أسمال بالية (١) . كذلك دهش البعض الآخر من كثرة الفحاذين بالقاهرة في ذلك العصر وقال إنهم أحاطوا به من كل جانب طالبين منه الإحسان . حقيقة إن العوام وجدوا أحيانا بعض المطف من السلاطين الممالك وأمرانهم - لا سيما في أوقات الشدة والمجاعات - ولكن وضعهم السيء وكثرة عددهم دفعهم في كثير من الحالات إلى احترام السلب والنهب وانتهاز الفرص للحصول على أكبر قدر من الغنائم في أوقات الفتن والاضطرابات (٢) .

أما الفلاحون - وهم السواد الأعظم من السكان - فلم يكن نصيبهم في عصر المماليك سوى الإهمال والاحتقار ، حتى أصبح لفظ « فلاح » في ذلك العصر مرادفا للشخص الضعيف المغلوب على أمره . وزاد من حال الفلاحين سوءا كثرة المغارم والمظالم التي حلت بهم من الولاة والحكام ليأخذوا منهم « غير العادة أضعافاء » (٣) كذلك فرض الولاة على أهل القرية نظام المسؤولية المشتركة في دفع الضرائب ، حتى في حالة توزيع زمام القرية الواحدة بين عدة ملاك أو مقطعين اعتبر كل فلاح بالنسبة لزملائه شريكا . ثم إن الفلاحين لم يسلموا من أذى العربان وبطشهم ، فتمرضع القرى والمزارع لإغارات العربان بين حين وآخر ، وفي كل مرة ينهب العربان محصولات الأرض ومواشي الفلاحين ، فضلا عما يفرضونه عليهم من إتاوات والواقع إن حركات العربان في مصر في عصر المماليك تسترعى انتباه الباحث نظرا لما كان لها من أثر واضح في أحوال مصر الداخلية في ذلك العصر .

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٨ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٦٤ (طبعة كالمغربية) .

(٣) ابن مياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢ .

ثورات العربان :

وجدت في مصر في العصور الوسطى قبائل عديدة من العربان وهؤلاء انتشروا في أجزاء مختلفة من البلاد، وبخاصة للشرقية والبحيرة والمنوفية والفيوم والمنيا وأسيوط . وكان هؤلاء العربان دائما أهدام مصدر فتن ومتاعب للحكام والمحكومين سواء ، فارتبط تاريخهم في مصر المماليك بالثورات وحوادث النهب والسلب والاعتداء على الأمن من أهالي القرى والمدن، حتى أن المراجع المعاصرة لا تشير إليهم دائما إلا تحت عنوان « فساد العربان » .

وقد حاول السلطان المعز أيك أن يقيد من قوة العربان في إحباط المحاولة التي قام بها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق لغزو مصر سنة ١٢٥٠ ، ولكن العربان أقفوا من الخسوف للمماليك، وثارت قبيلة بني تغلب - وهي أقوى قبائل العربان في الصعيد - ونادى زعيمها حصن الدين بن ثعلب « أنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خر جواعن البلاد ١ » (١) . وهكذا أعلن حصن الدين بن ثعلب نفسه ملكا على الصعيد، وأخذ يتصل بالناصر يوسف الأيوبي سنة ١٢٥٣ يرض عليه حلفا مشتركا ضد المعز أيك والمماليك ولم يكتب حصن الدين بالسيطرة على الصعيد، وإنما زحف على الوجه البحري ليستثير قبائل العربان ضد سلطنة المماليك ولكن السلطان أيك أرسل جيشا كبيرا ضده بقيادة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ونجح هذا الجيش في إنزال الهزيمة بالعربان وإخضاعهم سنة ١٢٥٣ (٢) .

والمعروف أن العربان لم يكن لهم من النظام والمهارة الحربية وحسن

(١) القرينى : السلوك ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢) القرينى : البيان والإعراب ص ٢٥ وما بعدها .

الاستعداد ما يناظر الممالك ؛ ولذلك لم يستطع العربان الثبات طويلا في وجه الممالك ، وفي كل مرة كانت الهزيمة تحل بالعربان ومع ذلك يعودوا إلى الثورة بعد قليل ، حتى سبوا كثيرا من الفوضى والمتاعب في ذلك العصر ، من ذلك أن حصن الدين بن ثعلب هاد إلى الثورة سنة ١٢٦١ في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، ولكن السلطان الظاهر استطاع أن يوقع به وشقه بالإسكندرية^(١) ، ويبدو أن شقيق حصن الدين بن ثعلب أحدث استياء العربان بالصعيد ، فثاروا وكثر طمعهم وهموا بتغيير الممالك ووثبوا على الأمير عز الدين الهواش والى قوص وقتلوه^(٢) ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أرسل إليهم جيشاً بقيادة الأمير عز الدين الأفرم ، فأوقع بالعربان وبدد شملهم وأخضعهم .

ومن الواضح أن العربان في مصر كانت تراودهم في أوائل عصر الممالك فكرة إقامة سلطنة عربية يكون الحكم فيها لهم ، وإذا كان تطور الأحداث قد أثبت لهم استحالة تنفيذ هذه الفكرة بعد أن ثبتت دعائم سلطنة الممالك فإن ذلك لم يمنع العربان من المشاركة في الأحداث السياسية الجارية حسبما تطالبت مصالحهم ؛ وكانت معظم حركاتهم تظهر عند قيام سلطان جديد أو أثناء حكم سلطان قاصر ، وهي فترات الاضطراب عادة في تاريخ دولة الممالك .

وهكذا عاد العربان إلى الثورة في الصعيد سنة ١٢٩٠ عند قيام السلطان المنصور قلاوون في الحكم ، ولكن الأمير طرطاي نائب السلطنة أنزل بهم الهزيمة قرب قوص ، وعاد ومعه عدد كبير من زعمائهم رهائن ، فضلا عن

(١) ابن فضل الله العمري : التعريف من ١٨٨ س .

المقرئى : البيان والإعراب ص ٤٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٧١ .

مائة ألف رأس من الغنم ومائتي فرس وألف جمل ، غنمها منهم^(١) ، ولم يرتدع العربان في الصعيد بعد ذلك ، إذ انتهزوا فرصة مرض السلطان قلاون سنة ١٢٩٠ وقاموا بثورة جديدة في منطقة قوص ولكن الأمير طرطاي حاد إليهم ليؤدبهم من جديد^(٢) .

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون انتهى العربان فرصة الخطر الذي حل بدولة المماليك من جهة غازان حاكم مغول فارس ، ومنعوا الخراج وأعلنوا الثورة على الحكومة سنة ١٣٠٠ ، ولكن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر زحف عليهم في الصعيد وأنزل بهم الهزيمة عند قوص وبطش بهم بطشاً شديداً^(٣) ، وعندما اشتد خطر العربان في الصعيد بعد ذلك حتى غدوا يسيطرون على الصعيد من أسبوط إلى منفلوط ؛ تظاهر الأميران بيبرس وسالار - أصحاب النفوذ في مصر في ذلك الوقت - بأنهما يمدان حملة لمحاربة المغول بالشام ، ثم حصلا على فتوى من القضاة والعلماء بمحاربة العربان ، وبعد أن اكتملت العدة اتجهت الجيوش إلى الصعيد حيث أحاطت بالعربان وصدرت الأوامر بأن يضع المماليك د السيف في الكبير والصغير والجليل والحقير ولا يبقوا شيخاً ولا صبيّاً ويحتاطوا على سائر الأموال^(٤) . وكانت هزيمة العربان في تلك المرة ساحقة بحيث لم يمكن إحصاء عدد القتلى لكثرتهم وجافت الأرض بجثث القتلى ، في حين فر الباقون إلى المغاور والسهوف ، ومن خلفهم المماليك يطاردونهم حتى هلك معظمهم (سنة ١٣٠١)^(٥) ، وقد

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .

(٣) بيبرس الهوادر : زبدة الفكرة ، ج ٩ ص ٣٩٠ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٢١ .

(٥) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٣ .

التويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٠ .

أدى تطرف المماليك في الانتقام والقتل في تلك المرة إلى إقفار البلاد وخلوها من أهلها ، بحيث أن الفرد كان يمشى في تلك الجهات دفلاً يجد في طريقه أحداً وينزل بالقرية فلا يرى إلا النساء والصبيان والصغار ، (١) .

ويبدو أن شوكة العربان قد كسرت بعد ما حل بهم سنة ١٣٠١ من بلاء على أيدي جيوش المماليك ، دفعاد من سلم من معتدى العرب فقيراً ورعاً صالحاً ، وحمل أكثرهم المسوك والمسيحة هوضاً عن حمل الرماح والأسلحة ، (٢) . وليس معنى ذلك أن حركات العربان ومتاعبهم وتوقفت بعد سنة ١٣٠١ ، وإنما المقصود أن تلك الحركات لم تعد تتخذ شكلاً سياسياً ، وإنما اتخذت صورة اقتصادية ، وهو ما نسميه المراجع هادة باسم فساد العربان وهكذا أخذ العربان في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يتطرفون في نهب الغلال وسلب المواشى ، وأحياناً يدفعهم الضيق الاقتصادي إلى الامتناع عن دفع الخراج والضرائب المقررة عليهم كما حدث سنة ١٣١٣ ، ١٣٣٠ ، (٥٧١٣ ، ٥٧٣١) في عهد السلطان الناصر محمد (٣) ومن أخطر الحركات التي من هذا النوع والتي قام بها العربان ، حركة ابن الأحمد شيخ قبيلة عرك سنة ١٣٥٣ (٥٧٥٤) في عهد السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد (٤) .

وفي نفس الوقت لم تسلم المدن الكبرى في عصر المماليك مثل أسيوط والاسكندرية — بل القاهرة — من عبث العربان وإغاراتهم عليها أو على أطرافها بغية السلب والنهب (٥) ، حتى الحجاج وهم في طريقهم إلى بيت الله

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٢٢ .

(٢) بيبس الدواهار : زبدة الفسكرة ج ٩ ص ٤٠٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٢٩ ، ٣٣٥ .

ابن حجر : إنباء الغمر ج ٤ ص ٣٥٧ .

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) أبو المعاسن : النجوم ج ٨ ص ١٤٩ .

العيني : عقد الجان حوادث سنة ٨٠١ .

الحرام عبر الصحراء الشرقية تعرضوا لعدوان الأعراب عليهم بالنهب والقتل (١). وهكذا ظل العربان طوال عصر المماليك مصدرًا هامًا من مصادر الفتنة والقتال وعدم الاستقرار (٢).

الحياة في المماليك :

الصفى المدن المصرية في عصر المماليك — مثل القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد — بتلاصق منازلها وضيق حاراتها واكتظاظ طرقاتها بالمارة والسوق والدواب . وقد أشاد الرحالة الذين زاروا مصر في عصر المماليك بمظمة المدن المصرية وكثرة سكانها إذا قيست بغيرها من المدن الأوروبية المعاصرة مثل روما وفلورنسا وباريس . وكان أهم ما استرعى انتباه أولئك الرحالة كثرة الباعة الجائلين في الطرقات ، فضلا عن كثرة الدواب . فالخيول يركبها المماليك يركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة وهم يضربون الناس يمنة ويسرة ليشفقوا طريقهم ، خير مبالغين إذا سقط بعض المارة تصفح حوافر الخيل . والجمال العديدة يطوف بها السقاةون وهى تحمل القرب لإمداد المنازل والأسواق بحاجاتهم من الماء . وقد البلى المغربي عدد الجمال في القاهرة بما يتراوح بين خمسين ألفا ومائتى ألف جمل ، وعدد السقاة بين خمسة آلاف وستين ألف سقاء يجولوا أنفسهم عند المحسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل (٣) . أما الخيول التى قامت بدور سيارات الأجرة فى أيامنا فقد بلغت عددا كبيرا ، وعنى أصحابها بتطعيمها ليستأجرها الناس فى قضاء حاجاتهم وسفرياتهم .

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ — ٨٥٩ .

(٢) سعيد ماضور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٥٢ — ٥٤ .

(٣) رحلة البلى المغربى ص ٥٥ (مخطوط) .

ووصف التاجر الروسى باسل القاهرة في عصر المماليك بأن بها أربعة آلاف شارع ودرب ، كل منها له بابان وحارسان ، وبكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلا عن سوق كبير لاسد الحاجات اليومية للسكان . وفي الليل تضام تلك الشوارع بالمصابيح بعد أن اتفاق أبوابها واشدد الحراسة عليها ، فيرتب لها جماعة من الطواف لكشف الأذى وخلق الدروب وتمقد أصحاب الأرباع وتأديب المخالف ، ومن سار في الليل لغير سبب قبض عليه . وعينت السلطات بالقاهرة بنظافة الشوارع بالكفس والرش بالماء ، وهي المهمة التي قام بها الباعة وأصحاب الحوانيت . كذلك وضعت آنية ملوثة بالماء عند أبواب الحوانيت لتسييل إطفاء ما يقع من حرائق . وأمر بعض السلاطين - مثل بيبرس - بإخراج البرصاء والمجدومين من القاهرة ، وإنذار من يبق منهم داخل أسوارها بالقتل^(١)

وزخرت المدن المصرية عامة والقاهرة خاصة في عصر المماليك بكثير من المنهآت العامة من الوكالات المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم ، والمارسات أو المستشفيات لعلاج المرضى ، والأسبلة لتيسير حصول الناس والدواب على ماء الشرب ، والحمامات التي اقتص بعضها بالرجال والبعض الآخر بالنساء ، فضلا عن عديد المساجد والمدارس . أما سجون ذلك العصر فكانت على أنواع منها ما هو خاص بالأمراء والمماليك والجند ، ومنها ما هو خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم ، ومنها ما هو خاص بالنساء المذنبات . ويفهم من المراجع المعاصرة أن هذه السجون بلغت درجة مخيفة من الخطية والقدارة وسوء معاملة المسجونين فيها ، حتى أن الإعدام كان في كثير من الأحوال أهون من عقوبة السجن^(٢) .

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) السخاوي : التبر المسبوك ص ١٤٦ .

المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٧٦١ .

وعلى الرغم من المتاعب والأزمات التي تعرض لها عامة الناس في عصر المماليك ، فإن روح المرح والرغبة في التسلية ، والترويح عن النفس ظلت تسود حياة أهالي المدن . وقد اعتاد الناس في ذلك العصر الخروج إلى الحدائق والمتنزهات مثل بركة الرطلى وبركة الحبش وجزيرة الروضة ، أو إلى شاطئ النيل - حيث الحدائق والأشجار والزهور - طلباً للتسلية والترويح . وكثيراً ما كانوا يستأجرون القوارب في النيل ويصطحبون معهم المغاني وآلات الطرب لقضاء وقت سعيد بين أمواج النهر الخالد (١) . كذلك اشتهر من وسائل التسلية في عصر المماليك خيال الظل ، فضلاً عن ولع الناس بالتلهي بتطهير الحمام ونطاح الكباش ومناقرة الديوك والمصارعة وغيرها من الألعاب التي كانت تتم عن طريق الرهان (٢) .

واشتهرت الحياة في المدن في عصر المماليك بالحفلات الصاخبة التي انقسمت إلى أنواع منها ما هو خاص عائلي ومنها ما هو عام شعبي ، وأشهر الحفلات العائلية ما اختص بالزواج ، إذ جرت العادة عندئذ على إقامة الولائم الحافلة واستحضار المغنيات وضاربات الدفوف ، مما يجعل الحفل صاخباً كبيراً . ومثل ذلك يقال عن الحفلات الخاصة بالولادة - وبخاصة إذا كان المولود ذكراً - وختان الطفل وغيرها من المناسبات السعيدة التي تستحق مشاركة الأهل والأحباب في إحيائها (٣) .

أما الاحتفالات العامة فمنها ما هو ديني يرتبط بمناسبات إسلامية ، ومنها ما هو قومي حرص جميع المواطنين من مسلمين وغير مسلمين على إحيائها وأول الأعياد الدينية هو عيد رأس السنة الهجرية ، وفيه كان السلطان يصرف أرزاقاً

(١) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٦ .

(٢) القرينى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ، ص ٧٥٤ .

(٣) ابن حجر : إنباء الفرج ج ١ ص ٥٦٠ ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

إضافية ، ويطلع الخليفة والقضاء الأربعة إلى القلعة لينشئوا السلطان بالعام الجديد^(١). وفي طاهر المحرم يكون الاحتفال بعاشواره فيوسع القادرون على الأهل ، والأقارب واليتامى والمساكين ، كما يتمسكون في هذا اليوم بطبخ الحبوب وزيارة القبور وطلائق البخور . أما طائفة الشيعة فكانوا يحرسون على إقامة عزاء الحسين في ذلك اليوم فيشد شعراؤهم القصائد وفق ما جرت به العادة في مصر الفاطمية ، في حين يناظرهم شعراء السنة ويردون عليهم^(٢) . ثم يأتي بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوي في شهر ربيع الأول فيقيم السلطان خيمة المولد بالقلعة ، وتعلم الأحواض بعصير السكر والليثون ليقيم منها للوافدين دون تفرقة بين كبير وصغير . ويبدأ الاحتفال بعد الظهر وينتهي عند ثلث الليل فيتعاقب القارئون والمنشدون والوطاظ ، كما تمد الأسيمطة بأنواع الحلوى والمأكولات الشهية^(٣) . وعند ثلث الليل يبدأ السماع الذي يستمر حتى الفجر ، فتأتى طوائف الصوفية طائفة بعد أخرى ويستمررون في الذكر والسلطان جالس في صدر الخيمة . كذلك يقرب عامة الناس موعد المولد ليقبوا الولائم ويتصدقوا على الفقراء ويظهروا السرور . وكانت بعض حفلات المولد النبوي خاصة بالنساء وعندئذ « تكثر البدع والمخالفات »^(٤) .

وكان الاحتفال بدوران الحمل يتم مرتين في السنة في عصر الماليك الأولى في النصف الأخير من شهر رجب وقد استحدثها السلطان بيبرس لإعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن ، وأن من شاء فلا يتأخر ولا يتخوف ،

(١) السخاوي : التبر المسبوك ص ١٤٥ ، ٢٥٤ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) سعيد عاشور : المهتم المصري في عصر سلاطين الماليك ص ١٢٩ .

(٤) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١١ .

وبذلك تتهيج المزمار وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء في التأهب للحج^(١)، وتكون الدورة الثانية في شوال وهي دورة خروج المحمل ويحتفل فيها بإحراق النفط وعمل الصواريخ، على حين يخرج الناس من كل مكان للفرجة ويتغالون في رينة الحوائت والأسواق، ولا تكون دورة خروج المحمل غالباً إلا يوم اثنين أو خميس، فتوضع الكسوة - وهي من الحرير الثمين المطرز بالذهب والفضة - على جمل، ويطوف المحمل بشوارع القاهرة حتى يصل إلى الفسطاط في يوم مشهور^(٢).

أما شهر رمضان فكانته معروفة عند المسلمين في كل زمان ومكان، وقد وصف الرحالة ابن بطوطة طريقة احتفال المصريين بروية هلال رمضان في عصر المماليك، كما وصف غيره من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر في ذلك العصر كيفية إحياء الأهل إلى ليالي رمضان بإضاءة الفوانيس والمشاعل في الطرقات والبيوت والحوائت. هذا فضلاً عن الاحتفالات بالقلمة حيث يقرأ صحيح البخاري وتوزع الصدقات على المستحقين^(٣)، وفي نهاية رمضان يحل عيد الفطر ليستعد له الناس بعمل الكعك والحلوى، وإعداد الملابس الجديدة، وكانت معالم القاهرة تكتظ بالناس سواء في عيد الفطر أو عيد الأضحى، فتخرج جموعهم إلى شاطئ النيل لاستئجار المراكب أو إلى القرافة للرقص والغناء، وفي جميع هذه الأحوال تسكن المفاصل الخلقية^(٤)، ومثل ذلك يقال عن عيد الأضحى.

أما الأعياد القومية في عصر المماليك فكانت كثيرة ومتنوعة، منها ما ارتبط بالسلطين مثل الاحتفال بتولية سلطان جديد أو لإبلال السلطان

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٩٢.

(٢) المقرئى: السلوك ج ٣ ص ١٥، ٤٧٤.

(٣) أبو المحاسن: النجوم ج ٦ ص ٥٧٩ (طبعة كاليفورنيا) ٩
مورد الاطاعة ص ٩٩.

(٤) سميد عاشور: المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ١٨٩.

من مرض أو عودته سالماً من سفر أو ظافراً من حرب ، وفي جميع هذه
الاحتفالات تزين القاهرة ومصر بالزينات الفاخرة ، ويخرج السلطان في موكب
حافل فيمرع الناس للفرجة وسط قرع الطبول وزغاريد النساء (١) ، وئمة
مناسبة سعيدة حرس المصريين منذ أقدم العصور على إحيائها والاحتفال بها
كل عام هي عيد وفاء النيل ، وعندئذ يحتفل بكسر الخبز في موكب يسير فيه
الحراريق والسفن المزيّنة بالأعلام ، وعند وصول السلطان أو نائبه إلى
مقاس الروضة يد سماء كبير من الشواء والحلوى والفاكهة وسط ابتهاج
الناس وفرحهم (٢) .

الثورات والفن السياسية :

على أن المدن والقاهرة لم تظل على حال واحد من الهدوء والسكينة
والأعياد والاحتفالات طوال عصر المماليك ؛ وإنما كثيراً ما كانت تشتعل
الثورات المفاجئة في العاصمة ؛ ولا تلبث أن تمتد أحياناً إلى بعض أنحاء البلاد
والمدن الكبرى فتتحول تلك الصورة الهادئة المرحية إلى صورة مضطربة قائمة .

ومعظم الثورات والفن السياسية التي شهدتها البلاد في عصر المماليك كان
مصدرها طوائف المماليك أنفسهم . ذلك أن الحقيقة التاريخية الكبرى التي
تحكمت في تاريخ سلطنة المماليك من أوله إلى آخره ووجهت ذلك التاريخ في
داخل دولتهم ؛ هي اعتقاد المماليك اعتقاداً راسخاً حقيقياً بأنهم جميعاً - بحكم
أصلهم ولشأنهم وطبيعة التطور الذي مروا به - متساوون ، ولا فرق بين
ملوك وآخر إلا بما حباه الله من صفات خاصة كالشجاعة والذكاء والمهارة

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) لوقوف على الحياة الاجتماعية في عصر المماليك في صورة مفصلة دقيقة ارجع إلى

كتاب :

المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك - لمؤلف .

في استخدام السلاح والقدرة على استغلال الظروف .

ومادام الأمر كذلك ، فإن جميع المماليك اعتقدوا أن لهم حقاً مشروعاً في السلطنة ، والمملوك الطموح مهما تقل رتبته أو يصغر شأنه ، فإنه كان يتطلع دائماً إلى اليوم الذي يصبح فيه أميراً كبيراً ، وعندئذ يستطيع أن يستغل مواهبه في أن ينزع لنفسه دست السلطنة ، مثلما فعل غيره من السلاطين السابقين . ولا شك في أن عدم وجود نظام وراثي أو قاعدة معينة ثابتة لاختيار السلاطين في عصر المماليك ، وتطلع كبار الأمراء دائماً للوصول إلى منصب السلطنة ، أدى إلى كثير من الفتن والثورات والاضطرابات التي شهدتها ذلك العصر ، وبعبارة أخرى فإننا نستطيع أن نقرر أن معظم القلاقل والفتن التي شهدتها عصر المماليك في مصر والشام إنما كان مصدرها رغبة الطموحين من الأمراء في الوصول إلى قمة الهرم المماليكي الكبير واحتلال دست السلطنة ، وكان يكفي أن يرجف بوقاة سلطان أو مرضه أو هزيمة جنوده حتى تضطرب أحوال البلاد^(١) ، وكان يكفي أن يعلن قيام سلطان جديد في الحكم حتى يعلن منافسوه من كبار الأمراء - في الشام أو في مصر - عدم رضاهم عنه وثورتهم عليه ، مما ينذر بدور جديد من أدوار الشدة التي اعتادت أن تمر بها البلاد والعباد في ذلك العصر ، وفي جميع تلك الحالات كانت طوائف المماليك العديدة تجد فرصتها سانحة ، فيثور المماليك ويوالوا الاجتماعات الليلية وتأسيس العصابات السرية للبيجان^(٢) ، ثم ينتشرون في الأسواق والطرق لنهب الحيوانات وخطف العمائم وانتزاع الخيول من أصحابها ، بل كانوا يجمعون أحياناً على النساء في بيوتهم وفي الحمامات

(١) ابن أبياس : بمائم الزهور ج ٢ ص ٢٣٥ .

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ .

فيخطفون^(١).

ويضيق بنا المقام عن تتبع هذه الثورات طوال عصر المماليك ، فقد سبقتنا الإشارة إلى معظمها في صفحات الكتاب السابقة عند الكلام عن كل سلطان من سلاطين دولتي المماليك الأولى والثانية . وسواء كانت هذه الحركات مصدرها بعض كبار أمراء الدولة في الشام أو في مصر ، فإنها انفقت جميعاً في نتائجها وهي إما انتصار السلطان الجديد على خصومه ، وإما مقتله أو نفيه ، وإما فراره واختفائه إلى أن تتاح له فرصة الظهور واسترداد عرشه . أما أثر هذه الحركات في مجرى تاريخ دولة المماليك فكان خطيراً ، إذ صبغ ذلك العصر بهبغة خاصة ليس لها نظير في تاريخ مصر والشام في العصور الوسطى ، وجعله يتصف إلى حد ما بطابع معين من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي . ويكفي أن نشير إلى ما كان يصحب تلك الفتن من إغلاق الأسواق والحوادث والأبواب التي تفصل بين أحياء المدينة ودروبها فتتمهل جميع مظاهر النشاط العمراني ، وربما استمرت الأوضاع على ذلك بضعة أسابيع يقامى الناس طواها الجوع والفوضى والفرع^(٢) ،

المجاعات والأوبئة:

ولم تكن الاضطرابات التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك منشؤها التنافس بين كبار الأمراء حول منصب السلطنة أو غضب بعض المماليك بسبب سوء التوزيع الإقطاعي وقلة النفقة المعطاة لهم من السلطان لحسب ، بل وجدت أيضاً أسباب طبيعية كثيرة ما تسببت في إثارة الفتن ونشر الاضطرابات في

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٦٤

أبو الحسن : النجوم ج ٥ ص ٤٠١ .

(٢) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٨٩ .

البلاد. ذلك أن عدم إمكان التحكم في مياه النيل في تلك العصور ، كان يترتب عليه انتشار المجاعات عندما ينخفض الفيضان ، مما يؤدي إلى فساد الزراعة وقلة المحصولات ، وكثيراً ما كانت تلك المجاعات مصحوبة بانتشار الأوبئة والطواعين ، الأمر الذي أفضى إلى موت الآلاف من الناس وقلة الأيدي العاملة ، وبذلك يتوقف معظم مظاهر النشاط العمراني في البلاد .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة المجاعات والأوبئة التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك ، ولذلك نكتفي بالإشارة السريعة إلى أهمها لنأخذ فكرة عن قسوتها من ناحية وما كانت تتعرض له البلاد والعباد بسببها من ناحية أخرى . من ذلك ما حدث سنة ٦٩٤ - ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ - ١٢٩٦ م) من توقف نزول الأمطار في الغمام ، فاشتد الغلاء واضطر الناس إلى صلاة الاستسقاء^(١) . وفي نفس الوقت - وكان ذلك في عهد السلطان العادل كتبغا - انخفض فيضان النيل عن مستواه فتزايد الغلاء واشتد البلاء ، وجاء الغلاء مصحوباً بانتشار الطاعون فكان يموت بالقاهرة ومصر كل يوم بضمة ألوف ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملقى في الممرات اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأموالهم والسقماء بأمر اضمهم^(٢) .

أما وباء سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) ، فلم يكن له نظير في قسوته ومصرعة انتشاره . ولم يكن هذا الوباء قاصراً على دولة المماليك في مصر والشام ، وإنما دهم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، جميع أجناس بني آدم وغيرهم ، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر^(٣) ، وقد عرف ذلك الوباء في أوروبا باسم الطاعون الأسود ، وحكى المقرئى الكثير عن البلاد

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٨ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩ .

(٣) المقرئى : السلوك - حوادث سنة ٨٤٩ هـ ج ٢ ص ١٧٣ .

تلقى انتشار فيها ، في آسيا وأوروبا وأفريقية ، فضلاً عن جزر البحر المتوسط كذلك يروى المقرئى أنه كان يموت بالقاهرة ومصر في اليوم الواحد بسبب ذلك الوباء ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف ، وأن الفلاحين بأسرهم ماتوا فلم يوجد من يهضم الزرع ، ، وأن المواشى هلكت ، ومات صيادو السمك في دمياط وهم في سفنهم والشباك بأيديهم مملوءة سمكاً ميتاً ، وهكذا أفقر الريف من الزراعة وأفقرت المدن من سكانها ، بحيث غدت القاهرة خالية مقفرة ، لا يوجد في شوارعها مار ، بحيث يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لكثرة الموتى والاشتغال بهم ، ومعنى ذلك توقف جميع ألوان النشاط العمراني ، فتمطلت أكثر الصنائع ... ، وصارت كتب العلم يتنادى عليها بالاحمال . . . وعدمت جميع الصنائع فلم يوجد سقاء ولا بابا ولا غلام ، ؛ حتى المساجد والزوايا أغلق معظمها وتعتل الأذان من عدة مواضع (١) .

وفي عصر دولة المماليك الجراكسة انتشرت المجاعات والأوبئة أيضاً عدة مرات ، مما سبب مصائب كثيرة للعباد والبلاد (٢) . وقد حدث في عهد الأشرف قايتباي وحده أن انتشر الطاعون ثلاث مرات ، أشهرها ما كان سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . عندما هجم الطاعون بالقاهرة ونشئ جملة واحدة ، وقتل في الناس فتسكا ذريعا ، واستمر الطاعون يفتك بأهل مصر والقاهرة بضعة أشهر حتى انتهى جملة واحدة ، ومشئ نحو بلاد الصعيد (٣) . وقد جرت عادة سلاطين المماليك عند نشئ الطاعون في البلاد أن يخرجوا بعيداً عن العاصمة طلباً للنجاة فيقصدون مرياقوس أو غيرها من المواضع ؛ ولكنهم مع ذلك لم يسلموا أحياناً من الأذى . من ذلك ما يرويه ابن إياس من أن

(١) المقرئى : السالك ج ٢ ص ٧٧٢ — ٧٨٦ .

(٢) المقرئى : لغاية الأمة ص ٧ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ — ٢٩٢ (نشر محمد مصطفى) .

السلطان برسباي أصيب في طاعون سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) « فحصل له ما يؤول إلى أي ارتباك في قواه العقلية ، وصار يصدر أوامر غريبة مثل نفي الكلاب إلى الجيزة ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات وغيرها (١) » .

في كثير من الأحيان نجد المعاصرين يفسرون تلك الأزمات التي كانت تحل بهم في ضوء فساد الناس وخروجهم عن طاعة الله وإسرافهم في المعاصي مثل شرب الخمر وغير ذلك . لذلك نجد في المراجع المعاصرة أن الدعوة إلى التوبة إلى الله تملأ في أوقات الأزمات - من مجاعات وأوبئة - فيسارع الناس إلى إراقة الخمر ، والكف عن السيئات عسى أن يتوب الله عليهم ويكشف عنهم الغمة ، وقد لجأ سلاطين المماليك في أوقات الشدة - مثلما حدث سني ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ ، ٩٢٢ - إلى إصدار الأوامر بإراقة الخمر وتكريم تعاطيها في مختلف أنحاء البلاد إظهاراً للتوبة (٢) ، ولكن مفعول هذه الأوامر كان لا يستمر طويلاً ، إذ لا يلبث أن يعود الناس إلى سابق ومنهمهم ولم ينتهوا عما هم فيه (٣) .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) ابن حجر : أنباء الفجر ج ٢ ورقة ٢٤٤ ، ٣١٤ ، ٢٤٩ .

المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤ ، ج ٣ ص ٣٥٤ .

العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٠٩ هـ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٥ .

الفصل الحادى عشر

الحياة العلمية والدينية

النشاط العلمى فى عصر المماليك :

زار مصر سنة ٧٣٧هـ الرحالة البلوى المغربى (١٢٣٦م) فأبدى إعجابه الشديد بالنشاط العلمى فى البلاد وقال إن مصر منبع العلم^(١) . والحق إن مصر أصبحت على عصر سلاطين المماليك ميداناً للنشاط العلمى واسع ؛ يدل عليه ذلك التراث الضخم من موسوعات أدبية وكتب تاريخية ومؤلفات فى العلوم الدينية تركها علماء ذلك العصر . ويربط السيوطى بين هذا النشاط العلمى الواسع فى مصر بالذات على عصر المماليك وبين إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد أن سقطت فى بغداد ، ويقول إنه منذ إحياء الخلافة العباسية فى مصر ، غدت هذه البلاد محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء^(٢) . أما ابن حجر فيقول عن بعض علماء الشام وغيرها من البلاد الإسلامية أنهم قالوا عن بلادهم وهذا بلد ضيق عن علمي ، وهجروها إلى مصر^(٣) .

والواقع أنه ما كان لهذا النشاط العلمى أن يزدهر فى مصر فى عصر المماليك لولا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء . وقد وصف أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس بأنه كان يعيل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب^(٤) . وهكذا عاد الجامع الأزهر فى عهد الظاهر بيبرس إلى

(١) رحلة البلوى المغربى ورقة ٥٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) ابن حجر : رفع الأصر عن قضاة مصر ورقة ١٦٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢ .

سابق عهده، قضية اطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي؛ وظهر في عصر
بيبرس بعض أعلام الأدب والتاريخ أشهرهم محي الدين بن عبد الظاهر وابن
خلدكان وجمال الدين بن واصل (١).

كذلك وجد من سلاطين المماليك — كالسلطان الغوري — من حرص
على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع. وقد
بحثت في تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية، التي تناقش
فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء (٢). كذلك نسمع عن بعض أمراء
المماليك وأبنائهم في مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية،
بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم (٣).

المدارس والمكتبات :

ولا أدل على رعاية سلاطين المماليك للنشاط العلمي من حرصهم على إنشاء كثير
من المدارس، فضلاً عن المؤسسات الأخرى التي قامت أحياناً بوظيفة المدارس
مثل المساجد. والمعروف أن السلطان صلاح الدين عني عناية خاصة بإنشاء
المدارس وأنشأ بعض المدارس الشهيرة مثل المدرسة الناصرية والمدرسة الصلاحية
والمدرسة القممحية (٤). ولكن إذا كان صلاح الدين وخلفاؤه من بني أيوب قد
استمروا من إنشاء المدارس أن تكون قبل كل شيء مراكم للنشر المذهب السني
ومحاربة العقيدة الشيعية في البلاد؛ فإن سلاطين المماليك أكثروا من إنشاء
المدارس لإظهاراً لشعور التقوى والزلفى من ناحية وليتخذوا من المدرسة أداة

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٥ .

(٢) عبد الوهاب عزام : مجالس الغوري ص ٤٩ .

(٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٢١ ، ٤١٥ .

(٤) المقرئى : المواظ ص ٢ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ (بولاق) .

تضمن بقاء الحكم في أيديهم وتساعد على تدعيم مركزهم في أعين الشعب (١). ومن المدارس العديدة التي أسسها سلاطين المماليك المدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس الذي وضع أساسها سنة ١٢٦١؛ والمدرسة الناصرية التي شيدها السلطان الناصر محمد ١٣٠٣، ومدرسة السلطان برقوق التي أنشأها بين القصرين سنة ١٣٨٦. ولم تكن جميع المدارس التي شيدها سلاطين المماليك في المدن الكبرى، وإنما شيد في القرى والريف مثل مدرسة سرياقوس التي أنشأها السلطان برسباي. ومن جهة أخرى فإن سلاطين المماليك لم يقتصروا في إنشاء المدارس على مصر؛ وإنما أقاموا كثيراً منها في مختلف أنحاء دولتهم الواسعة. ومن ذلك ما نسمعه عن أن السلطان قايتباي أنشأ مدارس عديدة في مصر والشام والحجاز، كما أنشأ السلطان الغوري مدرسة في مكة. أما أمراء المماليك فلم يكونوا أقل حماسة لإنشاء المدارس من السلاطين. ومن أشهر المدارس التي أقامها أمراء المماليك المدرسة الجمالية أو المحمودية التي بناها سنة ١٤٠٨ الأمير جمال الدين محمود، وهو أحد أمراء السلطان فرج بن برقوق. وقد تعرض المقرئ لهذه المدرسة فوصفها بقوله إنها «من أحسن مدارس مصر» (٢).

وجرت العادة عند الفراغ من إنشاء مدرسة في عصر المماليك أن يحتفل بافتتاحها احتفالاً كبيراً يحضره السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان، ويمد سماءها فاخر في صحن المدرسة به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه. وبعد أن يخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة من المعلمين والبنائين والمهندسين، يمين المدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء

(1) Ibrahim Salama : L'Enseignement islamique en Egypte, pp . 60 — 64 .

(٢) المازني : المواعظ ج ٢ ص ٣٩٥ — ٣٩٧ .

والفراشين وغيرهم^(١).

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر، يخضع السلطان على صاحبها ويكتب له توقيعا من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس نفسه إما كانت أو حديثاً. وفي هذا التوقيع يقدم السلطان النصيح للمدرس بأن يظهر «مكتون علمه» للطلاب، ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه مشرح الصدر ليستميل إليه طلبته «وبريهم كما يربي الوالد ولده»^(٢). كذلك طلب من المدرس «أن ينظر في طلبته ويحتم كل وقت على الاشتغال»^(٣).

وجرت العادة على تعيين معيبد أو أكثر لكل مدرس، ليعيد للطلبة ما ألغاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح^(٤). أما الطلبة فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التي يدرسونها بحيث «لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة ما يختاره من أنواع العلوم الشرعية»^(٥). وكثيراً ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية، بحيث ينتقل طالب العلم من بلد بعيد ليلتحذ على فقيه أو محدث مشهور^(٦). فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس، أجاز له شيخه ذلك، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك. ولا شك في أن قيمة هذه الإجازة كانت تتوقف على سمعة الشيخ الذي صدرت عنه ومكانته العلمية^(٧).

(١) ابن حجر: إنباء الفهر ج ١ ص ٧٧٢.

المريزي: السلوك ج ٣ ص ٤٦٤.

(٢) الفلقشندی: صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧.

(٣) النويری: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤١.

(٤) المريزي: السلوك ج ١ ص ٧٠٠.

(٥) النويری: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٥.

(٦) سعيد حاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٥.

(٧) الفلقشندی: صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ — ٣٢٦.

والواقع إن المدارس في عصر المماليك تمتعت بدخل مالي ثابت مكفها من أداها رسالتها وتدعيم نظامها . أما هذا الدخل فكان مصدره الأوقاف — من أراض وبيوت وأسواق ومعاصر وغيرها — ؛ وهي أوقاف كان ينفق من ريعها على المدرسة ومن فيها من مدرسين وطلاب علم وموظفين (١) .

المكتبات :

وإذا كانت الحياة العلمية قد نشطت في عصر المماليك ، فإنه يلاحظ أن الركن الأول للنشاط العلمي في أى زمان ومكان هو الكتب والمكتبات . فبدون الكتب والمكتبات لا تستطيع المدارس أن تؤدي مهمتها ، ولا يستطيع المتعلمون والمعلمون أن يواصلوا رسالتهم . لذلك لا عجب إذا شهد عصر المماليك نشاطاً منقطع النظير في التأليف من ناحية وفي جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية ثانية . وكان سلاطين المماليك أنفسهم أول من قدر أهمية الكتب فاحتفظوا في قلعة الجبل بخزانة كتب جليلة القدر ، حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية وغير الدينية . وقد ظلت هذه المكتبة عامرة بالكتب محفوظة بأهميتها ، رغم الحريق الذي تعرضت له سنة ١٢٩٢ على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٢) .

أما مكتبات المدارس والجامع في عصر المماليك فكانت على درجة فائقة من الإعداد والغنى . فإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد أنشأ المدرسة الظاهرية ، فإن المراجع تشير إلى أنه ألحق بتلك المدرسة خزانة كتب جليلة تشتمل على مجموعة ضخمة من المراجع في مختلف العلوم (٣) . وكذلك حرص السلطان المنصور قلاوون

(١) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) انقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٢ .

أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٣٣ .

(٣) عبد اللطيف إبراهيم على : المكتبة المملوكية ص ١٦ .

على أن يزود مكتبة المدرسة المنصورية بالكثير من كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعراء^(١). وكذلك المدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد، إذ أنشأ بها «خزانة كتب جليلة».

ولم يقل سلاطين المماليك الجراكسة عناية بالكتب عن سلاطين دولة المماليك الأولى أو الأتراك، فنسمع عن خزان الكتب العامرة التي ألحقها سلاطين الجراكسة مثل الظاهر برقوق والمؤيد شيخ والأشرف قايتباي والأشرف قانصوه الغوري بمدارسهم^(٢). هذا مع ملاحظة أن خزانة الكتب في عصر المماليك لم تلحق بالمدارس فحسب وإنما ألحقت أيضاً بالخانقوات والجوامع، وذلك تحقيقاً وتعميماً للفائدة العلمية المرجوة. وفي جميع الحالات قام بالإشراف على خزانة الكتب «خازن الكتب» ومهمة ترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحجبها وتزيمها بين حين وآخر؛ فضلاً عن إرشاد القراء إلى ما يلزمهم من مراجع لذلك كان يختار لخزانة الكتب عادة فقيهاً أو عالماً يراعى فيه سعة العلم والأمانة^(٣).

وكانت عملية تغذية المكتبات بالكتب مستمرة، فبالإضافة إلى مجموعة الكتب التي يهبها صاحب المدرسة على خزنتها، استمرت المكتبات تحصل على جديد من الكتب إما عن طريق الهدايا والهبات وإما عن طريق النسخ وإما عن طريق الشراء^(٤). ولعل صعوبة نسخ الكتب والحصول عليها في ذلك العصر، هي التي أطلبت تحريم إعارة الكتب خارجياً تحريماً يائناً إلا في حالات نادرة خاصة. ومعنى ذلك أن الاستفادة من الكتب اقتصر على الاطلاع

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٢ .

(٢) عبد اللطيف إبراهيم : المكتبة المملوكية ص ٢٤ — ٣٣ .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٦ .

(٤) عبد اللطيف إبراهيم : المكتبة المملوكية ص ٤٩ .

الداخلي وفق شروط خاصة تضمن المحافظة على المكتب وعدم استهلاكها (١).

المطابق :

وإذا كانت المدارس في عصر المماليك تمثل المهاد العليا أو الجامعات فإن المكاتب نهضت عندئذ بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم . ويبدو أن الهدف الأساسي من إنشاء معظم المكاتب كان تعليم أيتام المسلمين ، ولذلك أقبل الخيرون على إقامتها وحبس الأوقاف عليها رغبة في الثواب . وكان يقوم بتعليم الأطفال في المكتب « المؤدب » الذي أطلق عليه أحيانا اسم « الفقيه » ، واشترط فيه أن يكون « خيراً ديناً أميناً على أطفال المسلمين ، متين الخلق عفا متزوجاً طارفاً بصناعته صالحاً للتعليم » . وساعد المؤدب في عمله « العريف » وهو أشبه بالمعيد في المدارس ، إذ كان يعاون المتخلفين من الأطفال ، ويعرضون عليه ألواحهم في غيبة المؤدب (٢) . وربما كان في المكتب الواحد أكثر من مؤدب وعريف إذا تطلبت كثرة الأطفال ذلك ، بحيث يكون لكل مؤدب عدد معين من الأطفال يقوم بالإشراف عليهم وتعليمهم . وقد ذكر النويري كيف أن السلطان المنصور قلاوون رتب في مكتب السبيل - الذي أنشأه - فقيهين - « يعلمان من كان صغيراً من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، ورتب لهما جامكية في كل شهر وجراية في كل يوم ، وهي لكل منهما في كل شهر ثلاثون درهما ، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال ، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف . ورتب للأيتام لكل منهم في كل يوم رطلان خبزاً ، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف » (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٢) سميد هاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

وكانت مناهج التعليم في هذه المكاتب تدور حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين ، فضلا عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر . ويبدأ الأطفال بالكتابة في ألواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة بالمداد ؛ فإذا بلغ الطفل الحلم و زالت عنه صفة اليتم ، صرف من المكتتب ليحل محله مستحق آخر ، وقد أوصى المؤدب بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو عليهم ولا يضربهم ، إلا إذا أساء صبي منهم الأدب وعندئذ يضربه المؤدب ضربا وسطا يؤلم ولا يؤذي (١) .

فإذا أتم الصبي حفظ القرآن في المكتتب ، احتفل به احتفالا كبيرا يسمى « الاصرافة » فتزين أرض المكتتب وحيطانه وسقوفه بالحرير ، ويقوم أهل الصبي صاحب الاصرافة بزيئته بقلائد الذهب والعنبر ، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقا فيها نياپ من حرير وعيائم ، على حين يمشى بين يديه بقية صبيان المكتتب ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه إلى بيته . وعند البيت يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأم صاحب الاصرافة فتعطيه ما تقدر عليه من المال (٢) .

النشاط الديني :

أما عن الحياة الدينية . فالملاحظ أن مصر شهدت في عصر المماليك نشاطا دينيا منقطع النظير . وقد يكون السر في هذا النشاط الديني الكبير هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، مقتصبون للحكم والعرش من أصحاب الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن يتخذوا من الدين ورجالہ ستارا يخفي

(١) ابن الأخرة : معالم القربة في طلب الحسبة ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٣٣١ - ٣٣٣ .

هذه الحقائق عن أعين المحكومين ، ويقربهم إلى قلوب الشعب . وما دام الماليك مسلمين ، يؤمنون بالله ورسوله ، ويحرصون على إقامة شعائر الدين وإحياء سنن الأولين ، ويعمرون مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، فهم إذاً حكام صالحون ، ولا داعي للتفكير كثيراً في أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم .

وثمة ملاحظة أخرى ، هي أن جزءاً كبيراً من النشاط الديني في عصر الماليك كان موجهاً لخدمة المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي . ذلك أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه من سلاطين بني أيوب لمحاربة الشيعة والتشيع في مصر ، إلا أن الكثير من آثار المذهب الشيعي ظلت قائمة في عصر للماليك . وقد لجأ سلاطين الماليك إلى استخدام العنف أحياناً لكبت الشيعة ، حتى أن الناس في ذلك العصر كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسوا عليه من رماه بالتشيع ، فتصادر أملاكه وتنال عليه العقوبات والإهانات ، حتى يظهر التوبة من الرفض ، (١) . وفي الوقت نفسه حارب سلاطين الماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر ، فأمر السلطان الظاهر بيبرس ١٢٦٧ (٥٦٦هـ) باتباع المذاهب السنية الأربعة وتحریم ماعداءها ، كما أمر بالأيولي قاضي ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ، ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب ، (٢) .

وثمة وسيلة اتخذها سلاطين بني أيوب ، وانبهم فيها سلاطين الماليك ، لمحاربة المذهب الشيعي والحد من انتشاره في البلاد ، هي إنشاء المدارس . وقد سبق أن تكلمنا عن أهمية المدرسة من الناحية العلمية ، ولكن الحقيقة الكبرى التي لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا هي أن صلاح الدين عندما أنشأ أولى المدارس

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٦ .

(٢) المقرئزي : المواعظ ج ٤ ص ١٦١ .

في مصر ، إنما استهدف أن تكون المدرسة - قبل أى اعتبار آخر - مركزاً لتدعيم الفقه السني . وقد راعى هذا المبدأ خلفاء صلاح الدين ، فأقاموا المدارس واشترطوا أن تكون كل منها خاصة بتدريس مذهب أو مذهبين من مذاهب السنة الأربعة ، حتى كانت المدرسة التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٣ (٥٦٤٠) ، وهي أول مدرسة بنيت في القاهرة على المذاهب الأربعة - الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي - واستمرت هذه المدرسة تؤدي رسالتها في خدمة السنة حتى القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي - على أيام المؤرخ نقي الدين المقرئى (١) . وهكذا سار المالكي على سنة الأيوبيين في إنشاء المدارس ، فحرصوا على أن يجعلوا منها أداة لخدمة السنة ومذاهبها . من ذلك ما أورده النويري من وصف للمدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ يقول أنه كان بها أربعة أواوين كل منها خاص بأحد مدرسي المذاهب الأربعة ، فالمدرس المالكي اختص بالإيوان القبلي والشافعي بالإيوان البحري والحنفي بالإيوان الشرقي والحنبلي بالإيوان الغربي (٢) .

ولم تكن المدارس هي المؤسسات الدينية الوحيدة التي أكتسبت عصر الماليك طابعه الديني الخاص ، بل شهد ذلك العصر إقامة مؤسسات أخرى عديدة مثل المساجد والزوايا وغيرها ، والملاحظ أن كلامنا المدرسة والجامع في ذلك العصر ، قامت بدور مزدوج في خدمة الدين والعلم ، ولكن الفارق بين الحالتين هو أن المدرسة - كما يتضح من اسمها - استهدفت أولاً خدمة العلم وجاء لها طابعها الديني ضمناً عن طريق تدريس العلوم الدينية مثلاً ، وبالعكس كان الهدف الأول من الجامع أو المسجد خدمة الدين وإحياء شعائره وبعد ذلك جاء استخدام بعض المساجد في التدريس ليحقق غرضاً آخر ثانوياً ، لأن

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٣٧٤ (بولاق) .
(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤١ وما بعدها .

العلوم الدينية — من فقه وحديث وتفسير — احتلت مكان الصدارة في دراسات ذلك العصر .

والواقع أن النشاط الديني في عصر المماليك تطلب إقامة دمالا يكاد يخصص من المساجد ، وبخاصة في مصر والشام . وقد قدر المقرئى عدد المساجد التي تقام بها الجمعة بمصر والقاهرة بمائة وثلاثين مسجداً ، في حين قدرها خليل ابن شاهين الظاهري بأكثر من ألف مسجد (١) . وفي عهد السلطان الناصر محمد ، شيد السلطان الناصر وأمرؤه ثمانية وعشرين مسجداً وكان إذا تم بناء جامع أو مسجد رتب له خطيب وخدم واحتفل بافتتاحه في حفل كبير (٢) .

التصوف والزوايا :

وهناك ظاهرة واضحة انصفت بها الحياة الدينية في مصر على عصر سلاطين المماليك ، هي انتشار التصوف واتساع نطاقه . ويعمل الباحثون هذه الظاهرة بكثرة من وفد على مصر في ذلك العصر من مشايخ الصوفية المغاربة والأندلسيين مثل السيد أحمد البدوي وأبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي وأبي القاسم القباري ، وهؤلاء وغيرهم ضاقوا بالحالة التي وصل إليها المسلمون في المغرب والأندلس فهجروا بلادهم إلى المشرق ، حيث صادف أسلوهم قبولا كبيرا في مصر بالدات . والمعروف في التاريخ أن حركات العزلة والانقطاع للعبادة تقوى دائما نتيجة لعدم رضى الناس عن أوضاعهم وتآلمهم لسوء أحوالهم ، فيسبحون نهجاً دينياً ويحاولون الابتعاد ما أمكن عن متاع الدنيا وزخرفها هسى أن يتوب الله عليهم ويبدل حالهم (٣) .

(١) المقرئى . المخطوط ج ٤ ص ٩١

خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ١٥٩ وما بعدها .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ١٦٢ .

وكان المسلمون في عصر بالذات في القرن السابع الهجري يشعرون بسوء أحوالهم نظرا للأخطار التي تعرضوا لها من جانب الصليبيين والتتار من ناحية فضلا عن تحكم المماليك فيهم واستئثارهم بخيرات البلاد واستبدادهم بأهلها ، وكثرة الفتن واختلال الأمن ؛ فضلا عن تجمد الجماعات والأوبئة بين حين وآخر . لذلك صادفت دعوة الصوفية استجابة قوية من المصريين ، فازدادت أعدادهم في سرعة وأطلقوا على أنفسهم اسم الفقراء ، إمعانا في لصق صفة الزهد بهم .

وانقسم الصوفية إلى فرق عديدة ، لكل منها شيخها وشعارها ، فالطائفة الأحمدية مثلا نسبت إلى شيخها أحمد البدوي وشعارها اللون الأحمر ، والرفاعية نسبت إلى أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي وشعارها اللون الأسود وهكذا وأقامت كل طائفة شيخا لها ، وعند موت شيخ الطائفة يخلفه خليفة يتخلع عليه السلطان في القلعة ثم يغادرها في حفل كبير وقد أحاط به أتباعه^(١) . فإذا ارتبط أحد الفقراء بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه ، ألبسه الشيخ خرقة التصوف ، والتزم المريد بطاعة شيخه طاعة عمياء^(٢) ، وبالغ بعض شيوخ الصوفية في عصر المماليك ، فاشتراطوا في العهد الذي يأخذونه على مريديهم ، ألا يبق المريد تصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه .

ومن المعروف أن حياة الصوفية قامت على أساس التقشف في الملابس والمأكل حتى بالغ بعضهم في ذلك فلبسوا المرقع من الثياب وصبروا على الجوع والعطش بضعة أيام . ولكن بعض الصوفية بالغوا في التطرف ، فنشأت عن ذلك طائفة المجاذيب أو الدراويش . وقد اشتهر هؤلاء الدراويش في عصر المماليك بأفعالهم الغريبة التي زعموا أنها من الدين ، فخلق بعضهم رأسه ولحيته وحاجبيه ، وأزال

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨

(٢) الشعراني : لوائح الأوار ١٣ ص ٢٤٢ .

رموش عينيه ، حتى بدوا في صورة مخيفة أثار دهشة من رؤهم من الرحالة المعاصرين (١) .

وقد استتبع انتشار التصوف وكثرة الصوفية في عصر المماليك انتشار البيوت الخاصة بالصوفية ، وهي التي أطلق عليها خانقارات وربط وزوايا . ذلك أن سلاطين المماليك وأمرأهم عنوا عناية فائقة بإنشاء بيوت الصوفية فشيّدوا الكثير منها ، وحبسوا عليها الأوقاف السخية . وكان الأفقر والأحوج يقدم للنزول بالخانقاه ، وبعد ذلك يأتي الفقراء المغتربين ، كما كان يفضل الأعزب على المتزوج .

وجرت العادة أن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية ، واشترط في شيخ الخانقاه أن يكون من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ ، ألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة (٢) ، وقد كوّنت كل خانقاه وحدة قائمة بنفسها ، بداخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية . وكان للصوفية في معيشتهم دخل زواياهم آداب خاصة وقواعد مرعية التزموا بها وأفاض المعاصرون في وصفها (٣) . أما الربط الخاصة بالنساء فكان الغرض منها أن تكون كالمودع للنساء والأرامل ، أي ملاجئ لهن . غير أن حياة الصوفية لم تلبث أن تغيرت أو آخر عصر المماليك فتغير وضعهم من الصلاح إلى الفساد ، وتخلوا عن النظم والآداب التي عرفوا بها بين الناس مما أثار استنكار المعاصرين (٤) .

(١) سميد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٩١ .

(٢) حجة وقت بيبرس الجاشنكير (الحكمة الشرعية) .

(٣) المفريزي : المواجه ص ٤ ، رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٣ .

(٤) سميد عاشور : المجتمع المصري ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢٣ - العصر المماليكي)

المظفرية العباسية :

وثمة عمل خطير تم في عصر المماليك وترتبت عليه نتائج هامة بالنسبة لتاريخ مصر والعالم الإسلامي ، هو إحياء الخلافة العباسية بمصر . ذلك أن العالم الإسلامي أخذ يحس بفراغ كبير بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول سنة ١٢٥٨ ، إذ أمسى المسلمون بدون خليفة ، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان من المتعذر أو المستحيل بعد مقتل الخليفة المستعصم العباسي أن يخلفه أحد أبناء بيته في بغداد ، إذ غدت حاضرة العباسيين قاعدة للمغول الوثنين الذين لم يكتفوا بقتال خليفة المسلمين وإنما أحرقوا جوامعهم وهدموا مساجدهم . لذلك أراد بعض حكام المسلمين في البلدان المجاورة أن يغتنموا الفرصة لإحياء الخلافة في بلادهم ، مما يعود على من ينجح في ذلك بالمكانة السامية بوصفه حامى الخلافة العباسية المتمتع بعطفها وبيعتهما (١) .

من ذلك ما يقال من أن الناصر يوسف الأيوبي - صاحب حلب ودمشق عند قيام دولة المماليك - فكرة عقب سقوط الخلافة العباسية في بغداد في استمالة أحد أبناء البيت العباسي الفارين من وجه التتار إلى مقر إمارته ببلاد الشام ليعلنه خليفة ، ويحظى من ذلك بعض المكاسب السياسية التي تمكنه من الصمود في وجه المماليك بمصر . ولكن سرعة تطور الأحداث إلى صهيبت قيام دولة المماليك لم تمكن الناصر يوسف من تحقيق غرضه . كذلك فكر السلطان المظفر قطز في إحياء الخلافة العباسية ، ومن ذلك ما يذكره السيوطي من أن قطز علم وهو بدمشق - عقب انتصاره على المغول في عين جالوت - بوصول أحد أمراء بني العباس . فأمر بإرساله إلى مصر حتى يتخذ العدة لإعادته إلى

(١) سفيد عبد الفتاح هاشور : الظاهر بغير من ص ٤٧ .

بغداد^(١). غير أن العمر لم يمل فطر لينفذ مشروعه الخاص بإحياء الخلافة العباسية في بغداد .

وقد شاءت الظروف أن يكون السلطان الظاهر بيبرس هو صاحب فكرة إحياء الخلافة العباسية في مصر بالذات . ومما يقال من أن بعض الحكام المسلمين في بلاد الشام ومصر قد فكروا في إحياء الخلافة العباسية قبل بيبرس ، فإن هذه المشروعات لم تتحقق ، فضلا عن أن أحدها لم يتجه نحو التفكير في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بالذات ، مما ضمن للظاهر بيبرس في التاريخ فخر تنفيذ الفكرة عمليا من ناحية ، وفخر ربط الخلافة العباسية في ذلك الدور الجديد من أدوار تاريخها بمصر والقاهرة من ناحية أخرى^(٢)

ذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر في دمشق كتب إليه يخبره بأن أحد بنى العباس - وهو الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء لدين الله العباسي - وصل إلى دمشق ومعه جماعة من عرب بنى مهنا يشهدون على صحة نسبه . وأنه يريد أن يلحق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة وكان أن وجد بيبرس فرصته في مجيء ذلك الأمير ، فرد على الأمير البندقدار يأمره بالقيام في خدمته وتعظيم حرمة ، كما أمره أن يرسل معه حجابا إلى مصر . وهكذا غادر الأمير العباسي دمشق فصار بأوفر حرمة إلى جهة مصر ، وفي القاهرة استقبل الأمير أحمد استقبالا حافلا ، فخرج السلطان إلى لقائه ومعه الوزير وقاضى القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها ، كما خرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل ، لاستقباله . وكان يوم دخوله القاهرة من الأيام

(١) السيوطنى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ .

(٢) سعيد هاشور : الظاهر بيبرس ص ٤٨ .

المشهوده ، إذ سار في شوارع القاهرة وقد لبس الشعار العباسي ، حتى صعد قلعة الجبل وهو راكب ، فأنزله السلطان في مكان جليل قد هيء له بها ، وبالع في إكرامه وإقامة تاموسه ، (١) .

ولم يمض على وصول الأمير أحمد العباسي ثلاثة أيام حتى عقد السلطان بيبرس مجلساً بقاعة الأعمدة في القلعة لمبايعة الأمير العباسي بالخلافة . وقد حضر ذلك المجلس جمع حافل من القضاة ونواب الحكم والعلماء والفقهاء وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية والتجار ووجوه الناس ، في حين جلس السلطان متأدباً ، إلى جانب الأمير أحمد ، فلم يستخدم كرسيًا أو مرتبة أو مسنداً ولما اكتمل الجمع شهد العربان وخدام من البغادة بصحة نسب الأمير أحمد العباسي ، وأقر هذه الشهادة أيضاً بعض القضاة والفقهاء ، قبل قاضي القضاة تاج الدين تلك الشهادات وسجلها ، ثم بايعه بالخلافة .

ولم يكد قاضي القضاة يفعل ذلك حتى تقدم السلطان بيبرس وبايعه أيضاً على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله بحققها وصرفها في مستحقها (٢) . وبعد السلطان بايع جميع الناس على اختلاف طبقاتهم الخليفة الجديد ، كما كتب بيبرس إلى سائر الملوك والنواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة العباسي الجديد الذي لقب بـلقب المستنصر بالله ، وأمرهم بأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما . أما الخليفة العباسي الجديد ، فقد قام بدووه بتقليد السلطان الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية . ومعنى ذلك أن

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٨ — ١٩ (مخطوط) .

المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٥٠ .

سلاطين المماليك أصبحوا في نظر المعاصرين منذ ذلك الوقت أصحاب حق شرعى في الحكم بعد أن غدوا متمتعين بديمومة الخلافة العباسية .

وقد تم ذلك كله يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وفي يوم الجمعة التالى مباشرة صلى الخليفة بالناس في جامع القلعة ودعا في الخطبة للملك الظاهر بيبرس ، فسر الظاهر بذلك دونه عليه جملا مستكثرة من الذهب والفضة^(١) . وهكذا قضى الخليفة المستنصر باقائه أيامه في هناء بين ربوع القاهرة ، فتارة يصحبه السلطان للنزهة في النيل ومشاهدة السفن الحربية وهى تقوم بمناوراتها وألعابها على صفحة الماء ، وطورا يخرج مع السلطان إلى بعض البساتين خارج القاهرة . ثم إن الظاهر بيبرس لم يقنع بكل ذلك وإنما أراد أن يجمع جميع أمراء المملكة ويقرأ عليهم تقليد الخليفة للملك الظاهر في اجتماع عام وكان أن عقد ذلك الاجتماع في المطرية ، وسمع جميع الأمراء تقليد الخليفة للسلطان والديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا .

ولما فرغ القاضى فخر الدين بن لقمان - صاحب ديوان الإنشاء - من قراءة ذلك التقليد ، أحضر السلطان مظاهر خلعة السلطنة وهى حبة بنفسجية اللون وحمالة سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها بيبرس وأتجه في مركب كبير نحو القاهرة ، فدخلها من باب النصر وشق القاهرة إلى القلعة وسط الزينات والأفراس ووضع الخلق بالدعاء بخلود أيامه وأعراس نصره^(٢) . على أن هذه المظاهرة الضخمة التى صحبت لإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ،

(١) المرجع السابق ص

ابن لياس : بدائم الزهور ج ١ ص ١٠١ .

(٢) البكريزى : الملوك ، ج ١ ص ٤٥٧ .

لم تحل دون تشكك بعض المؤرخين في صحة نسب الخليفة المستنصر بالله .
من ذلك أن المؤرخ أبا الفدا يقول في حوادث سنة ٦٥٩ هـ : « قدم إلى مصر
جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر
بالله . . . » كما يقول أبو الفدا في موضع آخر : « وبرز الملك الظاهر والخليفة
الأسود . . . » أما مفضل بن أبي الفضائل فيسمى هذا الخليفة « المستنصر
بالله الأسود » (١) .

وهكذا غدت القاهرة المركز الجديد للخلافة العباسية ، وظل الخلفاء
العباسيون يتعاقبون واحداً بعد آخر في مصر حتى الفتح العثماني لهذه البلاد
سنة ١٥١٧ . وجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس وضع قواعد السياسة
التي اتبعها سلاطين المماليك بمصر تجاه الخلافة العباسية ؛ إذ لم يلبث الخليفة
العباسي أن أصبح شبه محجور عليه في القاهرة . فلا يتصل به أحد من المسؤولين
في الدولة دون إذن السلطان . وبعبارة أخرى فإن الوضع الذي استقر عليه
حال الخلفاء العباسيين في مصر ، صار أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى
السلطان ويكتب له عنه عهداً بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما
عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الدولة ، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على
أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد (٢) . وقد عهد المقرئ
عن ذلك الوضع ، فقال عن الخليفة العباسي في القاهرة إن خلافته « ليس فيها
أمر ولا نهي وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » (٣) .

على أنه يجدر بالذكر أن الخلفاء العباسيين حاولوا في عصر دولة المماليك
الجرأة الخروج عن عزلتهم والمشاركة في الأحداث السياسية المحيطة بهم

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢١٣ .

مفضل بن أبي الفضائل : التيج السديد ص ١٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٣) المقرئ : المواظ ج ٣ ص ٣٩٤ .

وربما كان للضغط الذي اقيه الخلفاء العباسيون منذ احياء الخلافة العباسية في القاهرة على أيام بيمرس ، أثر في تحريك الخلفاء في الدولة الثانية للتنفيس عن أنفسهم عن طريق الاشتراك في الثورات التي طفح بها عصر المماليك الجراكسة^(١) . وكان أن تحققت مطامع الخلفاء العباسيين في ذلك العصر عندما ولي الخليفة المستعين السلطنة سنة ١٤١٢ م (٨١٥ هـ) ؛ وفي حالة فريدة من نوعها في عصر المماليك . ولكن تعيين الخليفة المستعين سلطانا لم يكن إلا سدا لشغرة ، حتى ينجلي الموقف بين الأميرين المتنافسين حول السلطنة وهما نوروز وشيخ . وعندما انجلي الموقف استطاع الأمير شيخ أن يعزل المستعين من دست السلطنة بنفس السهولة التي وضعه بها فيه .

(١) إبراهيم طوخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٥٣ .

الفصل الثاني عشر

نظام الحكم والقضاء

النظام الإقطاعي:

كانت دولة المماليك دولة إقطاعية بكل معاني الكلمة ؛ فقسمت أراضي مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قيراطات للكلف والرواتب ، واختص الأمراء بعشرة ، والعشرة الباقية كانت من نصيب الأمراء . وكان من الطبيعي أن يستأثر السلطان وكبار الأمراء بأجود الأراضي وأكثرها خصوبة ، في حين أخذ المماليك السلطانية الأراضي الأقل خصوبة ؛ أما أراضي الدرجة الثالثة فكانت من نصيب أجناد الحلقة والعربان والزركان (١) .

وكان الإقطاع أمرا شخصيا بحيث لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه بمعنى أنه كان مفروضا في المقطع أن يحمل محل السلطان في أن يتمتع بغلات الإقطاع وإيراده فحسب ، فإذا مات المقطع أو أخل بشروط الإقطاع ، جاز للسلطان أن يستولى على إقطاعه فوراً (٢) . أما المناسبات التي تجرى فيها عملية توزيع الإقطاعات فكانت عديدة ، أهمها قيام سلطان جديد في الحكم ، فيجرى حركة لإعادة توزيع الإقطاعات - بين منح وزيادة وإنقاص - لمكافأة الأنصار ومعاقبة الخصوم . كذلك اعتاد سلاطين المماليك أن يوزعوا الإقطاعات عند عرض الجنود ، فيستعرض السلطان الجنود أكثر من مرة خلال سلطنته ليستوثق من القادرين على الخدمة العسكرية ،

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٥٠٩ . حاشية ٣ قد كثر زيادة .

ويستبعد غير القادرين ويوفر لإقطاعاتهم ليوزعها على الأكفاء القادرين . فإذا توافرت للدولة أراضى جديدة عن طريق الفتح أو استصلاح الأرض البور أو شق قناة أو ترعة ؛ قام السلطان بتوزيع هذه الأراضى على هيئة إقطاعات^(١) . على أنه حدث أكثر من مرة في عصر المماليك أن مسحت أراضى مصر مسحا شاملا قياسا وحصرها في سجلات ، وتقدير قيمتها وخصوبتها . وتشبه هذه العملية في الوقت الحاضر فك الزمام ، وكان يستتبعها في عصر المماليك لإعادة توزيع الإقطاعات . وقد سميت تلك العملية في عصر المماليك «الروك» ، وأشهرها الروك الحسامى نسبة إلى السلطان حسام الدين لاجين ، والروك الناصرى نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون . أما الروك الحسامى فقد فقد تم سنة ١٢٩٧ م (٩٦٧ هـ) واستغرق لإجراؤه مجهود ثمانية وخمسين يوما ولكن الأمراء والجند لم يرضوا عن التغيير الجديد الذى تعرضت له لإقطاعاتهم نتيجة لروك الحسامى ، «وبان في وجوههم التغيير لقلّة العبرة»^(٢) . وهكذا ظل الأمراء والجند في حالة قلق حتى أجرى السلطان الناصر محمد الروك الناصرى سنة ١٣١٥ م (٧١٥ هـ) ، فاستغرق لإجراؤه خمسة وسبعين يوما ، وترتب عليه زيادة أنصبة الأمراء والأجناد ، فصارت أربعة عشر قيراطاً بعد أن كانت أحد عشر في الروك الحسامى^(٣) .

وفي جميع الحالات السابقة كان السلطان هو الذى يتولى بنفسه غالباً توزيع الإقطاعات ، فإذا تقدم إليه المملوك سأله عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذة الذى اشتراه من تاجره ، وعن حياته التعليمية من الكتاب في الطباق إلى ميدان الفروسية^(٤) . فإذا وقع اختياره عليه

(١) إبراهيم طوخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢١٨-٢١٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ .

(٣) العيني : مقد الجان ج ٢٣ في ١ ص ٥٤ .

المقرئى : المواظ ج ١ ص ٨٨ .

(٤) أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ٥١ - ٥٢ .

ليمنحه لإقطاعا أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة مختصرة تسمى « المثال » مضمونها حين فلان كذا ، ويكتب اسم المقطع ثم يناولها للسلطان . وبعد أن يوقع عليها السلطان يعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض ثم يعاد المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ فيه . وقد اختص السلطان بإصدار مناشير الأمراء وأجناد الحلقة ، أما أجناد الأمراء فصدرت مناشيرهم عن أسرائهم . كذلك روى أن بعين في منشور الأمير ثلث الإقطاع للأمير نفسه ولأجناده الثلثان (١).

أما الأمراء والمماليك المسنون الدين لا يقرون على تحمل تبعات الإقطاع ، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحهم بدل الإقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقرئى أنه جاء وقت أصبحت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة في مصر « عليها إقطاعات الأمراء والأجناد » . فلما رآك الناصر محمد البلاد ، أبطل هذا النوع من الرواتب التي تحمل صفة الإقطاع ، وصارت الإقطاعات كلها أراض وبلاد (٢) . كذلك أصبح من القواعد المستقرة منذ الروك الناصرى ألا يكون الإقطاع وحدة تماسك من الأرض ، بل يوزع إقطاع الفرد الواحد بين عدة جهات مختلفة . وهكذا أصبح زمام القرية الواحدة مقسما بين عدة مقطعين ، لكل منهم أتباعه الذين يدفعون المستحق عليهم لسيدهم مباشرة أو لمندوبه المسمى بالقاصد . وفي جميع هذه الأحوال لم يتعد المقطع حدوده المرسومة له ، ولم يأخذ من إقطاعه إلا ما جرت به العادة ، فإذا ظلم أحد جاز المظلوم أن يرفع أمره إلى الديوان السلطاني أو إلى السلطان في دار العدل (٣) .

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٥٠ - ٣٥٣ .

(٢) أبو الحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٢ .

المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٣) سعيد ماحور : المجتمع المصرى ص ٢٠ - ٢١ .

على أن النظام الإقطاعي لم يظل على حاله من الثبات والإحكام طوال عصر المماليك ، إذا لم يلبث أن تطرق إليه الفساد والخلل - مما يعتبر مظهراً أو سبباً - للفساد العام الذي اعتري الدولة وأجهزتها في أواخر عصر المماليك . وكان أبرز مظاهر ذلك الخلل تصرف الأمراء والأجناد في إقطاعهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة . فمن أراد النزول عن إقطاعه حمل ما لا إلى بيت المال بحسب ما يقرر عليه ، الأمر الذي أدى إلى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش . ولما كان الجيش في عصر المماليك يعتمد في نظامه على الإقطاع ، فقد أدى فساد النظام الإقطاعية إلى ضعف الجيش وانحيار دعائمه (١) .

السلطان :

وكان سلطان المماليك على رأس الهرم الإقطاعي ، وهو في الوقت نفسه رئيس الجهاز الحكومي في البلاد وصاحب أعلى سلطة فيها . وقد تلقب سلاطين المماليك بألقاب عديدة منها « سلطان الإسلام والمسلمين » و « قسيم أمير المؤمنين » . ويشير اللقب الأول إلى حرص سلاطين المماليك على التمسك بالإسلام ومحاولة إضفاء صفة شرعية على حكمهم ، في حين يلقى اللقب الثاني ضوءاً على العلاقة الصورية بين سلطان المماليك والخليفة العباسي في القاهرة ، بوصفهما شريكان في حكم المسلمين ، أحدهما يمثل الجانب السياسي والحربي ، والآخر يمثل الجانب الديني . على أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن جميع سلاطين المماليك اشتركوا في ألقاب واحدة ، وإنما اختلفت الألقاب التي اتخذها كل سلطان عن الآخرين ؛ فهذا السلطان الأعظم العالم العادل ، وذلك « السيد الأجل الكبير » وهكذا .

(١) السيد الباز العربي : الإقطاع الحربي بمصر من ٢٢ .

والمعروف أن السلطان في عصر المماليك كان أميراً من الأمراء وزعيماً
ممكنته قوته وشخصيته وكثرة مماليكه من التفوق على أقرانه والوصول إلى
منصب السلطنة ، فإذا وصل أمير إلى السلطنة أصبح صاحب الحق في الهيمنة
على بقية الأمراء ومماليكهم بوصفه زعيمهم ورأس دولتهم ، فيرفع من يختار
من المماليك إلى مرتبة الإمارة ويمنح الإقطاعات حسب ترتيب معين ،
وبياشر سلطاته الواسعة في توزيع المناصب وتعيين كبار الموظفين (١).

ولكن ليس معنى هذه السلطة المطلقة التي تمتع بها سلطان المماليك أنه
استغنى عن رأى كبار الأمراء ورجال الدولة ، إذ الواقع أن سلاطين المماليك
استشاروهم قبل الإقدام على أية خطوة خطيرة ، وكانت هذه الاستشارة تتم
في مشور - أى مجلس المشورة - الذى تألف برياسة السلطان وعضوية أنابك
العسكر والخليفة العباسى والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المثنيين
وعدد من أربعة وعشرون أميراً . فإذا كان للسلطان قاصراً تولى رئاسة هذا
المجلس الوصى عليه أو نائب السلطنة ، وجرت العادة أن السلطان لا يتكلم
بنفسه في هذا المجلس خوفاً من أن ينقض الأمراء رأيه فينقص ذلك من هيئته
وجلال مركزه ، ولذلك قام المشير بالكلام عن السلطان ، وقد تعددت
اختصاصات مجلس المشورة في عصر المماليك ، فنظر في شئون الحرب
والصلح ، وناقش شغل مناصب النيابات والوظائف الكبرى في الدولة .
على أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ،
أى أن السلطان كان صاحب الرأى الأخير في جميع الأمور بوصفه حاكماً
مطلقاً (٢).

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٣٨ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ .

الغافندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ - ١٧ .

وكان السلطان يقيم ومعه أسرته وحاشيته ورجال بلاطه في قلعة الجبل والواقع إن هذه القلعة في عصر المماليك لم تكن مركز الحكم ودار السلطان لحسب ، بل كانت بمثابة مدينة صغيرة تضم طباق المماليك السلطانية ، ودور الخواص الأمراء ونسائهم وأولادهم وعماليتهم ودواوينهم ، فضلا عن دار الوزارة التي اشتملت على قاعة الإنشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاوص^(١) . وكانت قلعة الجبل موضع عناية سلاطين المماليك دائما فأقاموا فيها العمارات الكثيرة والقصور والمساجد العديدة ، مما جعلها مثار دهشة الرسل والسفراء الأجانب .

وأشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذي تولى ناظره الإنفاق على قصور السلاطين من عمارات وأسمطة وصدقات وكل ما يحتاج إليه البيوت السلطانية . أما هذه البيوت فكانت عديدة لكل منها مباشر من أمراء المئين له مساعدون وغلدان عديدون^(٢) . ومن هذه البيوت الشرا بخاناه - أى بيت الشراب - ويحوى مختلف أنواع الأشربة والأدوية التي يحتاج إليها السلطان ؛ والطشت خاناه وفيه أنواع الآواني والطشوت والآباريق اللازمة لغسل الأيدي والوضوء والاستحمام ، والفراش خاناه وفيه أنواع الفرش والبسط والخيام والتخوت والوسائد وغيرها ، والسلاح خاناه وبه جميع أنواع الأسلحة من سيوف وقسي ورماح ودروع ونشاب ، والركاب خاناه وبه آلات الخيل من سروج وغيرها ، والطبل خاناه وبه الطبول والآبواق وتوابعها ، والحوانج خاناه ويختص بالأسمطة السلطانية كما يشرف على المطبخ السلطاني^(٣) .

(١) المقرئى : المواقف ج ٣ ص ٣٣٣ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ — ١٣ .

الديري : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٢ — ٢٢٦ .

النظام الإدارى :

بلغت النظم الإدارية فى دولة المماليك درجة كبيرة من الدقة والاحكام فوجدت إدارة مركزية مقرها القاهرة وعمادها مجموعة من الدواوين وكبار الموظفين ؛ ووجدت إدارة محلية تشرف على الأقاليم وعلى رأسها مجموعة من النواب والولاة وعلى رأس هذا الجهاز الضخم وجد سلطان المماليك بوجه أمور البلاد والعباد ، ويتلقى الأخبار ويرسل تعليماته عن طريق شبكة محكمة من خطوط البريد .

وأول الموظفين الكبار الذين ساعدوا السلطان فى شئون الحكم والإدارة هو نائب السلطنة ، ويتضح من اسم هذه الوظيفة أن صاحبها كان بمثابة الوكيل عن السلطان وساعده الأيمن فى تصريف شئون الدولة ، بل كان « السلطان الثانى » على قول القلقشندى (١) . ذلك أنه اشترك مع السلطان فى إصدار القرارات ومنح ألقاب الإمارة وتوزيع الإقطاعات ، فضلا عن تعيين كبار الموظفين . لذلك تلقب نائب السلطنة بلقب « كاهل الممالك الشريفة الإسلامية الأميرى الأسمى » (٢) ، لأنه تكفل بكثير من أمور الدولة . وكانت نيابة السلطنة على نوعين فى عصر المماليك ، فهناك النائب الكافل أو نائب الحضرة ، وهو الذى ينوب عن السلطان أثناء وجوده وإقامته فى مصر ، وهناك نائب الغيبة وهو أقل درجة وينوب عن السلطان أثناء غيبته فقط ، فى حرب أو حج أو غير ذلك .

أما نواب السلطنة فى نيايات الشام — وهى دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفند والكرك — فناب كل منهم عن السلطان فى وحدته الإدارية ،

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ — ١٢ .

(٢) العمري : التمرىف بالمصطلح الشريف ص ٦٥ — ٩٩ .

واعتبر ممثلاً له في إدارتها . وكان على فواب الشام أن يرجعوا إلى السلطان - أو نائبه في مصر - في المسائل التي لا يستطيعون الانفراد بالبت فيها ، ولما كان هؤلاء النواب مسئولين عن الدفاع عن إماراتهم ضد الأخطار الخارجية والداخلية ، حرص السلاطين على اختيارهم دائماً من كبار الأمراء أو باب السبوف المعروفين بشجاعتهم الحربية ومهارتهم الإدارية (١) .

وبعد نائب السلطنة يأتي الأتابك ، وهو القائد العام للجيش المماليكي ، وكان لقب أتابك يطلق عند السلاجقة على المؤدب أو المربي أو الوصي ، ثم أصبح من ألقاب التشريف التي تطلع على كبار الأمراء ، حتى غدا في عصر المماليك لا يطلق إلا على قائد العسكر ، ومن الواضح أن صاحب هذه الوظيفة تمتع بنفوذ كبير وكلمة عالية في الدولة ، بوصفه رأس الجيش وصاحب القوة الضاربة بين كبار الأمراء (٢) . ولا أدل على نفوذ الأتابك وقوتهم من أن كثيراً منهم وصلوا إلى دست السلطنة إما عن طريق الاغتصاب أو بفضل قوتهم . أما إذا ولي الحكم سلطان قاصر . فإنه كان يصبح العوبة في يد أتابك الجيش يتحكم فيه كيفما شاء ، كما فعل الأمير زين الدين كتبغا المتصورى عندما استبد بالسلطان الفاصر محمد في سلطنته الأولى ، حتى انتهى الأمر بالأتابك إلى إعلان نفسه سلطاناً سنة ١٢٩٤ (٣) .

أما الوزير فكان هو الآخر يلي نائب السلطنة في المرتبة ، ومن الواضح أن نفوذ الوزير في دولة المماليك تضامل عما كان عليه زمن العباسيين بالعراق

(١) الخالدي : كتاب المقصد الرفيع ص ٩٠ — ٩٣ (مخطوط) ٩

القلعشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها ٩ .

Wiet : L'Egypte Arabe pp . 366—398 .

(٢) القلشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٣) هلي ابراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

أو الفاطميين بمصر . ذلك أن نائب السلطنة في دولة المماليك أصبح الرجل الثاني في الدولة وبذلك لم يترك للوزير شيئاً من ذلك النفوذ الواسع الذي تمتع به في العهود السابقة . ويظهر ابن خلدون عن انحطاط وظيفة الوزير في عصر المماليك ، فيقول إنها غدت « مرهوسة ناقصة »^(١) ، بحيث لم يتعد نفوذ الوزير عندئذ تنفيذ تعليمات السلطان ونائبه ، والإشراف على شئون الدولة المالية بالاشتراك مع ناظر الدولة ، وفي بعض الأحيان عين سلطان المماليك وزيرين في وقت واحد أحدهما من أرباب الأفلام أو المعتمدين وأطلق عليه وزير الصحة ، والثاني من أرباب السيوف أو الأمراء وأطلق عليه الوزير فقط^(٢) . ولا أدل على تناقص أهمية الوزارة في عصر المماليك ، من أن هذه الوظيفة كانت تلغى في بعض الأحيان ، أو تظل شاغرة دون أن يحدث خلل في الجهاز الإداري للدولة ، بل لقد حدث أن ألغيت وظيفة الوزارة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) ، وظل منصب الوزير شاغراً سبعة عشر سنة إلى أن أعيد سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) .

وهناك فريق آخر من كبار الموظفين قاموا بدور هام في إدارة جهاز دولة المماليك ، هي فئة الولاة التي كان أفرادها يختارون دائماً من بين الأمراء ليقوموا بوظيفة المحافظ اليوم في الأقسام الإدارية . وكان أكبر هؤلاء الولاة شافاً ، وإلى القاهرة الذي عهد إليه بالإشراف على العاصمة وتوصياتها ، وحماية أهلها من عبث المفسدين واللصوص ومثيري الفتن فإذا شب حريق في العاصمة بادر الوالي على رأس رجاله لإطفائه ، وإذا كثرت مناسر اللصوص تعقبهم الوالي للقضاء عليهم ، وإذا تفتش شرب الخمر أمرع الوالي إلى مناطق عصر الخمر في القاهرة لمعاينة أصحابها ومصادرة خمرهم ، وإذا فتش تعايط الحشيش كافح

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٠٨ .

(٢) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٩٦ .

الوالى من اراع المخدرات بجهة باب الموقف وأحرق منتجاتها^(١) . وهكذا تصور لنا المراجع المعاصرة والى القاهرة ورجاله فى صورة حركه دائمة ، فى النهار يطوف معهم الأسواق والدروب لمنع الغش ومكافحته ، وفى الليل يتصيد السكارى واللصوص والعابثين للقبض عليهم ومحاكمتهم . هذا كله فضلا عن مراقبة أبواب القاهرة والإشراف على إغلاقها ليلا حتى لا يتسرب إلى المدينة عدو أو مفسد . ونظرا لأهمية وظيفة والى وخطورة مسئوليته ، فإنه كان لا يستطيع النوم خارج المدينة إلا بمزوم خوفا من حريق أو منسر أو كسر حاصل أو فتح وغير ذلك^(٢) . وقد ساعد والى القاهرة ولاية آخرون ، أهمهم والى القسطنطينية وشراف على مصر (القسطنطينية والعسكر والقطائع) ، ثم والى القرافة للإشراف على شئون القرافة ومنع المساخر فيها ، وأخيرا والى القلعة أو نائبها للإشراف على فتح أبوابها فى الصباح وإغلاقها فى المساء^(٣) .

وثمة مدينة واحدة فى البلاد المصرية عين لها نائب وصارت نيابة مثل النيابات الشامية ، هى مدينة الإسكندرية التى ازدادت أهميتها منذ سنة ١٣٦٥ وأصبحت ثغر مصر الأول على البحر المتوسط ، فكثر عدد الجاليات الأجنبية بها مما تطلب إعطاءها قسما خاصا من العناية الإدارية . لذلك تمتع نائب الإسكندرية بمكانة سامية تناسب ما للنفر من أهمية فى ذلك العصر ، حتى جاء وقت ، أصبح يعادل فى مكانته نائب السلطنة فى دولة المماليك . على أن تحويل مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥ بالذات من ولاية يحكمها والى إلى نيابة يحكمها نائب أمر يدعو إلى الالتباه ، وربما كان ازدياد نشاطها التجارى فضلا عما حدث فى هذه السنة من قيام ملك قبرس بحملته السلجوقية الشهيرة على الإسكندرية ،

(١) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٢٨ .

(٣) سعيد فاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٤٢ .

أثر في هذا التحول (١) .

إما الإدارة الإقليمية في أعمال الوجهين البحرى والقبلى — خارج القاهرة والإسكندرية — فأشرف عليها مجموعة من الولاة . وكان الوجه البحرى مقسما إلى عشرة أعمال هي القليوبية والشرقية والدقهلية (المرتاحية) ودمياط والغربية والمنوفية وأبارو البحيرة وفوه والفسطاطية، وحكم كل منها والى ما عدا البحيرة فكان يحكمها نائب ، ولعل السبب في زيادة عناية السلاطين بأمر البحيرة، هو تخوفهم من كثرة الأعراب وما يقومون به فيها من فتن وثورات بين حين وآخر . أما أعمال الوجه القبلى فكانت ثمانية ، لكل منها والىها هي الجيزة والفيومية والاشمونية والახميمية والاطفيحية والبهنساوية والاسيوطية والقوصية . وكانت أسوان تابعة لعمل قوص ، ولكنها استقلت وصارت عملاقا بنفسه منذ عهد الناصر محمد (٢) . ويلاحظ أنه لم يوجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى إلا في عصر دولة المماليك الجراكسة أو الثانية؛ أما في دولة المماليك البحرية فوجد كاشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا . وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد . وجرى الاصطلاح بتسمية هذا الكاشف « والى الولاة »، وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له (٣) .

ومما يمكن من أمر ، فإن دولة المماليك شهدت نظاما إداريا بالغ الدقة ، ونهض بذلك النظام مجموعة كبيرة من الموظفين . وقد انقسم الموظفون إلى قسمين كبيرين : أرباب السيوف وأرباب القلم . أما أرباب السيوف فكانوا من طبقة المماليك ، أى أنهم لم يختاروا من المصريين ، في حين كان أرباب القلم

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ ج ٤ ص ٢٤ ج ٩ ص ١١ ج ١٠ ص ٤٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٢ — ٣٩٨ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩٤ .

من طائفة المعممين أى من المصريين المشتغلين بالكتابة والعلم . ويبدو أن الموظفين — كبارهم وصغارهم — لم يتمتعوا بقدر كبير من الاستقرار في عصر المماليك ؛ وهذا في الواقع لا يعدو أن يكون جزءا من الطابع العام الذى أنصفت به دولة المماليك . وكثيرا ما كان يتعرض الموظف للعزل أو الحبس أو الإعدام بمجرد ظنون وأوهام ، أو لعدم قدرته على إرضاء أولى الأمر . فإذا أعفى الموظف من عمله فرضت عليه رقابة وربما ألزم بالإقامة في مدينة بعيدة مثل القدس أو قوص أو مكة . وذلك خشية أن يسبب متاعب للحكام (١) .

الدواوين :

وكان من الطبيعي أن يعتمد هذا الجهاز الإدارى الضخم الذى شهدته دولة المماليك على مجموعة من الدواوين الكبيرة لإدارة مرافق الدولة العديدة . أما أهم هذه الدواوين الحكومية في عصر المماليك ، فكانت ديوان الجيش وديوان الإنشاء وديوان الأحباس وديوان النظر وديوان الخاوص .

وقد تمتع ديوان الجيش بأهمية كبرى في دولة المماليك ، وهى الدولة ذات الصبغة الحربية ، والى اعتمدت في قيامها وبقائها على فكرة الحرب والقتال . والفهم طبيعة عمل ديوان الجيش يصح أن نشير إلى أن الجيش المماليكى تألف من ثلاثة طوائف أساسية هى المماليك السلطانية وأجناد الحلقة ومماليك الأمراء . أما المماليك السلطانية فهم مماليك السلطان القائم ، ووصفهم الفلقهغندى بأنهم « أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم قربا وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم يؤمر الأمراء رتبة بمدرتبة » (٢) . أما أجناد الحلقة فهم مماليك السلاطين والأمراء

(١) Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 86 .

(٢) الفلقهغندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩٥ .

السابقين وأولادهم ، وهؤلاء احترفوا الهندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة . وأخيراً تأتي الطائفة الثالثة التي تشمل ممالك الأمراء ، وهم المماليك الذين اشترام أمراء المماليك - كل حسب سمعته وورثته وإقطاعه - وتعهدهم بالتربية والعناية (١) .

وأشرف ديوان الجيش في دولة المماليك على هذه الطوائف الثلاث التي تألف منها الجيش المماليكي . ففيه تحفظ الأوراق الخاصة بجميع الجنود والأمراء . وبخصوص أجناد الأمراء ، فقد جرت العادة أول الأمر بإدراج أجناد كل أمير في ديوان الجيش ، ثم تغير هذا النظام زمن القلقشندي ، وصار لكل أمير ديوان خاص ويحمل يهورى أسماء أجناده ترسل منه صورة إلى ديوان الجيش . ولا يستطيع الأمير أن يدخل في خدمته ممالك جدد إلا بسبب وفاة أو مقتل أو طرد أحد أجناده من الخدمة (٢) .

ومن أهم اختصاصات ديوان الجيش في دولة المماليك المسائل المتعلقة بالإقطاعات ، ففيه سجل خاص لكل إقطاع يمنحه السلطان ، واسم المقطع ومساحة إقطاعه ونوعه . أما ناظر هذا الديوان - الذي عرف باسم ناظر الجيش - فكانت وظيفته أهم الوظائف في الدولة ، وكان يماونه بعض كبار الموظفين مثل صاحب ديوان الجيش وينوب عن الناظر في قصره في شئون الديوان ، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد الرواتب التي تصرف للجنود وتسجيلها في كشوف خاصة بمساعدة مستوفى الإقطاعات ، ومستوفى الرزق ويشرف على صرف مرتبات الأجناد وأوراقهم العينية . واشترط في هؤلاء الموظفين جميعاً الأمانة العامة والكفاية المطلقة (٣) .

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٤٥ .

(٢) السيد الباز المرنى : الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك ص ٦ .

(٣) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٣٦ .

أما ديوان الإنشاء فوظيفته تبادل المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة، وهي المكاتبات التي ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها؛ فضلاً عن إعداد الرسائل التي يبعث بها السلطان إلى مختلف الملوك والأمراء وتلقب صاحب ديوان الإنشاء في عصر المماليك بناظر الإنشاء الشريف، كما أضيفت عليه عدة ألقاب أخرى تشير كلها إلى خطورة مهمته بوصفه الأمين على أسرار الدولة ودعائل السلطان، حتى أن السلاطين كانوا يطلعونونه على ما لا يطلعون عليه أولادهم ولا أخص الأخصاء من الأمراء والوزراء وغيرهم^(١). وروى في اختيار صاحب هذا الديوان أن يكون «فصيح الالفاظ طلق اللسان أصيلاً في قومه وقوراً حليماً...»^(٢).

ولم تلبث أن اتسعت أعمال صاحب ديوان الإنشاء، إذ كان عليه أن يبلغ السلطان عما يصله من الأخبار الداخلية أولاً فأول، ويحضر — بحكم منصبه — الذين التي يؤديها الولاية والحكام والأمراء عند تعيينهم في مناصبهم، ويكتب المراسيم الخاصة بتولي هذه المناصب. ولم تكن هذه المهمة الأخيرة بالسهولة التي قد يتصورها البعض في عصر مثل عصر المماليك الذي عرف برعاية قواعد البروتوكول والتسلط بهذه القواعد. فلكل مقام مقال، ولكل موظف أو أمير أوحاكم تقليد خاص وأسلوب خاص يخاطب به حسب درجته ورتبته. بل إن الرسائل التي صدرت عن ديوان الإنشاء باسم السلطان اختلفت في نوع الورق المدونة عليه وحجم هذا الورق ونوع الخط، وذلك كله باختلاف مكانه الشخصي المرسل إليه، وهو ما أفرد له القلقشندي صفحات كثيرة في كتابه صبح الأعشى. ولما كان من الصعب على فرد واحد أن يقوم بكل هذا العبء الثقيل، وجد لصاحب ديوان الإنشاء أعوان لهم «نائب كاتب السر»، الذي ينوب

(١) المرجع السابق ص ١٢٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ — ١٠٥.

هن ناظر الديوان في الرد عن المكاتبات الواردة في حالة تغيب الناظر أو تخلفه لحضور مجالس السلطان (١). ويلى نائب كاتب السر في المرتبة «كتاب الدست الشريف»، وهم كتاب ديوان الإنشاء الذين أطلق عليهم اسم «الموقعين» لأنهم كانوا يجلسون مع رئيسهم كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل، ويوقعون على الشكاوى والقصاص المرفوعة إليه (٢).

وتوزعت أعمال ديوان الإنشاء على كتاب الدست، فكان منهم من يقوم بصياغة الرسائل الموجهة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم، واشترط فيه الدارية الخاصة بالقائهم، ومنهم من يقوم بصياغة المكاتبات الموجهة إلى ملوك الفرنجة أو ترجمة الرسائل الموجهة من هؤلاء الملوك إلى السلطان، ويشترط في هذا النوع من المكاتبات دراية باللغات الأجنبية، ومنهم من اشهر بحسن الخط على أنواعه وارتبط بكاتب السر في عمله موظف كبير اسمه الدوادار، وهو الذى يقوم بتبليغ الرسائل عن السلطان وإليه ولما كان صاحب هذه الوظيفة يطلع على كل ما يصدر من ديوان الإنشاء وما يرد عليه من مكاتبات، لأنه هو الذى يختصمها بخاتم الدولة ويقيدها في سجلات خاصة (أرشيف)، فإن وظيفته كانت من الوظائف الخطيرة في عصر المماليك، وكان اختياره دائما من كبار الأمراء (٣).

وهناك إدارة تمتعت بقسط كبير من الأهمية في عصر المماليك وكانت تتبع ديوان الإنشاء، هي إدارة البريد التى تولت ربط مختلف أطراف الدولة ببعضها ببعض. وكان البريد على نوعين: برى وجوى، فالبريد كان بواسطة الخيل

(١) الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٣٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٨.

(٣) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٥٠.

الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٢١.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٢.

وله عدة طرق تتفرع من قلعة الجبل إلى قوص وعذاب والإسكندرية ودمياط وغزة . وعلى امتداد هذه الطرق جميعا أقيمت محطات متقاربة تزود البريديين وخيولهم بما يحتاجون إليه من طعام وعلف وماء وماوى . ومن الواضح أن مهمة هؤلاء البريديين كانت جسيمة ، إذ صار عليهم توصيل التعليمات من السلطان إلى النواب والأمراء ، وحمل أخبار هؤلاء السلاطين . وربما كانت هذه التعليمات شفوية ؛ ولذلك روعى في البريدى ، أن يكون بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته مؤديا للألفاظ عن الملك عما فيها ، صدوقا بريئا من الطمع ، (١) أما البريد الجوى فيرجع الفضل الأول في تنظيمه إلى السلطان الظاهر ببرس ، فاستخدم فيه حمام الزاجل الذى كانت قلعة الجبل المركز الرئيسى لأبراجه وقد روعى في الرسائل التى يحملها الحمام الزاجل أن تكون على نوع خاص من الورق الخفيف وأن تكون مختصرة تحوى ما قل ودل حتى لا تعوق الحمامة عن الطيران السريع . وكانت الرسالة توضح تحت جناح الحمامة أو ذيلها بطريقة خاصة ، فإذا كانت الرسالة هامة كتبت من نسختين وأرسلت مع حمامتين ، حتى إذا ضلت إحداهما الطريق أو قتلت أو انترستها الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الرسالة الأخرى ومن الواضح أن الحمام الزاجل كان يخصص لنقل الرسائل العاجلة الخطيرة ، بحيث إذا وصلت رسالة مع حمامة إلى القلعة حملت الرسالة مباشرة إلى السلطان وعرضت عليه (٢) . وقد شيدت للحمام الزاجل أبراج على امتداد طرق البريد لتكون بمثابة محطات ، ولهذه الأبراج موظفون مدربون بحيث إذا وصلت حمامة من هذا النوع إلى البرج عفوا بأمرها وتسلموا منها الرسالة ليبعثوا بها إلى البرج التالى ، فى حين تستريح الحمامة الأولى قبل أن يسمح لها بالعودة إلى قاعدتها .

أما الديوان الثالث فى الإدارة المالية فهو ديوان الأجصاص (الأوقاف)؛

(١) اللاندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) نظير حسان سعادوى : نظام البريد فى الدولة الإسلامية ص ١٤٣ .

وبقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من جوامع ومساجد ومدارس وربط وزوايا وغيرها ؛ كما يشرف على الأراضى والمقارن المحبوسة عليها . وكانت شئون الاحباس فى العصر الايوبى من اختصاص القاضى ، ولكن الممالك قسموا هذه الشئون الى عدة أقسام : منها قسم للأوقاف المحبوسة على الحرمين وفداء أسرى المسلمين ، وتسمى الأوقاف الحكيمية ويقال لمن يتولاها ناظر الأوقاف - وهو غالبا قاضى قضاة الشافعية - ؛ ومنها ما اختصاص بالأوقاف الاهلية ، ولكل وقف منها ناظر خاص يوليه السلطان أو القاضى ويختار غالبا من أولاد الواقف ؛ ومنها الاحباس الخاصة بالمساجد والزوايا وكان ينفق من ريعها على هذه المؤسسات الدينية ، ثم يوزع الفائض على شكل صدقات وعطايا على المحتاجين ، وأشرف على هذا القسم الدوايدار وناظر الخاص (١) .

ولم تقتصر الأوقاف فى عصر الممالك على الحيوانات والمخانات والفنادق والأراضى الزراعية الواسعة - كما كان الحال فى العصور السابقة - وإنما اتسعت الأوقاف فى ذلك العصر حتى شملت كثير من الاعيان الموقوفة مثل معاصر الزيت والقصب والحمامات والطواحين والأفران والمصابن ومصانع النسيج ومخازن الغلال ومعامل ترقيد الفروج وغيرها (٢) .

أما ديوان النظر فاختص بمراقبة حسابات الدواة والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها ، وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين . وكان بجانب من هذه المرتبات أو الارزاق يصرف نقدا على حين صرف الجانبات الأخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع عدا الكسوة . ومن الواضح أن

(١) القرينى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٩٦ (بولاق) ٢

الحالدى : المقصد ص ١٣٢ .

(٢) عبد الطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الممالك ،

ص ١٣٤ - ١٣٥ .

أصنافاً مثل الخبز واللحوم كانت توزع على الموظفين والمستحقين يومياً ، في حين كان السكر والزيت والشمع ونحوها توزع شهرياً ؛ أما الكسوة فكانت سنوية . ووصف المقرئى ناظر هذا الديوان بأنه من أكبر موظفي الدولة وأهمهم عملاً وأعلام قدراً ؛ إذ صار له أمر ونهى وحال جليلة ، لكثرة الخمول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة في الرواتب لأهل الدولة ، وكانت أمراً عظيماً ، (١) لذلك قام بمساعدته جملة من الموظفين أهمهم مستوفى الصحة - وهو بمثابة وكيل الديوان - وشهود بيت المال ، وصير في بيت المال ، وأولئك عدا الكتبة (٢) .

وتفرع على ديوان الناظر منذ القرن الرابع عشر ديوان خاص بالسلطين ذلك أن السلطان الناصر محمد أنشأ سنة ١٣٢٧ ديواناً أطلق عليه « ديوان الخاص » ، للإشراف على شئون السلطان المالية ، ومراقبة الخزائن السلطانية ، وعهد بالإشراف على هذا الديوان إلى موظف كبير أطلق عليه « ناظر الخاص » وهو القتب الذي حور إلى « ناظر الخاصة » في الدول الملكية (٣) .

وهناك دواوين أخرى كثيرة نظمت صهر الحكم في دولة المماليك ، وذكرها الكتاب المعاصرون - وبخاصة القلقشندي والمقرئى - ، مثل ديوان الطواحين وبشرف صاحبه على طحن الغلال ، وديوان الأهرام وبشرف على مخازن الغلال السلطانية ، وديوان المرتجعات وينظر في كل ما يتعلق بركات الأمراء (٤) . ولكن هذه الدواوين كانت أقل أهمية . كذلك

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٢٤ (بولاق) .

(٢) المقرئى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٥ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥١ .

(٤) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٣٥ .

المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٢٣٧ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣ .

أطلق لفظ « دواوين » في عصر المماليك على إدارات صغيرة ، مثل ديوان الاصطبلات وديوان العماير وديوان المواريث الحشرية ، ويشرف الديوان الأخير على أموال من يموت دون وراث له .

القضاء والمظالم :

أما شئون القضاء والعدالة فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم وكان أهم تغيير أدخله السلطان الظاهر بيبرس في النظام القضائي هو أنه لم يشأ أن يترك قاضي القضاة الشافعية يتحكم وحده في جميع الشئون القضائية لما في ذلك من إجحاف ببقية المذاهب . لذلك عين سنة ١٢٦٥ أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، على أن يحتفظ قاضي القضاة الشافعي بالإشراف على أحوال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال .

كذلك يفهم مما ذكره المقرئ أن قاضي القضاة الشافعي كان بيده عزل بعض موظفي الدولة عن وظائفهم ، فضلا عما كان يتمتع به من نفوذ على نواب الحكم التابعين له (١) . وهكذا ظل قاضي القضاة الشافعية أرفع درجة من زملائه ؛ ثم يليه الحنفى فالمالكي فالحنبلي .

أما الجيش المماليكي فكان له وقضاة العسكري ، وهم مختصون بشئون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون في القضايا القائمة بين العسكري والمدنيين . ويلاحظ أن قضاة العسكري كانوا ثلاثة يمثلون المذاهب الشافعي والحنفي والمالكي ، وأحيانا كان يوجد قاضي حنبلي . وكان قضاة العسكري يحضرون

(١) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٤٤٣ .

مع القضاة الأربعة بدار العدل ولكن مجلسهم كان دون هؤلاء القضاة ، كما
سجرت العادة بأن يصحبوا السلطان في أسفاره (١).

والواقع إن القضاة قاموا في ذلك العصر بدور هام في المجتمع ، أملمته
كثرة اختصاصاتهم وتنوع مسؤولياتهم التي لم تقف عند حد الفصل في قضايا
الأحوال الشخصية ، وإنما امتدت إلى جميع أنواع القضايا من مدنية وجنائية
هذا فضلا عن إمامة المسلمين ونظر الوصايا والأحباس وشئون البنات
والمحجور عليهم والتدريس بالمدارس (٢).

أما جلسات المحاكم فكانت تعقد أحيانا في المساجد وأحيانا في دور
القضاء إذا وجدت . وعند افتتاح جلسة القضاء ، يتقدم المتقاضون أمام القاضي
وفق ترتيب خاص مع مراعاة النظام وحرمة القضاء . وكان يساعد القاضي عدة
موظفين منهم الجلوازالذى يقوم بحفظ النظام أثناء انعقاد المحكمة ، كما يقوم
بتقديم المتقاضين حسب دورهم ؛ وربما حمل في يده عصا أو سوطا يضرب به كل
من يحاول الإخلال بنظام الجلسة . أما الحاجب فكانت مهمته الوقوف على باب
القاضي واستئذانه في دخول الزائرين عليه ، في حين قام الأعوان بإحضار
الخصوم إلى المحكمة (٣) . وأدى ازدياد المتقاضين في ذلك العصر إلى صعوبة
مهمة القاضي ، فاستعان بالعدول الذين يقدمون شهاداتهم للقاضي ويراجعون
السجلات والعقود ويذكرون الشهود . وأخيرا قام كاتب المجلس بتحرير الدعاوى
والأحكام ، كما قام المترجمان بمهمة الترجمة بين القاضي والمتقاضين ، إذا كان
هؤلاء لا يعرفون العربية (٤) .

(١) الفلاشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ .

(٢) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٩٢ (بولاق) ٩ .

الفلاشندى : صبح الأعشى ج ٩ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) السبكي : معيد النعم ص ٨٦ .

(٤) محمود عن نوس : تاريخ القضاء في الإسلام ص ١٢٩ - ١٣٩ .

وكانت هناك محكمة عليا في عصر المماليك عرفت بمحكمة المظالم ، فهم من المراجع المعاصرة أنها كانت بمثابة محكمة استئناف عليا تنظر في المظالم ؛ أى القضايا التى اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة ، أو تلك التى تنشأ بين الحكام والمحكومين . وترجع أهمية هذه المحكمة إلى أنها كانت تعقد برئاسة السلطان نفسه فى يومى الاثنين والخميس غالباً من كل أسبوع . وكان السلطان فى الوقت المحدد للنظر فى المظالم يجلس فى دار العدل - أو بعد ذلك فى الإيوان - على كرمى من الخشب المغشى بالحزير ، وعن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة هما الشافعى والمالكي ، وعن يساره قاضيان هما الحنفى والخنبلى . ويلى القاضى المالكي من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة الشافعى والحنفى والمالكي ، ثم يليهم مفتو دار العدل فوكيل بيت المال ثم ناظر الحسبة (١) . ومن الجانب الأيسر يجلس بعد القاضى الخنبلى الوزير ثم كاتب السر . وهكذا تستدير الحلقة ويقف وراء السلطان ممالك صفار من السلاحدارية والجدارية ، على حين يجلس على بعد خمسة عشر ذراعاً تقريباً ذوو السن من أكابر المئين ، وهم أمراء المشورة . أما أرباب الوظائف وسائر الأمراء فيظلون وقوفاً . وخلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان يقف الحجاب والدوادرية لعرض أوراق القضايا المطلوب النظر فيها . ثم تقرأ الشكاوى وانقصص على السلطان ، فما احتاج منها إلى مراجعة القضاة شاورهم السلطان فيها دور جمع إلى ما يقولون (٢) ، وما نفاق منها بالعسكر تحدث السلطان فيه مع قضاة العسكر وناظر الجيش ، ثم يأمر فى الباقي بما يراه . وعلى مر الزمن اقتصر جلوس سلاطين المماليك بالإيوان على مدة قصيرة بصفة شكلية لالتى سوى إقامة رسوم المملكة وإحياء مظاهرها ، لاسيما بعد أن نودى أن أحداً لا يتقدم بشكايته إلى السلطان إلا بعد أن يرفع أمره إلى القضاة أولاً ، فإذا

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٧٨ .

(٢) ابن قاضي شهاب : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ١ ص ١٢ .

لم ينصفوه ذهب إلى السلطان ومن خالف ذلك عوقب (١).

وكانت وظيفة الحسبة قوية الصلة بالسلطة القضائية في تلك العصور حتى أنه كان يحدث في كثير من الأحيان أن يسند القضاء والحسبة إلى فرد واحد والواقع أنه إذا كان عمل القاضي ينصف بشيء من البطء لأنه يقوم على التوبة والأناة والتثبت من صحة الوقائع ، فإن عمل المحاسب قام على أساس سرعة البت في المخالفات التي تتعلق بالأداب العامة ونظام الأسواق ومراعاة الأمانة في المعاملات التجارية وآداب الطريق ونحوها (٢). لذلك دأب المحاسب - ونوابه - على المرور بطرقات المدينة وأسواقها لمراقبة الموابين والمكاييل والمقاييس ، والتفتيش على نظافة الحوانيت وسلامة ما يقدمه الباعة من طعام للجمهور ، هذا فضلا عن مراقبة الخانات والفنادق والحمامات ، فمن وجده المحاسب قد غش مسلما أو أكل بباطل درهما أو أخبر مشتريا بزائد ، أو خرج من معبود العوائد شهره بالبلد وأركب تلك الآلة فقاه حتى يضجف منه الجلد ، (٣).

وتؤدي بنا العبارة الأخيرة إلى الإشارة إلى العقوبات التي كانت توقع على المذنبين في عصر المماليك . وأولى هذه العقوبات السجن في أحد سجون ذلك العصر التي وصف المقرئى بعضها بالظلام وكثرة الطوايط والروائح

(١) ابن أبياس : بدائم الزهور ج ٢ ص ١٢٩

تاريخ ابن الفرات : ج ١ ص ١٧ .

(٢) الفلشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ .

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٤ - ١٢٥ .

وجدير بالذكر أنه كان بالديار المصرية ثلاثة محسبين هم محاسب القاهرة وله التصرف بالحكم في القاهرة والوجه البحري كله ؛ ومحاسب مصر (الفسطاط) وله التصرف بمصر والوجه القبلي كله ؛ ومحاسب الاسكندرية ونفوذه قاصر على الثغر .

انظر الفلشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٧

المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٤١٥ .

الكريهة والقبايح الموهلة،^(١) وبعد ذلك تأتي عقوبة التشهير والتجريس وهي أن يطاف بالمذنب على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه ويذفه المتنادون ليجتمع الناس حوله ، وفي نهاية المطاف يضرب بالسياط أمام الناس هذا عدا عقوبات أخرى متنوعة مثل عصراً أعضاء المذنب بين خشبتين حتى تنكسر عظامه ، أو خلع بعض أضراس المذنب وأسنانه ودقها في رأسه أو تسخين طاسة من المعدن وإلباسها له في رأسه ، أو إجلاسه على مقعد معدني محي بالنار وغير ذلك من العقوبات^(٢) .

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ٩٨ - ١٠٠ .

الباب الثالث عشر

الفنون

تنقسم الفنون إلى مجموعتين ، المجموعة الأولى تشمل العمارة والتصوير والنحت وهي التي يطلق عليها اسم الفنون الكبرى ؛ والمجموعة الثانية تشمل الصناعات اليدوية الصغيرة التي تتطلب دقة فائقة وعبقورية راقية ومهارة كبيرة ويطلق عليها اسم الفنون الصغرى .

والمعروف أن رقى الفنون في أى زمان ومكان إنما يرتبط ارتباطاً شديداً بالتنافس الحياتى الاقتصادية وتوافر المال . فالمجتمع الفقير - مثله مثل الرجل الفقير - يفكر أولاً في أسباب الحياة ، ويعتبر الفنون نوعاً من الكماليات لا فائض لها من المال والجهود ؛ وإذا اضطرت ظروف الحياة الاجتماعية أو الدينية إلى إقامة بعض الممارات والأدوات وغيرها من مطالب الحياة ، فإنه يجتنب دائماً للبساطة وعدم التعقيد ، لأنه يستهدف دائماً تحقيق غرضه بأقل نفقات ممكنة . أما المجتمع الغنى - فمثلته مثل الفرد الثرى - يبحث عن المتعة وعن أوجه يستغل فيها جزءاً من فائض أمواله فيبتفنن في ابتكار الكماليات ؛ وإذا أقام شيئاً من الأساسيات بالغ في الإنفاق عليه والعناية به والحرص على جمال صورته . هذا إلى أن الفنان أو الصانع يجهد نفسه في هذه الحالة ومطمئن تماماً إلى أنه سيجد الجراء الأوفى ، وسيكافئ مادياً بما يتناسب مع جهوده ، الأمر الذي يترتب عليه رقى الفنون وسموها .

وقد سبق أن رأينا في صفحات هذا الكتاب أن أكبر صفة انصفت بها

دولة الممالك هي الغنى والثروة وكثرة المال . فدولة الممالك كانت همزة الوصل بين تجار الشرق وتجار الغرب ، والمعبر الرئيسى بين تجارة الشرق وتجارة الغرب ؛ الأمر الذى عاد على المجتمع المصرى - حكاما ومحكومين - بالثروة الطائلة والمال الوفير . وإذا قيل إن جزءا كبيرا من هذا المال كان سلاطين الممالك مضطرين إلى إنفاقه فى شئون الحرب والجهاد ، فإن حقيقة هامة ينبغى ألا تغيب عن بالنا هي أن معظم حروب الممالك كانت حروبا رابحة تغطى ما أنفق عليها عن طريق الغنائم الوفيرة . وتفيض المراجع المعاصرة فى شرح الأموال والغنائم التى غنمها الممالك من أعدائهم سواء كانوا الصليبيين فى الشام - وفى قبرص - أو الأرمن أو النوبيين أو التركمان وغيرهم . وقد ذكر المقرئى عن بعض هذه الغنائم أنه بلغ من كثرتها أن قسمت النقود بالطاسات ، (١) . ومهما يكن فى هذه الآراء من مبالغات فهو تفيدنا أن الحروب الواسعة التى قام بها الممالك لم تكن عملية خاسرة على طول الخط وأنها لم تستنفذ جزءا كبيرا من الموارد الضخمة التى نعمت بها الدولة .

وخير شاهد على الثروة الدافقة التى نعمت بها دولة الممالك ، هورق الفنون فى ذلك العصر . فالحقيقة الواضحة التى يخرج بها دارس تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، هي أن الحياة الفنية بلغت فى عصر الممالك بالذات أسنى درجات الرقى والروعة . وما زالت المتحف الفنية الرائعة التى تزين بها دور الآثار فى العالم التى ترجع إلى عصر الممالك ، فضلا عن الممارم المايكبة الفائقة الحسن - من مساجد وقصور ومدارس وقباب وغيرها - تشهد برقى الحياة الفنية فى عصر الممالك ومقدار ما أنفق على تلك المنشآت من مال وجهد . ولا أقل من أن نلقى نظرة طامة سريعة على أركان الحياة الفنية فى عصر الممالك لنذكر مدى أهمية ذلك

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٩٨ هـ

العصر في تاريخ الفن الإسلامي بوجه عام (١).

العمارة:

يقول الدكتور زكي محمد حسن : « لا ريب في أن عصر دولتي المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر ، فقد كان الإقبال عظيماً على تشييد للعناصر ، من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة. كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية من وجهات ومنازل وقباب وزخارف جصية ورخامية » (٢).

ونستطيع تقسيم العناصر في عصر المماليك إلى دينية ومدنية ، فالدينية أهمها المساجد والمدافن والقباب والمدارس. وكان الجامع مربع الشكل عادة ، يتألف من صحن يحيط به أربعة إيوانات تبدو كأنها حنيات في الجدران ، وأكبرها إيوان القبلة . وفي عصر المماليك الجراكسة ظهر تصميم جديد للجامع أهم معالمه صغر مساحة المبنى واختفاء الصحن المكشوف . ومن أجل العناصر الإسلامية في مصر والشام إطلاقاً جامع السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون ، الذي استغرقت عمارته ثلاثة أعوام انتهت سنة ١٢٦٣ أي بعد وفاة صاحبه بعامين . وقد جاء هذا الجامع في الساحة مساحتها وروعة تصميمه وجمال زخارفه ، آية فنية يفخر بها الفن الإسلامي إطلاقاً. وقد أشرف على عمارة هذا المسجد المهندس محمد ابن بيليك المحسني (٣) ، الذي استطاع أن يجمع فيه بين الأساليب الشائعة في فن

(١) اعتمدنا في العرض التالي بصفة رئيسية على مؤلفات المرحوم الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن مؤسس مدرسة الآثار الإسلامية في جامعة القاهرة ورئيس قسم الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة ، وأستاذ الآثار الإسلامية بجامعة بغداد سابقاً .

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧١ .

(٣) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٢٦ - ١٨٠ .

(٢٥ - العصر المماليكي)

العمارة والزخرفة في عصره، ويعزى بها على نمط جمال المسجد يبدو من الناحية الفنية وحدة جمالية متماسكة . ولهذا المسجد منارتان عظيمتان في الجانب القبلي الشرقي، وكان المفروض أن يكون للمسجد أربعة مآذن، ولكن اكتفى باثنتين فقط بعد أن انهارت المئذنة الثالثة عقب إنشائها . وامتازت المآذن في جوامع ذلك العصر بوجه عام بانسجامها ورشاقمتها وتوسط ارتفاعها .

ومن العمارات المماليكية الجميلة قبة ومدرسة وبيمارستان السلطان قلاون، وهي المجموعة التي تمت عمارتها سنة ١٢٨٥ . وأجمل ما في هذه المجموعة القبة التي دفن فيها السلطان المنصور قلاون وابنه الناصر محمد، وهي تسمى آية من آيات الفن الإسلامي، إذ أنها محمولة على أعمدة من الجرايت ذات تيجان مذهبة وعلى أكتاف، أجزاؤها السفلية مغطاة بالنسيفساء الجميل (١).

ومن أهم العمارات ذات الصبغة الدينية في عصر المماليك الجراكسة، مدفن السلطان الظاهر برقوق الذي تمت عمارته في عهد ابنه الناصر فرج سنة ١٤١٠، وقد روى في تصميمه أن يكون على هيئة مجمع يضم مسجدا كبيرا وضريحاً للظاهر برقوق وأفراد أسرته وعائقاه للصوفية، ولذلك اجتمعت فيه مختلف الظاهر العمارة الدينية . ويتألف المسجد في هذا البناء من محن يحف به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذي ينتهي طرفاه بقبتين مزخرفتين بزخارف بارزة تتوسطهما قبة ثالثة فوق المحراب . وسقوف الإيوانات الأربعة مغطاة بقبوات نصف كرية من الحجر، ومحمولة على عقود مرفوعة مديبة. أما غرف الخانقاه فهي كثيرة ومعظما فوق الإيوانين البحري والقبلي (٢).

كذلك يعتبر مدفن قايتباي بالصحرَاء الشرقية بالقاهرة من أهم العمارات

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٧ .

الباقية من هصر الممالك الجراكمة . وهذا المدفن أيضاً عبارة عن مجمع يضم مدرسة وسبيل ومكتب وقبة . وصحن هذا المدفن مغطى بسقف ذى شخشيخة جميلة وحوله أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذى يقع المدفن قبله ، وقبته منقوشة برسوم هندسية ونباتية جميلة (١) .

أما العماير المدنية فى هصر الممالك ، فلم يبق منها إلا مداخل بعضها وأجزاء من البعض الآخر . ومن أهم هذه البقايا قصر الأمير بشتاك الذى يرجع إلى سنة ١٢٣٤ ، ولم يبق منه سوى جزء من الواجهة ثم المدخل والقاعة الكبرى وما يحف بها من حجرات ، وتمتاز هذه القاعة بجمال سقفها المذهبة وبالفسقية الرخامية التى تتوسطها ؛ فضلا عن وزرتها الرخامية الدقيقة وإبداع ما فيها من التنجيد والأدوات الخشبية ذات الزخارف المخروطة أو المحفورة أو المطلعة . كذلك هناك بقايا قصر الأمير قوصون خلف مدرسة السلطان حسن ويرجع إلى القرن الثامن الهجرى ، وبقايا قصر الأمير طاز بشارع السيوفية بالقاهرة وتشمل المدخل والقاعة الكبيرة ذات السقوف الجميلة والمتعددة الأنواع .

وفى هذا القصور هناك بقايا وكالة الأمير قوصون ومدخل وكالة قايتباى بباب النصر ، فضلا عن بقايا حمام الأمير بشتاك الذى لم يبق منه سوى مدخله المكسو بالرخام الملون . وجميع هذه البقايا وغيرها - مع قلنها - إلا أنها تشهد بسمو الذوق الفنى وروعة البناء (٢) .

الرسم والتصوير :

أما عن الرسم والتصوير فالمعروف أنهما من الأشياء المكروهة فى الإسلام

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٨٠ - ٨٤ .

لما فيهما من اتجاه وثنى يرتبط بعبادة الأوثان . ولعل هذه الحقيقة هي التي دفعت الفنانين المسلمين يتجهون منذ وقت مبكر إلى الإعراض عن تصوير الحيوان والإنسان ، واستغلال مواهبهم الفنية في تصوير بعض الأشكال الهندسية ، أو عمل زخارف من النبات وأوراق الشجر . هذا إلى أن الخط العربي صالح للزينة والزخرفة بطبيعته ، فاستغل الفنانون المسلمون ذلك الخط في كتابة عبارات بالخط الكوفي الجميل على الجدران أو الأواني أو غيرها . ومع ذلك فإن الفنانين المسلمين في العصور الوسطى لم ينصرفوا تماماً عن تصوير الكائنات الحية ، مما جعلهم يتركون مجموعة ضخمة من الزخارف والتصاوير والرسوم التي تشهد جميعها بمدى رقي هذا الجانب من الفنون عندهم .

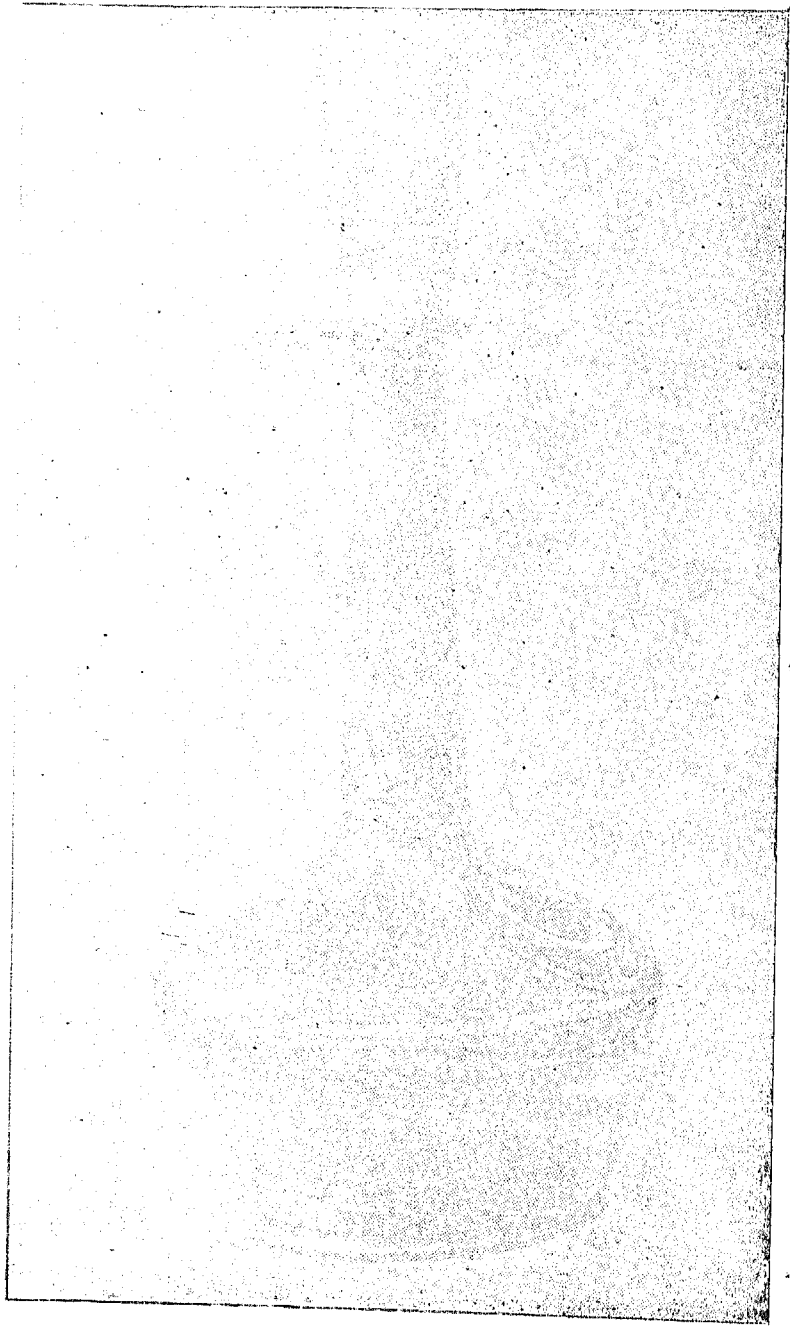
وامتاز عصر المماليك بالذات بكثرة الرسوم والزخارف وورقيها ، فضلاً عن أن هذه الرسوم انصفت بالطابع العربي الواضح . ويؤكد الباحثون أن تعرض بلاد العراق لغزو التتار في القرن الثالث عشر للميلاد ، ساعد على انتقال المدرسة العربية في التصوير إلى أراضى دولة المماليك في الشام ومصر ، بعد أن هاجر إلى هذه الأراضى كثير من فنانى العراق فراراً من خطر التتار هذا فضلاً عن أن إحياء الخلافة العباسية في مصر ، جعل دولة المماليك قبة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ومن ثم امتازت التصاوير التي أنتجتها مصر والشام في عصر المماليك ، بمحافظتها - إلى حد كبير - على التقاليد العربية ؛ وخلوها - إلى حد كبير أيضاً - من المؤثرات المغولية التي ظهرت في البلاد الأخرى التي حكمها التتار (١) .

ففي العمارة المماليكية نجد لميوانات المساجد وقد كسيت بالرخام وزخرفت
زخارف جميلة ، من وحدات نباتية أو رسوم هندسية ، فضلاً عن بعض الآيات

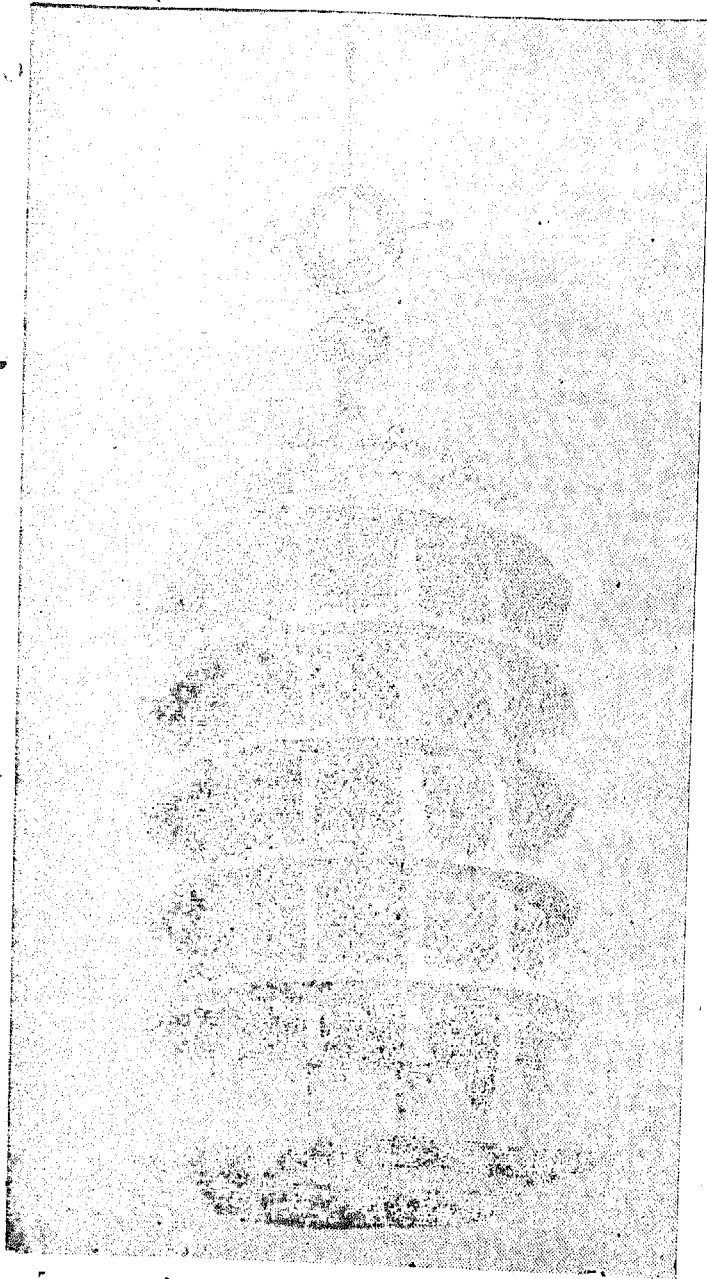
(١) حسن الباشا : التصوير الإسلامى في العصور الوسطى ص ١٦٥ .



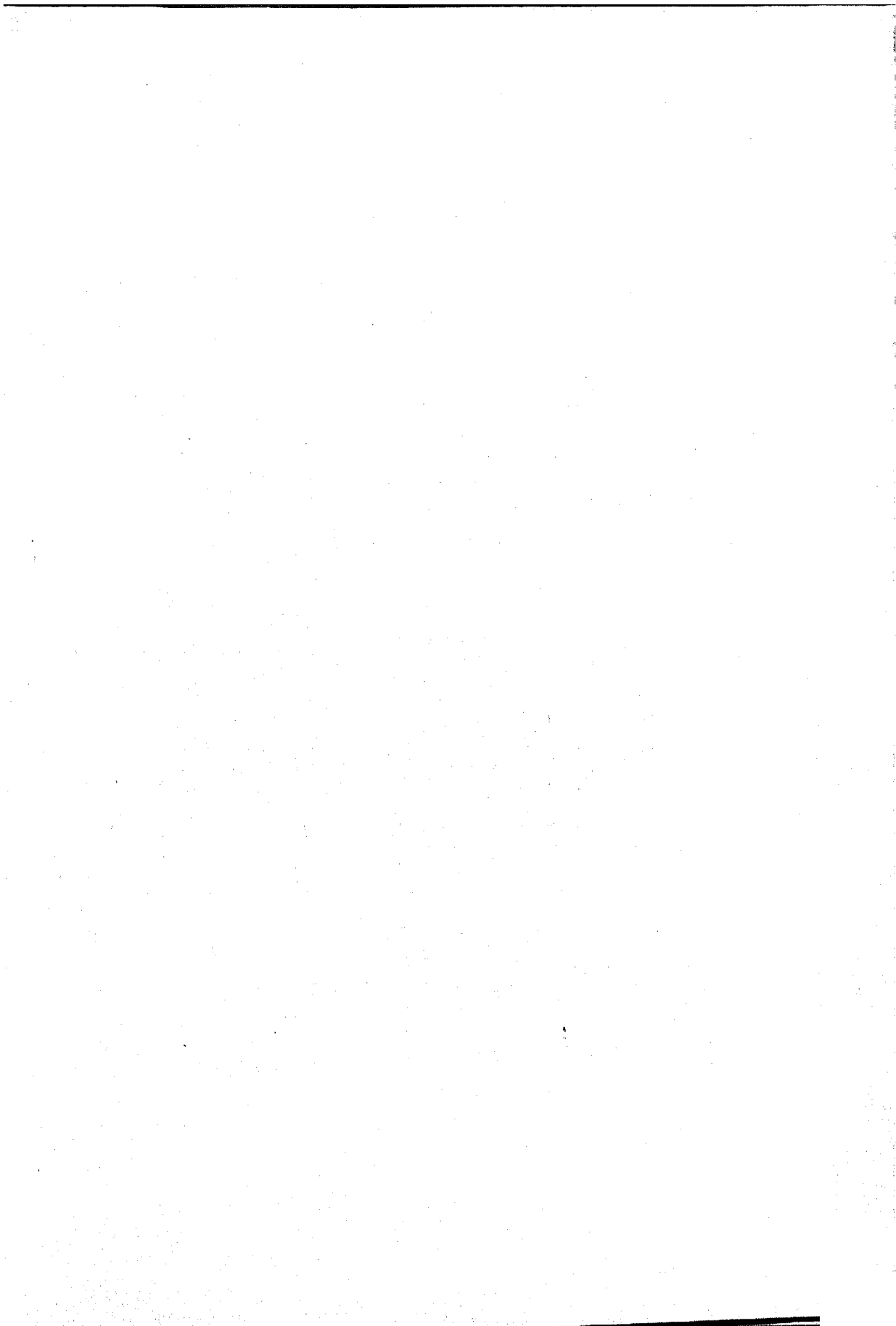
قطعة من إناء من الخزف يرجع إلى عصر المماليك .
مرسوم عليه صورة غزال يأكل الحشائش



إناء جميل صنع في الشام في عصر المماليك وهو من الزجاج الموه
بالمينا المتعددة الألوان



تريا من الشخص باسم أحد أمراء الممالك وعليها اسم الصانع الذي
ذكر أنه أتمها في أربعة عشر يوما.



القرآنية المكتوبة بالخط الكوفي الجميل المزخرف . كذلك على الممالك
بزخرفة سقفوف مبانيهم بالرسوم المذهبة وجدرانها بالفسيفساء الدقيقة أو
تكسى بالرخام الملون وكذلك الأرضيات . أما واجهات المباني من الخارج
فكانت تزخرف على هيئة طبقات أو مداميك أفقية بحيث تكون طبقة منها
صفراء فاتحة ، تعقبها أخرى حمراء داكنة .

ولم يقتصر التفوق في مجال الرسم والزخرفة في عصر الممالك على الممار
وإنما شمل الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبلور ، فضلاً
عن أخلفة السكتب . أما الزخرفة على الخزف فقد بلغت شأواً بعيداً في الشام
ومصر في عصر الممالك ، ولشهد على ذلك كثرة الألوان التي لدينا والتي تمثل
برسوم الحيوانات والطيور فضلاً عن الرسوم النباتية والأشكال الهندسية
الجميلة (١) . وبعض هذه الألوان عليها زخارف خطية بخط الثلث ، وتحيط
بهذه الكتابات رسوم فروع نباتية ووريقات وزهور باللونين الأبيض
والأزرق على مهاد أسود ، مما جعل منها آية فنية رائعة . كذلك توجد لدينا
بعض قطع من الخزف ، أو الفخار ترجع إلى عصر الممالك ومزخرفة بالمينا
البارزة عن سطح الطلاء ، وبعض هذه الزخارف قوامها عبارات دعاء بخط
النسخ أو رنوك مختلفة الأشكال كالنمر أو الصبغ أو النمر (٢) .

أما زخرفة النسيج في عصر الممالك فقد بلغت هي الأخرى درجة فائقة
من الروعة في عصر الممالك وأجل قطع النسيج المحفوظة بدار الآثار العربية
والتي ترجع إلى عصر الممالك مصنوعة من الحرير ، وانخذت زخرفتها شكل
عبارات مشمل « العز الدائم والإقبال » و « سعادة مؤبدة ونعمة مخلدة » ،

(1) Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East, p. 65 . (1944) .

(٢) زي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ٤٢٣ - ٤٢٤

و السلطان العام، و «وعز لمولانا السلطان الملك الناصر، و داقه». وكانت هذه العبارات في النسيج تحيط بهما زخارف أخرى تمثل أوراق الشجر أو خطوطاً حلزونية أو رسوم بعض الحيوانات مثل فهد يطارد غزالاً أو بعض السباع (١). كذلك يوجد بمختلف الفن الإسلامي بالقاهرة بعض قطع من القماش ترجع إلى عصر المماليك كتبت عليها عقود زواج، والقماش مصنوع من القطن ومكتوب عليه بمداد أسود (٢).

والمعروف أن صناعة المعادن ارتقت في عصر المماليك؛ فصنعت في ذلك العصر كثير من الصناديق والثريات والطاسات والأواني والكراسي المعدنية وغيرها. وجميع هذه المصنوعات كانت تزخرف برسوم جميلة رائعة. وهنا أيضاً نجد أن جزءاً كبيراً من الرسوم والزخارف الموجودة على التحف المعدنية الباقية من عصر المماليك اتخذت شكل عبارات وكتابات بالخط الكوفي أو خط النسخ، مثل «عز لمولانا السلطان...» و «المقر العالي المولوى الأميرى الكبيرى الغازى...» و «الملك الأشرف قايتباى عز نصره...». وهذه الكتابة الزخرفية كانت توجد عادة في مناطق تتخللها وتحيط بها رسوم هندسية متعددة الأضلاع، أو فروع وأوراق نباتية مألوفة، أو رسوم حيوانات وطيور وأسماك، أو رسوم آدمية كرسوم صياد يستخدم الباز (٣).

وأخيراً فإننا نجد أن فن الرسم والتصوير عبر عن رقيه في عصر المماليك في ناحيتين، الناحية الأولى هي ناحية الزجاج والبلور، والناحية الثانية هي أعلفة

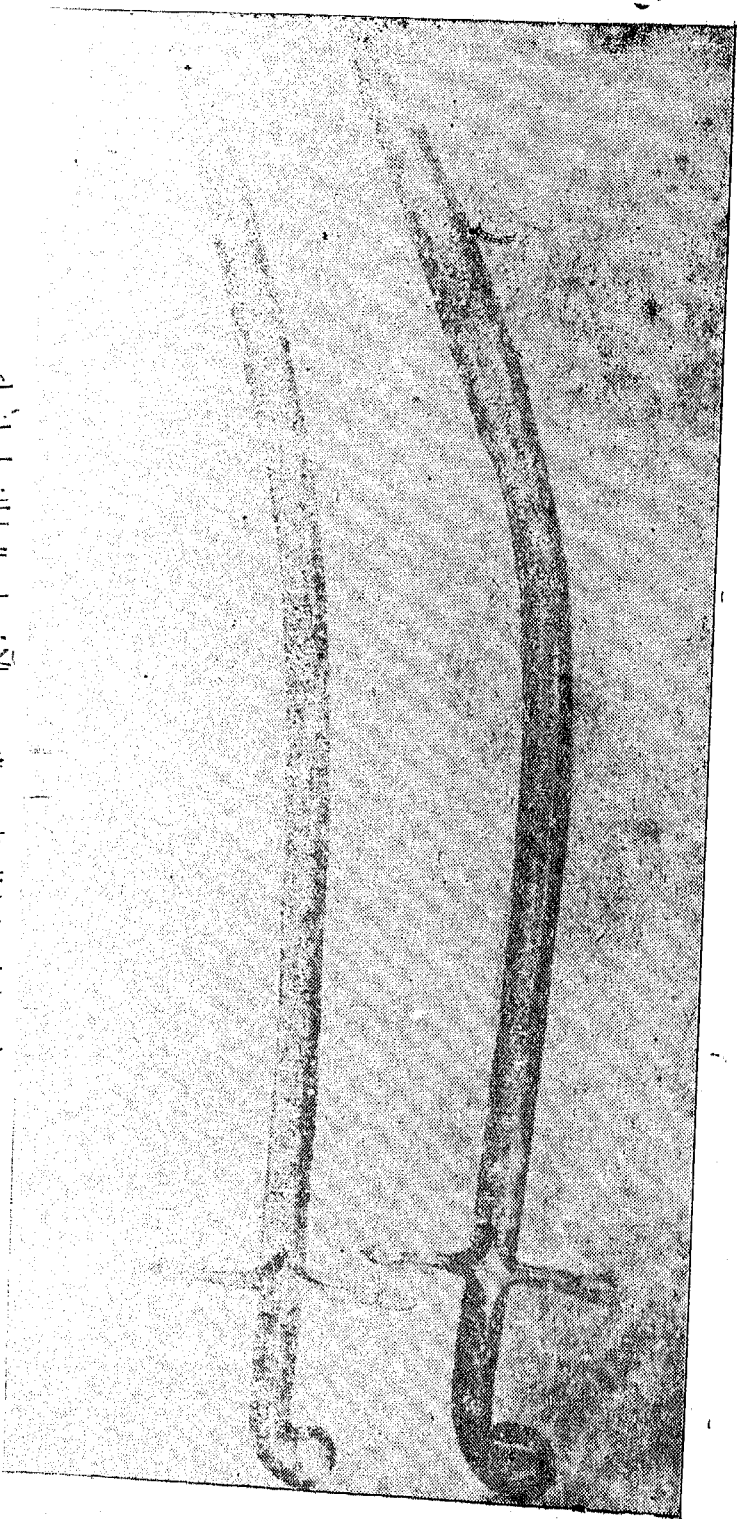
(١) انرجع السابق ص ٤٧٣ - ٤٧٤.

فتول الإسلام ص ٣٦٥ - ٣٦٨.

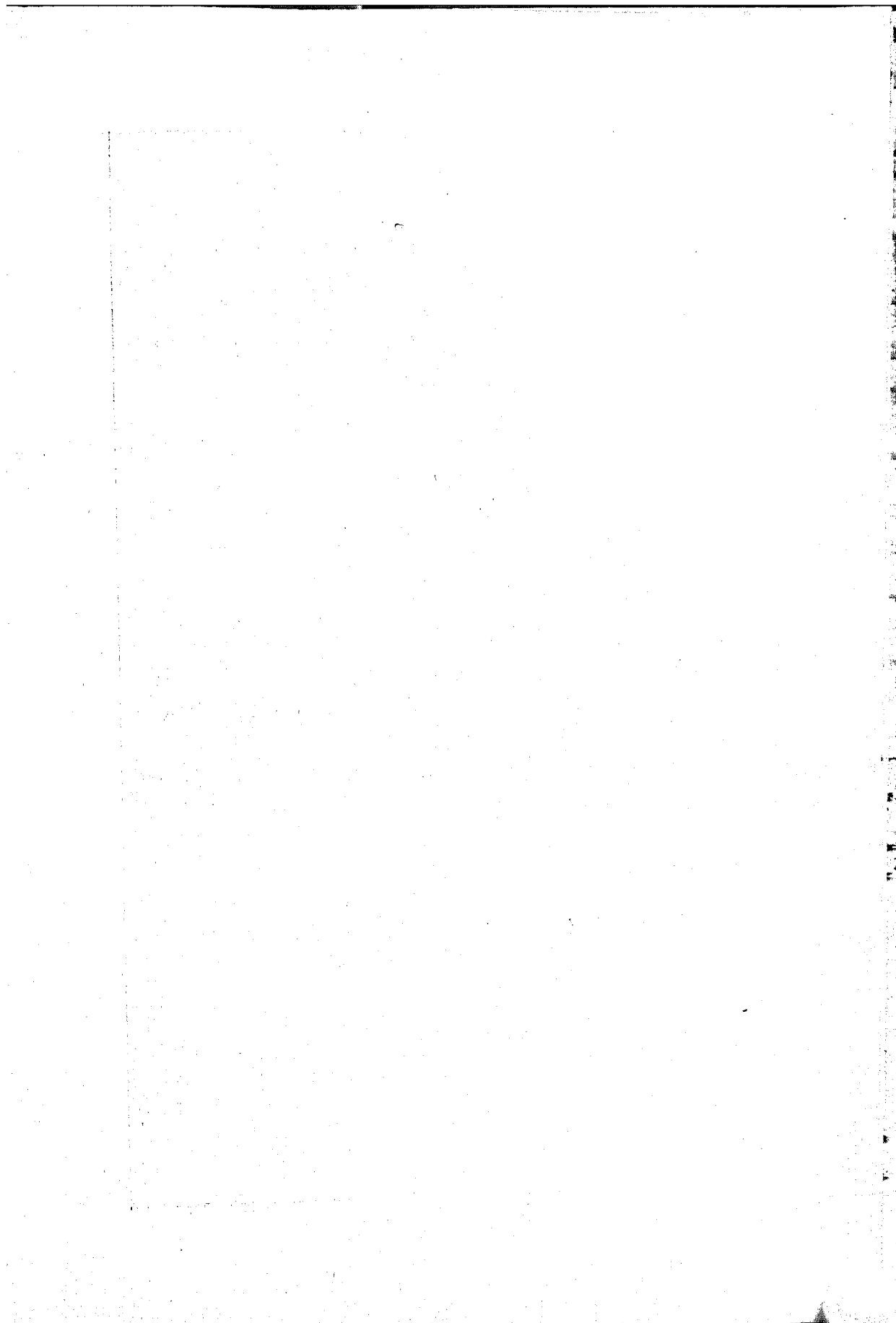
(٢) سعاد ماهر: عقود الزواج على المنسوجات الأثرية ص ٤ وما بعدها.

(٣) Wiet: Objets en Cuivres, p. 272 &

زكى محمد حسن: أطلس الفنون الزخرفية ص ٤٦٢ - ٤٦٥.

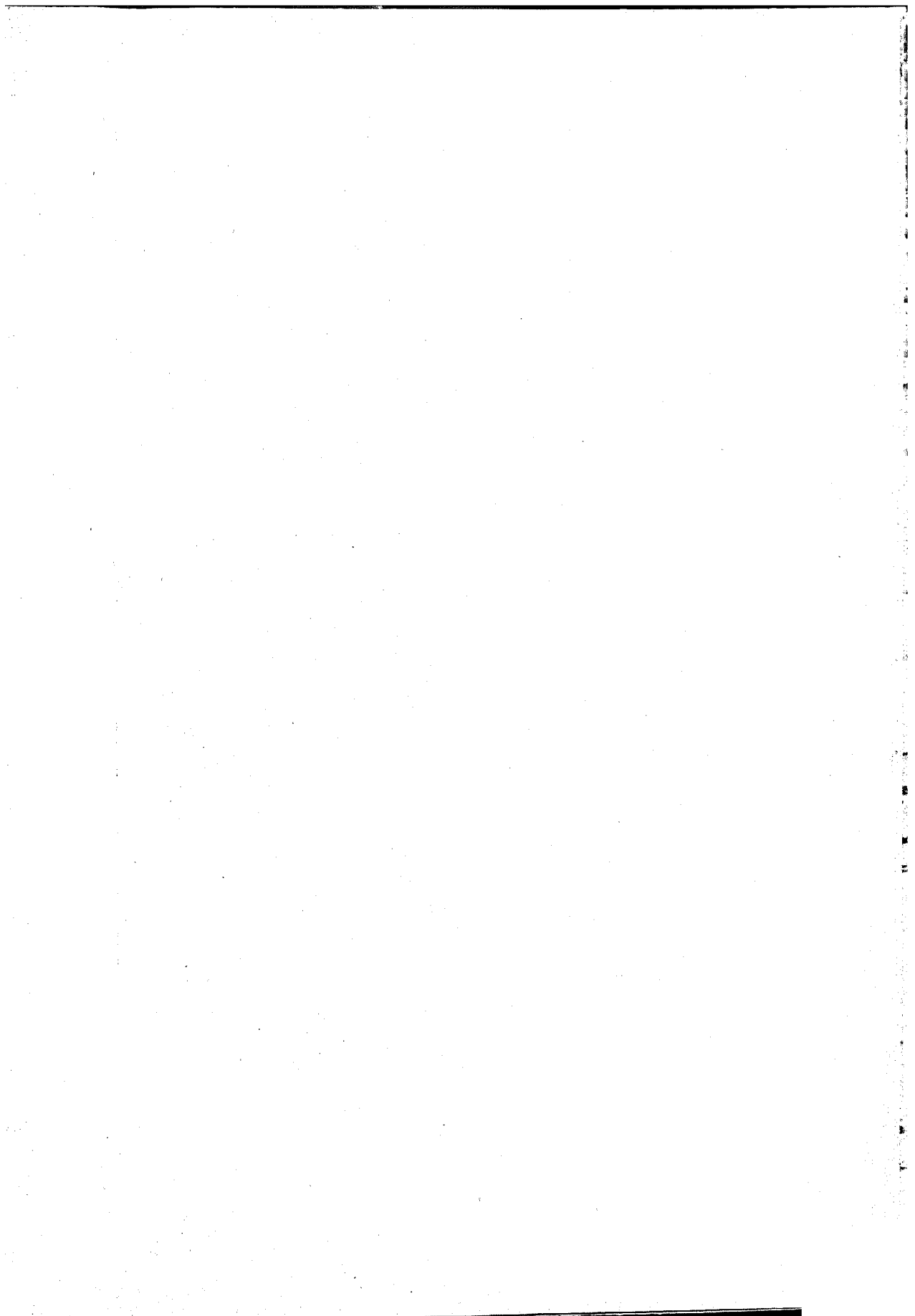


سيفان احمد باسما السلطان فخره الفوري والاخر باسما السلطان جلوسا باي
وحامى المصلى الزين بزخارف وكتابات مكافئه بالاصيب





مشكاة تحمل اسم السلطان الناصر محمد وهي من الزجاج المموه بالمينا
وعليها كتابات من القرآن الكريم بالخط النسخ



الكتيب أما عن الزجاج والبلور . فمعظم المشكاوات الباقية لدينا من عصر المماليك مدهونة بالمينا الحمراء أو الزرقاء أو الخضراء أو البيضاء ، ومزخرفة بأشرطة فيها كتابات مثل « عن مولانا السلطان الناصر ناصر الدنيا والدين عز نصره » أو آية قرآنية مثل « قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن » أو « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » وحول هذه الكتابات توجد زخارف من أشكال نباتية من أوراق النبات وزهر اللوتس والزنبق ، أو أشكال هندسية تمثل دوائر وحلقات قد تضم رنوكا وقد تضم صور بعض الحيوانات والطيور^(١) .

وأما عن زخارف أغلفة الكتيب ، فمعظمها في عصر المماليك كانت تذهب وتزين برسوم دقيقة بارعة . ذلك أن جلدة الكتاب في عصر المماليك امتازت بزخارف هندسية متشابكة ، زاد من جمال شكلها بعض أجزاء مضغوطة من الغلاف ، وهذه الأجزاء المضغوطة كانت تذهب وتزخرف على شكل وريقات وخطوط مجدولة . وبالإضافة إلى هذا النوع من الزخارف الذي نجد منه عدة نماذج في متحف المتروبوليتان ، نجد بعض جلود أخرى من عصر المماليك تتوسطها جامات مزخرفة بقطع رقيقة من الجلد على شكل زخرفة نباتية فوق أرضية ملونة . وكثيراً ما اتبعت طريقة الضغط لتزيين بواطن جلود الكتيب بزخارف نباتية ، يضاف إليها أحياناً أشكال أزهار مختلفة ، وأصبحت هذه الطريقة الزخرفية محببة إلى رجال الفن في أوائل القرن الرابع عشر^(٢) .

وكان من الطبيعي أن يختص القرآن الكريم بحوزه كبير من عناية الفنانين في ذلك العصر ، فعنوا بتذهيب المصاحف وتفننوا في زخرفة أغلفتها ، الأمر الذي

(1) Wiet : Lampes en Verre émaillé, pp. 67—100 &.

زى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية من ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٢) ديمانند : الفنون الإسلامية من ٨٧

(٢٦ — العصر المماليكي)

تشهد عليه مجموعة المصاحف الثمينة المحفوظة بدار الكتب المصرية ، والتي يرجع جزء كبير منها إلى عصر المماليك الذات . والملاحظ على هذه المصاحف أن الأساليب الفنية لا تبدو في غلاف المصحف أو فاتحته فحسب ، وإنما تظهر كذلك في سائر صفحاته ولا سيما في فواصل الآيات . ومن أمثلة المصاحف الجميلة المحفوظة بدار الكتب المصرية مصحف يرجع إلى سنة ١٣٦٩م (٨٧٧٠) باسم السلطان شعبان . وقوام الزخرفة في غرة هذا المصحف ساحة من مربع ، فوقه وتحتة مستطيل ، ويحيط بهذه الساحة ، إطار ضيق ثم إطار أعرض منه . أما الشريطان العلوي والسفلي في الساحة ، ففيهما رسوم وريقات وسيقان نباتية دقيقة تقوم فوقها أربع جامات مفصصة المحيط ، وتضم هذه الجوامات كتابة بالخط الكوفي من سورة الشعراء . وفي المربع الأوسط في الساحة إطار يضم ثمان مناطق فيها آيات أخرى من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي . وبعد الإطار مربع داخلي قوام الزخرفة فيه طبق نجمي كامل الشكل ، غنى بالرسوم النباتية الدقيقة في النجمة التي تتوسطه ، وفي الحشوات السداسية الأضلاع المورعة في نظام إشعاعي ودائري حول النجمة . وفي الإطار الخارجي فروع نباتية ووريقات تؤلف رسوما جميلة من الزخرفة العربية .

على أن تزيين المخطوطات بالرسوم الجميلة وتذهيبها لم يكن وقفا على المصاحف ، وكتب المسلمين فحسب ، بل وجدت مخطوطات من الإنجيل والتوراة مكتوبة بخط عربي جميل ، وذهبت صفحاتها وزينت برسوم هندسية ونباتية وفق الطراز العربي . ومن هذه المخطوطات نسخة من الإنجيل محفوظة في المتحف القبطي ونسخة في دمشق سنة ١٣٤٠ ، أي في عصر المماليك وغرة هذا المخطوط عليها منطقتان مفصصتان فيهما زخارف من فروع نباتية ووريقات فوقها في المنطقة العليا بالخط الكوفي « الإنجيل الطاهر » ، وفي المنطقة السفلى « والمصباح الزاهر يذوق ... » وبين هاتين المنطقتين مربع قوام زخرفته أربعة

أشكال ثمانية الأضلاع . وفي وسط كل منها رسم صليب اتخذ عنصرا زخرفيا فوق مهاد من الفروع النباتية والورقات الدقيقة ، وتحصر هذه الأشكال بينها شكلا نجميا مؤلفا من معينين متداخلين وفي وسطه رسم وردة . وحول هذه الأشكال جميعا وفي الإطارات المحيطة بها رسوم خطوط مجردة ورسوم زهور ، فضلا عن الوريقات والسيقان الواقفة في الإطار الخارجي والتي تؤلف رسوما جميلة . على أنه يلاحظ أن هذه الزخارف وسائر الرسوم المذهبة في ذلك المخطوط لا تختلف في أسلوبها الفني عن زخارف الصفحات المذهبة التي ترجع إلى عصر المماليك ، كما يلاحظ أن شارة الصليب اتخذت عنصرا زخرفيا في الرسوم المذهبة ولسكتها مع ذلك لم تخرجها عن الطراز الإسلامي^(١).

النحت والحفر :

أما فن النحت في الحجر والرخام والجص فقد بلغ درجة كبيرة من التقدم في عصر المماليك . والواقع أنه إذا كان عصر المماليك قد امتاز بازدهار الفن وكثرة المنشآت الفخمة ؛ فإن أهم ما تنصف به هذه المنشآت هي الزخارف والنقوش الفنية التي تحلى جدرانها وسقفها ، فضلا عن المقر نصات وصنجات العقود المعشقة ، والألواح الرخامية والفسيفساء ، والمنحوتات الجصية والحجرية في الزخرفة الداخلية . وقد نحتت تلك الزخارف نحتا غائرا ، واقتصرت في أغلب الأحيان على الأشمطة والألواح المنقوشة التي زين بها المبني بحسب التصميم . وتعتبر الزخارف الجصية التي مازالت موجودة في مسجد الطاهر ببيرس ، من الأمثلة الواضحة لروعة هذا النوع من الزخارف في عصر المماليك ؛ كما أن النقوش الحجرية التي تزين مدخل مدرسة السلطان حسن ، تعتبر مثلا

(١) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٥٠٧ - ٥٠٨

الفنون الإسلامية ص ١٥٩ - ١٦٣

رائعاً لما بلغه فن الحفر في ذلك العصر^(١).

ويتضح تقدم فن النحت والحفر في عصر المماليك في الألواح الرخامية الكثيرة المحفوظة بدور الآثار العالمية ، والتي عليها أشكال جميلة لنباتات وطيور وحيوانات وزخارف منجونة نحتاً دقيقاً . ويوجد بدار الآثار العربية من زخارف الرخام يرجع إلى القرن الرابع عشر للميلاد ، وسطح الزير من زخارف شديدة البروز قوامها رسوم فروع نباتية ووريقات ، وفي أعلاه كتابة بالخط الكوفي وفي أسفله عصابة من رسوم السمك . كذلك من أمثلة النحت البارزة في عصر المماليك ، الإفريز الذي نراه فوق عقد قناطر أبي المنجا . وتمثل هذه النقوش سباحاً متجهة إلى الجنوب الشرقي ورؤوسها منظورة من الأمام ، ولكل منها شارب وأذنان دقيقةتان ومدببتان وعينان ملوحتان وذنب مرفوع على ظهره ، وترمز هذه السباع إلى السلطان الظاهر بيبرس ، لأنه اختار رسم السبع ونكاله^(٢). كذلك تجلي فن النحت في عصر المماليك في المنابر الرخامية الجميلة الغنية بزخارفها النباتية ، فضلاً عن الشبايك الداخلية في جوامع ذلك العصر ، وهي مصنوعة من الجص وتمتاز بزخارفها الجصية البديعة .

أما الحفر في الخشب فقد بلغ درجة فائقة من الإبداع في عصر المماليك ، فأقبل الفنانون المشتغلون في هذه المهنة على إنتاج التحف الخشبية الدقيقة لاسيما المنابر والخزانات والكراسي والدكك . وامتازت رسوم الحشوات في ذلك العصر بأنواع المراوح الفخيلية والفروع النباتية والوريقات ، فضلاً عن تطعيم الحشوات بخيوط أو أشرطة رفيعة من نوع آخر من الخشب ، أغلى ثمناً وأندر وجوداً كالآبنوس أو بالعاج والعظم . وعندما استخدم الخشب في إنشاء السقوف كان يخرق بالرسوم الجميلة المنقوشة أو المحفورة . كذلك ازدهرت

(١) ديماند : الفنون الإسلامية من ١٣٢ - ١٣٣

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام من ١٣٢ - ١٣٣

في عصر المماليك صناعة مشربيات النوافذ من الخشب المنحروط ، ولدينا نماذج منها تشهد على براعة الفنان المصري في ذلك العصر . أما الخزانات والدكاك والكراسي ؛ فيوجد منها عدد كبير بدار الآثار العربية وكلها تشهد بدقة الصناعة وجمال الزخرفة وسمو الذوق الفني (١) .

كذلك ارتقى الحفر على العاج والعظم زمن المماليك ، واستخدمت رقائق العظم فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر في زخرفة الأبواب والمنابر . وتحتوى المتاحف الكبرى في أوروبا - فضلا عن المتحف الإسلامي بالقاهرة - على نماذج كثيرة من التحف العاجية التي ترجع إلى عصر المماليك (٢) .

الفنون الصغرى :

أما الفنون الصغرى فتشمل الصناعات الصغيرة التي يبدو فيها تفوق الصانع ومهارته الفنية وذوقه الجميل ودقة عمله ، وقد سبق أن تكلمنا عن رقى الصناعة في عصر المماليك ، ولا بأس من أن نشير هنا إشارة أخرى سريعة إلى أهم الصناعات التي ظهرت فيها مهارة الصانع وسمو ذوقه الفني في ذلك العصر .

ففي صناعة الخزف بلغ الصانع في عصر المماليك درجة كبيرة من المهارة والدقة تدل عليها البقايا الخزفية من ذلك العصر ، ومن ذلك الخزف نوع ذو زخارف منقوشة تحت دهان شفاف باللون الأزرق أو الأخضر . وقد كتب بعض الخزفيين الذين أنتجوا لنا أنواعاً رائعة من الخزف أسماءهم على الوجه الخارجى من قاع الإناء ، ومن هذه الأسماء غيبي وغزال ودمين والاستاذ المصري وغيرهم ، كذلك امتاز عصر المماليك بصناعة نوع خاص

(١) زكى محمد حسن : فنون الاسلام من ٤٦٧ - ١٧٤

(٢) ديمانند : الفنون الاسلامية من ١٣٢ - ١٣٣

من الفخار المطلى بالميينا ؛ وعجينة هذا الفخار ماثلة إلى الحمرة وفوقها قشرة بيضاء يملوها دهان بالميينا الصفراء أو الخضراء أو ذات اللون البنى ، وكان هذا النوع من الفخار يستعمل بكثرة في بيوت الأمراء .

وفي صناعة النسيج أنتج عصر المماليك منسوجات راقية من الحرير ، امتازت برقتها وجمال رسومها ورقة نسيجها ، ومثل ذلك يقال عن صناعة السجاد التي أشار إليها الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر في عصر المماليك . وانصف السجاد المصري في ذلك العصر بجمال ألوانه ومثانة صناعته وجمال زخارفه الهندسية ، أما في صناعة الخشب فقد أبدع النجارون في صناعة التحف الدقيقة مثل المنابر والدكا والكراسي والحوامل والصناديق والخزانات وغيرها ، وظهرت مهارة النجارين في ذلك العصر في خراط الخشب وتطعيم مشواته بالعاج والعظم وغير ذلك ؛ فضلا عن كسوة الخشب أحيانا بطبقة دقيقة من الفسيفساء تتألف غالبا من قطع صغيرة من الأبنوس والسن ، وهو ما يسمى الترصيع ، على استخدام العاج والعظم لم يقتصر في عصر المماليك على التطعيم والترصيع ؛ وإنما صنعت في ذلك العصر بعض تحف نادرة من العاج ، معظمها غالب صغيرة عليها زخارف نباتية وهندسية رائعة .

أما صناعة المعادن فقد بلغت في الأخرى درجة فائقة من الدقة تدل عليها مختلفات ذلك العصر من أبواب وشمعدانات وكراسي وطاسات وآنية وأسلحة وغيرها ، وجميعها استعملت فيها مختلف الأساليب الفنية في صناعة المعادن من حفر وتكفيت وتصفيح وتخريم ، ومثل ذلك يقال عن صناعة الزجاج لاذ صنعت مشكيات من الزجاج الأبيض المائل إلى الصفرة أو الخضرة ، وموهة بالميينا ، وأبدع تماذج لهذه المشكيات صنعت في الشام ومصر حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلاد ، وبالإضافة إلى المشكيات العديدة صنعت

في ذلك العصر كبؤس وقذنيات وآنية جميلة من الزجاج ، تشهد كلها على مهارة الصناعة ودقتها في ذلك العصر .

وهكذا يبدو لنا أن عصر الممالك كان عصر نشاط فني ضخم ، وأن الحياة الفنية بجميع أوجهها ومظاهرها ، ارتقت في ذلك العصر إلى أسى درجات الرقى والانتقان .

والحمد لله رب العالمين



كشاف

شرح أم المصطلحات الواردة في مراجع العصر المالكي

(١)

الآبازة :

تجار البذور .

(المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤١٤)

أتابك (أطابك) :

مقدم العسكر والقائد العام للجيش المالكي .

(القلة شندى : صبح الالهى ج ٤ ص ١٨)

أجناد الحلقة :

محترفو الجندية من ماليك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهم أقرب
فئات الماليك إلى الجيوش النظامية في العصور الحديثة ، ومرتباتهم
من ديوان الجيش .

إخوان سلا :

وظيفة بالمطبخ السلطانى يقوم صاحبها بتقديم الخوان بالطعام إلى
السلطان . ويبدو أن صاحب هذه الوظيفة كان كبير رجال المطبخ
السلطانى ، وهو يقوم مقام المتهار في غير المطبخ من البيوت
السلطانية .

(القلة شندى : صبح الالهى ج ٥ ص ٤٢١) .

آدر :

جمع دار ، وآدر الضرب هي دور سك العملة ، والآدر الشريفة
يقصد بها الحرم السلطاني . والآدر كذلك من ألقاب التشريف التي
تستعمل للإشارة إلى الخوندات أو صاحبات العصمة من عليّة النساء
دون ذكر أسماءهن .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٢ ،
خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ - ١٢٢)

الادعاء في الصيد :

الانتساب : بمعنى أن المبتدئ في الصيد لا يصور في زمرة هواة الفن
إلا بعد أن ينتسب لأحد رماة الصيد القدماء ، فإذا تم ذلك يقال أنه
ادعى لفلان أي انتسب إليه .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٢٣)

أرباب الخيال :

(انظر الخيال)

أرباب الضوء (الضوية) :

الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

أرباب الملهوب :

أصحاب الملاهي المعروفة من المناطحين بالسكباش والمناقرين
بالديوك ، والمعالجين والمصارعين والمناققين والملاكمين والمضاهكين ..
والقراة والديابة الذين يلعبون بالقروود والدب ... ،
(المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢) .

الارتفاع :

ما يتحصل من الدواوين عامة ، ويقال ارتفاع الديوان الخاص أى
ما يتحصل من الديوان الخاص بأموال السلطان .
(المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢ ، ١١١)

امباسلار (اسفهرسلار) :

لقب من الألقاب الخاصة بأمرأء الطبليخاناه فى عصر المماليك ، على
أن هؤلاء الأمراء لم يلبثوا أن أهرضوا عن هذا اللقب عندما وجدوا
أن العامة يطلقونه على بعض من يقف بباب السلطان من الأعوان .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٧ - ٨)

الاستادار :

وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت
السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والعلمان . وله
مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من
النفقات والسكاوى وما يجرى بجرى ذلك من الممالك وغيرهم .
(ز القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٧ ،
أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٢٢ حاشية ١) .

أستاذ :

معلم ، وأطلقت فى المصطلح الممالكى على السيد الذى اشترى المملوك
بالمال وتعهد بالتربية حتى كبر وأعتقه . وكانت رابطة الأستاذية
— التى تربط المملوك بأستاذه — من أقوى الروابط فى نظام الممالك ،
حتى أن كثيراً منهم نسبوا إلى أستاذتهم ، فيقال مثلاً يبرس البندقدارى
نسبة إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار .

استيفاء الصحبة :

(انظار مستوفى الصحبة) .

الاستيثار :

السجل الحسكرى الذى يشتمل على أرزاق ذوى الأقالام وغيرهم ،
مياودة ومشاهرة ومسانمة من الرواتب ... ،
(المقريزى : المواقظ ج ٢ ص ٢٢٦)

الأسطول :

مجموعة مراكب حربية مجتمعة ، وأطلق أحياناً على مركب واحد
فقط . والأسطول هو العسكرى الذى يعمل فى البحر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٧) .

أسلى :

وجعه أسلمة . ويقال أيضاً مسلماني وجعه مسالمة أو مسلمة . ويقصد
به كل من دخل الإسلام حديثاً من أهل الديانات الأخرى .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤٣) .

الإشارة :

وظيفة من الوظائف الكبرى فى الدولة المملوكية ، جعلها القلقشندى
فى الترتيب بعد نيابة السلطنة والوزارة . ومع ذلك لا نجد تحديداً
ثابتاً لاختصاص صاحب هذه الوظيفة فى المراجع المعاصرة ، وإن
كان من الثابت أنه تولاها عادة بعض كبار أمراء المماليك ، وأن
صاحبها كان يحضر مجلس المشورة .

(القلقشندى : صبح الأمشى ج ١١ ص ١٥٣ - ١٥٥ ،
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٩٠ حاشية ١)

أشكر لاط :

نوع من القماش أحمر اللون ، كان يرد من جزيرة أيرلند .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

أصحاب الأرباع :

الأرباع جمع ربع ، وهى أقسام أو أحياء المدينة الأهلة ، وأصحاب الأرباع هم الخفراء الذين يقومون بحراسة تلك الأحياء ليلاً .

اصطبل :

مجموعة من المباني يبنها الأمير المملوكى لسكنته وسكن أمرته ومواليكه وخيوله .

الأطلاب :

الحرس الخاص لأمراء المماليك ، ويحملون سلاحاً كالأجناد .
(أبو المحاسن : النجوم ج ١ : ص ٢٩ حاشية ٢) .

الاطلس الخطائى :

نوع من الحرير ، أصل صناعته فى بلاد الخطا شمالى الصين .

(Dozy : Dict. Ar.)

إقامة :

وجمها إقامات ، ما يلزم الجند من المؤونة والعلف وغيرها . وربما قصد بها ما ينزل فيها المسافر من الخيام ولوازمها وما يتبعها من أمتعة السفر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٥ حاشية ٥) .

أكديشن :

وجمها أكاديشن ، الرجل الخليط الذى لا ينسب إلى أصل واحد ، الحصان غير الأصيل المستخدم فى حمل الأثقال .

أمير آخور :

وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اسطبل السلطان أو الأمير
ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات .
زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٣٨ حاشية ٣ .

أمير جاندار :

(انظر الجاندار) .

أمير خمسة :

أصغر مرتبة من مراتب الأمراء ، ويمتد أصحابها من كبار الأجناد .
كذلك كانت تمنح هذه الرتبة لأولاد الأمراء المتوفين من باب
القشريف .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ - ١٨) .

أمير شكار :

موظف يقوم برعاية الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها . وكذلك
كل ما يتعلق بالصيد وحيواناته .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ج ٥ ص ٤٦١) .

أمير طبلخاناه :

مرتبة حرية من مراتب أرباب الصيوف في مصر المملوكية ، صاحبها
يلى أمير مائة مقدم ألف في الدرجة . وسمى أمير طبلخاناه لاحقيته
في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المئين . ويطلق
على أمير طبلخاناه أيضا أمير أربعين ، بمعنى أن يكون في خدمته
أربعين مملوك ، وقد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١) .

أمير عشرة :

مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرة ممالك . ويكون صفار
الولاية من طبقة أمراء العشرات .

أمير علم :

هو الذى يتولى أمر الأعلام والسناجق والرايات السلطانية، ويشترط
فيه الدراية بنوع الأعلام اللازمة لكل موكب من الموكب السلطانية .
(القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٤٥٦ - ٤٥٨)

أمير مائة مقدم ألف :

أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب
السيوف ويكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ، وهو في نفس الوقت
مقدم على ألف جندى من أجناد الحلقة في وقت الحرب .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١) .

أمير مجلس :

يتولى صاحب هذه الوظيفة أمر مجلس السلطان أو الأمير ، كما كان
يتحدث على الأطباء والكهنة ومن شاكلهم .
(القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ، ج ٥ ص ٤٥٥)

الأمراء السلطانية :

المخازن والقبور التى تخزن فيها الغلال الخاصة بالسلطان ولا تفتح
إلا في حالات الشدة والمجاعات .
(خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٤٢ - ١٤٣) .

الأوشاقية (أو الأوجاقية) :

مفردها أوشاق أو أوجاق ، وهي فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤)

إبلجى :

وجمعها إبلجية ، السفير أو المبعوث .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ب)

باب سر لطيف :

هو الباب الذى يوجد بمكان غير ظاهر من العمارة الإسلامية ، ويدخل منه السلطان أو غيره من الشخصيات الكبرى فى حالة الزحام فى الحفلات مثلا أو عند التختفى فى حالة وجود حريم . والمقصود بباب لطيف أى صغير .

(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢ تحقيق ٢٤٦) .

بابا :

وجمعها بابية ، وهو لقب عام لجميع رجال الطغمت خاناه ممن يتعاملون فى الغسل والصقل وغير ذلك . وهو لفظ رومى معناه أبوالآباء ... وكانه لقب بذلك لأنه لما تعامل ما فيه ترفيه مخدومه من تنظيف قاشه وتحسين هيئته ، أشبه بالآب الشفيق .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٠) .

البادهنج (باداهنج أو بادنج) :

جمعه بادهنجات ، وهو المنفذ الذي يوجد وسط المبنى للتزوية (المنور
أو القلقةشندى) . وقد ورد اللفظ بالذال أيضاً .

(Dozy : Dict. Ar.)

البازدار :

هو الذى يحمل الجوارح والطيور الممدة للصيد على يده .
(القلقةشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦٩) .

بازهر (بازهر) :

حجر خفيف هش ينسب إليه قوى غريبة فى مقاومة السموم .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الباشورة :

وجعها بواشير ، وهى سد من القراب لمنع وصول الخيالة والرجال
والسهم إلى موضع المحاربين .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٤)

البرالية (الممالك ...) :

الممالك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم المخرجة
أيضاً . أما الخاصكية فكانوا يسمون باسم الجوانبة .
(القلقةشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٦ ، ج ٤ ص ٥٦ ،
المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٧) .

البره دار :

هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجمل ، متحدثاً على
أهوانه والمتصرفين فيه

(القلقةشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨) .
(٢٧ — العصر المملوكى)

البرك :

نقل المسافرين ومتاعه .

(كتر ميج ١ ص ٢٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٨٧)

بركستوان (بر كسطوان) :

ما يوضع حول بدن الفرس كالدرع .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٧٧ حاشية ٥) .

البركيل :

مرئاد البحار من التجار والمغامرين ، والبراكية نوع من السفن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشت :

بكسر الباء أو ضمها وجمعه بشت ، العبادة من الصوف بلونه الطبيعي .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشتكي :

نوع من الخمر نسبة إلى الأمير بشتك .

البشخاناه :

وجمعهما بشاخين ، وهي ما يطلق عليها اليوم الفانوسية الموزكشة

أو دابر السرير ، أى الحلية التى توضع فوق السرير ، وقد تكون

حول الغرفة كلها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشمقدار (البشمقدار) :

هو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

بطال :

وجمهمها بطالون ، أى الأجناد والأمراء العاطلون من أعمال الدولة
ووظائفها وإقطاعاتها نتيجة غضب السلطان أو كبر السن ، أو اضطراب
إلى الاحتكاف والاختفاء ، أو لجرد حب الإنزواء والابتعاد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٣ حاشية ٤) .

البطسة :

نوع من السفن الحربية ، ويفهم من عبارة ذكرها النويرى أن السفينة
من هذا النوع كانت تنسع لعدد كبير من الجنود يصل إلى نحو
سبعائة .
(النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٣٢٣) .

البطاطاق :

قباء بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جداً يلبس تحت الفرجية . وكان
يصنع من القطن البملبكي الأبيض أو من السنجاب .
(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

البقط :

المال الذى فرضه المسلمون على النوبة بعد فتحهم لها ، وظل يحمل
إلى مصر كل سنة .
(المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٩٩)

بقيار :

سجادة سوداء مصنوعة من وبر الجمل ، نوع من العائم الكبار كان
يلبسها الوزراء أصحاب القلم .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥ حاشية ٤) .

المسكة :

المشبك الذى يشبك فى الثياب للزينة ، وقد يكون من ذهب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

بليق :

وجمعه بلاليق ، نوع من النظم الخاص بالأغاني الشعبية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البندق :

كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص يستخدمها الرماة فى تطيير الحمام . وكان البندق يرمى بالاقواس ثم صار يرمى بالمزاريق والآنايب عن طريق ضغط الهواء من مؤخر الأنبوب . والبندقانيون هم صانعو البندق .

(ريدان : تاريخ المدن الإسلامى ج ٥ ص ١٥٢) .

البندقدار :

حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٧ ، ج ٥ ص ٤٥٨)

(السلوك ج ١ ص ٣٥٠ حاشية ٢ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٩٤)

البواردى :

وجمعه بوارديون ، تاجر الطيور المحفوظة بالتبريد أو التليح .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦١٣ حاشية ١) . ويفهم من بعض كتب

الحسبة المعاصرة أن اللفظ أطلق أيضاً على تاجر الخضروات المحفوظة

بالصلق وإضافة الخل والزيت والتوابل والملح إليها .

(ابن الأخوة : معالم القرية فى أحكام الحسبة ص ٩٦) .

البواقي :

ما يتأخر كل ستة عند الضمان والمتقبلين من مال الحراج .
(المقرري : المواظ ج ١ ص ٨٢)

بيدر :

وجمعها بيدور ، الموضع الذي تدوس فيه الفلال .

بيضة :

وجمعها بيض ، خوزة من الحديد يلبسها الجندي لوقاية رأسه ، وسميت
كذلك لأن شكلها يشبه البيضة .

البكار :

وجمعها بياكهر ، الحرب عامة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

بمارستان :

(انظر مارستان)

(ت)

التجريس :

هو أن يذهب المذنب في طرقات المدينة ، ويضرب الجرس على رأسه
ليجتمع الناس حوله ، ثم يضرب أو يوسط علناً في نهاية المطاف .
(انظر التجرير والتوسيط)

التمحنانية :

القميص الذي يلبس تحت الملابس ، وعكسه القوقانية .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

نقطة :

مقعد : وتخت الملك (مريد الملك) منبر من رخام يصدر إيوان
السلطان الذى يجلس فيه .

تفريج (الجوارح) :

تدريب الجوارح .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ حاشية ٢) .

تخليق (المقياس) :

التخليق هو التعطير بالرائحة العطرية المسماة (خلوق) ، ومعنى تخليق

المقياس تعطيره ومسحه بالزعفران عند وفاة النبل .

(اللقطة شندى : صبح الأضنى ج ٤ ص ٤٧) .

التذرع بالسخام :

تلطبخ الأذرع بالسخام ؛ وهو الفحم وسواد القدر ، وذلك إظهاراً
للحزن .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٩٦ حاشية ٤) .

تذكرة :

وجمعها تذكرة ، مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه وتصادف

لتذكيرهم بتفاصيل ما يوكل إليهم ، وليكون بمثابة ورقة اعتماد عند

الجهات التى يقصدونها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٥) .

التراى :

الأطفال من أسرى الحروب .

(المقرئى : المواقظ ج ٢ ص ١٩٤) .

الترسيم :

وجمعه تراسيم ، وهو الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة لمقوبة
شخص بوضعه تحت المراقبة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية هـ) .

التركاش :

الكفانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

التسمير :

عقوبة تقضى بتعمية المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على
شكل صليب ، وتدق أعضاؤه في الخشب بواسطة مسامير غلاظ .

التشريف :

الحلقة أو الملابس المهداة من السلطان إلى كبار الأمراء في مناسبات
خاصة أهمها التعيين في الوظائف الكبرى كالنيابات .

التشهير :

عقوبة تقضى بأن يطرح المذنب على ظهر جمل ثم يطاف به في
المدينة ليظهر ، وقد توفه المغاني وهو على هذه الصورة ليجتمع الناس
حول ، وفي نهاية المطاف يضرب أو يوسط أمام الناس .

تشهير :

وجمعه أشاهير ، وهي الأشرطة التي توضع حول صدر الحصان .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

التصفيح :

إحصاء البيوت والعقارات لأجل فرض ضريبة عليها ، والتقويم
تقدير قيمة كل من البيوت المحصاة من أجل الفرض نفسه .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٨٤ حاشية ٢) .

تعبية :

وجمعها تعابى ، أى ثياب أو قطع من قماش .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

تفصيلة :

نوب .

التقليد :

المرسوم الموقع من السلطان لتعيين شخص فى وظيفة كبيرة .

التقويم :

(انظر التصفيح) .

التكلاوات :

نوع من الملابس كان يلبسه الأمراء فى العصر المملوكى ، غير معروف
وصفه بالضبط . واللفظ على صيغة الجمع .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 29.)

التمر بغاوى :

نوع من الخمور نسبة إلى الأمير تمر بها .

التوسيط :

حقبة تقضى بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف ، على أن تكون
الضربة قوية تحت السرّة ، فتقسم الجسم نصفين من وسطه وتنهال
أعضاء المحكوم عليه إلى الأرض .

تومان (طومان) :

الفرقة التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل .
(زيادة : المقرئ ج ١ ص ٩٣٣ حاشية ١)

(ج)

الماشكرك :

الأمير الذي يقوم بذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير
خوفاً من أن يدم عليه فيه سم أو نحوه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠)

الجمالية :

وجمهاجوالى ، وهى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة عليهم
كل سنة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ ، النويرى : نهاية الأرب
ج ٨ ص ٢٢٦)

الجاليش :

راية عظيمة فى رأسها خصلة من القمير تحمل فى مواكب السلطان ،
لا سيما المواكب الخاصة بالحرب . وكان الممالك يطلقون اللفظ أيضاً
على الطليعة من الجيش .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧
ص ١٠١)

الجامكية :

وجمعها جوامك ، الرائب المربوط لشهر أو أكثر .

(Dozy : Spp. Dict, Ar.)

الجاندار :

الأمير الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٩)

الجر :

مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب ، وتحمل على رأس السلطان في موكب الصيد .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨) .

جرانهي (جارحي) :

طبيب الجراحة .

جرخ :

جمعها جروخ ، وهي آلة حربية تستعمل لرمي السهام والنفل

والحجارة ويقال لمستخدمها من الخند جرخي .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٠٣ حاشية ١) .

جريدة :

فرقة من المسكر الخيالة لإرجالة فيها . ويقال ركب السلطان

جريدة .. أي ركب على وجه السرعة دون أن يصطحب معه أنقالا أو حمدا .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٦ حاشية ٨) .

جفت :

وجمعه جفوت ، وهو الزخرفة البارزة المنحوتة في الحجر على شكل
إطارات أو سلسلة حول فتحات النوافذ والأبواب والإيوانات .
(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢
تحقيق ٥٨)

الجفته :

وجمعهما جفتاوات ، اثنان من أوشاقية اصطبل السلطان ، قريبان
في السن ، يركبان أمام السلطان في بعض المواكب السلطانية ،
ويلبسان قباءان أصفران من حرير وتحتهما فرسان أشهبان .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨) .

جفهر :

جمعة من جلود لاختب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣١٣ حاشية ٦) .

الجدار :

الموظف الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

الجدار :

هو الذي يمشي في المواكب السلطانية عن يمين السلطان حاملا
دبوساً له رأس منخم مذهب ، على أن يتجه نظره إلى السلطان من
أول خروج الموكب حتى انقضاؤه .

جناية :

وجمعها جنايات ، وهى ما يفرضه السلطان من ضرائب وغرامات
تأديبية على رعيته .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٨ حاشية ١) .

جنب :

وجمعها جنائب ، وهى الخيول التى تسير وراء السلطان فى الحروب
لاحتمال الحاجة إليها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤١ حاشية ٣) .

جنك :

آلة من آلات الطرب ، والحنسكيات الجوارى اللاتى يلعبن على
الجنك .

الجنكى :

لاعب آلة الجنك ، وكذلك رقاص الأفراح . واتمنى معظم هذه
الفئة من الرقاصين إلى شباب الأرمن واليهود واليونان والترك .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ حاشية ٣) .

الجنوبة :

النقالة التى تستخدم لنقل الموتى .

الجوسق :

وجمه جواسق ، أى القصر والقصور .

الجوشن :

الدرع .

الجوك :

الركوع على الركبتين (في حضرة عظيم) .

الجوكان :

عصى مدهونة طولها نحو أربعة أذرع ، برأسها خشبة مخروطية
معموفة تزيد عن نصف ذراع ، تستخدم في لعب الكرة (برلو) .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، زيادة : السلوك ج ١ :
ص ٤٣٥) .

الجوكندار :

هو الذي يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨) .

(ح)

الحاجب :

أمير وظيفته أن ينصف بين الأمراء والجنود ، تارة بنفسه وتارة
بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد ،
وعرض الجنود وما ناسب ذلك ، .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩) .

حاجب الحاجب :

تسمى وظيفته الحجووية الكبرى ، وهو يقوم بالنظر في مخاصمات
الاجناد واختلافهم في أمور الإنطاعات ونحو ذلك ، .
(المقرئ : المواعظ ج ٢ ص ٢١٩) .

حراسة الطير :

وظيفة يقوم صاحبها برعاية طيور الصيد وحراستها في الأماكن التي ينزل فيها السلطان لمباشرة رياضة الصيد .
(القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ، ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٦١) .

حراقة :

وجمعها حراريق : نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية (كالنار الأغريقية) ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو . واستخدم نوع منها في النيل أثناء الاستعراضات التي تقام في الحفلات العامة مثل الاحتفال بكسر الخليج .
(قاموس محيط المحيط ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٠٦) .

حرسى :

وجمعها الحرسية ، وم الجنود المكلفون بحراسة مكان من الأماكن .

حرفوش :

وجمعها حرافيش أو حرافضة ، أى الرعاع والدماء وضعاف الخلق .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحرمدان :

حقيقية السفر ، المحفوظة الخاصة التي يحمل فيها الفرد أوراقه ونقوده ، ويطلق اللفظ أيضاً على حقيقية الخلاق .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحرمية :

قاعة خاصة بالحريم في عمارة القصر أو البيت الإسلامى، وهى تشتمل على إيوان أو أكثر ودور ومرافق وحفرت من مطبخ وخزانات ومرحاض وغيرها، وهى التى عرفت بعد ذلك فى العصر العثمانى بالحرم ملك .
(عبد اللطيف إبراهيم هلى : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢٢٤) .

حرير غيار :

هو الثوب أو القماش الذى يبدى أكثر من لون واحد .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحماية :

وجمعها حمايات ، وهى مكس يعرضه الأمير أو السلطان على بعض الأراضى والمتاجر والمراكب والأرذاق ؛ ويقوم الأمير بحماية الشخص الذى يدفع ذلك المكس المقرر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٧٥ حاشية ٣) .

الحمل :

وجمعهم حمل ، ما يحمل إلى السلطان من محصول إقليم نوعاً أو عيناً ، وكذلك ما يحمله المحكوم عليه عدلاً أو ظلماً من الأموال إلى خزائن السلطان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحوائج خاناه :

ومعناها بيت الحوائج : وهى الجهة التى منها يصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطانى والدور السلطانية ، ورواتب الأمراء والماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ أسماؤهم الدفانر ، وكذلك توابل الطعام ... ،
(الفلقة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢) .

الحواصل السلطانية :

يطلق هذا الاسم على ثمانية بيوت هي الشرا بخاناه ، والطشت خاناه ،
والفراش خاناه ، والسلاح خاناه ، والركاب خاناه ، والحوائج خاناه ،
والمطبخ ، والطبلخاناه . وكان لكل منها موظفون يقومون بالعمل
فيها وتديرها .

حونددار :

وجمعه حوندارية ، وهم المكلفون بخدمة طيور الصيد من السكراكي
والبهونات وحملها إلى موضع تعليم الطيور ، وأصل اللفظ حيوان دار .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٠) .

حياسة :

وجمها حوائص ؛ وهي الخزام أو المنطقة .

(Dozy : Dict, Vet. Ar. p.p. 146 — 147)

(خ)

خاتون :

لقب لقيت به الملكات والأميرات .

الخازندار :

المشرف على خزان السلطان من نقد وأمتعة .

الخاصكية :

جماعة من حاشية السلطان يأتون في ترتيب البروتوكول المملوكي بعد
الأمراء المقدمين . كان عددهم في أول الأمر أربعة وعشرين ثم زادوا

على الأربعمائة . وقد تمتع الخاصكية بمكانة كبيرة فكانوا يدخلون على السلطان في أوقات فراغه وفي خلوانه بغير إذن ، وخصص لهم السلاطين الأوراق الواسعة والعطايا الجزيلة ، وامتازوا بحسن المظهر وأناقاة الركوب والملابس .

(كقرمير ج ٢ ص ١٥٩ ، خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ - ١١٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٩ - ١٨٠) .

حاطية :

وجمعها خواطي ، المرأة الداعرة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحان :

وجمعه خانات ، وهي الوكالات أو الفنادق المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم ودوابهم ، وغيرهم من المسافرين والحجاج . ويوجد به اصطبل للدواب وفي أعلاه طباق ومساكن للنازلين به تطل على حوش أو ساحة تتوسط الحان . كذلك يوجد بالحان بزمياه وميضأة ومسجد صغير .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ٧٨)

خان :

وجمعه خانات ، أماكن العبث والاهو .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خانقاه :

وجمعها خوانق وخانقاوات ، بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة والذكر .

(٢٨ - العصر المالكي)

خبر :

وجمعه أخبار . من معاني هذا اللفظ. في عصر المماليك إقطاع من الأرض ، فيقال أخبار الأجداد أى إقطاعاتهم .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحبز القار :

أو المقر بالنار ، وهو الحبز المقدد الذى يمكن مدة أطول في النار حتى يمكن حفظه أو تخزينه مدة طويلة دون أن يتلف . وكان الصوفية بالخوانق يفضلون هذا النوع من الحبز على غيره .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ١٩٩٩) .

الخرستان :

وجمعا خرستانات ، وهى حجرة تشبه الخلوة أو الحاصل (خزانة) ، تفرش بالبلاط وتسقف ، وقد يكون بها منفذ أو بادهنج ، ولكن الغالب أن تكون حبيسة بدون فتحات .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ١ تحقيق ٢٠٠٣) .

الحرگاه :

بيت من خشب ، مصنوع على هيئة مخصوصة وينشئ بالجوخ ونحوه ، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد .
(القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ١٣٨) .

الخروبة :

قطعة صغيرة من النقود النحاسية ، قيمتها عشر درهم . والخروبة أيضاً مكيال .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ١) .

الخزان :

الشخص الذى يوكل إليه مراقبة خزانة السلطان فى الأسفار والحروب .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٣٧ حاشية ١) .

خشد اش :

زميل فى الخدمة ، والخشداشية هى رابطة الرماله بين الأمراء الذين

نقوا وأماليك عند أستاذ أو سيد واحد .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٨٨) .

الخجلة :

لعبة تلعب ببعض البندق والحلوى والماء وما شابهها ، وهى تقوم

على أساس القرعة فن وقع له الحلوى أو البندق أكل وشرب الذى

بجواره وقد تكون الحلوى من نصيب فرد واحد مرتين أو ثلاثة ،

فيضطر من بجواره إلى الشرب مرتين أو ثلاثة مما يسبب ضحك

المجموعة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٢٥ حاشية ٥) .

الخواجا (الخوجة) :

المعلم ، التاجر ، الكاتب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوانيق :

المرض المسمى بالذبحه

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوخة :

باب صغير فى بوابة كبرى لسور أو حصن ، وجرت العادة أن

يخصص هذا الباب الصغير للاستعمال اليرى ، فلا تكون حاجة

إلى فتح البوابة الكبرى إلا عند الاقتضاء أو الضرورة . وقد يقصد
بالخوخة فتحة في السور نفسه دون أن تكون هناك بوابة كبرى .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢١٥ حاشية ٢) .

خوشطاشة :

وجمعها خوشطاشية ، وهي امرأة من موظفات القصر السلطاني .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خونجة :

وجمعها خونجات ، خوان صغير أو صينية من الخشب أو المعدن .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خوند :

لقب يفيد معنى الاحترام ، ويخاطب به الذكور والإناث سواء ،
(سيد ، سيدة) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خيل النوبة :

الخيال التي تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب ،
وتسمى أيضاً فرس النوبة .

(د)

دبابة :

وجمعها دبابات ، وهي آلة حربية تشبه البرج المتحرك على عجلات ،
وتكون من عدة أدوار تصعد إليها الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق
الأسوار .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدبندار :

الذى يضرب على الطبل .

الدبوس :

وجمه دبائيس : آلة من آلات الحرب في العصور الوسطى تشبه
الإبرة . كانت تصنع من هود طوله نحو قدمين من الخشب الغليظ
في أحد طرفيه رأس من حديد فطرها ثلاث بوصات تقريباً .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

درابة :

جمها دراريب ، إحدى مصرعى الباب .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

الدراعة :

جمها دراربع ، جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف .
ويطلق الاسم أيضاً على صدرية تلبسها البنات .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٢ حاشية ٢) .

الدرب :

وجمه دراب : باب السكة الواسع .

دروج :

وجمه دروج ، ورق خاص بالدواوين ، وهو كما عرفه القلشندى
الورق المستطيل الماركة من عدة أوصال وهو في عرف الزمان
عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة لا غير .

(القلشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٢٨) .

الدركاه :

وجمعها دركاوات ، الفضاء أو الممر المؤدى لدخل بناء كبير .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدستور :

الإذن : فيقال أعطى السلطان الأمر الدستورياً ، أى أعطاهم إذناً بكذا .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدلق :

بكسر الدال وسكون اللام ، أو بفتح الدال وكسر اللام ، رداء يتكون من عدة قطع من القماش على ألوان مختلفة يشبه العبادة وكان يرتديه المتصوفة والقضاة والعلماء .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الدليل :

وهو الشخص من أهل الناحية يقوم بتعيين أسماء المزارعين للأراضي المزروعة التي يمسحها السلطان من المساحين ، ويلزمه أن يعمل القناديق والقوانين والسجلات ، ويفصل الأرض ببقاعها وأصناف مزرعاتها وقطائعها وأسماء المزارعين ، .
(ابن عاتق : قوانين الدواوين ص ١٠) .

منة :

وجمعها دمن ، قطعة الأرض من القرية ، وما عليها من دور الفلاحين والجامع والمقبرة وغيرها من المنافع العامة .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات مجلد ٢ تحقيق ٥٩٩) .

الدوادار :

أى عسك الدواة ، والوظيفة اسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه .

دولاب :

وجمعها دوليب ، وهي الآلات العجلة المستعملة في الزراعة والصناعة
مهما ، سواء صناعة السكر أو النسيج أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٠٨ حاشية ٤) .

الدينار الديواني :

الدينار الشرعي الصادر عن الديوان أو دار الضرب السلطانية ، فهو
مضروب حسب قوانين الدولة القائمة بوزن معين وعيار معين من
الذهب ، ولذلك يكون مقبولا في المعاملة لدى الناس في الأسواق .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٥ - ٤٦٨) .

الدينار الصوري (المشخص) :

تطلق الدنانير الصورية أو المشخصة على الدنانير الإفرنجية ، وسميت
كذلك لنقش صور أصحابها من ملوك الإفرنج على وجوهها .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١) .

الديوان الخاص :

هو الديوان السلطان الخاص بالنظر في أموال السلطان والتحدث
في نجاته ومضاقاته .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٦)

ديوان المفرد :

الديوان الذي يتولى نفقة الممالك السلطانية من جامكيات وعليق
وكسوة ، وإيراده من البلاد المفردة له .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٧)

ديوان المواريث الحضرية :

(انظر المواريث الحضرية) .

(ر)

رأس المبصرة :

كبير الأمراء المتقدمين في السن من أكابر أمراء المائة ، وهم أمراء المشورة .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٧) .

رأس النوبة :

وظيفة يقوم أصحابها بالحكم على الممالك السلطانية والأخف على أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء ، واحد منهم مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨) .

الرباط :

وجمعه ربط ورباطات ، وهو في الأصل مكان إقامة الحامية الرابطة عند نفور العدو ، ثم صار اللفظ يطلق على بيت الصوفية حيث يرابطون للزهد والعبادة .

الربع :

عدة مساكن علوية تحتها حوانيت ووكانل للتجارة ، ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل وجهة البناء المشرفة على الطريق العام ، وبواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع المخصصة لسكنى العامة بأجور شهرية زهيدة .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٣٠٣ حاشية ٣) .

الرخمت :

كلمة فارسية تفيد عدة معان منها المتاع والبضائع والماشية والخيول والرياش ، والرختوانية هم الذين يتولون العناية بمتاع السلطان أو الأمير في الأسفار .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٩٠ حاشية ٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٠ حاشية ٦) .

الرزق :

وجمه أرزاق ، وهي المرتبات سواء كانت يومية أو شهرية .

الرزقة :

وجمها الرزق ، وهي الأطين التي كان يعطيها الخلفاء والسلاطين ، بمقتضى حجاج شرعية أو تقاسيط ديوانية إلى بعض الناس على سبيل الإحسان والإنعام رزقه بلا مال . ومن تلك الأراضي ما هو موقوف صرف ريعه على المساجد وطالحوانق والربط وغيرها من الجهات الخيرية للقيام بمصالحها والوفاء بمطالبها . ومنها غير الموقوف فيصرف ريعه إلى مستحقيه ، والرزق التي من النوع الأخير تنحل بانقراض أصحابها . (أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٣ حاشية ٦) .

رستاق :

وجمه رساتيق ، وهي القرى أو البلاد أو الأعمال . واللفظ فارسي ومنه بالعربية رزداق وجمعه رزاديق . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٣١٠ حاشية ٢) .

الرفرف :

سقف خشبي مائل ، يحمل على كباش (كواويل) خفيفة مثبتة في

الحوائط فوق المقاعد أو المصاطب أو مكاتب الأيتام ، للوقاية من
المطر وأشعة الشمس ، كما يستعمل في تغطية الميضاه وسط الصحن
المكشوف في المدارس والمساجد لحماية المتوضئين .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٣٠) .

رفيقة :

وجمعها رفايع ، وهي الرقعة ترفع إلى السلطان لتبليغ ظلامة أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٣٨ حاشية ٣) .

الرقبة :

رقبة من أطلس أصفر مزركشة بالذهب ، تجعل على رقبة الفرس
السلطان في موكب العيدين ، وتكون من تحت أذني الفرس إلى
نهاية عرقة .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨) .

ركاب :

وجمعهم ركابون وركابية ، وهم الذين يركبون خيول السلطان والأمراء
لترويضها وتدريبها (سائس) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الركاب خاناه :

أي بيت الركاب الذي يكون به السروج واللجم وغيرها من معدات
ركوب الخيل ، وله موظف موكل بحواصله يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢) .

الركابدارية :

هم الذين يعملون الغاشية بين يدي السلطان في المواكب ، وهم تابعون
للكاب خاناه .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢) .

الرنك :

وجمعه رنوك ، وهو الشمعار الذى يتخذها الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . ويقول القلقشندى : ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ... بحسب ما يختاره ويؤثره ، ويجعل ذلك دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كطابخ السكر وشون الغلال والأمالك والمراكب وغير ذلك . .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ - ٦٢) .

روشن :

وجمعه رواشن ، وهى النافذة أو السكوة للإضاءة وقد يقصد بها الخرجات فى العمار .
(عبد الطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٧٨) .

الروك :

وفعله راك ، وهى عملية مسح الأراضى الزراعية وفك الزمام وتعديل الخراج . وقد تمت هذه العملية فى مصر الإسلامية عدة مرات ، أشهرها فى عصر المماليك الروك الحسامى الذى أجراه حسام الدين لاجين والروك الناصرى الذى أجراه الناصر محمد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤١ - ٨٤٢) .

(ز)

زاوية :

وجمعه زاويا ، اسم أطلق قديماً على كل مسجد صغير ، فيه أحد الرجال

المعروفين بالتقوى والزهد ، ويقوم بوعظ وإرشاد من يتردد على
زاويته من الناس . وقد تطور معنى زاوية في العصر المماليكي فأصبح
يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية .
(انظر مادة زاوية في دائرة المعارف الإسلامية — بروفنسال) .

زيدية :

وجمعها زبادى ، وعاء للشرب أو للطعام .

الرحافة :

وجمعها رحافات ، آلة من آلات الحرب والحصار .

الزراق :

وجمعهم زراقون ، أى راعى النفط من الزراقة وهى الانبوبة التى
يزرق بها النفط .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٨ حاشية ٢) .

الزردخاناه :

بيت الزرد أى بيت السلاح ، وبها دمن السيوف والقصى العربية
والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المصانع ... وفى كل
سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من الأسلحة ، يعمل على
ردوس الحمالين ويزف إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً . وفى هذه
السلاح خاناه من الصنائع المقيمين بها لإصلاح العدد وتجديده
المستعملات جماعة كثيرة ... ،

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١ - ١٢) .

الزردخاناه :

أطلق اللفظ أحياناً على السلاح نفسه ، أو على السجن المخصص
للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الوردكاش :

الصانع الذى يعمل فى السلاح خاناه، فى صنع السلاح وإصلاحه وتجديده.
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢) .

الزهر :

انظر حرفوش والشلاق .

الزغل :

النقود المرفقة ، ويطلق اسم الزغلية على من ينفقها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

زكاة الدولة :

ضريبة على الآلات المستعملة ، بمعنى أن هذه الزكاة كانت تفرض
على من يستخدم الدواليب (أى الآلات والمعدات) فى الرى أو
الغزل أو صناعة السكر أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٦٤ حاشية ١) .

زكاة العداة :

زكاة مفروضة للسلطان سنوياً على قطمان القبائل العربية والتركية ،
وكانت تصل فى كل سنة إلى عشرات الآلاف من الغنم .

زمام دار (زنان دار) :

الموكل بحفظ الحرم : أى الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو
الأمير من الخدام والحصيان .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ - ٤٦٠)

زئار :

جمعه زانير، وهو حزام أو وشاح تميز بلبسه أهل الذمة في العصور الوسطى .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الزناوى :

كسوة للحصان تكون مفتوحة فوق صدره ومسدولة على الكفل بحيث لا يرى الذيل ، وكان الزناوى يعطى بدل السكينوش لمن عظمته مقدرة ومقامه عند السلطان ، ويصنع من الأطلس الأحمر أو الجوخ .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥١ حاشية ه) .

زنجير :

سلسلة .

الزبار (أو الزيارة) :

جمعها زبارات ، وهى آلة حربية كالقوس الذى يرى به البندق .

(م)

الساق :

الأمير الذى يتولى سقى السلطان على الموائد ، والإشراف على مد السباط وتقطيع اللحم ، وسقى المشروب بعد رفع السباط .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤) .

ستارة :

وجعها ستائر ، حائط أو حاجز خارجي يهتمى خلفه المدافعون عن حصن أو سور ، ويستخدم المهاجمون الستائر كذلك للوقاية من قذائف العدو .

(Dozy : Supp. Dict. Are.)

السراخور :

وجمها سراخورية : كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب ،
وتحرف أحياناً إلى سلاخور وسلاخورية .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠ - ٤٦١ .
أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ١٢ حاشية ٢) .

صيرير الملك :

هو تخت الملك : وهو عبارة عن منبر من رخام يصدر إبان السلطان
الذي يجلس فيه ، وهو على هيئة منابر الجوامع إلا أنه مستند إلى
الحائط ، وهذا المنبر يجلس عليه السلطان في يوم مهم كقدوم رسل
عليه ونحو ذلك ... ،

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦ - ٧) .

سقرق :

وعاء خاص بشرب الخمر ، ويوجد نوع من النبيذ الحبشي اسمه
سقرقة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥)

سقمان :

خف ثان يلبس في القدمين فوق خف آخر ، إعتاد أن يلبسه
السلطان والأمراء والجنود والحريم في عصر المماليك .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣١ حاشية ٥) .

سكرجة :

وجمها سكارج ، وهي الأواني .

السماط :

المائدة : ما يسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلس الآكلين .

السمط :

الثوب الذي ليست له بطانة ، طيلسان .

السنجق :

وجعه سناجق ، وهي رايات صفر صفار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٤٥٦ — ٤٥٨) .

السنجقدار :

حامل السناجق .

السواق :

وجعه السواقون ، الشخص المكلف بإدارة ساقية الماء في جامع أو غيره .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٥٩ حاشية ١) .

سوسى :

نوع من الملابس أو الأقمشة المزخرفة أو المطرزة بالزخارف ، يرجح أنها كانت من الحرير أو الكتان الرقيق ، واستخدمت في عمل القمصان (السواسى) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ش)

شاد (أو مشد) :

مفكش ، فيقال شاد الدواوين أى الذى يفكش على الدواوين ويراجع

حساباتها ، ومثله شاد الجوالى وشاد الزكاة .. وتسمى العملية شد ،
فيقال شد الدواوين أى التفتيش عليها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٥ حاشية ٢) .

شاد العماير :

يكون صاحب هذه الوظيفة د متكلما فى العماير السلطانية مما يختار
السلطان إحداها أو تحديده من القصور والمنازل والأسوار ،
(القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢) .

الشاش :

ما يلف حول غطاء الرأس من قماش رقيق .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الشحنة :

الشرطة ، وصاحب الشحنة هو متولى رئاسة الشرطة ، ويقال للوظيفة
الشحنكية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشرابخانه :

بيت الشراب ، ويحوى مختلف أنواع الاشربة — ومنها الأدوية —
التي يحتاج إليها السلطان ، فضلا عن الأواني النفيسة المصنوعة من
الصيني الفاخر .

(القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ . النويرى : نهاية الأرب

ج ٨ ص ٢٢٤) .

الشراب :

هو الذى يصنع الاثربة والادوية ، وهو أحد رجال الشرا بخاناه ،
مثل الشربدار .

(القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٩) .

الشرب :

وجعه شرابى . قمش رفيع من الكتان كان يستعمل فى معظم
الاحيان للعلماء .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشربدار :

هو الذى يقوم بالخدمة فى شرا بخاناه السلطان أو الأمير ، وكانت
هذه الوظيفة من وظائف الخدم أو الحرف الصناعية . أما الأمير
الذى يتولى سقى السلطان على الموائد فاسمه الساقى .

(القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٩ ، ٤٥٤)

الشر بوش :

قلنسوة طويلة تلبس بدل العمامة وكانت شارة الأمراء فلا يلبسها
المعممون ، وقد ألغى استعمالها بمصر زمن المماليك البرجية .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الشمش :

لوح من الخور .

(أبو المحاسن : النجوم — طبقة كاليفورنيا ج ٦ ص ٧٩٨ — ٧٩٩)

شعار السلطنة :

مظاهر السلطنة ، أى أنواع الملابس والأدوات والترنيمات التى
كان يظهر بها السلطان فى المواعيد سواء داخل القلعة أو خارجها .
(القاموس العربى : ص ٤ ج ٤ ص ٧ - ٨ ، ٤٤ - ٤٩) .

شكارة :

وجمعها شكائر . وهو الكيس للتفود أو غيرها

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشلاق :

الزعر والرعاع الذين يضايقون الناس فى الطرقات ويدخلون الخوف
فى قلوبهم ، والشلق الضرب بالسوط .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٥ حاشية ١) .

شمسة :

سماعة الباب أو المدق من الحديد أو النحاس الأصفر ، وجمعها شماسات .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٥) .

شمعة :

وجمعها شمورع وهى الأعمدة الخشبية الدقيقة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

شمبر :

وجمعها شمنابر ، شريط من الحرير الأسود أو الأحمر الفاتم ، عرضه
شهران وطوله نحو سبعة أذرع ، تلفه النساء على رؤوسهن فوق
العصابة بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم الرأس والثانى من مؤخرها .
(زيادة : السلوك ج ٣ ص ٥٢٨ حاشية ١) .

شبن (شبنية) :

وجمه، شوانى . أكبر نوع من السفن الحربية عرفته مصر فى العصر
المماليكى ، وكان يهدف بمائة وأربعين مجدافاً وتركب فيه المقاتلة
والجدافون

(ابن ماقى : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، المقرئى :
المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥) .

(ص)

الصاع :

مكيال للحبوب يساوى نصف وية ، والوية ثلاث كيلات .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٠٩ حاشية ١) .

الصبر :

البيع إلى أجل مسمى ، أو بفهر ثمن معين .
(المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٧٦ حاشية ٤) .

صفه :

مسطبة ، أربكة ، مقعد .

صولق :

وجمه صوالق ، وهو جراب أو كيس من جلد توضع به حاجات
السفر من الزاد ، ويضعه الشخص فى حزامه من الجهة اليمنى .
(الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٣٥ ، زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٩ ،
حاشية ٩ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٨) .

(ط)

الطارمة :

وجمه طارمات ، بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس
السلطان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الطاريء :

ثالث سباط سلطاني يمد في أول النهار ، ويكون منه ما كول السلطان .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٠ - ٢١١) .

الطباىمى :

طبيب الامراض الباطنية .

طبر :

وجمه أطبار ، وهو الفأس من السلاح ، معرب تبر .

الطبردار :

هو الذى يحمل طبر السلطان - أى فأسه - عند ركوبه فى المراكب .
وأمر طبر هو الذى يتحدث على الطبردارية الذين يحملون الأطبار .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، ٤٦٢) .

طبقة :

وجمها طباق ، وهى ثكنات الممالك بقلعة الجبل ، وكانت كل طبقة
تضم الممالك المجاورة من لد واحد .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤) .

الطراحة :

وجمعها طرايح ، مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

طراد (طريدة) :

وجمعها طرائد ، وهو نوع من المراكب الجارية يستعمل غالباً في حمل الخيول والفرسان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ابن ماتي : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٣٩) .

الطراز :

هو الشريط من الكتابة على الحجر أو الرخام أو الخشب ، ويكتب عليه عادة اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء . ويوجد على جانبي المدخل الرئيسي للعمارة أو على فتحات الأبواب والنوافذ والإيوانات أو على واجهة العمارة .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية ، مجلد ٢ تحقيق ١١٨)

طرخان :

الأمير المتقاعد دون أن يكون مغضوباً عليه ، وإذا كان له أن يقيم حيث شاء .

طرد وحش :

نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد والطرود . وكانت تصنع منه بعض الخلع السلطانية

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

طريدة :

(انظر طراد)

الطشت خاناه :

أى بيت الطشت ، وفيه يكون أنواع الطشوت اللازمة لافسل الأيدي والقماش وغيرها ، فضلاً عن المقاعد والمخاد والسجادات التى تلزم السلطان ، وللطشت خاناه مهتار يشرف عليه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ - ١١) .

الطشت دارية :

هم غلمان الطشت خاناه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ - ١١) .

طلب :

لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، ويطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين . وقد عدل مدلول اللفظ فأصبح يطلق على الكتيبة من الجيش .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤٨ حاشية ٢) .

الطمغا (تمغا) :

البراءة التى تصدر من قبل السلطان أو الملك بالعفو عن مجرم أو تأمين خائف والطمغا أيضاً شعار السلطان أو الأمير .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٧٩ حاشية ٤ ، ص ٨٧٢ حاشية ١) .

الطوائى :

وجمه طواشيه ، وهم الحصيان الذين استخدموا فى الطباق المملوكية ، وفى الحرم السلطانى ، وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ، ويعد شيخهم من أعيان الناس .

(المقرئى : المرواظ ج ٤ ص ٢١٩) .

الطومار :

نوع من أنواع الخط ، أو من أنواع الكتابة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢) .

(ظ)

الظرف :

وجمه ظروف ، وهو الوعاء وكل ما يستقر فيه غيره .

(ع)

العاقد :

هو الذى يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج ،
وهو دون القاضى فى الرتبة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

العامل :

وجمه عاملون ، وهو من يتولى تنظيم الحسابات الدوائية وكتابتها .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

العبرة :

مقدار المساحة ، وهى فى الإصطلاح المالى القديم مقدار المربوط
من الخراج أو الاموال على كل إقطاع من الأرض ، وما يتحصل
عن كل قرية من عين أو غلة .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٥١٠) .

عرادة :

وجمعها عرادات ؛ وهى آلة حربية أصغر من المنجنيق ، ترمى بالحجارة إلى المرمى البعيد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢ ، حاشية ٤) .

العريف :

مساعد المؤدب فى الإشراف على الأيتام المسجلين بالمكتب ، ويكون بالمكتب طادة عدة عرفاء يختص كل منهم بالإشراف على بضعة صبيان .

العصاة :

وجمعها عصائب ، وهى راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، عليها ألقاب السلطان ، تحمل فى المواكب السلطانية .

العلامة السلطانية :

هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤٤ حاشية ١) .

علم دار :

هو الذى يحمل العلم فى ركاب السلطان .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٦ ، ٤٦٣)

الغنبرينه :

نوع من الحلى المعنبر تلبسه النساء حول الرقبة ، والغنبريون هم تجار المعنبر المستخدم فى الحلى وكان لهم سوق كبير بالقاهرة .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣)

(غ)

الغاشية :

قبة د من أديم مخروزة بالذهب ، يحالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب في المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧)

غراب :

وجمه أغربة ؛ نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاتلة والجدا فون .
(ابن ممتى : قوائين الدواوين ص ٣٣٩ - ٣٤٠) .

الغفار :

وجمه غفائر ، المعطف .

(Dozy : Supp. Dict, Ar.)

غلام :

وجمه غلمان ؛ وهو من يقوم بخدمة الخيل ، وهذا اللفظ . د في أصل اللغة مخصوص بالصبي الصغير والمملوك ، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم .

(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧١) .

الغلاميات :

الجوارى يلبسن لباس الغلمان .

(Dozy : Supp Dict. Ar.)

الغيار :

نوع من الملبوس تميز به أهل الامة عن المسلمين في العصور الوسطى .

(Dozy : Supp. Dict, Ar.)

(خ)

فانوسية :

وجمها فانوسيات ؛ كية معينة من شمع الفوانيس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الفراش خاناه :

بيت الفراش ، وكانت تفتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام
اللازمة للسلطان في أسفاره وإقامته خارج القلعة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١) .

فرس النوبة :

فرس مجهز بالسرّج والغاشية ، يحفظ بقرب حضرة السلطان
لاستخدامه في الطوارئ أو للركوب إعلاناً بقيام سلطان جديد .
(ابن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٤٢٢) .

الفرمان :

وجمه فرمانات ، ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاية
والوكلاء والقضاة يعلن فيها تقليد مناصبهم أو تعيينهم فيها .

الفضة النقرة :

سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من
النحاس الأحمر ، ومنها كانت تضرب الدراهم النقرة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ ، ٤٦٦) .

الفلس :

وجمعه فلوس ، عملة صغيرة ، وكانت في مصر على نوعين أحدهما المطبوع بالسكة وثانيهما غير المطبوع . وكان الصنف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر أو الأصفر ويعبر عنها بالعتق . (الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ - ٤٤٤) .

فهاد :

وجمعه فهاده ، وهم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٩٤ حاشية ٤) .

فوطه :

مرادف البقجة ، وهي قطعة من قماش من الحرير السكندري تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة إلى حضرة السلطان . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٧٨ حاشية ١) .

الفوقانية :

وجمعهما الفوقانيات ، الرداء الذي يلبس فوق الملابس ، وعكسها التحتانية . (Dozy ; Diet. Vet. Ar.)

(ق)

القباء :

ملبوس (فرجية - قفطان) وقد وصف المقرئى الأقبية على عصر المماليك بأنها إما بيض أو مشهرة أحمر وأزرق ، وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الإفرنج اليوم .

(Dozy ; Supp. Vet. Ar.)

القبر :

آلة موسيقية .

قبع :

وجعه أقباع ، غطاء للرأس يشبه الطاقية ، ويصنع من الحرير أحياناً .
وكان يوضع تحت الطربوش الذى تلف حوله العمامة . وجاء فى خطط
المقريزى ذكر سوق الإقباعين .

(ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٢٤) .

القبق (القباق) :

الفرعة العسلية ، وأطلق فى عصر المماليك على الهدف المستعمل فى
لعب الرماية المعروف بالقبق أيضاً ، وكان هذا الهدف يصنع على
شكل فرعة عسلية من ذهب أو فضة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥١٨ حاشية ٦) .

قرباص :

وجعها قراييص ، وهى الحجارة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القرط :

البرسيم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٠٦ حاشية ٤) .

قراطس :

وجعها قراطيس ، وهى نوع من الفلوس النحاسية أو الدراهم المنقوشة
على شكل أصبع .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القرقل :

قيص النساء ، أو الثوب الذى لا يكامله والفرقل كذلك سلاح يشبه
الدرع يتخذ من صفائح الحديد وينغشى بالديباج الأحمر والأصفر .
(ريادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ حاشية ٤٩
عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٣٠٠) .

القصة :

الطلب ، الإلتباس ، الشكوى ، ويرفعها صاحب الحاجة إلى حضرة
السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصه دار .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٤) .

القطاعة :

وجمعها قطاطيع ، المطرقة تستعمل لقطع الصخر أو هدم البناء .

قطيعة :

وجمعها قطائع ، وهى الفئة من الجند .

القلمة :

وجمعها قلاع ، قصد بها — فضلا عن معناها الأصلي وهو الحصن —
قوس النصر أو الزينة التى تقام بعرض الطريق على ألواح من الخشب
ليمر من تحتها موكب السلطان .

قلنصورة (أو قلنسية) :

وجمعها فلانس ، لباس للرأس (طاقيّة — طربوش) تصنع من جلد
الماعز أو الصوف أو الحرير ، وربما لبست تحت العمامة .

القلوبات :

الوز والجوز والبندق والفسق وسائر أنواع المكسرات المشورة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القمز :

نوع من الخمر يصنع من لبن الخيل ، واللفظ ترى الأصل .

(زيادة : السلوك ص ٦٧ حاشية ٢) .

القند :

وجمعها قنود ، عصارة قصب السكر إذا جمد

القود :

ما يبعث به العرب إلى السلاطين من هدايا الخيل والإبل والحيوانات

النادرة

القياسة :

وجمعها قيايس ، سفينة تستعمل في الإبحار في المياه القليلة العمق كشواطئ

البحار ، وتكون عادة عريضة المساحة قليلة الارتفاع بطينة السم.

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القياسية :

وجمعها قياسر ، السوق المسقوفة ، وأطلقت أيضاً على الخان أو الوكالة ،

أى البناء الذى يحتوى على غرف ومخازن للتجار ، ويعلوه طباق

للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القيطون :

والجمع قباطين وقباطن ، الحجرة الصغيرة في لغة أهل مصر ، والحجرة

في لغة المغرب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ك)

كارمى :

وجمعه كارمية وأكارم ، أى تجار الكارم ، وهم تجار البهار والتوابل
الواردة إلى مصر من الهند عن طريق نفور اليمن ، وهم كذلك
أرباب المال والأعمال المصرفية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى .
وكان معظمهم من بلاد الكانم الإسلامية (بالسودان الغربى)
فلسبوا إلى أصلهم بعد تحريف اللفظ إلى الكارم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ٢ ، ج ٢ ص ٨٢٧ حاشية ٢) .

كاملية :

وجمعه كوامل ، نوع من الملابس الخارجية كالعباءة .

(Dozy : Supp. Vet. Ar.) -

كبش :

وجمعه كبوش وأكبش ، آلة حربية لها رأس ضخم وقرنان
تدفعها الجنود نحو أسوار الحصون لتهدمها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

كجاجة :

هودج النساء (فارسية) .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٧٠) .

كحال :

طبيب العيون .

الكسراز :

كوز ضيق الرأس يستعمل لحفظ الماء صالحا للشرب .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

الكراخ :

ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤونة .

(زيادة : السالك ج ١ ص ٦٢٠ حاشية ٣) .

كردوس (كردوسة) :

وجعها كراديس ؛ وهى الفرفة الحربية الراكبة والقطعة العظيمة من الخيل .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الكراغند :

وجعها كراغنديات ؛ وهو المعطف القصير يلبس فوق الزردية ويصنع من القطن أو الحرير المبطن

(زيادة : السالك ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ٤) .

الكسابة :

هم الذين ينتهزون فرصة الفتن للنهب ، أو فرصة الحروب لجمع الغنائم .

الكسارة :

وجعها كسارات ؛ وهى من أدوات التعذيب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الكشاف :

وجعها الكشافة ؛ جماعة معينة من العسكر تقوم بكشف أخبار العدو .

(٣٠ — العصر المملوكى)

الكلابى :

وجمه الكلابى والكلابىة ؛ ومعناه فى الأصل الشخص الذى يتولى
تربية الكلاب وبمعها ، ثم أصبح يطلق على الشخص الذى يركب بكلاب
الصيد عند سلطان أو أمير وقد يقصد باللفظ أيضا الغواص والدهماء .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٢٥ حاشية ١) .

الكلايب :

ومفردتها كلاب ؛ وهى المشابك المستخدمة فى تحلية الكلونه .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الكابنده :

وجمها كبندات ؛ وهى لباس الرقبة أو الكوقية يلبسها النساء على
رءوسهن وتربط تحت الذقن لحفظ ما فوق رءوسهن من اللباس .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠) وهى كذلك جزء من غطاء الرأس
سواء كان عمامة أو كلونه (زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٤ حاشية ١) .
كفه (كفتاه أو كفتته) :
انظر كلوته .

كاوتة :

وجمها كاوتات ، غطاء الرأس ، طاوية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة .
وتسمى أيضا كفه وكفتاه وكفتته .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠ حاشية ١) .

كر :

وجمه كمرات ، لفظ فارسى معناه الحزام المفرغ من وسطه لوضع
النقود والأشياء الثمينة فيه .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣١) .

كنفوش :

وجمعته كنفابيش ، وهو خمار لتغطية الوجه . وأطلق اللفظ أيضا على البرذعة توضع تحت سرج الفرس . وقد حرف اللفظ أحيانا إلى كنفوش وكنافيش .

كوسه :

وجمعها كوسات ، وهي صنوجات من نحاس تشبه الفرس الصغير ، يذق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص . وتكوسى هو الذى يضرب بالكوسات .

(القاموس : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ : ١٣) .

(ل)

اللاطية (اللاطئة) :

وجمعها لاطيات ، وهي الفلانسوة الصغيرة ناطا بالرأس أى تلتصق بها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

اللبخة :

لعبة استحدثت في عصر المماليك ، تشبه اللعبة المعروفة اليوم باسم التخطيب أو النبوت ، فكان الشخص « يخرج له عشرة من القطار ويجمعون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد الجميع » .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٠٣ الشعراني : الطبقات الكبرى

ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧) .

(م)

المارستان (البيمارستان) :

مستشفى للمعالجة المرضى وإقامتهم .

مباشر :

وجمه مباشرون ، وهم الموظفون الإداريون .

مباشرو الختم :

أطلق هذا اللقب على موظفين أشبه بموظفي الجمارك في العصر الحالي ، يقومون بمراقبة الوارد والصادر من البضائع ، ويفرضون عليه مكوسا تختلف باختلاف الأحوال ، ثم يختتمون البضاعة بخاتم خاص دلالة على استيفاء المكس .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية ١) .

المتجر :

ما يتجر فيه السلطان من البضائع لحسابه الخاص ، وكان يقوم بذلك موظف من موظفي السلطان .

(مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥) .

مثال :

وجعه مثالات ، وهو أول ما يكتب من الأوراق الرسمية لإيداعها بإعطاء أحد الممالك إقطاعات الخالية .

(الفقه شندی : صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٥٣) .

محارة :

وجمعها محارير ، وهي صناديق تشبه إلى جاني الرجل ، وكان للمحارير سوق خاص بالقاهرة اسمه سوق المحاريرين .
(المقرئى : المواقظ ج ٢ ص ١٠١) .

المخايل :

وجمعها المخايلون ، الرجل الذى يدير لعبة خيال الظل .

مخفية :

وجمعها مخافى ، طبق واسع عميق يتسع لكمية كبيرة من اللحم والطعام فى الموائد الكبرى وللروائب المقررة للأمراء .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٦٨ حاشية ٣) .

مدورة السلطان :

خيمته الكبيرة الخاصة به والتي تنصب له فى الأسفار والحفلات .

مراوة :

وجمعها مراوات ، قطع من المعدن أو غيره يزان بها صرج الفرس ونقاط بقماش الصرج .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

مرمة :

وجمعها مرمرات ، نوع من السفن الكبيرة .

المرملة :

ظرف يوضع به الرمل الذى كان الكتاب يستعملونه لتجفيف الكتابة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٨ - ٤٨٠) .

المروزى :

قماش سميك من الحرير الجيد أو القطن ينسب إلى مدينة مرو .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المزملاني :

هو الذى يقوم بتسجيل الماء فى السبيل ، ويتولى الخدمة فى الأوقات

المحددة ليسجل الشرب على الناس والحيوان .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٦٨) .

المسالة :

(انظر أسلى) ،

المستوفة :

حجرة صغيرة بمثابة خزانة بأعلى المنزل أو مجاورة للمطبخ عادة ،
وتكون حديدا غالبا .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢١٧) .

المستوفى :

موظف من كتاب الأموال بالدواوين ، عمله ضبط الديوان التابع له
والتبليغ على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . ومن
المستوفين مستوفى الصحة وهو يشارك الوزير ويعاونه فى الأمور
العامة مثل كتابة المراسيم وتسجيلها ومثله فى النفوذ مستوفى الدولة .
وكان لكل ديوان من دواوين الدولة ناظر ونحته المستوفى والشاهد .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

مسنخرة :

وجمها مساخر : وهي ألعاب لإضغاك الناس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

مسطبة :

الجزء الأمامي من الدكان ، وتمتد خارج إغلاق الدكان نفسه لمرص
البضائع عليها أو الجالوس المقرودين على المتجر .

مسطح :

وجمه مسطحات ، نوع من السفن له سطح .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المسقفات الهلالية :

هي العقارات المسقفة الموقوفة من بيوت وحواري ورباع وحات
وطواحين ومعاصر وغيرها ، والتي تدر دخلاً هلالياً أو شهرياً
(مال هلال) ، ويطلق عليها كذلك اسم المستغلات الهلالية .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٤٢)

المشارفة :

وظيفة يتولاها الموظفون الذين يشرفون على الأمور المالية ، وبخاصة
في الأوقاف .

(ابن نماني : قوانين الدواوين ص ٣٠٢) .

المشتريات (المشتروات) :

م المايك الجلبان أو الأجلاب الذين كان السلطان يشتريهم لنفسه .

المشير :

(انظر الإشارة)

المصانعات :

أموال الرشوة والمدارة .

مطلق :

جمعه مطلقات ، وهي ما يرسله السلطان من رسائل هامة إلى نوابه بمصر ونيابات الشام . وقد يكون فيها سر لا يراد إظهاره إلا عند الوقوف عليه ، وفي هذه الحالة تصدر مختومة .

(القلعة شندی : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢١٨ - ٢٣١) .

المعادی :

المراكب التي استخدمت لتعديّة الناس عبر النيل ، وكان لها مواضع معينة لضبط رسوم التعديّة . ومن هذه المعادی في عصر المماليك معدية ابابة ومعدية المقياس ومعدية الجسر بالجيزة ومعادی جزيرة الذهب . (المقرئی : المواظ ج ١ ص ١٠٤ زيادة : السلوك ج ٢ ص ٥١٨ . حاشية ١) .

المعالج :

وجمعها المعالجون ، وهم الذين يلعبون برفع الأثقال . (زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦٩٥ حاشية ١) .

المعامل :

وجمعه معاملون ، وهم المتعهدون الذين يمدون المطبخ السلطاني بما يلزمه من حوائج ومواد غذائية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المحصرة :

آلة للتعذيب تتكون من خشبتين مربوطتين ببعضهما بوضع بينهما وجه المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ؛ ثم تدور الخشبتيان شداً وثيقاً حتى يؤدي ذلك - في كثير من الأحيان - إلى كسر العظم المصور بين الخشبتيين .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية ٣)

المعيد :

صاحب وظيفة بالمدرسة ، يأتي دون المدرس في الأهمية ، وعمد أن يعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٤) .

المفرد :

هو الديوان الذي كانت تخرج منه في زمن الدولة المملوكية نفقة الممالك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة ؛ ويرجع تأسيسه إلى أيام الفاطميين .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٥٧ ، خليل بن شاعين : زبدة كنهف الممالك ص ١٠٧) .

المفرد :

غاية ارتفاع النيل .

المفرد :

يطلق اللفظ على الجندي أو المملوك ، فيقال وصل مفرد من الصعيد (على مبارك : الحطط التوفيقية ج ٩ ص ٢٥) .

مفردى :

وجهمه مفاردة ، نوع من عساكر حلقة السلطان كانوا يتبعون ديوان المفرد مباشرة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٢) .

المقام :

لقب من ألقاب كبار رجال الدولة في عصر المماليك ، فيقال المقام السلطاني أو المقام العالي السلطاني للسلطان ، والمقام الملكي للملك نفسه وأتباعه المنسوبين إليه من أمراء ووزراء . أما المقام العالي فقط فكان من الألقاب التي اشترك فيها أرباب السيوف والأفلام .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩١ ، ج ٦ ص ٥) .

مقدم الدولة :

هو الذي يتحدث على الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير . والمراد المقدم على الدولة ، والدولة لفظ خصه العرف بمتعلقات الوزارة كما يقال لناظر الدواوين ناظر الدولة ...
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨) .

مقدم المماليك :

هو أجل الطواشية وأقربهم إلى السلطان ويشغل رتبة أمير طبلخاناه ويعاونه نائب برتبة عشرة . وكان الأمراء أيضاً مقدمون للقيام على شؤون ماليهم . وكان لمقدم المماليك أن يتحدث في شأنهم ويحكم فيهم ، كما كان يحضر تفرقة الجماعية عليهم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٠ حاشية ٢ ، ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٥٥ ، ج ٤ ص ٢٩١) .

المقر نص :

وجمعها مقر نصات ، خلية مهارية استخدمت على نطاق واسع في
حصر الممالك في أجزاء مختلفة من العارة مثل أركان القباب
والمنارات .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٩١) .

مقنع :

وجمعه مقانع ، وهو منديل تغطي به المرأة رأسها ويكون اضيق من
القناع ، أو هو النصيف الذي تضمه النساء فوق وجوههن .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٢٣ حاشية ١) .

مكاحل البارود :

هي المدافع التي يرمى فيها النفط . وهي أنواع .
(أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٧٧) .

المكس :

وجمعه مكوس ، وهي كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان
أو لأصحاب الإقطاعات أو لموظفي الدولة خارجا عن الخراج الشرعي .
(المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٠٣ - ١١١ ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٤ ،
الفاشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ - ٤٧١) .

مكوك :

وجمعه مكايك ، وهو مكيال للحبوب يسع صاعاً ونصفاً ، والصاع
قدر نصف وبة ، والوبية ثلاث كيلات .

الملطافات :

رسائل كانت تكتب عادة إلى الأمراء للترضية والمدح أو التغدير والتأمين ، تمهيداً لما يرمعه لهم السلطان من عقوبة أو قتل .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥٢ حاشية ٣) .

الملوطة :

وجمها ملايط ، قباء واسع الكمين طويلهما يلبس فوق الفرجية ، وكانت تصنع أحياناً من الحرير الخالص أو السكتان الرقيق ، وكانت لباساً قومياً في عصر المماليك .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

المماليك الأحداث :

هم المماليك الحديثو العهد بالخدمة ، وربما قصد باللفظ المماليك الأراذل أو السفلة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٤٣ حاشية ١) .

ماليك الأمراء :

هم المماليك التابعون للأمراء مباشرة ، ومنهم تتألف الوحدات الحربية التي يذهب بها الأمراء مع السلطان في حروبه .

المماليك البرانية :

المماليك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم أيضاً الحرجية .

(المقرئ : المواعظ ج ٢ ص ٢١٧) .

المماليك الجوانية :

المماليك الخاصكية .

الممالك الحرسية :

هم الممالك الذين يوكون بحراسة مكان من الامكنة .

الممالك الخاصة :

قسم من الممالك السلطانية يتميزون عن بقية الممالك السلطانية بانصوائهم وهم صغار في خدمة السلطان ؛ فهو الذى يتولى تربيتهم وعتقهم .

الممالك السلطانية :

مشتريات السلطان وجلبانه ، وما يتبقى عنده من ممالك من سبقه فى السلطنة ، ومرتبائهم جميعاً من ديوان المفرد .

المناخ :

وجمه مناخات ، وهى الامكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية - كالاصطبلات لأنواع الخيل - وجميعها كانت تابعة لإدارة الاصطبلات السلطانية .

(خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ ، المقرئى :
المواعظ ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥) .

منجنيق :

وجمه مجانيق ، آلة من خشب لقذف الحجر على العدو إلى مسافات بعيدة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٧) .

ملشور :

وجمه مناشير ، وهى فى الأصل كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لا تحتاج إلى ختم كالمكاتبات الخاصة بالولاية ومنح الإقطاعات .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٨) .

المنطقة (المنطق) :

نوع من الأحزمة التي توضع حول الوسط ، ويكون غالباً من الذهب أو الفضة وأحياناً من الجلد أو القماش . وجاء في دوزي أنه لا يجوز للرجال التحلي بالذهب والفضة إلا في ثلاثة مواضع هي الخاتم والمنطقة وحاية السيف .

(Dazy : Dict. Vet. Ar. p. 420.)

المنفر :

الذي ينفخ البوق .

المهتار :

لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت ، فيقال مهتار الأمر إخوانه ومهتار الطشت خاناه ، ومهتار الركاب خاناه .
(القلقشندي : ج ٥ ص ٤٧٠ ، أبو المحاسن : التاجوم ج ٩ ص ٤٧ ، حاشية ٣) .

المهمندار :

هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث في القيام بأمرهم .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٩)

المواريث الحشرية :

هي تركات من يموت ولا وارث له .

الموجب :

ما يدفعه التجار على متاجرهم وأموالهم بنسبة مقررة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٥٥ حاشية ١) .

المودع :

وجمعه مودعات ، وهو صندوق لحفظ مال مخصوص لفرض معين ،
ومودع الحكم صندوق يوضع في عهدة قاضي القضاة لحفظ أموال
اليتامى القصر وأموال الغائبين أيضا .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٦٤ حاشية ٣) .

المؤدب :

معلم المسكتب ، الذي يقوم بتعليم أيتام المسلمين ويشرف عليهم عليا
وخلقيا .

الميعاد :

درس ديني للوعظ والإرشاد والحث على التقوى . وكان أهم هذه
المواعيد ميعاد الرقائق (رقائق الحديث النبوي) .

(Dozy : Supp. Diet. Ar.)

المهمات :

وظيفة من الوظائف الهامة في المؤسسات الدينية ، يتولاها مؤذن عارف
بالمواقيت والفلك وعلم الهيئة ، ويعرف من يباشر هذه الوظيفة
بالميتقاني . وكان يعتمد في تحديد الزمن وأوقات الصلاة على المزولة
والساعة الرملية وغيرها من الآلات .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦١٦) .

(ن)

النفاس :

استعمل هذا اللفظ في مصطلح مؤرخي عصر المماليك بمعنى الرؤساء

أو الزعماء أو الأمراء . وقد وجدت فرقة من فرق الجيش المالكي
سميت باسم أولاد الناس ، شملت أبناء أمراء المالكي فقط .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٠ حاشية ٢) .

ناظر :

وجمعه نظار ، وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا
الوزير في تصريف أعماله . وقد تنوعت ألقاب النظار حسب الأعمال
التي قاموا بها ، فنظر الجيش يتحدث في أموال الجيوش وحساباتها ،
ونظر الخاص ينظر في خاص أموال السلطان ، ونظر الدولة يشارك
الوزير في التصرف عامة ، ويسمى الأخير ناظر الدواوين أو ناظر
النظار أو صاحب الشريف ومقره ديوان النظر .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٥ - ٤٦٦) .

ناظر الأهرام :

يقوم صاحب هذه الوظيفة بالإشراف على شئون الغلال السلطانية
وما يصل إليها من هلال وما يصرف منها .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢) .

ناظر البيوت :

يتولى هذه الوظيفة عادة أحد أرباب القلم ، ليقوم بمشاركه الاستادار
— وهو من أرباب السيف — في إدارة البيوت السلطانية كلها من
المطابخ والشرابخانة والحاشية والغلمان .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ٢١) .

ناظر الدواوين الحشرية :

هو الذي يقوم بالتحدث على ديوان المواريث الحشرية ، من يموت

ولا وارث له ، أوله وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التحديث في إطلاق
جميع الموتى من المسلمين وغيرهم .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣) .

نَدَب :

وجمعه أنداب ، وهو كيس صغير يسع خمس بندقات .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

نَدَب :

نَدَب النشاب اللعب به ، يقال لعب أندابا في الميدان ، وكان عارفا
بأنداب الحرب .

(كتر مير ج ٢ مجلد ٢ ص ٩٨ أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٦٨٧)

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

النصفية :

وجمعهما نصافي ، قاش من نسيج الحرير والكتان . وربما أطلق اللفظ
على ثياب من القطن الخشن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

النقرة :

انظر الفضة .

نَقِيب :

وجمعهما نقباء ، وكان عمل صاحب هذه الوظيفة عند السلطان أو الأمير
تأدية الخدمات الصغيرة لسيده .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ - ٢٢) .

(٣١ - المعجم المالكي)

نقيب الجيش :

هو الذى يتكفل بإحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد
الحلقة ونحوهم .

(القلقشندى : صبح الأئشى ج ٤ ص ٢١ ، ج ٥ ص ٤٥٦)

نقيب المماليك :

يبدو أن المقصود بهذه الوظيفة مقدمة المماليك وموضوعها ، التحدث
على المماليك السلطانية والحكم فيهم ، .

(القلقشندى : صبح الأئشى ج ٤ ص ٢١ ، زيادة السلوك ج ٢ ،
ص ١٦٥ حاشية ١) .

النوبة :

الوقعة الحربية ، ويقال ضربت النوبة أى صدر الأمر للمسكر بالتقهقر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٦١ حاشية ٢) .

النوبة :

اسم لآلات الطرب إذا عزفت سوريا ، أو لمجموعة من المطربين إذا
اجتمعوا (أوركتز) .

النوبة :

فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس
يكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح .

النوبة :

انظر خيل النوبة .

النياية :

يسمى صاحب هذه الوظيفة نائب السلطنة والنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية . وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان . وهناك نواب أقل درجة أشبه بالحكام المحليين ، لا يختص الواحد منهم إلا بما يتعلق بمحدوده نيابته .

(القلقهندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦) .

(٥)

الهرجة :

هنا نرى تستعمل خاصة في الحلل كالأساور والعقود وغيرها ، بأن يصاغ في أطرافها حلقات صغيرة أو يجعل في جوانبها نقوب ، ومفرد ما هرج .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٩٣ حاشية ٤)

الهناب :

قدح الشراب

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٦)

وافدى :

وجمعه ووافدية ، ويقصد به الغريب الوافد إلى بلد جديد ، وأطلق هذا اللفظ على الترك والتتر الذين وفدوا على دولة المماليك في مصر والشام . واختص به - بوجه خاص - الأفراد الذين هاجر معظمهم من بلاد المغول إلى مصر وافدين مستأمنين أحراراً لا أجلاباً

ملوكين . واندمج كثير من أولئك الوافدية في فرق المماليك السلطانية حتى وصلوا إلى أرفع مناصب الدولة ، غير أنهم ظلوا دون المماليك الذين جلبوا رقيقا ، لأن الوافدية لم ينشأوا نشأة مماليكية .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٨ ، ص ٧٥٠) .

الورق :

الدرام الورق — يفتح الواو أو ضمها — هي الدرهم المضروبة .

ورقة :

وجمعها أوراق ، استعملت في عصر المماليك بمعنى الصك الذي يكتبه المدين للدائن .

وزير الصحة :

يكون صاحب هذه الوظيفة وزيرا متنفذا ، يرافق السلطان في أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف الشؤون ، وذلك ليمتحن للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٧ حاشية ٢) :

وطاء :

جمعها أوطية ، وهو الخداء .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الوطاق :

الخيمة الكبيرة التي تعد للعظماء .

الوكالة :

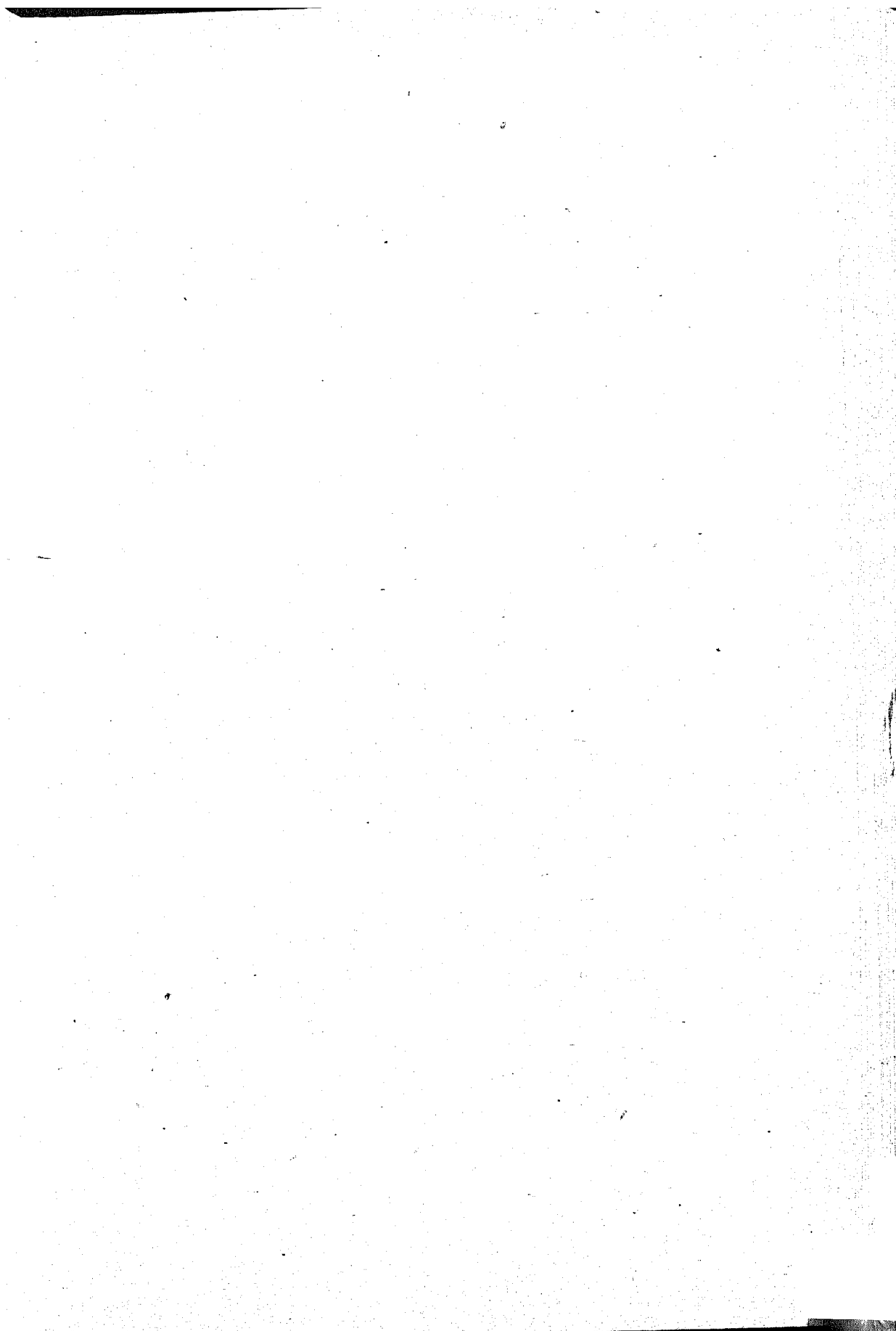
فندق لنزول التجار وبضائعهم ودوابهم للبيع والشراء .

(ى)

البرك :

رئيس المجلس ، ومن براقب من مضى فينبهه .

(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٣) .



قائمة المراجع

التي ورد ذكرها في حواشي الكتاب

أولا : المراجع العربية :

— إبراهيم علي طرخان :

مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة

(القاهرة ١٩٦٠)

— ابن الأثير :

الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً

(القاهرة ١٣٥٧ هـ)

— أحمد عزت عبد الكريم :

التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني

(مقال نشر في حواشيه كلية الآداب)

— ابن الأخوة :

معالم القرية في أحكام الحسبة

(كبره ج ١٩٣٧)

— آدم ميتو :

الخطارة الإسلامية

(القاهرة ١٩٥٧)

— ابن إلياس :

كتاب تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور

طبعة إولاق في ثلاثة أجزاء (١٣١١ - ١٣١٢ هـ) ، وكذلك

رجعنا في الأجزاء الأخيرة من المتن إلى طبعة جمعية

المستشرقين الألمانية التي قام بتحقيقها دكتور محمد مصطفى .

- ابن أيبك :

كنز الدرر أو الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب

(مخطوط)

- ابن بطوطة :

رحلته ، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

(باريس ١٨٨٠)

- البلاذرى :

فتوح البلدان

(القاهرة ١٣١٨ هـ)

- البلوى المغربى :

رحلته ، المسماة تاج المغرب في تحلية علماء المشرق .

(مخطوط)

- بيهرس الدوادار :

زبدة الفسكرة في تاريخ الهجرة .

(مخطوط)

- توفيق اسكندر :

نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية .

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٧) .

- توماس أرنولد :

الدهوة إلى الإسلام

ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد طه بدین واسماعيل النحر اوى .

(القاهرة ١٩٥٧)

ابن الحاج :

المدخل — أربعة أجزاء .

(القاهرة ١٩٢٩)

ابن حبيب :

درة الأسلاك في دولة الأتراك .

(مخطوط)

ابن حجر :

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .

(الهند ١٩٢٩)

أربعة أجزاء

حسن أحمد محمد :

الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا .

(الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٦٣)

حسن الباشا :

التصوير الإسلامى في العصور الوسطى

(القاهرة ١٩٥٩)

حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الأثرية

(القاهرة ١٩٤٦)

جزءان

الحالدى :

كتاب المقصد الرفيع للمها الحادى لديوان الإنها

(مخطوط)

- ابن خردادبة :

المسالك والممالك

(ليدن ١٨٨٩)

- الخطيب :

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان

(مخطوط)

- ابن خلدون :

العبر وديوان المبتدأ والخبر .

(بولاق ١٢٨٤ هـ)

- خليل بن شاهين الظاهري :

زبدة كهدف الممالك وبيان الطرق والمسالك .

(باريس ١٨٩١)

- ابن دقاق :

الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين

(مخطوط)

- ديمان :

الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى .

(القاهرة ١٩٥٣)

- رشيد الدين الهمذاني :

جامع التواريخ

نقله إلى العربية محمد صادق نفحات ومحمد موسى هندواي

وفؤاد عبد المعطي الصياد .

(القاهرة ١٩٦٠)

- زكى محمد حسن :

- ١ - فنون الإسلام (القاهرة ١٩٤٨)
- ٢ - أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية .
(القاهرة ١٩٥٦)

- ابن زابل :

آخرة الممالك.

نشره عبد المنعم عامر

(القاهرة ١٩٦٢)

- ديتر شمتين :

تاريخ سلاطين الممالك

(لندن ١٩١٩)

- سبط بن الجوزى

مرآة الزمان

(الهند ١٣٥١ هـ)

- السبكي :

معبد النعم ومعبد النعم

(لندن ١٩٠٨)

- السبكي :

طبقات الشافعية الكبرى ، ستة أجزاء

(القاهرة ١٣٢٤ هـ)

- السخاوى :

التبر المسبوك فى ذيل السلوك .

(القاهرة ١٨٩٦)

— السخاوى :

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .

(القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٣٦)

— سعاد ماهر :

عقود الزواج على المنسوجات الاثرية

(القاهرة ١٩٦٠)

— سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ — الحركة الصليبية (جزءان) (القاهرة ١٩٦٣)

٢ — قبرس والحروب الصليبية

(القاهرة ١٩٥٧)

٣ — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك .

(القاهرة ١٩٦٢)

٤ — مصر فى عصر دولة المماليك البحرية .

(القاهرة ١٩٥٩)

(القاهرة ١٩٦٣)

٥ — الظاهر بيبرس

— السيد الباز العربى :

الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك .

(القاهرة ١٩٥٦)

(القاهرة ١٩٢٦)

— مهرة الظاهر بيبرس (خمسون جزءاً)

— السيوطى :

تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله .

(القاهرة ١٣٥١)

— السيوطى :

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة

(القاهرة ١٨٨١)

— السيوطى :

غزوات قبرص ورودس .

(فينا ١٨٨٤)

— ابن شاكركى السكتى :

(مخطوط)

عيون التواريخ .

— ابن شاكركى السكتى :

فوات الوفيات .

(بولاق ١٨٨١)

جزءان

— أبو شامة :

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين

(القاهرة ١٢٨٧ هـ)

— ابن الهدى :

أخبار الأعيان فى جبل لبنان .

(بيروت ١٨٥٩)

— الشربى (يوسف بن محمد بن عبد الجواد) :

(بولاق ١٨٩٠)

هو القحوف فى شرح نصيدة أبى شادوف .

— الشعرانى :

لوائح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار

(القاهرة ١٨٨١)

جزءان

- صالح بن يحيى :
تاريخ بيروت
(بيروت ١٩٢٧)
- عبد الرحمن فهمى :
النقود العربية ، ماضيها وحاضرها .
(القاهرة ١٩٦٤)
- عبد اللطيف ابراهيم على :
١ — المكتبة المملوكية
٢ — دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر المماليك
(رسالة تحت الطبع)
- عبد الوهاب عزام :
محاسن السلطان الغورى .
(القاهرة ١٩٤١)
- ابن عرب شاه :
محاسن المقدور في أخبار تيمور .
(القاهرة ١٢٨٥ هـ)
- على ابراهيم حسن :
دراسات في تاريخ المماليك البحرية .
(القاهرة ١٩٤٨)
- حماد الدين الكاتب :
الفتح القسى في الفتح القدسى .
(القاهرة ١٣٢٢ هـ)

— العيني :

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

(مخطوط)

— العيني :

السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد

(مخطوط)

— أبو الفدا :

المختصر في أخبار البشر

١٤ جزءا

(القاهرة ١٣٢٥هـ)

— ابن الفرات :

تاريخ الدول والملوك

(بيروت ١٩٣٦-١٩٤٢)

— ابن فضل الله العمري :

التعريف بالمصطلح الشريف .

(القاهرة ١٣١٢هـ)

— ابن قاضي شهاب :

الإعلام بتاريخ أهل الإسلام

(قبل تاريخ الإسلام) .

(مخطوط)

— القليني :

صبح الأعشى في صناعة الإنشا

١٤ جزءا

(القاهرة ١٩١٣-١٩١٧)

— القيروان :

المونس في أخبار إفريقية وتونس

(تونس ١٢٨٦ هـ)

— ابن كثير :

البداية والنهاية .

أربعة أجزاء

(القاهرة : ١٣٥٨ هـ)

— أبو المحاسن (ابن تغري بردى) :

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي

ثلاثة أجزاء

(مخطوط)

— أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

رجعنا إلى طبعة دار المكتب المصرية حتى نهاية الجزء

الثاني عشر (٥٨٠٨) ، وبعد ذلك رجعنا إلى طبعة كاليفورنيا

لشعر ولیم ببر (كاليفورنيا ١٩٣١) .

— أبو المحاسن :

مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة .

(كبردج ١٧٩٢)

— محمد جمال الدين سرور :

١ — دولة الظاهر بيبرس

الطبعة الثانية

(القاهرة ١٩٦٠)

٢ — دولة بني فلان في مصر

(القاهرة ١٩٤٧)

— أبو محمد عبد الله باخرمه :

تاريخ نغر عدن

(لندن ١٩٣٦)

— محمد كرد علي :

خطط الشام

جزءان

(دمشق ١٩٢٥)

— محمد كمت التنبكتي :

تاريخ الفتاح في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس

(باريس ١٩١٢)

— محمد مصطفى :

١ — صفحات لم تنشر من بدائع الزهور لابن إياس

٢ — انظر ابن إياس .

— محمد مصطفى زيادة :

١ — نهاية السلاطين المماليك في مصر

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥١)

(٣٢ — العصر المملوكي)

٢ - المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس .

(مجلة الجيش ١٩٤٦)

٣ - حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة

(القاهرة ١٩٦١)

- محمود محمد عرفوس :

تاريخ القضاء في الإسلام

(القاهرة ١٩٣٤)

- محي الدين بن عبد الظاهر :

١ - الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية

الأشرفية . (القاهرة ١٩٢٠)

٢ - تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور

أشر مراد كامل (القاهرة ١٩٦١)

- المسعودي :

مروج الذهب (جزءان)

(باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧)

- مصطفى محمد مسعد :

الإسلام والنوبة في العصور الوسطى .

(القاهرة ١٩٦٠)

— مفصل بن أبي الفضائل :

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

(باريس ١٩١١)

— المقرئ :

١ — إعانة الأمة بكشف الغمة ؛ نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيبان .

(القاهرة ١٩٤٠)

٢ — البيان والإعراب حما بأرض مصر من الأعراب .

نشره وستنفلد (جوتنجن ١٨٤٧)

٣ — السلوك لمعرفة دول الملوك

نشره وحققه محمد مصطفى زيادة حتى نهاية سنة ١٢٥٥ هـ ؛
وبقية الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية .

٤ — شذور العقود في أخبار النقود .

(اسطنبول ١٢٩٨ هـ)

٥ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

طبعة بولاق في جزئين (١٢٧٠ هـ)

والطبعة الأهلية في أربعة أجزاء .

(القاهرة ١٩٠٧ م)

— نظير حسان معداوى :

نظام البريد في الدولة الإسلامية

(القاهرة ١٩٥٣)

— النويرى : (أحمد بن عبد الوهاب)
نهاية الأرب في فنون الأدب .

(مخطوط)

— النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد)
الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة
الاسكندرية (جزءان)

(مخطوط)

— ابن واصل :
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . نشره وحققه جمال الدين
الشيال حتى نهاية سنة ٦١٥ هـ . وبقية الكتاب مخطوط .

— ابن الوردى :

تاريخ ابن الوردى (جزءان)

(القاهرة ١٩٣٩)

تالياً : المراجع الأوربية :

— Allau :

The Cambridge Shorter Hist. of India.
(Cambridge, 1924)

— Alvarez :

Portugheus Embassy
(Glasgow, 1905)

— Arnold :

The Caliphate

— Atiya :

Egypt and Aragon
(Lepzig, 1938)

— Beazley :

Note Book of Med. History
(Oxford, 1917)

— Coulbeaux :

Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie.
(Paris, 1929)

— Demombynes :

La Syrie a l'époque des Mamelouks
(2 vols.)
(Beirouth, 1921)

— Demombynes :

Masalik Alabsar
(Paris, 1927)

— Diehl :

Venice
(Paris 1916)

- D'O Hsson :
Hist. des Mongols (4. Vol).
(Amsterdam, 1852)
- D'O Hsson :
Tableau de l'Empire Othman.
(Paris, 1824)
- Grousset :
Hist. des Croisades et du Royaume
Franc de Jerusalem (3 vol.)
(Paris, 1934)
- Hauteceour, et Wiet :
Les Mosquées du Caire.
(Le Caire, 1932)
- Heyd :
Hist. du Commerce de Levant au
Moyen Age. (2 vols).
(Leipzig, 1885)
- Hobson (R. L.) :
A Guide to the Islamic Pottery of the
Near East.
(London 1944)
- Howorth :
The Hist. of the Mongols (4. vols.)
(London, 1885)
- Ibrahim Salamaï :
L'Enseignement Islamique en Egyote.
- Joinville :
Hist. de Saint Louis
(Paris, 1874)
- Kammerer :
Le Regime et le Status des Etrangers en
Egypte
(Memoires de la S. R. G. d'Egypte —
Tome 15 — Le Caire. 1929.

- King:
The Knights Hospitallers in the Holy
(London, 1931)
- Lane—Poole :
A Hist. of Egypt in the Middle Ages.
(London, 1936)
- Lane—Poole :
Med. India Under Mohammadian Rule.
(London, 1912)
- Machaut :
La Prise de l'Alexandrie
(Geneve 1877)
- Mac. Michael :
Hist. of the Arabs in the Sudan.
(London, 1922)
- Makbizaras :
Recital Concerning the the Sweet Land of
Cyprus.
(Oxford, 1932)
- Marco Polo :
Travels. (2 vols)
(London, 1903)
- Piloti :
L'Egypte au Commencement du Quinzieme
Siecle.
(Le Caire, 1939)
- Quatremere :
Memoire sur l'Egypte. Hist. de Sultans
Mamlouks de l'Egypte — 2 vols.
(Paris, 1837—1845)
- Reinaud :
Traité de Commerce entre la republique
de Venice et les derniers sultans Mameloucs
d'Egypte.
(J. A. 2m Serie — Tome 4 — Paris, 1829)
- Ronciere :
La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age.
(S. R. G. d'Egypte, 1925)

- Runciman :
A Hist. of the Crusades (3 vols.)
(Cambridge, 1957)
- Schefer :
Le Voyage d'Outremer de Jean Thénau.
(Paris, 1864)
- Schlumberger :
Prise de Saint Jean d'Acre En l'an 1291
Par l'armée de Soudan d'Egypte.
(Paris, 1914)
- Setton :
A Hist. of the Crusades
(Pennsylvania, 1958)
- Stevenson :
The Crusaders in the East.
(Cambridge, 1907)
- Van Berchem :
Titres Califiens
(J. A. 1907)
- Wiet :
L'Egypte Arabe
(Paris, 1926)
- Wiet :
Lampes et Bouteilles en Verre émaillé
Catalogue General du Musée Arabe du
Caire.
(Le Caire, 1929)
- Wiet :
Objets en Cuivres: Catalogue Genral du
Musée Arabe du Caire.
(Le Caire, 1932)
- Ziada :
Foreign Relations of Egypt in the 15 th
Century.
(Thesis).

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة ج - ر

الفصل الأول : قيام دولة المماليك في مصر ١

- انشاء نظام المماليك في الدولة الإسلامية (ص ١) - اوريداد
- نفوذ المماليك في عصر الأيوبيين (ص ٢) - المماليك
- البحرية (ص ٤) - المماليك البحرية وإنزال الهرمية
- بالفرنسيين (ص ٧) - نهاية الدولة الأيوبية في مصر (ص ٩) -
- السلطنة شجر الدر (ص ١١) - السلطان المعز أيك
- (ص ١٥) - السلطان المنصور على بن أيك (ص ٢٢) .

الفصل الثاني : المماليك والتتار ٢٦

- سقوط الخلافة العباسية في بغداد (ص ٢٦) - التتار في
- الشام (ص ٢٨) - السلطان المنصور قطز (ص ٣٠) -
- موقعة عين جالوت (ص ٣٢) - توحيد مصر والشام
- (ص ٣٦) - السلطان الظاهر بيبرس (ص ٣٨) - علاقة
- المماليك بتتار فارس بعد بيبرس (ص ٤٦) .

الفصل الثالث : المماليك والصليبيون ٥٢

- الشرق الأدنى بين خطرين (ص ٥٢) - لويس التاسع
- في بلاد الشام (ص ٥٥) - الظاهر بيبرس والاستيلاء
- على أنطاكية (ص ٥٨) - أبناء الظاهر بيبرس (ص ٦٦)

صفحة

السلطان المنصور قلاون والصليبيون (ص ٦٩) - السلطان
الأشرف خليل بن قلاون (ص ٧٣) - طرد البقايا الصليبية
من الشام (ص ٧٤) .

الفصل الرابع : المماليك والنوبة ٧٧

مصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك (ص ٧٧) - السلطان
الظاهر بيبرس والنوبة (ص ٨٠) - السلطان المنصور
قلاون والنوبة (ص ٨٤) - السلطان الأشرف خليل
والنوبة (ص ٩٢) - السلطان الناصر محمد والنوبة
(ص ٩٨) - العلاقة بين دولة المماليك والنوبة في أواخر
المنصور الوسطى (ص ١٠٠) .

الفصل الخامس : بيت قلاون ١٠٣

السلطان الأشرف خليل بن قلاون (ص ١٠٥) - السلطان
الناصر محمد بن قلاون (ص ١٠٧) - السلطان العادل كتبغا
(ص ١١٠) - السلطان المنصور لاجين (ص ١١٣) - سلطنة
الناصر محمد الثانية (ص ١١٥) - السلطان المظفر بيبرس
الجامشكير (ص ١١٨) - سلطنة الناصر محمد الثالثة
(ص ١٢٢) - عصر أولاد الناصر محمد (ص ١٢٥) -
الوباء الأسود (ص ١٣٢) - عصر أحفاد الناصر محمد
(ص ١٣٤) - حملة بطرس لوردجنان على الإسكندرية
(ص ١٣٥) .

صفحة

الفصل السادس : دولة الممالك الجراكسة ١٤٠

- أصل الممالك البرجية وتكوينهم (ص ١٤٠) - ظهور
- الممالك البرجية على مسرح الحوادث (ص ١٤٣) - ازدياد
- نفوذ الجراكسة (ص ١٤٩) - برقوق وتأسيس دولة
- الممالك الجراكسة (١٥١) - خصائص دولة الممالك
- الجراكسة (ص ١٥٨) - السلطان الظاهر برقوق (ص ١٦٠) -
- تيمورلنك ودولة الممالك (ص ١٦٤) - عصر أبناء
- برقوق (ص ١٦٦) - السلطان المؤيد شيخ الحمودي
- (ص ١٦٢) - السلطان الأشرف برسباي وفتح قبرس
- (ص ١٦٩) - السلطان الظاهر جقة قى وغزو رودس
- (ص ١٧٧) - دولة الممالك في أواخر أيامها
- (ص ١٨٠) - السلطان الأشرف قانصوه الغوري
- (ص ١٨٥) - سقوط دولة الممالك (ص ١٨٧) .

الفصل السابع : بلاد القام في عصر سلاطين الممالك ٢٠٠

- امتداد نفوذ الممالك إلى الشام (ص ٢٠٠) - التقسيم
- الإداري لبلاد القام في عصر الممالك (ص ٢٠٥) -
- المجتمع الشامي في عصر الممالك (ص ٢١٣) - ثورات
- القام في عصر الممالك (ص ٢٢٠) أثر ثيابات القام
- في أحوال دولة الممالك (ص ٢٣٠) .

ملحة

الفصل الثامن : العلاقات الخارجية ٢٣٣

الممالك ومغول القفجاق (ص ٢٣٤) - الممالك والدول
الإسلامية في آسيا (ص ٢٣٧) - سلطنة الممالك والدول
الإسلامية في شمال أفريقية (ص ٢٤٣) - العلاقة بين
سلطنة الممالك والسودان الغربى (ص ٢٥٠) - العلاقة
بين سلطنة الممالك والحبشة (ص ٢٥٣) - العلاقة بين
سلطنة الممالك ودول التركان (ص ٢٦١) - الممالك
والعثمانيون (ص ٢٦٦) - الممالك والدولة البيزنطية
(ص ٢٧١) - سلطنة الممالك والقوى الأوروبية (ص ٢٧٥) .

الفصل التاسع : النشاط الاقتصادى ٢٨٤

الزراعة (ص ٢٨٤) - الصناعة (ص ٢٨٨) - التجارة
الخارجية (ص ٢٩٢) - التجارة الداخلية (ص ٣٠٨) -
المالية العامة (ص ٣١٠) - السياسة النقدية (ص ٣١٥) .

الفصل العاشر : الأحوال الداخلية ٢٢٠

بناء المجتمع (ص ٢٢٠) - ثورات العربان (ص ٢٢٦) -
الحياة فى المدن (ص ٢٣٠) - الثورات والفن السياسية
(ص ٢٣٥) - المجاعات والأوبئة (ص ٢٣٧) .

الفصل الحادى عشر : الحياة العلمية والدينية ٣٤١

النشاط العلمى فى عصر الممالك (ص ٣٤١) - المدارس
والمكتبات (ص ٣٤٢) - المكتبات (ص ٣٤٥) -
المبكانب (ص ٣٤٧) - النشاط الدينى (ص ٣٤٨) -

ملحوظة

التصوف والروايا (ص ٣٥١) - الخلافة العباسية
(ص ٣٥٤)

الفصل الثاني عشر : نظم الحكم والقضاء ٣٦٠
النظام الإقطاعي (ص ٣٦٠) - السلطان (ص ٣٦٣) -
النظام الإداري (ص ٣٦٦) - الدواوين (ص ٣٧١) -
القضاء والمظالم (ص ٣٧٨) .

الفصل الثالث عشر : الفنون ٣٨٣
العمارة (ص ٣٨٥) - الرسم والتصوير (ص ٣٨٧) -
النحت والحفر (ص ٤٠٣) - الفنون الصغرى (ص ٤٠٥)

كشف شرح أم المصطلحات

الواردة في مراجع العصر المالكي ٤٨٦-٤٠٩
المراجع ٤٨٧-٥١٢

فهرس الخرائط

صفحة

- ١ - بلاد الشام والجزيرة في العصر المماليكى ٦١
- ٢ - ملكة النوبة المسيحية ٩٣
- ٣ - قبرس في العصور الوسطى ١٧١
- ٤ - دولة المماليك في أقصى اتساعها ٢٥٥

فهرس الصور

- ١ - جامع السلطان حسن بالقاهرة ١٢٩
- ٢ - مبشرة من عصر المماليك ٢٩٣
- ٣ - صورة غزال على إناث من خرف ٣٨٩
- ٤ - إناث من الزجاج المموه بالمينا ٣٩١
- ٥ - ثريا من النحاس ٣٩٣
- ٦ - سيفان من الصلب المكفث بالذهب ٣٩٧
- ٧ - مشكاة من الزجاج ٣٩٩

للمؤلف

- ١ - قبر من والحروب الصليبية ١٩٥٧
 - ٢ - أوروبا العصور الوسطى ،
الجزء الأول - التاريخ المباسى
الطبعة الثالثة ١٩٦٤
 - ٣ - أوروبا العصور الوسطى .
الجزء الثاني - النظم والحضارة
الطبعة الثانية ١٩٦٣
 - ٤ - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ١٩٥٩
 - ٥ - الجامعات الأوربية في العصور الوسطى . ١٩٥٩
 - ٦ - النهضة الأوربية في العصور الوسطى وبداية الحديثة ،
بالاشتراك
الطبعة الثانية ١٩٦٠
 - ٧ - المجتمع العربى
بالاشتراك مع مجموعة من أسانذة جامعه القاهرة ١٩٦٢
 - ٨ - الظاهر بيبرس . ١٩٦٣
 - ٩ - المدية الإسمعية وأثرها فى الحضارة الأوربية . ١٩٦٣
 - ١٠ - المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . ١٩٦٣
 - ١١ - الحركة الصليبية -- جزءان : ١٩٦٣
 - ١٢ - ثورة شعب . ١٩٦٤
 - ١٣ - العصر المماليكى فى مصر والشام . ١٩٦٥
- القائمة تسير ...

